[من المحرر]

إعدت المجلة ملفاً متواضعاً عن صمود دار السلام والإباء بوجه عدد من موجات الغزو الاجنبية التي تحطمت على صخرة جدار العراق العظيم ، الى جانب استعراض أدبي عن شعر الجهاد العربي الذي كان الغطاء الاعلامي والفني لذلك الجهاد الكريم ، ولتلك الانتصارات الجليلة الباهرة .

اننا اذ نعيش هذه الايام الجهادية الرائعة ، فانما نستلهم ايمان السلف ، وبطولاتهم في مواجهة الطاغوت الامبريالي الصهيوني ، وما هذه الا صفحات مشرقات من كتاب الامة الذي يضم بين دفتيه إيام العرب ومآثرهم .

وكل عام وبغداد بالف خير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الافتتاحية

ثقافة الذات ووعي الاخر

بخطى ثابتة رصينة تمضي مجلة المورد قدماً في اداء رسالتها القومية في نشر التراث العربي الإسلامي بما يؤسس لبنة في بناء صرح الأمة الحضاري ، عاقدة العزم على تعميق الرؤى العصرية ، وبلورة زوايا البحث السليم ، واكتشاف ما لم تعالجه الأقلام - من قبل - من موضوعات وجوانب تراثية في مختلف ميادين المعرفة والعلوم .

إن مرحلة المخاض الراهن التي تعيشها الأمة ، تستلزم البحث الدؤوب ، من اجل ثقافة عربية معاصرة تعمق وعي الانسان العربي لذاته ، وتكرس هويته القومية قصد وعي الاخر وعياً حقيقياً في عصر يتقدم سريعاً غير آبهٍ بمن يتساقطون من حوله ممن افتقدوا الرؤيا وعزّت عليهم الرؤية .

رئيس التحرير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المقاومة العربية للتحدي السلجوقي

٤٤٧ هـ - ٥٩٠ هـ / ١٠٥٥ م - ١١٩٣ م

أ . د . عبد القادر سلمان المعاضيدي
رئيس قسم التاريخ
جامعة بغداد / كلية التربية / ابن رشد

يصف ابن العبري السلاجقة بقوله : « فكانما سل طين السلاطين من جفن الجفاء ، وجبلت جبلتهم على الاغفال والاغفاء ، فالرحم عندهم مقطوعة ، والعزّة في خدمتهم بالذل مشفوعة ، والاغترار بهم غرر ، وصفوهم كدر ، يقسمون ويحنثون ، ويبرمون وينكثون » .

تاريخ مختصر الدول ٢٤٣

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ظهور السلاجقة ودخولهم بغداد

السلاجقة من القبائل التركية[1] ، كانوا يسكنون اقصى اقليم تركستان ، ثم بدأوا بالهجرة على شكل موجات واستقروا في اقليم ما وراء النهر وخراسان في القرن الرابع للهجرة / العاشر الميلادي[2] . وقد عرفوا بالسلاجقة نسبة الى قائدهم سلجوق ابن دقاق ، الذي وحد شملهم تحت زعامته[3] .

اشتهر سلجوق بالشجاعة فقربه ملك الترك اليه ولقّبه « سباشي » ، ومعناه في التركية : « قائد الجيش »[4] ، الا ان ملك الترك كان قد خاف من ازدياد نفوذ سلجوق وتطلعه الى السلطة فتغير عليه ، فسار سلجوق على رأس قبيلته ونزل بجوار السامانيين[5] ، والخانيين[6] ، والغزنويين[7] واعتنقوا الاسلام[8] .

وقد أدى اعتناقهم للاسلام الى التقريب بينهم وبين السامانيين ، فلما ساعدوا السامانيين في حروبهم مع اعدائهم الخانيين سمحوا لهم بالاقامة على مقربة من شاطىء نهر سيحون ، فاتخذوا مدينة « جند » مقرا لهم[9] .

بعد وفاة سلجوق بن دقاق انتقلت الرئاسة الى اكبر ابنائه بيغو ارسلان (اسرائيل) ، وفي عهده افاد السلاجقة من زوال الدولة السامانية سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٨ م فوسعوا رقعة بلادهم[10] ، الا ان السلطان الغزنوي محمود بن سبكتكين كان قد ادرك قوة السلاجقة وخطرهم على دولته ، فاراد ان يضعفهم ، وكان قد لجأ الى الحيلة في تحقيق غرضه ، فالقى القبض على رئيسهم ارسلان بن سلجوق وابنه قتامش وثلاثمائة قائد من جندهم ، وقد تم حبس ارسلان في قلعة كالينجار ، وبقي فيها الى ان توفي[11] وعلى اثر هذه الحادثة انتقل السلاجقة الى اقليم خراسان في

سنة ٤١٦ هـ/ ١٠٢٥ م[١٢] ثم اخذوا يدعمون قواتهم ويتحينون الفرص للقضاء على الدولة الغزنويه في خراسان واقليم ما وراء النهر[١٣] . وبعد ان اشتبك السلاجقة والغزنويون الذين كانوا بقيادة السلطان مسعود بن محمود في معارك عدة تبادل فيها الطرفان النصر والهزيمة[١٤] استطاع السلاجقة في سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م ان يهزموا الغزنويين في معركة حامية عند « سرخس »[١٥] ، سار على اثرها طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق الذي آلت اليه زعامة السلاجقة الى مدينة « نيسابور » ودخلها واعلن قيام دولة السلاجقة في هذه السنة نفسها . وامر ان يخطب له على المنابر باسم السلطان الاعظم ، وان تضرب النقود باسمه[١٦] .

وسوف نرى من خلال البحث ان قيام هذه الدولة كان حدثا جديدا في التاريخ العربي الاسلامي ، فلم تلبث هذه ان سيطرت على جزء كبير من الوطن العربي والعالم الاسلامي ثم لعبت دورا رئيسا في توجيه سير الاحداث فيها .

لقد ادرك السلطان مسعود الغزنوي خطورة الكيان السلجوقي الجديد على دولته فتوجه على راس جيش كبير فالتقى الطرفان في معارك عدة انتهت بانتصار السلاجقة عند « داندانقان » سنة ٤٣١ هـ/ ١٠٣٩ م وقد ادّى هذا الانتصار الى قوة السلاجقة من جهة ، وضعف الغزنويين من جهة اخرى[١٧] .

وبعد ان اتخذ طغرلبك مدينة الري مركزا اداريا لدولته الجديدة ، ووزع الولايات على ابناء البيت السلجوقي[١٨] ، بعث في سنة ٤٣٢ هـ/ ١٠٤٠ م رسالة الى الخليفة العباسي القائم بامر الله أكد فيها ولاءه له وطلب منه ان يعترف بقيام دولته لان مثل هذا الاعتراف يكسب الكيان السلجوقي الصفة الشرعية في حكم الاقاليم التي استولى عليها السلاجقة[١٩] . وقد اشارت المصادر الى تبادل عدد من الرسائل بين السلطان السلجوقي طغرلبك والخليفة القائم بامر الله في الحقبة الممتدة بين ٤٢٩ - ٤٤٧ هـ/ ١٠٣٧ - ١٠٥٥ م اكد فيها السلاجقة ولاءهم واحترامهم للخليفة والتصدي لاعداء الخلافة[٢٠] .

كانت الخلافة العباسية عند ظهور السلاجقة تحت سيطرة البويهيين الذين كانوا قد سلبوا السلطة من الخلفاء وشاركوهم في امتيازاتهم ، بحيث لم يبق للخليفة في عهدهم الا نفوذه الديني ، وقد حاول الامراء البويهيون سلب هذا النفوذ من الخليفة ايضا[٢١] . كما ازداد نفوذ القائد التركي ابو الحارث البساسيري الذي عيّنه الخليفة القائم بامر الله رئيسا للجند الاتراك في بغداد ، حيث خطب له في عدد من مدن العراق والاحواز ، وجبى الاموال ، واتصل بالفاطميين ، وعزم على القبض على الخليفة ونهب دار الخلافة ، كما انه كان على خلاف مع الوزير البويهي ابن المسلمة ، فادّى ذلك الى عدم رضى الخليفة عنه[٢٢] . هذا وان الدولة البويهية كانت قد ضعفت من جراء النزاع بين ابناء البيت البويهي على السلطة[٢٣] وكان آخر الامراء البويهيين ابو نصر خسرو فيروز ، الملقب بالملك الرحيم حاكما ضعيفا يقيم في مدينة واسط لانه لم يمتلك قوة واقتدارا امام القائد التركي البساسيري الذي استبد ببغداد[٢٤] . كما ان الفاطميين كانوا قد نجحوا في استمالة آخر الامراء البويهيين ابي علي بن ابي كاليجار ، الذي كان على راس السلطة البويهية في المشرق[٢٥] . كما كان هناك خطر يهدد الخلافة العباسية من ناحية الدولة الفاطمية ، فبعد ان استولى هؤلاء على مصر والشام حاولوا ان يستولوا على العراق والمشرق وفضلا عن ذلك فان الفتن الطائفية كانت قائمة في بغداد ومدن العراق الاخرى ، وذلك من جراء سياسة البويهيين الذين اتخذوا من الدين غطاء لهم لتحقيق اهدافهم السياسية[٢٦] .

يتبين مما تقدم ان الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الدولة العربية كانت سيئة ، وهذا - بلا شك - هو الذي ادى الى ان يظهر الخليفة العباسي القائم بامر الله رغبته في التقرب من السلاجقة والتعاون معهم ، وذلك كي يتجاوز الصعاب التي واجهته في ظل السيطرة البويهية ، فانفذ في سنة ٤٣٥ هـ/ ١٠٤٣ م قاضي القضاة ابا الحسن الماوردي الى السلطان طغرلبك السلجوقي وهو يحمل الخلع السلطانية التي منحها له الخليفة العباسي مع كتاب التفويض بحكم البلاد التي كان قد استولى عليها[٢٧] .

لقد ادرك السلطان السلجوقي طغرلبك تردي الاوضاع في الدولة العربية ، فاراد ان يحقق هدفه القائم على السيطرة على العراق ومن ثم السيطرة على الوطن العربي ، فاظهر انه يريد الحج واصلاح طريق مكة المكرمة ثم التقدم نحو الشام ومصر والقضاء على الدولة الفاطمية هناك ، فلما اقترب من بغداد وجه وفدا يحمل رسالة الى الخليفة القائم بامر الله تضمنت الدعاء للخليفة والطاعة والتاييد له ، وان السلطان يستاذنه بدخول بغداد وهو في طريقه الى مكة المكرمة ، فاذن له الخليفة وامر الخطباء في المساجد باقامة الخطبة له بعد اسمه ، وكان ذلك في اواخر رمضان سنة ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م[٢٨] فلما دخل بغداد رفض سكان هذه المدينة دخول السلاجقة واصطدموا بالجند السلجوقي ، ووقع من جراء ذلك عدد من القتلى والجرحى من الطرفين فاستاء من ذلك طغرلبك واتهم الامير البويهي ابو نصر خسرو فيروز الملقب بالملك الرحيم بتدبير ماحدث ، فالقى القبض عليه وعلى كبار امراء جند بغداد ، وقد عدّ الخليفة القائم بامر الله تصرف طغرلبك هذا خرقا للمواثيق والعهود التي اعطاها وذلك بعدم التعرّض للامير البويهي وكبار الجند قبل ان يدخل بغداد ، وقد اظهر الخليفة غضبه من اعمال السلاجقة ، وارسل الى طغرلبك قائلا : « انهم انما خرجوا اليك بامري وأماني ، فان اطلقتهم والا فانا مفارق البلد ، فاني انما اخترتك واستدعيتك

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اعتقادا مني ان تعظيم الاوامر الشريفة يزداد وحرمة الحريم تعظم وارى الامر بالضد) « اطلق طغرلبك سراح بعض امراء الجند ، الا انه ارسل الملك الرحيم مقيدا وسجن في قلعة بالري ، وبذلك انتهت فترة السيطرة البويهية على العراق وبدأت فترة السيطرة السلجوقية[٢٩] .

وسنحاول في هذا البحث ان نلقي الضوء على الرفض العربي للوجود الاجنبي ومقاومته والتخلص منه ، وفي رأينا ان اسباب ذلك تتلخص فيما يلي :

١ ـ السياسة السيئة التي اتبعها السلاجقة مع الخلفاء :

لقد ازداد نفوذ السلاجقة في العراق واستأثروا في الحكم دون الخلفاء ، فبعد ان استرجع السلطان طغرلبك الموصل من ابي الحارث البساسيري وولى أخاه ابراهيم ينال ، حاكما عليها ، عاد الى بغداد سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٨ م ، وبعد ان فوضه الخليفة في حفل خاص بقوله[٣٠] : « ان امير المؤمنين حامد لسعيك شاكر لفضلك آنس بقربك .. وقد ولاك جميع ما ولاه الله تعالى من بلاده ورد اليك فيه مراعاة عباده فاتق الله فيما ولاك واعرف نعمته عليك ، وعبدك في ذلك واجتهد في عمارة البلاد ، وصلاح العباد ونشر العدل وكف الظلم » . وقد انفرد طغرلبك بمقتضى هذا التفويض بالحكم ، واتخذ السلاطين السلاجقة في هذا التفويض فيما بعد سبيلا للاستئثار بالحكم والحد من سلطة الخلفاء ، بحيث لم يعد للخليفة العباسي في ظل « التسلط السلجوقي » من الامر الا الاسم ، لا يتعدى حكمه بابه ولا يتجاوز جنابه » ، كما يقول صاحب كتاب النبراس[٣١] . كما حاول السلطان طغرلبك ان يتزوج ابنه الخليفة القائم بامر الله[٣٢] ، كما حاول السلطان ملكشاه نقل مركز الخلافة العباسية الى مدينة « اصبهان »[٣٣] . وفي سنة ٥٢ هـ / ١٠٣٤ م تمكن السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه من اسر الخليفة المسترشد بالله بعد معركة جرت بين الجيش السلجوقي وجيش الخلافة في « دايمرج » ، وبعد ان تم الصلح بين الطرفين عزل الخليفة بخيمة ثم اوعز السلطان الى جماعته بقتله فتم قتله ، وقد وجه السلطان مسعود الامير السلجوقي « بك آبه المحمودي » الى بغداد وعينه شحنة هناك وامره بمصادرة جميع املاك الخليفة وغلاتها[٣٤] ، كما امره بمصادرة دور الضرب وموارد الجوالي ، والتركات وغلات العقار[٣٥] ، كما صادر السلاجقة اموال الخليفة الراشد بالله واقطاعاته[٣٦] . وعندما اسند السلاجقة الخلافة الى المقتفي لامر الله سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م ، اخذوا جميع ما كان في دار الخلافة من مال واثاث وخيل وبغال ولم يتركوا في الاصطبل الخاص غير اربعة من الخيل وثلاثة من البغال برسم الماء كما يقول ابن الجوزي[٣٧] .

وفضلا عما تقدم ، فقد تجاوز السلاطين السلاجقة على امتيازات الخلفاء ، حيث شاركوهم في الخطبة[٣٨] ، كما شاركوا الخلفاء في السكة[٣٩] .

٢ ـ السياسة السيئة التي اتبعها السلاجقة مع ابناء الشعب العربي :

لما احتل السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م اعتدى جندهم على السكان وسقط عدد من القتلى والجرحى ، كما نهب الجند السلجوقي الاسواق والبيوت واقترفوا جرائم كثيرة[٤٠] . مما حمل الخليفة القائم بامر الله على ابلاغ السلطان طغرلبك استياءه من تلك الافعال[٤١] . وفي سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م نزل الجند السلجوقي في دور السكان في بغداد « وغلبوهم على اقواتهم ، وارتكبوا منهم كل محظور » ، فلما بعث الخليفة الى السلطان يعلمه بذلك كان رد السلطان هو انه غير قادر على ضبطهم ومنعهم وذلك لكثرتهم[٤٢] .

وكانت اعتداءات الجند السلجوقي على اهل بغداد تتكرر كلما دخلوا هذه المدينة[٤٣] . ومن جراء النزاع بين ابناء البيت السلجوقي حول السلطنة ، اصبح العراق ساحة قتال للاطراف المتنازعة مما ادى الى وقوع الضرر في المزروعات وممتلكات السكان من جراء نهب العساكر السلجوقية في اثناء احتلالهم ومرورهم في مدن ومزارع العراق[٤٤] ، كما كثر الغلاء من جراء هذا النزاع في العراق[٤٥] . كما ان اضطراب الاوضاع العامة في العراق في هذا العهد ادى الى تقلص التجارة ، وذلك لان التجار الاجانب لم يدخلوا العراق خوفا من النهب مما ادى الى غلاء الاسعار[٤٦] .

وكان السلاجقة عندما تشتد بهم الازمات المالية يقومون بفرض ضرائب ثقيلة وقاسية على السكان[٤٧] ، وقد ادى نظام الاقطاع الذي طبقه السلاجقة الى تدهور الحياة الاقتصادية في العراق ، فقلة خبرتهم الاقتصادية ادت الى فراغ الخزينة ، فلم يعد بمقدورهم دفع رواتب الجند ، مما ادى الى توزيع الاقطاعات على امراء جندهم لياخذوا رواتبهم من وارداتها ويدفعوا الى خزانة السلطان مبلغا من المال سنويا ، ويقدموا له المساعدات العسكرية وقت الحاجة[٤٨] ، وقد استغل المقطعون الزراع والفلاحين وأساءوا اليهم[٤٩] ، حيث فرضوا عليهم رسوما اضافية ، واجبروهم على السخرة ، وكثر التجاوز عليهم فاضطر الكثيرون منهم الى ايجار اراضيهم طلبا للحماية ، كما ترك الكثير من الزراع والفلاحين الزراعة وهجروا قراهم نتيجة لظلم المقطعين[٥٠] ، وقد صحب ذلك اهمال لمشاريع الري مما ادى الى تكرر الفيضانات في العراق وتلف المحاصيل الزراعية[٥١] .

والجدير بالذكر هنا ، هو ان سياسة السلاجقة الاقتصادية

السيئة هذه كانت قد ادت الى غلاء الاسعار[٥٢]، ووقوع المجاعات، وانتشار الاوبئة والامراض[٥٣].

ومثلما مارس السلاجقة الغزاة سياسة سيئة مع سكان العراق، فقد اشارت المصادر الى انهم كانوا قد مارسوا السياسة نفسها مع ابناء الشعب العربي في الشام ومصر، فعندما احتل قائدهم اتز الخوارزمي دمشق في سنة ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٥ م «نزل باهلها منه قوارع البلاء، واشتداد البلاء من انزال دورهم واخراجهم منها واغتصاب املاكهم، والقبض لها، واستعمال سوء السيرة وخبث النية والسريرة، وتواصلت الدعوات عليه من سائر الناس وعلى اصحابه واتباعه في جميع الاوقات واعقاب الصلوات والرغبة الى الله تعالى ذكره باهلاكه وتعفيه آثاره» كما يقول ابن القلانسي[٥٤]. ويذكر لنا ابن النديم اعمال النهب والسلب والقتل التي قام بها جند القائد السلجوقي افشين في الشام سنة ٤٧٢ هـ/ ١٠٧٩ م حيث قال بهذا الصدد[٥٥] «ووصل رفنيه، وفيها جماعة كثيرة من التجار والقوافل، متوجهين الى طرابلس، فهاجمها بغتة، وقتل ممن كان بها جماعة، واستباح اموالهم وحريمهم .. وسار فنزل قسطون، فجرى امرها في النهب والعقوبة مجرى رفنيه، ثم تنقل وعسكره بالمنجنيقات على ابراج جبل السمّان وغيرها حتى لم يبق بها موضع ولا برح الا افتتحه واهلكه، واستباح حريمهم واولادهم .. وسار فنزل ضياع معرة النعمان الشرقية بالمنجنيقات، ففتح ابراجها وحصونها بالسيف، واخذ ما لايمكن احصاؤه، وغلب اهلها فهلك منهم خلق .. وانتقل الى عمل معرة النعمان ففعل مثل ذلك، وسار الى معتارج ـ من بلد كفر طاب ـ فتحصن اهلها في ابراجها وتعذرت عليه فاحرقها، وهلك جميع من كان فيها .. وحين رجع افشين من الشام ولم يبق في اعمال حلب ضيعة مسكونة من بلد المعرة الى حلب، توجه الى بلد انطاكية فخرّب ما قدر عليه ونهب وسبى ما وجده وحمل اليه من انطاكيه مال، وتوجه الى الشرق بعد امتلاء صدره وصدر عسكره من النهب»، ويستطرد ابن العديم في وصف حال اهل الشام فيقول: «وجرى من هذا الحادث بالشام امر لم يسمع بمثله، وتلف اهله بعد ذلك بالجوع، ووجد قوم قد قتلوا قوما واكلوا لحومهم، وبيعت الحنطة ست ارطال بدينار وما سوى ذلك بالنسبة. وجلا من سلم من الشام الى بلد شرف الدولة ابي المكارم مسلم بن قريش، فاحسن اليهم وتصدق عليهم، وكان ذلك الاحسان منه اكبر الاسباب في تملكه حلب»، ولما وصل القائد السلجوقي اتسنز الخوارزمي الى مصر سنة ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦ م «اقام نيفا وخمسين يوما يجمع الاموال ويسبي الحريم ويذبح الاطفال» كما يقول سبط بن الجوزي[٥٦].

مقاومة امارة بني عقيل في الموصل[٥٧]

لما دخل السلطان طغرلبك السلجوقي بغداد سنة ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م، امر بابعاد القائد ابي الحارث البساسيري عن العراق، فسار البساسيري الى الرحبة واقام بها[٥٨]. وبعد ان استطاع البساسيري ان يجهز جيشا كبيرا سار نحو الموصل، فلما علم السلاجقة وقريش بن بدران العقيلي امير بني عقيل في الموصل خرجوا لملاقاته. فاشتبك الفريقان في معركة حامية عند «سنجار» انتصر فيها البساسيري، وعلى اثر هذه المعركة انحاز قريش بن بدران الى البساسيري وسار معه الى الموصل[٥٩].

وفي رأينا ان تعاون الامير العقيلي مع البساسيري يمثل رد الفعل العربي ضد التسلط الاجنبي[٦٠].

لما بلغت هذه الانباء السلطان طغرلبك سار على رأس جيش كبير نحو الموصل واستولى عليها في سنة ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م، ثم عهد بادارتها الى اخيه ابراهيم ينال، وعاد الى بغداد سنة ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م[٦١]، الا ان ابراهيم ينال كان قد اعلن العصيان على اخيه السلطان طغرلبك وغادر الموصل سنة ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م متوجها الى المشرق[٦٢] سار قريش بن بدران العقيلي والبساسيري على راس قوة نحو الموصل، وتمكنا من استعادتها من السلاجقة بعد حصار دام اربعة اشهر[٦٣].

انتهز قريش العقيلي والبساسيري فرصة خروج السلطان طغرلبك من بغداد متوجها الى همدان للقضاء على تمرد اخيه فسارا نحو بغداد واستوليا عليها في سنة ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م[٦٤].

والجدير بالذكر هنا ان الخليفة القائم بامر الله العباسي كان قد استجار في اثناء القتال بقريش بن بدران العقيلي فامنه[٦٥]، وحمله راكبا الى معسكره ثم سلمه الى ابن عمه مهارش المجلي العقيلي امير «حديثة عنه» فاقام عنده هناك هو واهله[٦٦]، وقد تحمل مسؤولية ذلك امام البساسيري الذي كان رايه هو ان يرسل الخليفة الى مصر ويسلمه الى المستنصر بالله الفاطمي[٦٧]. وهذا يدل على ان الامير العربي كان متمسكا بالقيم العربية حتى في اثناء نزاعه مع اعدائه.

ولما تم لطغرلبك القضاء على تمرد اخيه سار نحو العراق، ثم كتب الى الامير قريش العقيلي يطلب منه اعادة الخليفة الى بغداد[٦٨]، الا ان قريش اراد ـ على ما يبدو ـ ان يحول دون عودة السلاجقة الى العراق، ويتبين ذلك من رسالته التي بعث بها الى الامير مهارش العقيلي امير «حديثة عنه» يقول فيها[٦٩]: «اودعنا الخليفة عندك ثقة بامانتك، ليتكف بلاء الغزاة عنا، والان فقد عادوا، وهم عازمون على قصدك، فارحل انت واهلك الى البرية، فانهم اذا علموا ان الخليفة عندنا في البرية لم يقصدوا العراق ونحكم عليهم بما نريد». الا ان الامير مهارش العقيلي كان محافظا على عاداته وتقاليده العربية القائمة على الالتزام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالعهود والمواثيق ، فكتب الى قريش قائلا : « كان بيني وبين البساسيري عهود ومواثيق نقضها ، وان الخليفة قد استحلفني بعهود ومواثيق لا مخلص منها » ، فاوفى بعهده الى الخليفة العباسي وسار بصحبته الى بغداد(٧٠) . وكان السلطان طغرلبك قد سبق مجيء الخليفة الى بغداد ، فلما وصل الخليفة في اواخر شهر ذي القعدة سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م بغداد استأذنه في المسير الى البساسيري الذي كان مقيما في مدينة واسط(٧١) . فلما علم البساسيري خرج على رأس قوة ودارت معركة حامية بين الفريقين عند الكوفة في ذي الحجة من سنة ٤٥١ هـ / كانون الثاني ١٠٥٩ م . انتهت بمقتل البساسيري ، فتم بذلك للسلطان طغرلبك القضاء على حركته(٧٢) .

حاول الامير مسلم بن قريش العقيلي الذي تولى الامارة بعد وفاة والده ان يطبق سياسة الامارات العربية القائمة على استغلال النزاع القائم بين ابناء البيت السلجوقي على السلطنة ومساعدة بعضهم على بعض لتوسيع شقة الخلاف بينهم واضعافهم والتخلص من سيطرتهم . فوقف في سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٧٣ م الى جانب السلطان ملكشاه بن الب ارسلان ضد عمه قاورد ، وقد لعب الجند العقيلي دورا كبيرا في الحروب التي جرت بين الطرفين الا ان ملكشاه نكث عهده مع العقيليين واتفق مع عمه ضدهم ، فاوقعوا في صفوف الجند العقيلي خسائر كبيرة(٧٣) .

وهكذا نجد ان المعاهدات والايمان لا قيمة لها عند السلاجقة الذين كان حكمهم قائما على الاطماع والاستئثار بالاموال .

وعندما تكرر حصار تتش بن ارسلان السلجوقي لمدينة حلب . راسل اهل هذه المدينة الامير مسلم العقيلي ليسلموا اليه المدينة ، فكان الامير مسلم يمدهم بالمساعدات اثناء حصار السلاجقة لمدينتهم ، فدخلها سنة ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م(٧٤) ، ثم اصبحت اعمال حلب التي كانت في ايدي اصحاب تتش من ممتلكات الامارة العقيلية(٧٥) .

وفي سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م اسند السلطان ملك شاه السلجوقي ولاية ديار بكر الى فخر الدولة بن جهير ، فاستنجد صاحبها ابو المظفر منصور بن مروان بالامير مسلم العقيلي ، فلما رأى ابن جهير اجتماعهما عليه طلب الصلح فلما بلغت هذه الانباء السلطان ملك شاه وجه ابن جهير على راس قوة كبيرة الى الموصل واستولى عليها . ثم سار السلطان ملكشاه على راس جيشه للاستيلاء على ممتلكات الامارة العقيلية ، الا أنه لما علم بخروج اخيه تتش عليه مطالبا بالسلطنة طلب الى مسلم العقيلي الصلح فاجابه الامير العقيلي الى ذلك وعاد الى الموصل(٧٦) .

ساءت العلاقة بين الامارة العقيلية والسلاجقة وذلك عندما استولى سليمان بن قتلمش السلجوقي على انطاكيه سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م فارسل الامير مسلم العقيلي الى سليمان يطلب منه ان يحمل اليه الاموال التي كان يؤديها حاكم انطاكيه الذي كان يحكمها نيابة عن العقيليين ويدفع لهم الاموال ، فلما رفض سليمان سار الامير مسلم العقيلي على رأس جيشه لاسترجاع انطاكيه من السلاجقة ، فلما بلغت هذه الانباء سليمان السلجوقي توجه على رأس قوة لملاقاته فدارت معركة حامية بين الطرفين قرب انطاكيه انتصر فيها السلاجقة وقتل الامير مسلم(٧٧) وبقتله انتهت مقاومة بني عقيل للسلاجقة وذلك لمجيء امراء ضعاف تنازعوا فيما بينهم على السلطة مما ادى الى استيلاء السلاجقة على الامارة العقيلية سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٥ م(٧٨) .

مقاومة الامارة المزيدية(٧٩)

لم نجد ما يشير الى قيام هذه الامارة بفعاليات سياسية كبيرة في بداية التسلط السلجوقي على العراق ، والراجح ان سبب ذلك يعود الى قوة الدولة السلجوقية في ايام السلاطين الب ارسلان ، وملكشاه الذي تعد وفاته سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م بداية لتفكك دولتهم وانقسام ابناء بيتهم ـ كما سنرى من خلال البحث ـ اما في فترة النزاع المستمر بين ابناء البيت السلجوقي حول السيطرة على السلطنة فاننا نجد ان بني مزيد كانوا قد استغلوا هذا النزاع فوقفوا مع بعض السلاطين من اجل تحقيق اهدافهم القائمة على توسيع نفوذهم من جهة ، واضعاف الدولة السلجوقية ومن ثم التخلص منها من جهة اخرى ، ففي سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م خرج صدقة بن منصور المزيدي عن طاعة السلطان بركيارق بن ملكشاه ، واعلن الخطبة في بلاده لاخيه السلطان محمد بن ملكشاه(٨٠) .

ويبدو ان هدف الامير صدقه من ذلك هو توسيع ممتلكات امارته على حساب ممتلكات الدولة السلجوقية ، فقد كان هذا الاسلوب يشكل احد اتجاهات رد فعل الامارات العربية في العراق على التسلط الاجنبي ـ كما سنرى ـ ففي سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م سار الامير صدقة الى مدينة « هيت » ودخلها وقد كانت من ممتلكات السلاجقة(٨١) . وفي هذه السنة سار نحو « واسط » ودخلها واقام فيها وعدل في اهلها ، واقام الخطبة للسلطان محمد ولشحنته ايلغازي في هذه المدينة . ثم ادخل اسمه في الخطبة بعد اسم السلطان(٨٢) .

والجدير بالذكر ان هذا الامير العربي كان متمسكا بالقيم العربية في اثناء نزاعه مع اعدائه ، فقد ذكر ابن الاثير ان صدقة عندما دخل واسط طلب منه القائد السلجوقي الامان فأمنه ولما حضر عنده أكرمه(٨٣) .

ولما استولى الاتراك على مدينة عنه سنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٣ م استنجد بالامير صدقة حاكمها العربي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكان من بني يعيش بن عيس بن خلاط ، فسار على راس جيشه وطرد الاتراك ثم رجع الى الحلة[٨٤] ، وهذا يدل على ان هذا الامير كان يدافع عن مصالح العرب آنذاك . وان الاتصال بين العرب في العراق كان قويا في هذه الفترة المتقدمة من تاريخ الامة العربية .

والظاهر ان السلطان محمد اراد ان يكون الامير صدقة حليفا له في نزاعه مع اخيه بركيارق في العراق[٨٥] . وان يوسع نفوذه على حساب ممتلكات بركيارق في العراق[٨٦] . فقد ذكر ابن الجوزي ان السلطان محمد « اذن له في اخذ البصرة » في سنة ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م[٨٧] . ولما استنجد حاكم تكريت بصدقه سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م سار اليها في هذه السنة نفسها وضمها لامارته[٨٨] .

اما عن العلاقة بين الامير صدقة والخليفة المستظهر بالله العباسي فقد كانت حسنة ، فقد ذكر ابن الجوزي ان الخليفة منح صدقه دار عفيف في بغداد ، واقطعه الانبار والفلوجة ، ودمما ، وخلع عليه خلعا لم تخلع على امير قبله ، واطلق عليه لقب ملك العرب[٨٩] . وفي سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م ساءت العلاقات بين الامير صدقه والسلطان محمد ، ويذكر ابن الجوزي ان سبب ذلك هو مطالبة السلطان لصدقه بان يسلمه « ابا دلف سرخاب بن كيخسرو حاكم ساوه وآبه » الذي التجأ اليه خوفا من السلطان ، الا ان صدقه رفض تسليمه وقال لرسول السلطان « لا افعل ولا اسلم من لجأ الي » ، وذلك وفقا للعادات والتقاليد العربية ، فالعربي لا يتخلى عن الشخص الذي يستجير به ولو كلفه ذلك حياته[٩٠] .

وفي رأينا ان ذلك لم يكن السبب الرئيس لتبدل العلاقات بين صدقه والسلطان ، بل كان عاملا مشجعا فقط . وان السبب الرئيس هو ان التعاون بين الامير صدقه والسلطان كان قائما لمصلحة الطرفين ـ كما اسلفنا ـ فالسلطان محمد ـ على ما يظهر ـ لم يعد بحاجة الى مساعدة صدقه له في العراق بعد ان اصبحت له الخطبة على منابر بغداد بعد وفاة اخيه السلطان بركيارق سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م[٩١] . كما انه كان قد ادرك تنامي قوة صدقه في العراق ، الذي كان في رأي السلاجقة « قد عظم امره ، وزاد حاله ، وكثر ادلاله ، ويبسط في الدولة حمايته على كل من يفر اليه من عند السلطان ، وهذا لاتحتمله الملوك لاولادهم » ، كما يقول ابن الاثير[٩٢] . فاراد ان يتخلص منه . سار السلطان محمد على رأس جيشه الى العراق في سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م فلما علم صدقه جهز جيشا قدره ابن الاثير بخمسين الف مقاتل فاشتبك الطرفان في معركة حامية انتهت بانتصار السلاجقة وقتل الامير صدقه واستيلاء السلاجقة على الحلة[٩٣] .

اراد الامير دبيس بن صدقه[٩٤] . ان يطبق سياسة والده التي كانت قائمة على استغلال النزاع القائم بين ابناء البيت السلجوقي وتوسيع شقة النزاع بينهم لاضعافهم ، فكان هذا الامير العربي كما يقول ابن الجوزي[٩٥] « يعجبه اختلاف السلاطين ، ويعتقد انه ما دام الخلاف قائما بينهم فامره منتظم » ، فبعد وفاة السلطان محمد بن ملكشاه في سنة ٥١١ هـ / ١١١٨ م ظهر النزاع بين ابنه السلطان وعمه السلطان سنجر بن ملكشاه فانحاز الامير دبيس الى جانب السلطان سنجر ، وطلب من الخليفة المسترشد بالله سنة ٥١٣ هـ / ١١١٩ م ان تكون الخطبة في بغداد الى السلطان سنجر بدلا من السلطان محمود ، فاستجاب الخليفة لطلبه فخطب له على منابر بغداد[٩٦] . لم يكتف الامير دبيس في موقفه هذا من السلاجقة ، فعزم ان يثير النزاع بينهم فكاتب في سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م جيوش بك اتابك مسعود بن محمد ، وشجعه على المطالبة بالسلطنة للملك مسعود ، ووعده بالمساعدة[٩٧] .

ويبدو ان السلطان محمود عزم على التخلص من الامير دبيس ، فبعد ان انتصر على مسعود[٩٨] سار نحو بغداد فلما وصلها طالب الامير دبيس بالاموال . فلما ارسل له عشرين الف دينار ، طلب منه اموالا اكثر فامتنع دبيس ، فتوجه السلطان الى الحلة للاستيلاء عليها ، فلما علم دبيس ارسل اهله الى عرب البطائح والتجأ الى ايلغازي[٩٩] .

وفي اثناء اقامته عند ايلغازي حاول الامير دبيس ان يسترجع امارته من السلاجقة ، فوجه اخاه منصور على راس قوة فاستطاع استرجاع الحلة ، والكوفة ثم سار الى البصرة ، ومن هناك راسل يرنكش الزكوي شحنة بغداد لعقد الصلح ، الا ان يرنكش رفض ذلك[١٠٠] . فارسل منصور الى اخيه دبيس مبينا له الموقف ، فلما علم دبيس بالموقف سار على راس جيشه ودخل الحلة ، ثم طلب من السلطان محمود عقد الصلح بينهما الا ان السلطان لم يستجب لطلبه ، ووجه جيشا لمحاربته الا ان دبيس ـ على ما يبدو ـ كان غير متهيىء لملاقاة جيش السلطان ، فقد ذكر ابن الجوزي انه ترك الحلة وتوجه الى نهر سنداد في البطائح ، وبعد مراسلات عديده بين الطرفين تم عقد الصلح وعاد الى الحلة[١٠١] .

ويظهر ان الخليفة المسترشد بالله الذي كان يامل التخلص من السلاجقة ـ كما سنرى فيما بعد ـ اراد ان يستفيد من استمرار النزاع بين الطرفين ، فقد ذكر ابن الاثير ان الخليفة طلب من السلطان ان يوجه شحنة بغداد على راس قوة الى الحلة للتخلص من دبيس ، فاستجاب السلطان لطلبه ودارت معركة بين الطرفين هزم فيها جيش السلاجقة في سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م[١٠٢] . على اثر تهديد الامير دبيس للخليفة جهز الخليفة جيشا قاده بنفسه ، فلما علم دبيس خرج لملاقاته فدارت معركة بين الطرفين عند « المباركة » ، انتهت بانتصار الخليفة ، فسار دبيس الى الشام والتجأ الى الملك طغرل بن السلطان محمد[١٠٣] .

استمر الامير دبيس في مقاومته للسيطرة السلجوقية ، فلما

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وصل الى الملك طغرل حسن له قصد العراق والاستيلاء على السلطنة بدلا من السلطان محمود، فسارا في سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م على راس قوة للاستيلاء على بغداد، فلما علم الخليفة المسترشد بالله باخبار تقدمهم جمع العساكر وخرج لملاقاتهم، ويبدو ان قوة جيش الخليفة ادت بهما الى ان يتجنبا ملاقاته، فسارا الى السلطان سنجر ملتجئين اليه[١٠٤].

استطاع الامير دبيس ان يقنع السلطان سنجر بالاستيلاء على بغداد مدعيا بان هناك تحالفا بين الخليفة المسترشد بالله والسلطان محمود ضده[١٠٥]. فسار السلطان سنجر في سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م على راس قوة وكان هدفه هو السيطرة على العراق، فلما وصل الري استدعى السلطان محمود الذي كان مقيما في همدان فتم الصلح بينهما[١٠٦]. ثم سلم السلطان سنجر الامير دبيس الى السلطان محمود واوصاه ان يكرمه وان يعيده الى بلده، وان يسلم اليه الموصل والشام، وان يساله الخليفة بالرضا عنه[١٠٧]. ويظهر ان السلطان محمود لم ينفذ الاتفاق الذي تم بينه وبين السلطان سنجر فيما يخص الامير دبيس. فقد ذكر ابن الجوزي ان دبيس سار في سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٨ م على راس قوة قاصدا الحلة، فلما علم بهروز شحنة بغداد هرب من الحلة ودخلها دبيس[١٠٨] فلما علم السلطان محمود وجه جيشا لمحاربته، فترك الحلة وسار الى البصرة واخذ الاموال الخاصة بالسلطان السلجوقي ثم سار ودخل البرية[١٠٩]. ثم سار الى الموصل واقام عند عماد الدين زنكي[١١٠]. ويبدو ان الخليفة المسترشد بالله كان لا يثق بالامير دبيس لان سياسته مع الخلافة لم تكن ثابتة وواضحة، فقد ذكر ابن الاثير انه في اثناء النزاع بين الخليفة والسلطان مسعود في سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م تقدم جماعة من الامراء ويضمنهم دبيس بطلب الى الخليفة ان يقفوا معه ضد السلطان، الا ان الخليفة رفض مساعدتهم، لان دبيس كان معهم، فاتفق اولئك الامراء فيما بينهم على القبض على دبيس وتسليمه للخليفة، فلما علم دبيس سار والتحق بالسلطان مسعود[١١١].

وفي اثناء المعركة التي جرت في سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م بين السلطان مسعود والخليفة المسترشد بالله كان دبيس مع السلطان، وقد قتل دبيس في هذه السنة من قبل السلطان مسعود، بعد ان دبر السلاجقة قتل الخليفة المسترشد بالله[١١٢]. وفي سبب قتله يقول ابن الاثير « لم يكن يعلم ـ يعني دبيس ـ ان السلاطين انما كانوا يبقون عليه ليجعلوه عدّة لمقاومة المسترشد، فلما زال السبب زال المسبب »[١١٣].

تولى صدقة بن دبيس امارة المزيديين بعد مقتل والده، وقد سار على سياسة اسلافه القائمة على مقاومة التسلط السلجوقي، فقد وقف مع الخليفة الراشد بالله في نزاعه مع السلطان مسعود في سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م[١١٤]. والظاهر ان الامير صدقه اراد ان يطبق سياسة المزيديين القائمة على استغلال النزاع القائم بين ابناء البيت السلجوقي على السلطة، فقد ذكر ابن الاثير انه وقف مع السلطان مسعود في نزاعه مع الملك داود ابن السلطان محمود، وانه قتل في اثناء المعركة التي دارت بين الطرفين في سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م[١١٥].

وبعد وفاة الامير صدقه توالى على حكم الامارة المزيدية امراء لم يلعبوا دورا مهما في الاحداث السياسية آنذاك[١١٦]. وفي اثناء مقاومة الخلفاء للتسلط السلجوقي توالى على حكمها كل من ممثلي الخلفاء وممثلي السلاطين السلاجقة[١١٧]، فعندما تمكن الخلفاء من طرد السلاجقة من العراق اصبحت في سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م من ضمن ممتلكات الخلافة[١١٨].

اضافة الى ما تقدم، فقد وردت اشارات الى اشتراك قبائل عربية في جيش الامارة المزيدية في اثناء نزاعها مع السلاجقة كقبيلة خفاجة التي كانت تسكن في منطقة الكوفة[١١٩]. وقبيلة عباده التي كانت تقيم بجوار قبيلة خفاجه[١٢٠]. وقبائل بني المنتفق التي سكنت منطقة البصرة[١٢١]. وبني شيبان[١٢٢]، وبني ابي الجبر في منطقة البطائح[١٢٣].

وهذا يدل على ان هذه الامارة العربية اصبحت قوة جذب للقبائل العربية في العراق وان هذه القبائل كانت قد ادركت وحدة المصير المشترك لها فقاتلت الى جانب المزيديين في اثناء قتالهم لاعداء الامة العربية.

مقاومة الخلفاء وابناء الشعب

على الرغم من ضعف مؤسسة الخلافة من جراء التسلط الاجنبي الذي بدأ منذ ان تسلط القادة العسكريون الاتراك في منتصف القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي على الخلفاء وقوة السلاطين السلاجقة الاوائل ومنعهم للخلفاء من بناء قوة عسكرية، نجد ان اهل العراق والخلفاء كانوا قد رفضوا الوجود السلجوقي واستنكروا اعتداءاتهم على ابناء العراق منذ ان احتل هؤلاء المعتدون العراق سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م، فقد ذكر ابن الاثير انه في اليوم الثاني من احتلالهم لبغداد تصدى لهم اهل هذه المدينة وقتلوا منهم من وجد ببغداد، ثم واصل اهل بغداد نضالهم ضد الجند السلجوقي حيث خرجوا من بغداد قاصدين الجند السلجوقي المقيمين خارج بغداد فدارت معركة حامية قتل فيها وجرح اعداد كبيرة من الفريقين، فلما علم الخليفة القائم بامر الله استنكر ذلك وكتب الى السلطان طغرلبك مهددا بمغادرة بغداد[١٢٤]. هذا وقد تصدى ابناء العراق في عهد الخليفة القائم بامر الله للمحتلين السلاجقة مرات عدة، وقتلوا وجرحوا اعدادا كبيرة منهم[١٢٥].

اما الخليفة المقتدي لامر الله (٤٦٧ ـ

٤٨٧ هـ / ١٠٧٥ - ١٠٩٠ م) فقد حاول ان يستغل النزاع القائم بين ابناء البيت السلجوقي على السلطة من اجل اضعافهم(١٢٦) .

وفي عهد الخليفة المسترشد بالله (٥١٢ - ٥٢٩ هـ / ١١١٨ - ١١٣٤ م) كانت مقاومة الخلفاء وابناء العراق بمستوى التحدي ، وقبل ان يتصدى هذا الخليفة الشجاع للتسلط السلجوقي كان قد عزم ان يهيئ كل اسباب النصر ، فقد حاول التقرب الى ابناء الشعب منذ ان تولى الخلافة ، وذلك بانقاذهم من ظلم وتعسف واستبداد الادارة السلجوقية ، فامر باسقاط بعض الضرائب(١٢٧) . ثم امر باسقاط المكوس والضرائب التي فرضها السلطان محمود السلجوقي على ابناء العراق(١٢٨) . وبعد هذه الاجراءات قرر الخليفة تكوين جيش الخلافة ، فلما اعلن النفير العام رغبة اهل العراق معه من اجل التحرر والاستقلال وكان الخليفة يستعرض هذا الجيش بنفسه(١٢٨) . وامر ببناء سور لبغداد(١٢٩) . وهيأ الرأي العام ضد السلاجقة حيث قال : « فوضنا امورنا الى آل سلجوق ، فبغوا علينا ، فطال عليهم الامد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم [illegible] »(١٣٠) .

اغتنم الخليفة فرصة النزاع بين ابناء البيت السلجوقي على السلطة فاستطاع ان يزيد من تنافسهم ، ومن ثم اضعافهم ، فلما توفي السلطان محمد بن ملكشاه سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م خلفه في السلطنة ابنه محمود ، وقد اقيمت له الخطبة في بغداد بعد ان اعترف به الخليفة المستظهر بالله(١٣١) ، الا ان عمه سنجر بن ملكشاه الذي كان حاكما على خراسان اظهر استياءه من اعتراف الخليفة به ، واعلن نفسه سلطانا على السلاجقة ، وراسل الخليفة المسترشد بالله بذلك ، فخطب له بالسلطنة مع ابن اخيه ، فاصبح للسلاجقة سلطانان في وقت واحد(١٣٢) .

ذكرنا سابقا ان الخليفة المسترشد بالله استطاع في سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م بعد تقدم كل من الامير دبيس بن صدقه والملك طغرل بن محمد بن ملكشاه عندما عزما على الاستيلاء على بغداد واخذ السلطنة من السلطان محمود ، ثم سيرهم الى السلطان سنجر ملتجئين اليه ، فلما علم السلطان محمود بموقف الخليفة منه كتب اليه قائلا : « قد علمت ما فعلت لاجلي وانا خادمك وصائر اليك ، وتراسلا بالايمان والعهود على انهما يتفقان على سنجر ويمضيان الى قتاله ، ويكون محمود في السلطنة وحده »(١٣٣) .

لقد ادرك السلطان سنجر ان سياسة الخليفة المسترشد بالله قائمة على القضاء على السلاجقة ونفوذهم في العراق ، فعزم على القضاء على التحالف بين الخليفة والسلطان محمود ، فكتب الى الاخير قائلا : « انت يميني والخليفة قد عزم على ان يمكر بي وبك فاذا اتفقتما عليَّ فرغ مني وعاد اليك فلا تلتفت اليه .. وراي فيك راي الوالد فالله الله ان تعول على ماقال لك .. »(١٣٤) .

ثم ان شحنة بغداد يرنقش الزكوي كان قد اختلف مع نواب الخليفة فلما تهدده الخليفة قصد السلطان محمود وحذره من نيّات الخليفة تجاه السلاجقة واستعداداته ، وانه كاتب الامراء ، واعد الجيوش واشار عليه بقصد العراق ودخول بغداد . فاثر هذا في نفس السلطان فتوجه على رأس جيشه في سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م قاصدا العراق ، فلما علم الخليفة المسترشد بالله تاهب للقتال ، وعبر على راس جيشه الى الجانب الغربي من بغداد ، اما السلطان محمود فقد نزل في الجانب الشرقي ، امر الخليفة الجند بالعبور الى الجانب الشرقي لقتال السلاجقة ، ودارت بين الطرفين معارك عدة ، وكاد الخليفة ان ينتصر لولا انحياز احد امرائه مع جنده الى السلطان(١٣٥) . كما ان السلطان محمود كان قد امر عماد الدين زنكي بالمسير من واسط الى بغداد لنجدته فجمع عماد الدين عسكرا كبيرا وسار به في البر والماء ، فلما وصل الى بغداد وشاهد الخليفة قوة السلاجقة ادرك ان لا قبل له بمقاومتهم مع وقوع الغلاء ببغداد ، فاضطر الى قبول دعوة السلطان في الصلح(١٣٦) .

واصل الخليفة المسترشد بالله سياسته القائمة على التخلص من التسلط السلجوقي ، فبعد وفاة السلطان محمود سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م(١٣٧) اقيمت الخطبة ببغداد للسلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه(١٣٨) ، بعد ان دارت بين ابناء البيت السلجوقي معارك عدة في العراق والمشرق حول السلطنة(١٣٩) . وكان الخليفة المسترشد بالله قد لعب دورا بارزا في هذا النزاع في سبيل اضعافهم ومن ثم التخلص منهم ، فقد ذكرت المصادر انه عندما ارسل كل من السلطان مسعود ، والملك داود الى الخليفة يطلب كل واحد منهم ان تكون الخطبة له في بغداد ، كان جواب الخليفة لهما هو ان الحكم في الخطبة الى السلطان سنجر ، من اراد خطب له ، ثم كتب الى السلطان سنجر : « ان لا يأذن لاحد في الخطبة ، فان الخطبة ينبغي ان تكون له وحده »(١٤٠) .

ولما عرض في سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣١ مّ كل من السلطان مسعود واخيه سلجوقشاه على الخليفة المسترشد بالله ان يتعاون معهم على عمهم السلطان سنجر ، وتعهدا بطاعته وتنفيذ اوامره ، وافق الخليفة على طلبهم بعد ان اشترط عليهما استقلال العراق ، وان تكون السلطنة لمسعود وولاية العهد لاخيه سلجوقشاه(١٤١) ، فلما توجه السلطان سنجر الى العراق للقضاء على هذا التحالف ، خرج الخليفة على راس جيشه لملاقاته ، الا ان الخليفة عندما وصل الى خانقين اضطر الى الرجوع الى بغداد بعد ان علم ان خلفاء السلطان سنجر ، وهم كل من الامير دبيس المزيدي وعماد الدين زنكي صاحب الموصل قد توجها للاستيلاء على بغداد ، فلما وصل الخليفة الى بغداد دارت معركة بين الطرفين انتصر فيها الخليفة(١٤٢) .

وتظهر لنا قوة الخليفة المسترشد بالله وضعف السلاطين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

السلاجقة امامه من قول الخليفة للسلطان مسعود عندما ولاه السلطنة سنة ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ م ، فقد خاطبه بقوله : تلق هذه النعمة بشكرك واتق الله في سرك وجهرك[١٤٣] . وعندما سلم اليه ابن اخيه داود قال له الخليفة : « انهض وخذ ما آتيتك به وكن من الشاكرين » ، ولما التجأ الى السلطان مسعود بعض الامراء خوفا من الخليفة في سنة ٥٢٨ هـ / ١١٣٣ م طالبه الخليفة بتسليمهم ، وكتب اليه يقول : « انما افعل ذلك من اجلك وانصبك نوبة بعد نوبة »[١٤٤] .

وفي سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م امر الخليفة شحنة بغداد بان يذهب الى السلطان مسعود ويأمره بالخروج من بغداد لقتال اخيه طغرل واخذ البلاد منه ، واذا امتنع امره ان يحط خيامه »[١٤٥] .

لقد استتب الامر للسلطان مسعود نهائيا بعد وفاة اخيه طغرل سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م ويبدو ان السلطان كان غير مطمئن الى الخليفة لاسيما ان جماعة من الامراء الذين كانوا في خدمته منافسه طغرل كانوا قد التجأوا الى الخليفة هربا من السلطان مسعود وخوفا منه وذلك في سنة ٥٢٨ هـ / ١١٣٣ م[١٤٦] ، فساءت العلاقة بينهما ، والظاهر ان امراء العراق ارادوا التخلص من السيطرة السلجوقية ايضا ، فقد أشارت المصادر الى ان هؤلاء الامراء هم الذين شجعوا الخليفة على الخروج لقتال السلاجقة[١٤٧] . قطع الخليفة المسترشد بالله في سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م الخطبة للسلطان مسعود في بغداد وخرج على راس جيشه لقتاله ، وكان معه امراء العراق ، وبعض الامراء الاتراك ، فلما علم السلطان مسعود ، سار على راس جيشه لملاقاته وفي اثناء المعركة التي دارت عند « دايمرج » مال الجنس الى الجنس ، كما يقول البنداري[١٤٨] ، فانحاز الامراء الاتراك الذين كانوا مع جيش الخليفة مع جندهم الى جيش السلطان ، ولم يبق مع الخليفة الا اهل بغداد الذين قدرتهم المصادر بخمسة آلاف مقاتل ، فاسر الخليفة وهزم جيشه[١٤٩] . وبعد ان تم الصلح بين السلطان مسعود والخليفة ، دخل جماعة على الخليفة وهو في خيمته وقتلوه مع نفر من اصحابه[١٥٠] . وهكذا استشهد الخليفة المسترشد بالله العباسي في سبيل تحرر واستقلال العراق والامة العربية من السيطرة الاجنبية ، وقد سار الخلفاء على نهجه في مقاومة السلاجقة والتخلص منهم كما سنرى .

ان المؤرخين الذين ارخوا لهذه الحادثة كانوا قد اختلفوا في رواياتهم عن المسؤولين عن قتل الخليفة ، فقيل ان جماعة الباطنية هم المسؤولون عن قتله[١٥١] . وقيل ان قتل الخليفة تم بتدبير من السلطان سنجر وابن اخيه السلطان مسعود[١٥٢] . وفي رأينا ان السلاجقة هم المسؤولون عن قتله ، لانهم رأوا ان سياسته كانت قائمة على التخلص منهم ـ كما راينا ـ اضافة الى شجاعته واقدامه وقوة شخصيته[١٥٣] . والجدير بالذكر هنا ، هو انه لما وصل خبر استشهاد الخليفة الى بغداد ، خرج اهل بغداد ، وكسروا المنبر ، ثم منعوا الخطبة ، وخرجوا الى الاسواق يحثون التراب على رؤوسهم ويبكون ويصرخون ، وخرجت النساء حاسرات يندبن في الاسواق ، واصطدم سكان بغداد بالجند السلجوقي ووقع من جراء ذلك عدد من القتلى منهم[١٥٤] . ويبدو ان السلطان مسعود اراد ان ينفي التهمة عنه ، فنسب مقتل الخليفة الى الامير دبيس بن صدقه المزيدي ، فارسل اليه وقتله بعد شهر من مقتل الخليفة[١٥٥] . وعندما تولى الخلافة بعد المسترشد بالله ابنه الراشد بالله سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م ، سار على سياسة والده التي كانت تهدف الى التخلص من السيطرة السلجوقية[١٥٦] . فلما ارسل السلطان مسعود في سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م يرنقش الزكوي الى بغداد ليطالب الخليفة بمبلغ من المال قدره ابن الجوزي بـ ٧٠٠,٠٠٠ دينار[١٥٧] ، امتنع الخليفة عن اداء المبلغ ، فاتفق الزكوي مع « بك ابه » شحنه بغداد على الاستيلاء على دار الخلافة ، فلما علم الخليفة استعد لملاقاتهم ، فدارت بين الطرفين معركة حامية انتصر فيها الخليفة[١٥٨] .

كاتب الخليفة الراشد بالله الملك داود بن السلطان محمود ، فاتفقا على حرب السلطان مسعود ، وقطعت الخطبة للسلطان مسعود في العراق وخطب للسلطان داود[١٥٩] ، فلما بلغت هذه الانباء السلطان مسعود ، سار بقواته ونزل على بغداد وحاصرها[١٦٠] ، فلما ايقن الخليفة ان لا قبل له بمقاومته ترك بغداد وسار بصحبة عماد الدين زنكي الى الموصل[١٦١] . فدخل السلطان مسعود بغداد وعزل الخليفة الراشد بالله وعين مكانه عمه المقتفي لامر الله ، بعد ان اشترط عليه طاعة السلاجقة[١٦٢] ، سار الراشد بالله من الموصل الى « مراغه » ، واتفق مع الملك داود وبعض الامراء على قتال السلطان مسعود ، فلما علم السلطان مسعود ، خرج على راس جيشه من بغداد لقتالهم ، فدارت بين الطرفين معركة حامية هزم فيها جيش السلطان مسعود[١٦٣] .

ويبدو ان الملك داود كان قد تخلى عن الخليفة الراشد بالله ، فقد ذكرت المصادر ان الملك داود سار بجيشه الى همدان ، بينما اتجه الخليفة الى اصفهان ، فقتل سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م من قبل جماعة من اهل خراسان من الباطنية كانوا في خدمته[١٦٤] . استمر النزاع بين ابناء البيت السلجوقي على السلطة[١٦٥] ، فاراد الخليفة المقتفي لامر الله الذي ولاه السلاجقة الخلافة بعد ان خرج الراشد بالله من بغداد ، ان يستغل هذا النزاع ، واستعد لملاقاة السلاجقة ، فقوى الجيش وحفر الخنادق حول بغداد وامر باصلاح السور وامر سكان بغداد بحمل السلاح والدفاع عن بغداد[١٦٦] .

بعد وفاة السلطان مسعود ، سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م[١٦٧]

عزم الخليفة المقتفي لامر الله على التخلص من السيطرة السلجوقية[١٦٨]، فامر بمصادرة كل ما في دار الشحنه، ودور اصحاب السلطان مسعود ببغداد، وقبض على الكثير من أصحاب السلطان[١٦٩].

ثم بدأ باسترجاع مدن العراق التي كان يتولى امرها السلاجقة او نوابهم، فارسل وزيره عون الدين بن هبيره في سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م الى الحلة فاستعادها[١٧٠]. ثم واصل الوزير جهوده في استعادة مدن العراق الاخرى من ايدي السلاجقة، فسير في هذه السنة جيشا الى واسط تمكن من دخولها[١٧١]. حاول السلطان ملكشاه استعادة نفوذ السلاجقة على واسط، فجهز جيشا في هذه السنة وسيره نحو واسط واستولى عليها بعد ان طرد عسكر الخليفة منها[١٧٢]. فلما بلغ الخليفة هذا النبأ، خرج بنفسه على راس جيشه الى واسط واسترجعها وطرد منها امراء السلاجقة وقلد الموظفين فيها وعاد الى بغداد[١٧٣].

وفي سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م سير جيشا الى البصرة واستعادها من السلاجقة[١٧٤].

وفي سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٣ م سار الخليفة على راس جيشه وضرب الحصار على تكريت وتمكن من فتحها[١٧٥].

حاول السلاطين السلاجقة استعادة نفوذهم على العراق، فسير الملك محمد بن السلطان محمود في سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م جيشا بقيادة مسعود بلال وترشك، وذلك للاستيلاء على بغداد، فلما علم الخليفة المقتفي لامر الله خرج لملاقاته، فدارت بين الطرفين، معارك عدة، انتهت بهزيمة جيش السلاجقة[١٧٦].

على الرغم من قوة الخلفاء العباسيين، واصرارهم على التخلص من النفوذ الاجنبي، والهزائم التي الحقوها بجيوش السلاجقة، نجد ان السلاطين السلاجقة يواصلون محاولاتهم لاستعادة نفوذهم على العراق، ففي سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م ارسل السلطان محمد بن محمود بن ملكشاه الى الخليفة المقتفي لامر الله يطلب منه ان يخطب له في العراق الا ان الخليفة لم يستجب لطلبه، فلما سار السلطان محمد من همذان بعساكر كثيرة ونزل على بغداد فحاصرها، استعد الخليفة لدفعه عنها، وكان الخليفة قد هيأ كل اسباب النصر على اعدائه، فعمل على الاستفادة من كل قادر على حمل السلاح من سكان بغداد، فهبوا جميعهم وبمختلف فئاتهم للدفاع عن عاصمة الخلافة، ووفر السلاح بمختلف انواعه للمدافعين ثم وفر الاموال والاقوات، فقد ذكرت المصادر انه كان يبذل الاموال والاقوات بسخاء على المدافعين، ومن خزائنه الخاصة.

وقد دارت بين الطرفين معارك عدة قاتل فيها سكان بغداد قتالا شديدا، وبعد ثلاثة اشهر من الحصار وصلت الى السلطان انباء استيلاء اخيه ملكشاه واعوانه على همذان، فانسحب عائدا الى همذان[١٧٧]. وكان انسحابه هذا نهاية للسيطرة السلجوقية على العراق، فقد فشل هؤلاء المعتدون في جميع المحاولات التي قاموا بها فيما بعد لدخول بغداد كما سنرى.

وعندما تولى المستنجد بالله الخلافة بعد وفاة والده المقتفي لامر الله سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م سار على سياسة اسلافه القائمة على التحرر من التسلط السلجوقي، فلما طلب إليه السلاجقة سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦٠ م ان تكون الخطبة في بغداد لارسلان شاه ابن طغرل بن محمد بن ملكشاه، وان تعاد العلاقات بين السلاجقة والخلافة الى ما كانت عليه ايام السلطان مسعود، اهين رسولهم واعيد اليهم على اقبح حاله كما يذكر ابن الاثير[١٧٨].

لقد انصرف الخليفة المستنجد بالله لفرض نفوذ الخلافة على مدن العراق التي كان يتولى امرها السلاجقة او نوابهم، والتخلص من الامراء الذين كان يشك في ولائهم له، فقد ذكرت المصادر انه وجه جيوشا متعددة لتنفيذ ما عزم عليه[١٧٩].

اما في عهد الخليفة المستضيء بامر الله، الذي تولى الخلافة بعد وفاة والده المستنجد بالله سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م، فالظاهر ان الجهود التي بذلها اسلافه في مقاومتهم للسلاجقة منذ عهد الخليفة المسترشد بالله، كانت قد اثمرت في عهد هذا الخليفة هذا من جهة، اما من الجهة الاخرى، فان المنازعات بين ابناء البيت السلجوقي على السلطنة كانت مستمرة في فترة حكمه، وقد لعب الاتابكة دورا فعالا في هذا النزاع وفي التحكم بامور السلطنة[١٨٠]. لذلك فاننا لم نجد اشارات الى احداث وقعت بين الخلافة والسلاجقة حتى وفاته سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م.

بويع الناصر لدين الله بعد وفاة والده المستضيء بامر الله سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م، وقد عزم هذا الخليفة القدير على انهاء السيطرة السلجوقية في العراق والمشرق، فعندما طلب السلطان طغرل السلجوقي من الخليفة سنة ٥٨٣ هـ / ١١ م عمارة دار السلطنه، ببغداد، كان رد الخليفة على طلبه هو القضاء على آثار السلاجقة، فامر بهدم دار السلطنة[١٨١]. وقال: « ما لنا حاجة ان تكون عندنا آثار الاعاجم ».

وبعد وفاة السلطان جهان بهلوان السلجوقي في سنة ٥٨٢ هـ، خلفه اخوه قزل ارسلان في السلطة، الا أن ابن اخيه السلطان طغرل بن ارسلان بن طغرل اراد ان يتخلص من عمه، فقامت المنازعة بينهما[١٨٢]، فاستغل الخليفة الناصر لدين الله تلك المنازعات في سبيل القضاء على السلاجقة، فالتزم جانب قزل ارسلان، واتفقا على قتال طغرل، فلما استنجد به قزل ارسلان، وجه وزيره في سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م على راس

جيش كبير فالتقى في معركة حامية مع جيش طغرل عند « دايمرج » ، الا ان عدم وصول جيش قزل ارسلان في الوقت المناسب ادى الى انتصار جيش طغرل[١٨٣] . ولكن هذا لم يثن عزم الخليفة الناصر لدين الله ، فوجه في سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م جيشا آخر بقيادة مجاهد الدين خالص ، لمساعدة قزل ارسلان ، فتمكن من دخول مدينة « همدان » وقد امر الخليفة بتسليم هذه المدينة الى قزل ارسلان ليحكمها نيابه عنه[١٨٤] .

بعد ان هزم طغرل التجا الى اذربيجان ، واخذ من هناك يهاجم المدن القريبة وينهبها فلاحقته جيوش الخلافة وقزل ارسلان واشتبكا معه في معركة حامية هزم فيها جيش طغرل[١٨٥] . واصل الخليفة الناصر لدين الله ملاحقته للسلاجقة ، فجهز جيشا كبيرا وزوده بجميع ادوات القتال ثم وجهه الى المشرق مددا لجيش قزل ارسلان ، وقد دارت معارك عنيفة بين الطرفين انتهت باسر السلطان طغرل واعتقاله في قلعة قرب تبريز[١٨٦] .

بعد ان قتل السلطان قزل ارسلان في سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩٠ م ، استطاع طغرل ان يهرب من السجن سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩١ م ويتحالف مع بعض الامراء السلاجقة ثم تقدم الى همدان عاصمة السلاجقة ودخلها في هذهِ السنة[١٨٧] .

سعى الخليفة الناصر لدين الله للاتصال بالخوارزميين الذين تزايد نفوذهم في المشرق بعد ان اشتبكوا في حروب عديدة مع السلاجقة للقضاء على السلاجقة ، فأرسل ألى ملكهم خوارزمشاه علاء الدين تكش ، يطلب منه قتال السلطان طغرل السلجوقي على ان تكون السلطة له على بلاد السلاجقة ، وامدّه الخليفة بجيش كبير ، فتقدم خوارزمشاه سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م من نيسابور الى الري على راس جيشه ، فلما علم السلطان طغرل السلجوقي ، تقدم هو الاخر على راس جيشه لملاقاته ، فاشتبك الطرفان في معركة حامية وفاصلة ، انتهت بمقتل السلطان طغرل ، فانتهت بمقتله الدولة السلجوقية والى الابد[١٨٩] .

المقاومة العربية في مصر والشام

بعد ان سيطر السلاجقة على العراق ، وجهوا اهتمامهم للسيطرة على بلاد الشام ومصر . فعهد السلطان ملكشاه في سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م الى قائده اتز الخوارزمي الاستيلاء على بلاد الشام ، الذي توجه في هذه السنة واستولى على مدينة الرملة ، ثم سار منها وضرب الحصار على مدينة القدس وتمكن من الاستيلاء عليها ثم قصد دمشق وحاصرها ، الا انه لم يتمكن من الاستيلاء عليها لشدة مقاومة اهلها[١٩٠] . الا ان هذا القائد تمكن من الاستيلاء على دمشق سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م ، بعد ان شدد الحصار عليها ومنع دخول الغلات الزراعية الى عسكرها[١٩١] .

بعد ان استولى السلاجقة على بلاد الشام ، سار قائدهم اتسز الخوارزمي في سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م قاصدا مصر ، فلما وصل الى الدلتا ، عسكر هناك ، وقد اساء الجند السلجوقي معاملة السكان واخذوا اموالهم[١٩٢] .

عندما وصل الجيش السلجوقي الى مصر ، كان القائد المصري بدر الجمالي منشغلا باخماد حركات تمرد كانت قائمة في منطقة الصعيد ، فلما علم سار على راس قوة كبيرة واشتبك مع السلاجقة في معركة ضارية هزم فيها السلاجقة وقتل عدد كبير منهم ، وفر القائد السلجوقي واقام في « الرملة » حيث لحق به من بقي من عسكره ، ثم رحل الى دمشق[١٩٣] .

اعلنت بعض المدن الرئيسة في بلاد الشام وقوفها الى جانب مصر ضد السلاجقة ، فلما علم القائد المصري بدر الجمالي عزم على استعادة بلاد الشام من النفوذ السلجوقي ، فسير جيشا بقيادة نصر الدولة الى دمشق سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م ، فلما وصل ضرب الحصار عليها ، الا ان القائد السلجوقي اتسز الخوارزمي استنجد بتاج الدولة تتش بن الب ارسلان ، الذي كان آنذاك محاصرا مدينة حلب ، فسار تتش على راس جيشه الى دمشق ، فلما علم القائد المصري رحل عن دمشق عائداً الى مصر[١٩٤] .

واصل القائد المصري بدر الجمالي جهوده لاستعادة بلاد الشام من السلاجقة ، فوجه في سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م نصر الدولة الجيوشي على راس قوة فتمكن من استرجاع عدد من مدن الشام الساحلية ، على اثر ذلك كتب تاج الدولة تتش السلجوقي نائب السلاجقة في مدينة دمشق الى اخيه السلطان ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقي يقول له : « ان المصريين استولوا على ساحل الشام وضايقوا دمشق » . وطلب منه المساعدة ، فكتب السلطان الى نوابه ببلاد الشام لمساعدة اخيه ، فلما ساروا لمساعدته سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ، استطاعوا ان يستولوا على « حمص » و « عرقه » و « افاميه » ، الا انهم حين تقدموا نحو « طرابلس » لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها[١٩٥] .

بعد ان قتل تاج الدولة تتش السلجوقي سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥م[١٩٦] ، انقسم النفوذ السلجوقي في بلاد الشام بين ولديه رضوان ودقاق ، فاستقل رضوان في مدينة حلب ، بينما استقل دقاق في دمشق[١٩٧] . ولم يكن الاخوان على وفاق فجرت بينهما معارك تبادلا فيها النصر والهزيمة[١٩٨] .

ادركت القيادة العربية في مصر ضعف النفوذ السلجوقي في بلاد الشام فحاولت استرداد مافقدته من المدن ، فسيرت في سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م جيشا تمكن من دخول مدينة صور بعد ان ضرب الحصار عليها[١٩٩] . وفي هذه السنة سار الافضل بن بدر الجمالي من مصر على راس قوة وتمكن من استرجاع مدينة القدس من السلاجقة[٢٠٠] .

الهوامش

(١) البيهقي : ٥٠٦ . ابن العميد : تاريخ المسلمين : ٢٦٧ . ابن طباطبا : الفخري : ٢٩٢ .

(٢) الحسيني : اخبار الدوله السلجوقية : ٢ ، ٣ . الراوندى : راحه الصدور : ١٤٥ .

(٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ : ٩/ ٤٧٣ . اخبار الدوله السلجوقيه : ٢ .

(٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ : ٩/ ٤٧٤ .

(٥) نشات الاماره السامانيه في اقليم ما وراء النهر سنه ٢٦١هـ ، ثم امتد نفوذها فشمل بلاد طبرستان ، والرى ، وقزوين ، وكرمان . انتهت هذه الاماره سنه ٣٨٩هـ على يد الغزنويين والخانيين ، انظر : الطبرى : تاريخ الامم والملوك : ٩/ ٥١٤ ، الكامل في التاريخ : ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٦) الخانيون : قبائل تركيه كانت تسكن في بلاد ما وراء النهر ، وقد اعتنقت هذه القبائل الاسلام في القرن الرابع الهجري وذلك من جرّاء اختلاطهم بالسامانيين ، وقد اتخذوا مدينه كاشغر مركزا اداريا لهم ثم انتقلوا الى بخارى سنه ٣٨٩هـ واتخذوها مركزا اداريا لهم . الكامل في التاريخ : ٩/ ١٤٨ ، ١٤٩ ، بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى : ٧٠ .

(٧) تاسست الاماره الغزنويه في الهند سنه ٣٥١هـ ، وقد شملت مساحات واسعه في المشرق الاسلامي ، وقد انتهت هذه الاماره سنه ٥٨٢هـ على يد شهاب الدين الغورى . انظر : الكامل في التاريخ ٨/ ٥٤٤ ، ١١/ ٥٦١ .

(٨) الحسينس : اخبار الدوله السلجوقيه : ٢ ، ٣ .

(٩) ابن الاثير : الكامل مي التاريخ : ٩/ ٤٧٤ ، جند : احدى مدن تركستان ، قريبه من نهر سيحون ، معجم البلدان : ٢/ ١٦٨ .

(١٠) الراوندى : راحه الصدور وآيه السرور : ١٤٥ .

(١١) انظر تفاصيل ذلك في : راحه الصدور وآيه السرور : ١٤٧ - ١٥١ .

(١٢) البندارى : تاريخ دوله آل سلجوق : ٦ . راحه الصدور : ٩٣ ، ٩٤ .

(١٣) الدكتور عبد النعيم حسنين : سلاجقه ايران والعراق : ٢٥ .

(١٤) عن هذه المعارك ينظر : راحه الصدور : ١٥٤ - ١٥٧ وما بعدها . اخبار الدوله السلجوقيه : ٨ ، ٩ . الكامل في التاريخ : ٩/ ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨١ .

(١٥) عن هذه المعركة ينظر : البيهقي : تاريخ البيهقي : ٥٧٩ . الكامل في التاريخ : ٩/ ٤٥٧ ، ٤٥٩ . اخبار الدولة السلجوقية : ٩ .

(١٦) البيهقي : تاريخ البيهقي : ٦٠٠ - ٦٠٤ . اخبار الدولة السلجوقية : ٩ . راحة الصدور : ١٥٨ .

(١٧) عن هذه المعارك ينظر : البيهقي : تاريخ البيهقي : ٦٢١ ، ٦٣٣ . راحة الصدور : ١٦٣ ، ١٦٥ .

(١٨) ينظر : راحة الصدور : ١٦٧ ، ١٧٧ . اخبار الدولة السلجوقية : ١٧ .

(١٩) انظر نص الرسالة في : راحة الصدور : ١٦٦ ، ١٦٧ . ينظر ايضا : تاريخ دولة آل سلجوق : ٧ ، ٨ .

(٢٠) انظر : دولة آل سلجوق : ٨ ، ٩ ، ٢٨ . ابن الجوزي : المنتظم : ٨/ ٢٣٣ . الكامل في التاريخ : ٩/ ٥٢٢ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ . راحة الصدور : ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢١) لمعلومات اوسع : ينظر : د . عبدالقادر المعاضيدي : المقاومة العربية لحكم البويهين في العراق ، مجلة دراسات الاجيال : عدد ٤ ، ٥ ، لسنة ١٩٨٣ ، ص ٣٧٧ - ٣٧٩ .

(٢٢) ينظر : الخطيب : تاريخ بغداد : ٩/ ٣٩٩ ، ٤٠٠ . المنتظم : ٨/ ١٦٣ . الكامل في التاريخ : ٩/ ٦٠٨ ، ٦٠٩ .

(٢٣) عن النزاع بين ابناء البيت البويهي ، انظر : د . فاضل الخالدي : الحياة السياسية : ٤٠ - ٦٤ .

(٢٤) ابن الجوزي : المنتظم : ٨/ ١٦٦ . الكامل في التاريخ : ٩/ ٦٠٩ .

(٢٥) الشيرازي : سيرة المويد في الدين : ٤٣ .

(٢٦) د . محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق : ٩١ وما بعدها .

(٢٧) د . عبدالعزيز الدوري : دراسات في العصور العباسية المتاخرة : ٢٨٢ .

(٢٨) ابن الجوزي : ٨/ ١٦٦ . الكامل في التاريخ : ٩/ ٥٢٢ .

(٢٩) ينظر : المنتظم : ٨/ ١٦٤ . الكامل في التاريخ : ٩/ ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ابن العمراني : الانباء في تاريخ الخلفاء : ١٨٩ .

(٣٠) الكامل في التاريخ : ٩/ ٦١١ ، ٦١٣ .

(٣١) راحة الصدور وآيه السرور : ١٦٩ . الكامل في التاريخ : ٩/ ٦١١ .

(٣٢) انظر : المنتظم : ٨/١٨٢ .

(٣٣) ابن دمية : ١٤٤ .

(٣٤) ينظر تفاصيل ذلك في المنتظم : ٨/٢٢٤ . راحة الصدور : ١٧٧ . الكامل في التاريخ : ١٠/٢٠ - ٢٢ .

(٣٥) تاريخ دولة آل سلجوق : ٦٥ . راحة الصدور : ٢١٦ .

(٣٦) الكامل في التاريخ : ١١/٢٤ - ٢٧ . المنتظم : ١٠/٤٥ ، ٤٩ .

(٣٧) المنتظم : ١٠/٤٧ .

(٣٨) م . ن : ١٠/٥٤ ، ٥٥ .

(٣٩) م . ن : ١٠/٦١ . ينظر : الذهبي : العبر في خبر من غبر : ٢/٨١ .

(٤٠) ينظر مثلا : المنتظم : ٨/١٦٤ . راحة الصدور : ١٦٩ = الكامل في التاريخ : ٩/٦٠٩ ، ١٠/٢٨٩ .

(٤١) القلقشندي : صبح الاعشى : ٣/٥٠٩ .

(٤٢) ينظر تفاصيل ذلك في : الكامل في التاريخ : ٩/٦١١ ، ٦١٢ .

(٤٣) م . ن : ٩/٦١٢ .

(٤٤) ابن الجوزي : المنتظم : ٨/١٦٩ . الكامل في التاريخ : ٩/٦٢٦ .

(٤٥) ينظر : الكامل في التاريخ : ٩/٦٢٦ ، ٦٤١ ، ١٠/٣٣٨ ، ٣٥٤ ، ٣٩٥ ، ٥٤٢ ، ٦٣٧ .

(٤٦) ينظر مثلا : المنتظم : ٩/٨٤ ، ١١١ ، ١٢٤ ، ١٣٤ ، ٢١٧ ، ١٠/٦٢ . الكامل في التاريخ : ٩/٦١٣ ، ٦٢٧ ، ١٠/٨ ، ٦١ ، ٢٢١ ، ٣٥٦ ، ٤٠٣ ، ٤٢٩ ، ٥٤٠ ، ٦١٥ ، ١١/٣٧ ، ٧٨ ، ١٣٧ ، ١٩٦ ، ٢١٥ .

(٤٧) ينظر : المنتظم : ٨/١٧٩ ، ١٠/١٣٤ ، ٣٠١ . الكامل في التاريخ : ٩/٦٢٥ ، ٦٣١ ، ٦٣٦ . سبط بن الجوزي : مرآه الزمان : ١٥ .

(٤٨) الكامل في التاريخ : ٩/٦٣١ .

(٤٩) ينظر : المنتظم : ٩/٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٨٨ ، ١٠/٦١ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ١٩٤ . الكامل في التاريخ : ١٠/٤٥٤ . راحة الصدور : ٢٦٠ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٥٠) تاريخ دولة آل ساجوق : ٥٥ ، ٥٦ . ولمعلومات اوسع عن الاقطاع العسكري عند السلاجقة ينظر : كرخان : النظم الاقطاعية في الشرق : ٢٠ - ٣٠ .

(٥١) تاريخ دولة آل سلجوق : ٢٣٤ ، ٢٥٣ . الكامل في التاريخ : ٢١٢/١٠ .

(٥٢) د . عبدالعزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي : ٩٦ ، ٩٧ .

(٥٣) ينظر : المنتظم : ٢٢٥/٨ ، ٢٨٤-٢٨٦ ، ٣٠٥ ، ١٤٦/٩ ، ١٤٥/١٠ ، ١٨٩ ، ١٩٠ . ٢٤١ . الكامل في التاريخ : ٩٠/١٠ ، ١٠٠ ، ١١٦ ، ١٥٧ ، ٤٧٠ ، ١٥٧/١١ .

(٥٤) ينظر : المنتظم : ١٧٠/٨ ، ١٧٣ ، ٢٣٥ ، ٢٧٣ ، ٢٩٧ ، ١٠٩/٩ ، ١٩٣ ، ١٢٥/١٠ ، ١٧٦ ، ٢٤٧ . الكامل في التاريخ : ٦٢٤/٩ ، ٢٩١/١٠ ، ٥٤٤ ، ٦١٧ ، ٧٧/١١ ، ١٣٧ .

(٥٥) ينظر : المنتظم : ١٧٠/٨ ، ١٨٠ ، ١٠٩/٩ ، ١١٣ ، ١٩٣ ، ٢٤٩ ، ٦٨/١٠ . الكامل في التاريخ : ٦٣١/٩ ، ٢٩٦/١٠ ، ٦١٧ ، ١٥٢/١١ .

(٥٦) ذيل تاريخ دمشق : ١٠٨ .

(٥٧) زبده الحلب في تاريخ حلب : ٦٥/٢ - ٦٧ . ينظر : مرآه الزمان : ٢٠١ .

رفنيّه : مدينة من اعمال حمص ، معجم البلدان : ٥٥/٣ .

(٥٨) مرآه الزمان : ١٨٢ .

(٥٩) تاسست امارة بني عقيل سنة ٣٨٠ هـ ، واتخذت مدينه الموصل مركزا لادارتها ، واستمرت في حكمها حتى سنة ٤٨٩ هـ . انظر : الدكتور خاشع المعاضيدي : دولة بني عقيل في الموصل .

(٦٠) المنتظم : ١٦٣/٨ . الكامل في التاريخ : ٦١٣/٩ . العيني : عقد الجمان (مخطوطة) ، ق ١ ج ٢٠ ورقة ١١١ .

(٦١) الكامل في التاريخ : ٦٢٥/٩ . العيني : عقد الجمان (مخطوطة) ق ١ ج ٢٠ .

(٦٢) عن مقاومة بني عقيل للبويهين انظر : الدكتور عبدالقادر المعاضيدي ، المقاومة العربية لحكم البويهيين الفرس في العراق « مجلة دراسات الاجيال ، عدد ٤ ، ٥ لسنة ١٩٨٣ ، ص ٣٩٠ - ٣٩٢ .

(٦٣) تاريخ دولة آل سلجوق : ١٢ . الكامل في التاريخ : ٦٣٣/٩ .

(٦٤) الكامل في التاريخ : ٦٣٩/٩ .

(٦٥) م . ن ، ٦٣٩/٩ .

(٦٦) انظر تفاصيل ذلك في الكامل في التاريخ : ٦٤٠/٩ - ٦٤٤ .

(٦٧) يقول ابن الاثير : في اثناء القتال صاح رئيس الرؤساء : « ياعلم الدين (يعني قريشا) امير المؤمنين يستدنيك ، فدنا منه ، فقال له رئيس الرؤساء : قد انالك الله منزلة لم ينلها امثالك ، وامير المؤمنين يستذم منك على نفسه واهله واصحابه بذمام الله تعالى وذمام رسوله صلى الله عليه وسلم وذمام العربية ، فقال - يعني قريشا - قد اذم الله تعالى له ، قال : ولي ؟ ولمن معه ؟ قال : نعم ، وخلع قلنسوته فاعطاها الخليفة واعطى مخصرته رئيس الرؤساء ذماما .. » الكامل في التاريخ : ٩ / ٦٤٢ ، ٦٤٣ .

(٦٨) المنتظم : ١٩٣/٨ . الكامل في التاريخ : ٦٤٢/٩ ، ٦٤٣ . العمراني : الانباء : ١٩٤ .

(٦٩) العمراني : الانباء : ١٩٤ . انظر : المنتظم : ١٩٣/٨ .

(٧٠) المنتظم : ٢٠٤/٨ ، ٢٠٥ ، الكامل في التاريخ : ٦٤٦/٩ .

(٧١) الكامل في التاريخ : ٦٤٦/٩ .

(٧٢) الكامل في التاريخ : ٦٤٧/٩ .

(٧٣) الكامل مي التاريخ : ٦٤٩/٩ . سبط ابن الجوزي : مرأة الزمان : ٦٤ (طبعة انقره) .

(٧٤) المنتظم : ٢١٠/٨ . الكامل في التاريخ : ٦٤٨/٩ ، ٦٤٩ . راحه الصدور : ١٠٩ .

تاريخ دولة آل سلجوق : ١٨ . سبط ابن الجوزي : مرأة الزمان : ٦٦ ، ٦٧ (طبعة انقره) ، ويذكر العيني ان المعركة دارت في منطقة واسط / عقد الجمان (مخطوطة) ، ق ١ ج ٢٠ ورقة ١٦٠ .

(٧٥) تاريخ دولة آل سلجوق : ٤٦ . اخبار الدولة السلجوقية : ٥٦ .

(٧٦) الكامل في التاريخ : ١١٤/١ ، ١١٥ . ويذكر ابن الجوزي ان دخولها كان في سنة ٤٧٢ هـ : المنتظم : ٣٢٣/٨ .

(٧٧) ابن العديم : زبده الحلب في تاريخ حلب : ٧٥/٢ .

(٧٨) انظر تفاصيل ذلك في الكامل في التاريخ : ١٣٤/١٠ - ١٣٧ . والجدير بالذكر ان الجند الاتراك لم يوافقوا على الصلح الذي تم بين ابن جهير ومسلم ، فهاجموا العسكر العقيلي ليلا وغنموا اموالهم واسروا عددا منهم ، فلما علم الامير منصور بن دبيس المزيدي امير الحلة افتدى اسرى بني عقيل وجهزهم وردهم الى الموصل ، فمدحه احد الشعراء بقوله :

كما احرزت شكر بني عقيل ... بآمد يوم كظهم الحذار
غداة رمتهم الاتراك طرّا ... بشهب في حوافلها ازورار
فما جبنوا ولكن فاض بحر ... عظيم لا تقاومه البحار

وهنا يتوضح البعد القومي لمقاومة التسلط السلجوقي من خلال الحس القومي للامارات العربية في العراق .

(٧٩) الكامل في التاريخ : ١٣٩/١٠ ، ١٤٠ . ابن العميد : تاريخ المسلمين : ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٨٠) انظر تفاصيل ذلك في الكامل في التاريخ : ٢٥٨/١٠ ، ٢٥٩ .

(٨١) عن هذه الامارة انظر : د . عبدالجبار ناجي : الامارة المزيدية .

(٨٢) المنتظم : ١٢٤/٩ . الكامل في التاريخ : ٣٠٨/١٠ .

(٨٣) الكامل في التاريخ : ١٠/ ٣٥ .

(٨٤) الكامل في التاريخ : ٣٥٧/١٠ . بينما يذكر ابن الجوزي ان السلطان اعطاه واسط : المنتظم : ٢٣٦/٩ . انظر د . عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ٨٧ .

(٨٥) الكامل في التاريخ : ٣٥٧/١٠ .

(٨٦) م . ن : ٣٦٨/١٠ .

(٨٧) لقد اصبح العراق مسرحا للنزاع القائم بين ابناء البيت السلجوقي ، انظر : المنتظم : ١١١/٩ ، ١١٢ ، ١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ٥/١٠ ، ٢٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ١٤٨ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠ .

الكامل في التاريخ : ٢٩٣/١٠ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٧٧ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٦٣٨ ، ٦٧٨ ، ٤٠/١١ ، ٤١ ، ١٦١ ، ١٩٥ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ . الدكتور عبدالقادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي : ٨٣ - ١٠٢ .

(٨٨) لما تم عقد الصلح بين السلطان بركيارف واخيه السلطان محمد في سنة ٤٢٩٨٧ هـ اتفق الطرفان على ان يكون العراق لبركيارق ، عدا بلاد الامير صدقه فتكون لمحمد . انظر : المنتظم : ١٣٨/٩ . الكامل في التاريخ : ٣٧٠/١٠ .

(٨٩) المنتظم : ٢٣٦/٩ . بينما يذكر ابن الاثير ان صدقه استولى على هذه المدينة بالقوة : الكامل في التاريخ : ٤٠٢/١٠ - ٤٠٤ .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٩٠) انظر تفاصيل ذلك في الكامل : ١٠/٤١٩ ، ٤٢٠ .
(٩١) المنتظم : ٩/١٣٢ ، ٢٣٦ .
(٩٢) انظر : المنتظم : ٩/١٤٤ . الكامل في التاريخ : ١٠/٣٨٠ .
(٩٣) الكامل في التاريخ : ١٠/٤٤٠ .
(٩٤) انظر تفاصيل ذلك في : المنتظم : ٩/١٥٦ ، ١٥٧ . الكامل في التاريخ : ١٠/٤٤١ ، ٤٤٩ . اخبار الدولة السلجوقية : ٨٠ ، ٨١ . تاريخ دولة آل سلجوق : ٩٣ ، ٩٤ .
(٩٥) كان الامير دبيس يقيم عند السلطان محمد بن ملكشاه منذ ان قتل والده سنة ٥٠١ هـ فلما توفي السلطان محمد سنة ٥١١ هـ طلب من السلطان محمود أن يعود الى الحلة ، فاذن له السلطان محمود وعاد الى الحلة وتولى امارة المزيديين . الكامل في التاريخ : ١٠/٥٢٣ . دولة آل سلجوق : ١١٠ ، ١١١ .
(٩٦) المنتظم : ٩/٢١٨ .
(٩٧) الكامل في التاريخ : ١٠/٥٥٢ .
(٩٨) الكامل في التاريخ : ١٠/٥٦٢ . يعلق ابن الاثير على هذا الخبر ويقول « وكان غرضه ان يختلفوا فينال من الجاه وعلو المنزلة ما ناله ابوه باختلاف السلاطين بركيارق ومحمد ابني ملكشاه » الكامل : ١٠/٥٦٢ .
(٩٩) انظر تفاصيل ذلك في : المنتظم : ٩/٢١٧ . الكامل في التاريخ : ١٠/٥٦٢ - ٥٦٥ .
(١٠٠) المنتظم : ٩/٢١٨ . الكامل في التاريخ : ١٠/٥٦٥ . ابن العمراني : الانباء : ٢١٣ .
ايلغازي بن ارتق كان حاكما على ماردين ، وهي قلعة مشهورة في بلاد الجزيرة ، حررها العرب في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، معجم البلدان : ٥/٣٩ .
(١٠١) الكامل في التاريخ : ١٠/٥٦٦ .
(١٠٢) المنتظم : ٩/٢٢٧ . الكامل في التاريخ : ١٠/٥٦٦ ، ٥٩٨ .
(١٠٣) الكامل في التاريخ : ١٠/٥٩٨ ، ٥٩٩ . ابن العمراني : الانباء في تاريخ الخلفاء : ٢١٥ .
(١٠٤) المنتظم : ٩/٢٤١ - ٢٤٣ . الكامل في التاريخ : ١٠/٦٠٧ - ٦١٠ . الانباء في تاريخ الخلفاء : ٢١٥ .
(١٠٥) انظر تفاصيل ذلك في المنتظم : ٩/٢٥٢ ، ٢٥٣ . الكامل في التاريخ : ٦٢٨ .
(١٠٦) الكامل في التاريخ : ١٠/٦٥١ . بينما يذكر ابن الجوزي ان السلطان سنجر قبض على دبيس واعتقله في قلعة تقريا الخليفة ، وان الذي اقنع السلطان بالسيطرة على العراق هو برنقش الزكوي : المنتظم : ٩/٢٥٣ والمرجح ان السلطان قبض على دبيس في البداية ثم اطلق سراحه بعد ذلك .
(١٠٧) الكامل في التاريخ : ١٠/٦٥١ .
(١٠٨) المنتظم : ١٠/٨ ، ٩ . الكامل في التاريخ : ١٠/٦٥١ .
(١٠٩) المنتظم : ١٠/١٢ . انظر : الكامل في التاريخ : ١٠/٦٥٥ .
(١١٠) الكامل في التاريخ : ١٠/٦٥٥ .
(١١١) يذكر الدكتور عبدالجبار ناجي ان دبيس اقام في الموصل في سنة ٥٢٣ هـ - ٥٢٦ هـ ، الامارة المزيدية : ١٥٤ - ١٥٦ .
(١١٢) الكامل في التاريخ : ١١/٢٤ ، ٢٥ .
(١١٣) سوف نتكلم عن هذه المعركة ونتائجها فيما بعد .
(١١٤) الكامل في التاريخ : ١١/٣٠ . انظر : المنتظم : ١٠/٥٢ ، ٥٣ . اخبار الدولة السلجوقية : ١٠٨ . تاريخ دولة آل سلجوق : ١٦٣ ، ١٦٤ .
(١١٥) الكامل في التاريخ : ١١/٣٦ .
(١١٦) م.ن : ١١/٦٠ ، ٦١ .

(١١٧) عن هؤلاء الامراء انظر : الكامل في التاريخ : ١١/٦١ ، ١٠٥ . سبط ابن الجوزي : مرآه الزمان : ٨/٢١٣ .
(١١٨) الكامل في التاريخ : ١١/١٦٢ ، ٢٧٦ ، المنتظم : ١٠/١٤٨ .
(١١٩) الكامل في التاريخ : ١١/٢٩٦ ، ٢٩٧ .
(١٢٠) الكامل في التاريخ : ١٠/١٢ ، ٤٤٧ .
(١٢١) م.ن : ١٠/٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٢١ .
(١٢٢) المنتظم : ٩/٢٤٥ . الكامل في التاريخ : ١٠/٢٩٦ ، ٦١٠ .
(١٢٣) الكامل في التاريخ : ١٠/٤٤٨ .
(١٢٤) م.ن : ٨/١٩٧ .
(١٢٥) ابن الاثير : الكامل في التاريخ : ٩/٦١١ - ٦١٣ .
(١٢٦) ينظر : المنتظم : ٩/٤٣ ، ٤٤ . الكامل في التاريخ : ١٠/١٦٤ ، ١٦٥ ، ٣٧٧ .
(١٢٧) ينظر تفاصيل ذلك في المنتظم : ٨/٢٩٣ .
(١٢٨) ينظر تفاصيل ذلك في الكامل في التاريخ : ١٠/٥٤٤ ، ٥٤٥ .
(١٢٩) ينظر : المنتظم : ٩/٢٣٢ .
(١٣٠) المنتظم : ١٠/٢٥ . الكامل في التاريخ : ١٠/٦٣٧ .
(١٣١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ : ١٠/٦١٦ . المنتظم : ٩/٢٤٣ .
(١٣٢) السمرقندي : جهار مقالة : ٣١ .
(١٣٣) المنتظم : ٩/١٩٣ - ١٩٦ . الكامل في التاريخ : ١٠/٥٢٥ ، ٥٢٣ .
(١٣٤) المنتظم : ٩/ ٢١٦ . تاريخ دولة آل سلجوق . راحة الصدور : ٢٥٨ . الكامل في التاريخ : ١٠/٥٥٣ .
(١٣٥) المنتظم : ٩/٢٥٤ .
(١٣٦) المنتظم : ٩/٢٥٤ ، ٢٥٥ .
(١٣٧) الكامل في التاريخ : ١٠/٦٣٧ ، المنتظم : ١٠/٣ ويذكر هذان المصدران ان الامير هو ابو الهيجاء الكردي صاحب اربيل .
(١٣٨) المنتظم : ١٠/٥ . الكامل في التاريخ : ١٠/٦٣٨ .
(١٣٩) المنتظم : ١٠/٢٠ . راحة الصدور : ٣٠٠ . الكامل في التاريخ : ١٠/٦٦٩ .
(١٤٠) راحة الصدور : ٢٠٨ ، ٢٠٩ . الكامل في التاريخ : ١٠/٦٧٤ .
(١٤١) انظر تفاصيل هذه المعارك في المنتظم : ١٠/٢٠ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٦ . الكامل في التاريخ : ١٠/٦٧٤ - ٦٧٨ ، ٦٨١ .
(١٤٢) المنتظم : ١٠/٢٥ . الكامل في التاريخ : ١٠/٦٧٦ . ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية : ٤٣ - ٤٥ .
(١٤٤) المنتظم : ١٠/٢٦ . الكامل في التاريخ : ١٠/٦٧٨ . التاريخ الباهر :
(١٤٥) تاريخ دولة آل سلجوق : ١٥٩ ، ١٦٠ .
(١٤٦) المنتظم : ١٠/٣٥ ، ٣٦ . انظر : الكامل في التاريخ : ١١/١٩ .
(١٤٧) المنتظم : ١٠/٤١ . الكامل في التاريخ : ١١/١٩ .
(١٤٨) المنتظم : ١٠/٣٦ ، ٤١ . الكامل في التاريخ . ١١/١٩ ، ٢٤ . تاريخ دولة آل سلجوق : ١٦١ . اخبار الدولة السلجوقية : ١٠٧ .
(١٤٩)
(١٥٠) دول آل سلجوق : ١٦٢ .
(١٥١) المنتظم : ١٠/٤٥ . الكامل في التاريخ : ١١/٢٥ ، ٢٦ . الانباء : ٢١٩ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١٥٢) المنتظم : ٤٩/١٠ . الكامل في التاريخ : ٢٧/١١ .
(١٥٣) المنتظم : ٤٩/١٠ . الكامل في التاريخ . ٢٧/١١ .
(١٥٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق : ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، تاريخ دولة آل سلجوق : ١٦١ ، ١٦٢ .
الفخري : ٣٥٠ . تاريخ مختصر الدول : ٣٥٥ . ابن واصل : مفرج الكرب : ٩٢/٦١/١ .
(١٥٥) يقول السيوطي عن المسترشد بالله : «كان ذا همه عالية ، وشهامة زائدة ، واقدام وراى ، وهيبة شديدة ، ضبط امور الخلافة ورتبها احسن ترتيب ... » تاريخ الخلفاء : ٤٣١ . انظر : الكامل في التاريخ : ٢٨/١١ .
(١٥٦) المنتظم : ٤٦/١٠ ، ٤٩ . الكامل في التاريخ : ٢٦/١١ .
(١٥٧) اخبار الدولة السلجوقية : ١٠٧ . الكامل في التاريخ : ٣٠/١١ .
(١٥٨) راحة الصدور : ٢٢٨ ، ٢٢٩ . الانباء في تاريخ الخلفاء : ٢٢٢ . اخبار الدولة السلجوقية . ١٠٨ .
(١٥٩) المنتظم : ٥٤/١٠ ويذكر ابن الاثير ان مقدار المال الذي تقرر في اثناء الصلح هو ٤٠٠,٠٠٠ دينار : الكامل في التاريخ : ٣٥/١١ .
(١٦٠) الكامل في التاريخ : ٣٥/١١ . المنتظم : ٥٥/١٠ .
(١٦١) المنتظم : ٥٥/١٠ . الكامل في التاريخ . ٣٦/١١ .
(١٦٢) المنتظم : ٥٧/١٠ . ٥٨ . الكامل في التاريخ : ٤٠/١١ ، ٤١ .
(١٦٣) المنتظم : ٥٩/١٠ . الكامل في التاريخ : ٤١/١١ . ابن الاثير : البداية والنهاية : ٢١٠/١٢ .
(١٦٤) راحة الصدور : ٣٣٢ . المنتظم : ٥٩/١٠ ، ٦٠ ، الكامل في التاريخ : ٤١/١١ ، ابن واصل : مفرج الكروب : ٥٨/١ - ٦٨ .
(١٦٥) انظر تفاصيل ذلك في : الكامل في التاريخ : ٦٠/١١ .
(١٦٦) المنتظم : ٧٢/١٠ . الكامل في التاريخ : ١٦٢/١١ . اخبار الدولة السلجوقية : ١٠٩ .
(١٦٧) ينظر . الكامل في التاريخ : ١٣٢/٩١١ .
(١٦٨) المنتظم : ١٣٣/١٠ . الكامل في التاريخ : ١٣٢/١١ .
(١٦٩) عن وفاة السلطان مسعود انظر : المنتظم : ١٤٧/١٠ . راحة الصدور : ٣٥٤ .
الكامل في التاريخ : ١٦٠/١١ . اخبار الدولة السلجوقية : ١٢٩ يقول ابن الاثير :
« ومات معه سعادة البيت السلجوقي فلم يقم له رايه يعتد بها ولا يلتفت اليها » الكامل في التاريخ : ١٦٠/١١ .
(١٧٠) يقول ابن الاثير عن الخليفة المقتفي لامر الله : « .. وهو اول من استولى بالعراق منفردا عن سلطان يكون معه من اول ايام الديلم الى الاخر ، واول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره واصحابه ، في حين المماليك على الخلفاء من عهد المستنصر الى الان » الكامل في التاريخ : ١١/ .
(١٧١) الكامل في التاريخ : ١٦١/١١ ، ١٦٢ .
(١٧٢) المنتظم : ١٤٨/١٠ . الكامل في التاريخ : ١٦١/١١ .
(١٧٣) المنتظم : ١٤٨/١٠ . الكامل في التاريخ : ١٦٢/١١ .
(١٧٤) المنتظم : ١٤٨/١٠ . الكامل في التاريخ : ١٦٢/١١ . مرآة الزمان : ج ٨ ق ١ : ٢١٢ ، ٢١٣ ، عقد الجمان (مخطوطة) ق ١ ج ٢١ ورقة . ٢٢٠ .
(١٧٦) المنتظم : ١٥٣/١٠ .
(١٧٧) المنتظم : ١٥٦/١٠ .
(١٧٨) المنتظم : ١٥٦/١٠ . ١٥٧ . الكامل في التاريخ : ١٩٥/١١ .
ا. الدولة السلجوقية ١٣٢ .

(١٧٩) انظر تفاصيل ذلك في المنتظم : ١٦٥/١٠ ، ١٦٩ - ١٧٠ . الكامل في التاريخ : ٢١٢/١١ - ٢١٥ . راحة الصدور : ٣٨٥ . البداية والنهاية ٣٤/١٢ .
(١٨٠) الكامل في التاريخ : ٢٦٨/١١ .
(١٨١) انظر : الكامل في التاريخ : ٢٨٦/١١ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ . عقد الجمان (مخطوطة) ق ٢ ج ٢١ ورقة ٣٩٩ .
(١٨٢) انظر : تاريخ دولة آل سلجوق : ٢٧٦ . اخبار الدولة السلجوقية : ٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ .
الكامل في التاريخ : ٣٧٧/١١ ، ٤٢٣ . الاتابكه : هم مربو اولاد السلاطين السلاجقة .
(١٨٣) الكامل في التاريخ : ٥٦٠/١١ . الذهبي : دول الاسلام : ٢٤٥/٢ .
(١٨٤) الكامل في التاريخ : ٥٢٦/١١ .
(١٨٥) انظر تفاصيل ذلك في : راحة الصدور : ٤٨٠ ، ٤٨١ . اخبار الدولة السلجوقية : ١٧٧ .
الكامل في التاريخ : ٢٤/١٢ ، ٢٥ . الفخري : ٢٥٩ .
(١٨٦) اخبار الدولة السلجوقية : ١٧٨ . راحة الصدور : ٣٤٨ .
(١٨٧) اخبار الدولة السلجوقية : ١٧٩ .
(١٨٨) راحة الصدور : ٤٨١ . اخبار الدولة السلجوقية : ١٨٠ . الكامل في التاريخ : ٧٦/٢ .
تبريز : احدى مدن اذربيجان : معجم البلدان : ٩٣/٢ .
(١٨٩) انظر تفاصيل ذلك في : راحة الصدور : ٥٠٢ ، ٥٠٣ . الكامل في التاريخ : ١٠٦/١٢ .
(١٩٠) انظر : الكامل في التاريخ : ١٠٨/١٢ . راحة الصدور : ٥١٣ ، ٥١٤ .
(١٩١) انظر تفاصيل ذلك في : الكامل في التاريخ : ٦٨/١٠ .
(١٩٢) الكامل في التاريخ : ٩٩/١٠ ، ١٠٠ .
(١٩٣) الكامل في التاريخ : ١٠٣/١٠ ، ١٠٤ .
(١٩٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق : ١١٠ ، ١١١ . الكامل في التاريخ : ١٠٤/١٠ .
ابن ميسر : تاريخ مصر : ٢٥ .
(١٩٥) ذيل تاريخ دمشق : ١١٢ . الكامل في التاريخ : ١١١/١٠ . ابن ميسر : ٢٦ . ابو الفدا : المختصر : ٢٧/٢ . ويبدو ان تاج الدولة تتش ، نائب السلاجقة في بلاد الشام اراد ابن ينفرد بالسلطة هناك ، فقد ذكرت هذه المصادر انه قتل القائد السلجوقي اتسز الخوارزمي ثم استولى على دمشق سنة ٤٧١ هـ .
(١٩٦) ذيل تاريخ دمشق : ١٢٠ . الكامل في التاريخ : ١٧٦/١٠ .
(١٩٧) انظر تفاصيل ذلك في : الكامل في التاريخ : ٢٠٢/١٠ ، ٢٠٣ . ابو الفدا : المختصر : ٦٧/٢ .
(١٩٨) ان النزاع الذي حدث بين تاج الدولة تتش وابن اخيه بركيارق بن ملكشاه على السلطنة . انتهى بهزيمة تتش وقتله سنة ٤٨٨ هـ .
(١٩٩) انظر تفاصيل ذلك في : الكامل في التاريخ : ٢٤٤/١٠ ، ٢٤٥ . راحة الصدور : ٢٢٠ .
الكامل في التاريخ : ٢٤٦/١٠ - ٢٤٨ .
(٢٠٠) انظر تفاصيل ذلك في : الكامل في التاريخ : ٢٦٩/١٠ . ابو الفدا : ٢٠٩/٢ ، ٢١٠ .
(٢٠١) ذيل تاريخ دمشق : ١٣٣ ، ١٣٤ . الكامل في التاريخ : ٢٦٤/١٠ .
(٢٠٢) ذيل تاريخ دمشق : ١٣٥ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(إنَّ سقوط بغداد بدأ عندما تخلى المعنيون عن المبادىء الاساسية التي يفترض بهم ان يقودوا بموجبها ، وعند ذاك فقد الشعب والكادر المباشر حماسه وفقد محور المنهج الواضح ...)

الرئيس القائد المجاهد
صدام حسين
٢٨ شباط ١٩٨٨

حصار المغول للعاصمة بغداد

سنة ٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م

العميد
عبد الجبار محمود السامرائي
عضو اتحاد المؤرخين العرب ـ بغداد

ما كاد النصف الاول من القرن السابع الهجري يشارف على الانتهاء ، حتى هبّ إعصار أسود نحو الجناح الشرقي للوطن العربي ، منطلقاً من الشرق الاقصى ، مستهدفاً اقتلاع كل شجرة زرعتها يد الخير ، وتدمير كل شاهد من شواهد الحضارة التي شيّدها البناة الطيبون على مر العصور ، تحقيقاً لهدف (إمحاء الشعوب) وفق عقيدة فاسدة رسخت في اذهان اولئك الاقوام في ذلك الزمن تزعم (ان الارض فسدت بسكانها ، وان المغول بعثوا لتطهيرها ! ولا يتم تطهيرها الا بالاستئصال والتدمير !).

لقد كان المغول لا يكترثون لإنماء بذور الحضارة مع اي شعب من الشعوب ، بل كان جلّ همهم تدمير الحضارات والتوسع والغزو ولذلك اندفعوا باتجاه بغداد العظيمة عاصمة العلم والمعرفة في سنة ٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م .

حال الامة العربية قبيل الغزو المغولي

حين بدأ المغول يهددون الجناح الشرقي للوطن العربي سنة ١٢٢١م لم تكن بغداد قادرة على مجابهة هذا التحدي بسبب الانقسامات وتعدد دول الطوائف والمنازعات الناشبة فيما بينها .

لقد كانت دولة خوارزم اقوى الدويلات الشرقية التي ضمت ما وراء النهر وايران ، وكانت علاقتها مع الخلافة العباسية سيئة ، لدرجة ان حكامها حاولوا الاستيلاء على السلطة غير مرة ، الا انهم لم يتمكنوا من تحقيق ذلك ، مما ادى الى استنزاف قوتهم وتسهيل أمر اسقاط دولتهم من قبل المغول سنة ١٢٣٠م ، في الوقت الذي كان ينبغي توحيد قوى المسلمين جميعاً لمواجهة الخطر المشترك ـ الغزو المغولي الوثني .

اما بلاد الشام ومصر ، فكانت تعاني الفوضى والانقسام بين الامراء الايوبيين والمماليك ، مما حدابالفرنجة الى مهاجمتها وشمالي افريقيا بين الحين والاخر .

وفي تلك الظروف ، كانت رسل الخليفة المستعصم (١٢٤٢ ـ ١٢٥٨م) تجوب البلاد ، تستصرخ امراءها لنبذ الشقاق والفرقة ، وتدعوهم للاتحاد استعداداً لمواجهة التحدي المغولي ، لكن دعوات الخليفة ذهبت ادراج الرياح ، وفشل في تحشيد الطاقات ، والقيام بهجوم معاكس على العدو ، او نقل المعركة الى الساحة المناسبة لها وهي ايران .

وبعد سقوط الدولة الخوارزمية ، انفتح الطريق امام المغول لغزو الوطن العربي ، واصبحت ايران مركزاً اساسياً يشنون منه غزواتهم على اطراف العراق وبلاد الشام . وتميّزت هذه الغزوات بطابع السرعة واشاعة البلبلة والفوضى وبث الرعب في النفوس واختبار قوة الخلافة ومدى استعدادها للمقاومة ، اضافة الى الحصول على الغنائم عن طريق السلب والنهب .

لقد كرر المغول هجماتهم على اطراف العراق والشام اكثر من

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثلاث عشرة حملة قبل حملة هولاكو ، هاجموا خلالها نصيبين وسنجار والخابور واطراف الموصل واربيل وشهرزور وسامرا وخانقين ويعقوبا والخالص ودجيل وداقوق ، ووصلوا اطراف بغداد عدة مرات[1] لغرض الحصول على قبابها المذهبية .

اذن ، كان هجوم المغول على الخلافة العباسية ذا هدف اقتصادي ، لان المغول كانوا من الاجناس التي تعاني من شظف العيش ، وتعيش على حافة الفقر ، بينما كان العرب يعيشون في بحبوحة نتيجة للثروات التي كانت تملأ الارض على امتداد الرقعة الجغرافية التي تبسط الدولة العباسية نفوذها عليها .

وعندما اصبح (منكوقان) حفيد (جنكيز خان) خاناً[2] على جميع المغول ، وجه اخاه (هولاكو)[3] لإكمال ما قام به المغول سابقاً من اكتساح العالم الاسلامي . فقام (هولاكو) بالسيطرة على ما تبقى من ايران ، واستطاع ـ حيث فشل غيره ـ تحطيم قلاع الاسماعيلية[4] واحتلّ عاصمتهم (آلموت) سنة ٦٥٤هـ ـ ١٢٥٦م ، وتمكن من القضاء على دولتهم ، وقتل امامهم (ركن الدين خورشاه) . وقد تم ذلك لهولاكو بمساعدة (نصير الدين الطوسي) وزير (ركن الدين خورشاه) ، ثم اصبح الطوسي بعد ذلك اليد اليمنى للطاغية هولاكو ووزيراً له[5] . وبعد ان استتب الامر لهولاكو في ايران ، وجه نظره نحو العراق بغية احتلاله باي ثمن ، فاخذ يعدّ العُدّة ، ويهيء سبل القتال والتقدم[6] . ففي محرم ٦٤٣هـ ـ ١٢٤٥م وصلت الاخبار الى بغداد من (اربيل) ان المغول تقدموا من (همدان)بستة عشر الفا قاصدين العراق[7] فاستعد الخليفة للقائهم ، وارسل قوات عسكرية كبيرة بقيادة (مجاهد الدين أيبك) المعروف بـ(الدويدار الصغير)[8] للتصدي لهم ، فالتقت هذه القوات بالمغول عند (بعقوبا) في معركة وصفها ابن كثير بانها (كانت وقعة عظيمة بين جيش الخليفة والتتار لعنهم الله ، فكسرهم المسلمون كسرة عظيمة وفرقوا شملهم ، وهزموا من بين ايديهم)[9] .

التحالف بين الفرنجة والتتر

لقد مضى على انتصار صلاح الدين الايوبي على الفرنجة في القدس نصف قرن لكن الفشل ظل يلاحق الفرنجة الذين تشبثوا ببعض الحصون والقلاع على الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، مثل (صور وعكا) وغيرهما ، كما فشلوا في الاحتفاظ بالقدس او اي من المناطق والمدن التي حررها العرب والمسلمون ، برغم الامدادات التي جلبوها من بلاد الغرب الى هذه الامارات والحصون .

غير ان الغرب الاستعماري كان قد قرر ان يقوم بجولة اخرى في صراعه ضدّ الحضارة العربية الاسلامية ، ولكن العوامل الموضوعية لم تكن مهياة له كي يقوم بهذه الجولة الجديدة ، فاخذ يبحث عن قوة مدمرة يستخدمها لضرب الامة العربية . (بطريقة الحرب بالنيابة) .

ولقد توافق هذا التفكير الاستعماري الغربي مع ظهور قوة المغول في اواسط اسيا كدولة ، تلك الدولة التي كونتها قبائل وثنية جبلية متبربرة ، اختطت لنفسها السلب والنهب والتدمير طريقاً ، واتخذت من تدمير الحضارات وتخريب المدن صناعة لا تعرف غيرها من الصناعات .

وقبل ان ينتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، قررت الدولة المغولية القيام بزحف مدمر يستهدف احتلال الكثير من بلاد اوربا بالاغارة على مناطقها الشمالية ـ الغربية . وهنا ، بذل الغرب جهوده المضنية كي يجعل وجهة هذا الزحف المغولي ـ التتري بلاد العرب والمسلمين ، ويعيد سيطرته ثانية على القدس وغيرها من مدن الشام وفلسطين[10] .

وبناء على ذلك ، كانت الرسل تترى بين البابوية في اوربا من جهة ، وبين بلاط الخان الكبير في (قراقورم) عاصمة الدولة التترية الشرقية . ففي سنة ١٢٤٥م ارسل البابا « اينوسنت الرابع » بعثة الى (قراقورم) برئاسة « جون ده بياني كابريني » وصلت (قراقورم) سنة ١٢٤٦ ، حيث قام بمباحثات طويلة وشاقة ، استهدفت تحويل مطامع التتار الى بلاد العرب ألغنية بالثروات ، وإقامة حلف بين الطرفين ، الا ان المباحثات لم تتوصل الى نتيجة بشان التحالف المذكور .

اما السفارة الثانية ، فقد كانت برئاسة الراهب « اسكين » الذي التقى القائد المغولي « بايجو » في تبريز سنة١٢٤٧م ، فابدى الاخير استعداده لعقد التحالف ، وارسل مع « اسكين » مبعوثين الى روما لعقد شروط التحالف . وفي السنة التالية ، عادت البعثة حاملة رسالة من البابا يعلن فيها عن اسفه لتاخر التحالف المغولي ـ الاوربي[11] ضد الدولة العباسية وعاصمتها بغداد العظيمة .

ومع ذلك ، ظل المغول يؤجلون عقد هذا التحالف مع الغرب .

وبينما كان « لويس التاسع » ملك فرنسا في « قبرص » في طريقه الى مصر في حملة استعمارية ، شتاء (١٢٤٨ ـ ١٢٤٩م) وصل الى « نيقوسيا » في اواخر سنة ١٢٤٨م « مُرقص » و« داود » يحملان معهما التحف والهدايا ، واعلنا انهما موفدين من قبل « خاقان التتار »[12] المسمى « الجيغداي » القائد المغولي ، ومندوب (الخان)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكبير في فارس ، وقدما الى (لويس التاسع) رسالة تتضمن عقد تحالف ضد الخلافة العباسية والايوبيين في الشام ، واستعداد المغول لمساعدة الفرنجة في احتلال بيت المقدس . فسر « لويس » بذلك ، واوفد سفارة في السنة التالية الى « قراقورم » لوضع شروط الحلف العدواني . وقد مكثت السفارة في « منغوليا » ثلاث سنوات لكنها لم تتوصل الى نتيجة ، لانها وجدت المغول ينظرون الى (لويس التاسع) باعتباره مجرد تابع لهم[13] .

وهكذا ظل المغول يسعون لاغراء الفرنجة ويلوحون لهم بالمساعدة على احتلال فلسطين والاراضي المقدسة . ففي شباط ١٢٥٢م غادرت (عكا) ـ التي كانت محتلة من قبل الفرنجة ـ بعثة برئاسة الراهب « جليوم روبرك » ، ارسلها لويس التاسع الى « قراقورم » ، حيث مثل بين يدي « منكوقان » خاقان المغول ، وقد مكث « روبرك » خمسة اشهر في « قراقورم » للتفاوض بين الطرفين ، فتم الاتفاق على ان البلاد الاسلامية معادية لخاقان المغول ، وانه عقد العزم على ان يوجه شقيقه الاصغر « هولاكو » الى العراق للقضاء على الخلافة ، كما ابدى استعداده للتفاهم حول القيام بعمل مشترك ضد العرب . وعادت البعثة في آب ١٢٥٥ للميلاد[14] .

لقد بذل الفرنجة كل ما يستطيعون في سبيل تحقيق هدفهم العدواني الا وهو ضرب العراق عسكرياً بيد المغول ، بذلوا حتى ماء الوجه وكرامة الرجال يؤيد ذلك المؤرخ العربي « ابن ابي الفضائل » الذي اشار الى ذلك « البرنس » الفرنجي وكيف ذهب الى مملكة التتر الشرقية ليستنجد بهم ضد المصريين ، وكيف بذل نفسه في مرضاتهم . وعندما اخذ يعدد لهم ما فتحت مصر من البلاد والحصون ، ومقدار قوة جيشها ، ليصورحاجته الى الامدادات ، اذ بملك التتر يطرح الامير الفرنجي ارضاً ، ويامر بضربه بين يديه ويقول له : (انت ما جئت الا لتخوّفني منه ـ اي من سلطان مصر ـ وتنفرني عنه ، وتملأ قلوب عسكري رعباً منه) !

ولكن الفرنجة يستمرون في المحاولات ، ويلجاون في سبيل تحقيق هدفهم الشرير الى اقلية دينية تعيش في بلاد المغول ، هي الاقلية « النسطورية » .

وامام العداء للعروبة والاسلام اتحدّ الفرنجة اللاتينيون مع « النساطرة » المغول ، برغم ان الغرب يرى في مسيحية النساطرة هرقطة وكفراً ! وان النساطرة الاولون قد اضطروا الى الهجرة من الغرب فراراً بمذهبهم ومعتقداتهم من الابادة الجماعية والتعذيب الوحشي ، حيث لم يجدوالهم سوى الشرق وطناً

واستغل الفرنجة احدى زوجات « هولاكو » ، واسمها « دوقوز خاتون » وكانت مسيحية نسطورية ذات نفوذ على قلب هذا الطاغية وعقله[15] وقد كانت تلك المرأة زوجاً سابقة لتولوي والد هولاكو ، ثم آلت اليه بعد وفاة ذلك الوالد !! وكانت تتمتع عنده بمنزلة رفيعة ، كما كان لها تاثير كبير عليه . لهذا لم يدخر (هولاكو) وسعاً في سبيل ارضائها فكان يحترم النساطرة ويفضلهم على غيرهم ، ويعهد اليهم بالمناصب العامة ، وهو انما فعل ذلك ، اكراماً لعيني زوجته « دوقوز خاتون »[16] وليس من شك في ان هذه المرأة النسطورية لعبت دوراً مهماً في حث زوجها هولاكو على مهاجمة الدولة العباسية ومحاصرة بغداد ومن ثم احتلالها والتوسع الى ابعد مما كانت عليه الدولة التترية . وبالطبع كان الفرنجة يحرضونها من اجل دفع هولاكو لارتكاب جريمته التاريخية الشنعاء .

وبدفع من الفرنجة ايضاً ، انضم « هيثوم الاول » ملك أرمينيا الصغرى الواقعة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، الى دول التحالف الفرنجي ـ المغولي ، والذي كان يتحدث خلال مفاوضات ذلك التحالف باسمه واسم الامير « بوهيمند » السادس ملك « انطاكية » . وقد وجد « هيثوم » ان الفرصة مواتية للانضمام الى المغول لاستخلاص بيت المقدس[17] .

وبذلك نجح الفرنجة في اقناع التتار بعقد هذا التحالف العدواني ضد الدولة العباسية ، وتجهيز الحملة لتدميرها ، بل واكثر من ذلك ، نجحوا في ان يقرر « هولاكو » ان يكون « كتبغا » ـ وهو من قبيلة تترية اعتنقت المذهب النسطوري ـ نائباً له في قيادة الجيش التتري . وعند ذلك ، جمع الامير الارمني « هيثوم » جيشاً انضم الى قوات « هولاكو » ، وقدم « البطريق » الارمني كي يمنح (البركة)للخان الوثني ولجنده[18] الزاحفين لتدمير بغداد عاصمة الحضارة العربية الاسلامية ، ومدينة السلام ، المدينة التي كانت شوكة في عيون الاعداء من فرنجة ووثنيين وباطنيين ، وستظل كذلك حتى قيام الساعة .

صفحة الخيانة والغدر

لقد كان أخطر ما شهده العراق في هذه الفترة ، وهو يتصدى لتحدي المغول بكل صلابة واباء ، هو ظهور بدايات لتحدّ وتآمر داخلي ، شكل خطراً حاسماً على واقع الدولة العربية ومستقبلها ، ذلك هو قيام تعاون خياني سرّي بين المغول والعناصر المعادية للعروبة والاسلام ، متمثلة بشخص (مؤيد الدين ابن العلقمي) الذي تولى الوزارة في بغداد سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م[19] .

ان خطورة (ابن العلقمي) وخيانته لا تكمن في شخصيته الحاقدة على العروبة والاسلام حسب ، وانما بموقعه السياسي

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

في الدولة (كوزير تفويض) ، حيث اهله منصبه الحساس هذا لان تجتمع بين يديه اسرار الدولة[٢٠] .

ويحدثنا (ابن تغري بردي) عن بدايات هذا التعاون الخياني فيقول : (وفي سنة ٦٤٤هـ قدم رسولان من التتار الى بغداد ، فاجتمعا بالوزير ابن العلقمي ، فتغمّت على الناس بواطن الامور)[٢١] .

ويصف السيوطي هذا التآمر لابن العلقمي بقوله : (انه باطن التتار ، وناصحهم ، واطمعهم في المجيء الى العراق ، واخذ بغداد ، وصار اذا جاء خبر منهم ، كتمه عن الخليفة ، ويطالع اخبار التتار الى ان حصل ما حصل)[٢٢]

ان هذا التآمر ، وتلك الخيانة من ابن العلقمي وتسريبه أسرار الدولة للتتر ، مهّد لهم الطريق للقيام بهجمات عسكرية جديدة على العراق وصولًا لغزو العاصمة بغداد وتدميرها[٢٣] وقد بدأت بوادر تلك الهجمات بالفعل سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م ، فقد شن التتار هجوماً عنيفاً على (خانقين) تمهيداً لغزو بغداد .

وجدد ابن العلقمي تآمره وخيانته للدولة العربية حين دخل بمكاتبات سرية مع التتر سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م كان الغرض منها تقويض بنيان الدولة والقضاء عليها تماماً . وفي سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م جدد ابن العلقمي تلك المراسلات السرية ، فاسفرت عن قيام التتر بارسال حملة عسكرية بقيادة (جرماغون) سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م لغزو العراق واحتلاله ، فوجه الخليفة اليهم جيشاً بقيادة (اقبال الشرابي) فالحق بهم هزيمة ردّتهم على اعقابهم خاسرين[٢٤] .

وفي سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م عاود التتار الاتصال بابن العلقمي لاستجلاء الموقف والاتفاق معه على الخطوات التالية ، فارسل يخبرهم باستعداده للتعاون معهم ، ويحثهم على الزحف نحو بغداد ، وانهسيقوم بتمهيد الطريق أمامهم لاحتلالها ، مقابل ان يكون نائبهم عليها بعدئذٍ .

ويذكر ابن خلدون : (ان ابن العلقمي وزير المستعصم ببغداد ، ارسل ابن الصلايا الى هولاكو بكتاب ووصية يستحثّه للمسير الى بغداد ، ويسهل عليه أمرها)[٢٥] فتاهبوا لغزوها .

وتلقي الوثائق التاريخية مزيداً من الاضواء على الدور الخياني للوزير ابن العلقمي ، فابن كثير يكشف عن دور هذا الخائن الغدّار في تخفيض عدد افراد القوات العربية المسلحة الى حدٍ لا تقوى معه على مجابهة التحدي التتري والتصدي له ، كما كانت تفعل سابقاً فيقول : (ان الوزير ابن العلقمي كان يجتهد في صرف الجيوش ، واسقاط اسمهم من الديوان ، فكانت العساكر في اخر ايام المستنصر قريباً من مائة الف مقاتل ... فلم يزل يجتهد ابن العلقمي في تقليلهم الى ان لم يبق سوى عشرة آلاف ، ثم كاتب التتار واطمعهم في اخذ البلاد ، وسهّل عليهم ذلك ، وحكى لهم حقيقة الحال ، وكشف لهم ضعف الرجال)[٢٦] .

ويؤكد المقريزي (ان الوزير ابن العلقمي قطع ارزاق الجند واستجرّ التتار)[٢٧]

واشار الديار بكري الى هذا العمل الخياني بقوله : (ان ابن العلقمي كان كتب كتاباً الى هولاكو ملك التتار ... انك تحضر الى بغداد ، وانا اسلمها لك ، وكان قد داخل قلب اللعين الكفر ، فكتب هولاكو (ان عساكر بغداد كثيرة ، فان كنت صادقاً فيما قلته وداخلًا في طاعتنا ، فرق عساكر بغداد ونحن نحضر) . فلما وصل كتاب هولاكو الى الوزير ، دخل على المستعصم وقال له : (ان جندك كثير وعليك كلفة كبيرة والعدو قد رجع من بلاد العجم ، والصواب انك تعطي دستور الخمسة عشر الفاً من عسكرك وتوفير معلومهم) ـ اي رواتبهم ـ . فخرج الوزير لوقته ومحا اسم عشرين الفاً من الديوان ، ثم كتب الى هولاكو بما فعل . فلما بلغ هولاكو ما فعل الوزير ـ ابن العلقمي ـ ببغداد ركب وقصدها)[٢٨] بغية الاحتلال والتدمير .

اما ابن شاكر الكتبي والصفدي فيذكران ان ابن العلقمي لما كان يكاتب التتر تحيل مرة الى ان اخذ رجلًا وحلق رأسه حلقاً بليغاً وكتب ما اراد عليه بوخز الابر كما يفعل بالوشم ، ونفض عليه الكحل وتركه عنده الى ان طلع شعره وغطى ما كتب ، فجهزه وقال : اذا وصلت مُرهُم بحلق رأسك ودعهم يقرأون ما فيه وكان آخر الكلام : إقطعوا الورقة ـ اي الرقبة ـ فضربت رقبته ، وهذا غاية في المكر والخزي)[٢٩] .

ان الروايات التاريخية المتقدم ذكرها ، تشير بوضوح الى حقيقة مفادها : ان التتر وان كان من جملة اهدافهم العامة تحدي العراق وصولًا لغزوه واخضاعه لإرادتهم . الا ان تآمر ابن العلقمي ، شجع هؤلاء على معاودة تحديهم العراق وتهديد الخلافة وتوعدها ، وبذلك تجاوز الخبيث قيم الوطنية والرجولة الحقة[٣٠] ولا عجب ان سمي من قبل بعض المؤرخين بـ(خاين الدين) .

المراسلات بين هولاكو والمستعصم

يذكر رشيد الدين فضل الله (ان هولاكو خان ارسل في العاشر من رمضان سنة ٦٥٥هـ رسولًا الى الخليفة ـ المستعصم بالله ـ يتهدده ويتوعده قائلًا : (لقد ارسلنا اليك رسلنا وقت فتح قلاع الملاحدة ، وطلبنا مدداً من الجند ، ولكنك اظهرت الطاعة ولم تبعث الجند ، وكانت آية الطاعة والاتحاد ، ان تمدنا بالجيش عند

الكبير في فارس ، وقدما الى (لويس التاسع) رسالة تتضمن عقد تحالف ضد الخلافة العباسية والايوبيين في الشام ، واستعداد المغول لمساعدة الفرنجة في احتلال بيت المقدس . فسر « لويس » بذلك ، واوفد سفارة في السنة التالية الى « قراقورم » لوضع شروط الحلف العدواني . وقد مكثت السفارة في « منغوليا » ثلاث سنوات لكنها لم تتوصل الى نتيجة ، لانها وجدت المغول ينظرون الى (لويس التاسع) باعتباره مجرد تابع لهم[١٣] .

وهكذا ظل المغول يسعون لاغراء الفرنجة ويلوحون لهم بالمساعدة على احتلال فلسطين والاراضي المقدسة . ففي شباط ١٢٥٢م غادرت (عكا) - التي كانت محتلة من قبل الفرنجة - بعثة برئاسة الراهب « جليوم روبرك » ، ارسلها لويس التاسع الى « قراقورم » ، حيث مثل بين يدي « منكوقان » خاقان المغول ، وقد مكث « روبرك » خمسة اشهر في « قراقورم » للتفاوض بين الطرفين ، فتم الاتفاق على ان البلاد الاسلامية معادية لخاقان المغول ، وانه عقد العزم على ان يوجه شقيقه الاصغر « هولاكو » الى العراق للقضاء على الخلافة ، كما ابدى استعداده للتفاهم حول القيام بعمل مشترك ضد العرب . وعادت البعثة في آب ١٢٥٥ للميلاد[١٤] .

لقد بذل الفرنجة كل ما يستطيعون في سبيل تحقيق هدفهم العدواني الا وهو ضرب العراق عسكرياً بيد المغول ، بذلوا حتى ماء الوجه وكرامة الرجال يؤيد ذلك المؤرخ العربي « ابن ابي الفضائل » الذي اشار الى ذلك « البرنس » الفرنجي وكيف ذهب الى مملكة التتر الشرقية ليستنجد بهم ضد المصريين ، وكيف بذل نفسه في مرضاتهم . وعندما اخذ يعدد لهم ما فتحت مصر من البلاد والحصون ، ومقدار قوة جيشها ، ليصور حاجته الى الامدادات ، اذ بملك التتر يطرح الامير الفرنجي ارضاً ، ويامر بضربه بين يديه ويقول له : (انت ما جئت الا لتخوّفني منه - اي من سلطان مصر - وتنفرني عنه ، وتملأ قلوب عسكري رعباً منه) !

ولكن الفرنجة يستمرون في المحاولات ، ويلجاون في سبيل تحقيق هدفهم الشرير الى اقلية دينية تعيش في بلاد المغول ، هي الاقلية « النسطورية » .

وامام العداء للعروبة والاسلام اتحدّ الفرنجة اللاتينيون مع « النساطرة » المغول ، برغم ان الغرب يرى في مسيحية النساطرة هرطقة وكفراً ! وان النساطرة الاولون قد اضطروا الى الهجرة من الغرب فراراً بمذهبهم ومعتقداتهم من الابادة الجماعية والتعذيب الوحشي ، حيث لم يجدوالهم سوى الشرق وطناً

واستغل الفرنجة احدى زوجات « هولاكو » ، واسمها « دوقوز خاتون » وكانت مسيحية نسطورية ذات نفوذ على قلب هذا الطاغية وعقله[١٥] وقد كانت تلك المرأة زوجاً سابقة لتولوي والد هولاكو ، ثم آلت اليه بعد وفاة ذلك الوالد !! وكانت تتمتع عنده بمنزلة رفيعة ، كما كان لها تاثير كبير عليه . لهذا لم يدخر (هولاكو) وسعاً في سبيل ارضائها فكان يحترم النساطرة ويفضلهم على غيرهم ، ويعهد اليهم بالمناصب العامة ، وهو انما فعل ذلك ، اكراماً لعيني زوجته « دوقوز خاتون »[١٦] وليس من شك في ان هذه المرأة النسطورية لعبت دوراً مهماً في حث زوجها هولاكو على مهاجمة الدولة العباسية ومحاصرة بغداد ومن ثم احتلالها والتوسع الى ابعد مما كانت عليه الدولة التترية . وبالطبع كان الفرنجة يحرضونها من اجل دفع هولاكو لارتكاب جريمته التاريخية الشنعاء .

وبدفع من الفرنجة ايضاً ، انضم « هيثوم الاول » ملك أرمينيا الصغرى الواقعة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، الى دول التحالف الفرنجي - المغولي ، والذي كان يتحدث خلال مفاوضات ذلك التحالف باسمه واسم الامير « بوهيمند » السادس ملك « انطاكية » . وقد وجد « هيثوم » ان الفرصة مواتية للانضمام الى المغول لاستخلاص بيت المقدس[١٧] .

وبذلك نجح الفرنجة في اقناع التتار بعقد هذا التحالف العدواني ضد الدولة العباسية ، وتجهيز الحملة لتدميرها ، بل واكثر من ذلك ، نجحوا في ان يقرر « هولاكو » ان يكون « كتبغا » - وهو من قبيلة تترية اعتنقت المذهب النسطوري - نائباً له في قيادة الجيش التتري . وعند ذلك ، جمع الامير الارمني « هيثوم » جيشاً انضم الى قوات « هولاكو » ، وقدم « البطريق » الارمني كي يمنح (البركة)للخان الوثني ولجنده[١٨] الزاحفين لتدمير بغداد عاصمة الحضارة العربية الاسلامية ، ومدينة السلام ، المدينة التي كانت شوكة في عيون الاعداء من فرنجة ووثنيين وباطنيين ، وستظل كذلك حتى قيام الساعة .

صفحة الخيانة والغدر

لقد كان أخطر ما شهده العراق في هذه الفترة ، وهو يتصدى لتحدي المغول بكل صلابة واباء ، هو ظهور بدايات لتحدّ وتآمر داخلي ، شكل خطراً حاسماً على واقع الدولة العربية ومستقبلها ، ذلك هو قيام تعاون خياني سرّي بين المغول والعناصر المعادية للعروبة والاسلام ، متمثلة بشخص (مؤيد الدين ابن العلقمي) الذي تولى الوزارة في بغداد سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م[١٩] .

ان خطورة (ابن العلقمي) وخيانته لا تكمن في شخصيته الحاقدة على العروبة والاسلام حسب ، وانما بموقعه السياسي

الاخيرة التي وجهها الى الخليفة المستعصم، وجاء فيها: (اذهب واصنع من الحديد والمدن والاسوار، وارفع من الفولاذ والابراج والهياكل، واجمع جيشاً من المردة والشياطين، فسانزلك ولو كنت في السماء، وسادفع بك غصباً الى افواه السباع)[٣٦]. ويتضح من الاسلوب ان الكاتب لم يكن هولاكو وانما كان الطوسي.

تصميم هولاكو على غزو بغداد

ويظهران هولاكو كان يفكر في كثرة جند بغداد ولذلك استشار (حسام الدين المنجم) الذي كان مصاحباً له طالباً منه ان يبيّن له الطالع فاخبره بانه ليس ميموناً قصد اسرة الخليفة والزحف على بغداد واحتلالها، واذا اصر هولاكو على الذهاب فستظهر له ستة انواع من الفساد: هي ان تنفق الخيل كلها، ويمرض الجنود، وان الشمس لا تطلع، وان المطر لا ينزل، وتهب ريح صرصر، وينهار العالم بالزلزال، ولا ينبت النبات في الارض، وان الملك الاعظم يموت في تلك السنة. وقد طلب هولاكو من «نصير الدين الطوسي» رأيه في الامر وفي ما تقول النجوم، فاخبره الطوسي بانه (لن تقع اية واقعة من هذه الاحداث، بل بالعكس فان هولاكو خان سيحل محل الخليفة) وبيّن له فساد هذا المعتقد، وشجعه على الزحف على بغداد[٣٧].

وبذلك كشف الطوسي عن حقده على العروبة والاسلام، وشجع الطاغية هولاكو على غزو بغداد واحتلالها، ثم اصدر فتوى [شرعية] لهولاكو (بعدم وجود موانع شرعية من احتلال بغداد).

وبذلك دفعت فتوى الطوسي وحقده، وتآمر ابن العلقمي وخيانته (هولاكو) على تجهيز جيشه والتاهب لغزو العراق واحتلال بغداد، فتحرك بقواته التي بلغت ٢٠٠ الف جندي[٣٨] باتجاه العراق، قاصداً العاصمة بغداد.

وكانت استعدادات المغول ضخمة، فقد امر هولاكو العديد من قواده البارزين بالتحرك للقيام بمحاصرة بغداد من جميع جهاتها، وعلى النحو الاتي:

١ ـ الجناح الايمن:

آ. يسير القائد (بايجو نويان) من آسيا الصغرى الى العراق ثم يعبر نهر دجلة من تكريت وينحدر الى اعمال بغداد.

ب. يسير القائد (سوغو نجاق) بقطعة من الجيوش على (اربل) ويعبر دجلة ويجتمع بالامير «بايجو». ومن هناك يتم الزحف على الجانب الغربي من بغداد.

٢ ـ الجناح الايسر:

يتحرك (كيتو باجتو) الذي كان في ايران الوسطى من (لورستان) لينقض على العراق.

٣ ـ القلب:

يبقى المجرم الملعون (هولاكو) في قلب الجيش ومعه كبار الامراء، مثل «كوكا ايلكا» و«ارقتو» و«آرغون» و«أرقتو»، ويتمركزون شرقي بغداد. غير ان هولاكو غيَّرَ من خططه العسكرية السابقة ففي التاسع من محرم سنة ٦٥٦هـ عبر «بايجو نويان» و«بوقا تيمور» و«سوغو نجاق» نهر دجلة، عن طريق نهر دجيل[٣٩] ووصلوا الى نواحي نهر عيسى[٤٠].

وكان هولاكو قد وضع خطة للاطباق على بغداد من جميع جهاتها، واصدر اوامره الى قسم من جيشه بعبور دجلة ليحيط بالجانب الغربي، في حين يتولى بنفسه الالتفاف على القسم الشرقي من بغداد.

يوميات حصار بغداد

ـ في محرم من سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م تحرك هولاكو من (همدان) فوصل الى (اسد آباد)، حيث أوفد رسولًا الى بغداد يطلب الى الخليفة المستعصم الحضور امامه بهدف التوصل الى اتفاق لوقف الحرب، وترك للخليفة الخيار في الحضور او ان ينيب عنه وزيره (ابن العلقمي) وقائده (الدويدار) و(سلمان شاه). غير ان الخليفة لم يكن يملك القدرة على حمل هؤلاء الثلاثة بالخروج لملاقاة هولاكو، فاكتفى بارسال (شريف الدين ابن الجوزي) وخوله بذل الاموال لاقناع الزعيم المغولي بالعودة عن بغداد، غير ان ذلك لم يجد نفعاً[٤١].

ـ كان في بغداد حزبان متعارضان في موقفهم من الخطر المغولي، حزب ينادي بوجوب المهادنة واستعمال الوسائل السلمية لرد المغول وتجنب الدخول معهم في حرب، وكان على رأس هذا الحزب الخائن الموتور المخادع (ابن العلقمي). وحزب ثانٍ كان يرى الحرب والمقاومة هي الوسيلة الناجحة في رد المغول على اعقابهم وانقاذ البلاد من خطرهم. وكان على رأس هذا الحزب أبرز قادة الجيش، وهم: (الدويدار الصغير) و(ابن الدويدار) و(سليمان شاه).

وكان موقف هؤلاء العسكر يتلخص في ان مجرد التلويح بالصلح والاستسلام للعدو. كان يعني الطعن والمساس بقدرتهم العسكرية وقوتهم المعنوية، وهي امور لا يستسيغها العسكريون المحترفون في كل زمان ومكان.

وأخيراً، رجحت كفة العسكريين، ورفض الخليفة الاستسلام لهولاكو، كما رفض الاستماع الى [نصيحة] وزيره

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(ابن العلقمي)[٤٢] وأمر قائده (مجاهد الدين أيبك الدويدار) بالخروج على رأس قوات بغداد للتصدي لهولاكو على طريق (حلوان)[٤٣] .

ـ لم يرض الطاغية (هولاكو) على الوفد الذي ارسله الخليفة اليه برئاسة (ابن الجوزي) ، بل استشاط غضباً ، وارسل يطلب من الخليفة ان يهدم اسوار مدينة بغداد ، وان ياتي بنفسه امام (الخان) ليرضى عنه !!!

ـ رفض الخليفة هذا الامر ، وارسل هولاكو رسولًا لدعوة الخليفة مرة اخرى للحضور الى « اسد آباد » ، حيث كان فيها هولاكو .

ـ وصل (ابن الجوزي) الى (دينور) ثانيةً قادماً اليها من بغداد ، حاملًا رسالة من الخليفة تتضمن الوعد والوعيد ، وطالباً ان يعود (هولاكو) من حيث اتى ويتراجع ، في مقابل ان يسلم الخليفة لهولاكو كل ما يطلب من اموال وتحف .

ـ كان رد « هولاكو » : (وكيف نترك زيارة الخليفة بعد كل ما قطعناه من هذا الطريق ؟ سوف نعود بعد الحضور للقائه والتحدث معه[٤٤]

ـ في التاسع من ذي الحجة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م وصل هولاكو شاطيء نهر حلوان وعسكر هناك . وبقي الى الثاني والعشرين من ذلك الشهر[٤٥] .

ـ وعندما علمت بغداد بتقدم هولاكو ، سار جيش بقيادة (الدويدار) و(ابن كر) من بغداد ، وعسكر على مقربة من « بعقوبة » ، التي تبعد عن بغداد نحو ثلاثين ميلًا الى الشرق .

ـ وعندما وصلت قوات المغول الى غربي بغداد ، امر الخليفة قائد الجيش (الدويدار) وبقية امراء الجيش . بالتوجه لملاقاة الغزاة ، فعبروا دجلة[٤٦] لملاقاتهم .

ـ في يوم الاربعاء ٩ محرم ٦٥٦هـ اشتبك جيش الخلافة بجيوش المغول التي كانت تحت قيادة (سو نجاق وبوقا تيمور) في حدود الانبار ، على باب قصر المنصور ، على بعد تسعة فراسخ عن بغداد[٤٧] وقد مني المغول بخسارة فادحة على يد (الدويدار) و(ابن كر) ، حيث قتل من المغول عدد كبير وحملت رؤوسهم الى بغداد[٤٨] « وما زال الدويدار يتبعهم بقية نهاره .... فادركه الليل ، وقد تجاوز نهر بشير[٤٩] ببزُ نُجيل فباتوا هناك)[٥٠] وقد وصف (الديار بكري) صبر العراقيين وشدة بأسهم وقتالهم لعدوهم بقوله :

(واجتمع اهل بغداد وتحالفوا على قتال هولاكو ، وخرجوا الى ظاهر المدينة ، ومشى عليهم هولاكو بعساكره ، فقاتلوا قتالًا شديداً ، وصبر كلُ من الطائفتين صبراً عظيماً ، وكثرت الجراحات بين الفريقين ، ونصر الله تعالى عساكر بغداد ، وانكسر هولاكو اقبح كسرة ، واسر المسلمون من المغول جماعة ، وعادوا بالاسرى ورؤوس القتلى الى ظاهر بغداد ، ثم نزلوا بخيمهم مطمئنين بهروب العدو)[٥١] .

ويبدو من سير الحوادث المتلاحقة ان (ابن العلقمي) الخائن الغدّار ، قد احس بخطورة النصر الذي حققه جيش الخلافة العباسية على وجوده ومستقبله السياسي . وتلافياً لهذه الخطورة بادر الى الامعان في الخيانة ، لاستثمار الوقت في عمل سريع ومؤثر يعيد الموقف لصالحه وصالح حلفائه الغزاة المغول[٥٢] (فارسل في تلك الليلة جماعة من اصحابه فقطعوا شط الدجيلة ، فخرج ماؤها على عسكر بغداد وهم نائمون فغرقت مواشيهم وخيامهم وأموالهم ، وصار السعيد منهم من لقي فرساً يركبها ، وكان الوزير [ابن العلقمي] قد ارسل الى هولاكو يعرّفه بما فعل [ويشجعه] على الرجوع الى بغداد ، فرجعت عساكر هولاكو الى ظاهر المدينة ، فلم يجدوا هناك من يردهم)[٥٣].

ـ في الحادي عشر من محرم سنة ٦٥٦هـ استكمل المغول حشودهم على الضفة الغربية لنهر دجلة ، وتولى قيادة هذه الحشود ثلاثة من كبار امرائهم ، وهم : (بايجو ، وبقاتيمور ، وسونجاق) ، في حين كان « هولاكو » و« كتبغا » يضيقان الخناق على بغداد من الجانب الاخر . وبادر المغول الى اقامة الاستحكامات ، فاقاموا على دجلة باعلى المدينة وباسفلها جسرين عائمين على السفن إمعاناً في تضييق الحصار على بغداد ، وكي لا يدعوا لاهلها الفرصة في الرحيل عن طريق النهر . واستخدم المغول جذوع النخيل للرمي بالمنجنيق بدلًا من الاحجار التي لم تكن متوفرة حول بغداد ، حيث كانوا ياتون بها من جبل حمرين وجلولاء[٥٤] .

ـ وتحت وطأة الحصار وشدة القصف ، واصل الوزير (ابن العلقمي) خيانته وغدره ، حيث اتصل بالعدو ، ونهى المقاتلين عن القتال ، وذلك بتثبيط عزائمهم بحجة ان الصلح سيتم بين الطرفين . وقد اكد هذه الحقيقة صاحب (الحوادث الجامعة) حيث قال : (ان الوزير ابن العلقمي خرج في اليوم الرابع عشر من المحرّم الى خدمة السلطان ـ هولاكو ـ في جماعة من مماليكه واتباعه ، وكانوا ينهون الناس عن الرمي بالنشاب ويقولون : سوف يقع الصلح ... فلا تحاربوا)[٥٥] .

ـ ان خروج ابن العلقمي ـ المجرم الملعون ـ من بغداد لمقابلة هولاكو خارجها ، لم يكن لتقرير الصلح او لدفع الاذى عن عاصمة الخلافة وسكانها حسب مزاعمه ، وانما كان لاستكمال اخر حلقات الغدر والخيانة مع التتر ، وتذكيرهم بوعودهم له في ضمان نفسه واهله واتباعه ، عند اقتحامهم الوشيك للعاصمة ، تاركاً امر الخليفة والمسلمين لمشيئة العدو[٥٦] ، قال ابن الساعي : (فخرج

اليهم الوزير فاستوثقهم على اهله ونفسه ، تم رجع)[٥٧] .

- وفي يوم الثلاثاء ١٥ محرم ٦٥٦هـ قدم (بو قاتيمور) و(بايجو) و(سونجاق) الى بغداد واستولوا على الجانب الغربي منها[٥٨] وقد نزل (بايجو نوين) في محلة « القرية » مقابل دار الخلافة تماماً)[٥٩] وكان هذا الجزء من بغداد قد خلى من اهله ، حيث التجأوا الى بغداد الشرقية ، ومن هناك اخذ المغول بالرمي بالنشاب الى الجانب الغربي ، فكانت السهام تصل الى الدور الشطانية[٦٠] .

- ومن (خانقين) تحرك هولاكو تاركاً معسكراته ، مواصلاً سيره الى بغداد ، ونزل في الجهة الشرقية منها في يوم الاثنين الحادي والعشرين من محرم ٦٥٦هـ وحاصر جميع جهاتها الشرقية[٦١] وحال وصوله امر ببناء سور حول بغداد . كما بنى المغول سوراً اخر في بغداد الغربية ، ونصبت المنجنيقات [مدافع ذلك الزمان البعيدة المدى] بازاء سور بغداد من جميع الجوانب ، كما رتبوا (العرادات) والات النفط . وقد وصف (ابن الفوطي) السور الذي بناه هولاكو بقوله : (فامر بحفر خندق وبنى بترابه سوراً محيطاً ببغداد ، وعمل له ابواب ، ووثب عليها امراء المغول ، وشرعوا في عمل ستائر المجانيق ونصبوا المجانيق والعرادات)[٦٢] .

- وقد احتاط هولاكو بالاضافة الى الطوق الذي وضعه حول بغداد من البر ، فوضع جسراً تحت بغداد ليمنع من ينحدر الى (واسط) بواسطة السفن ، فعقد هذا الجسر تحت قرية (العقاب) ، ولم يعلم به اهل بغداد ، فكانت السفن تصل اليه ، وكان المغول يأخذون من بها ويقتلونهم ، فقتل عنده خلق كثير[٦٣] .

- اما عن وضعية الدفاع في بغداد ، فقد وصفها (الكازروني) بقوله : (واما عسكر البغاددة فانهم وقفوا على السور ، ونصبوا مجانيقهم ، وشرعوا في الرمي ، فلم يصيبوا شيئاً ، ولا تعذاهم حجر ، وتعطلت العرادات وغيرها . وتقدم الخليفة باقامة جماعة من الرماة على السور ، واطلق مالاً كثيراً اليهم ، فخرج جماعة من الاعيان واعوان الديوان والمال معهم ، وشرعوا في اثبات واطلاق اليسير وسرقة الباقي شرهاً الى المال)[٦٤] وهذا يدل على ان وسائل بغداد الدفاعية كانت ضعيفة لا تقوى على مقاومة هجوم المغول .

- استمر المغول بإعداد عدة الحصار وتهيئة وسائل الحرب الى يوم الثلاثاء ٢٢ محرم ٦٥٦هـ ، حيث بدأوا هجومهم الكبير على بغداد ، وكان هولاكو في القلب معسكراً في مقابل (برج العجمي) لباب الحلبة . وكان لنجاح المغول في الاستيلاء على هذا الجزء الهام من المدينة اثره السلبي على معنويات المدافعين وسكان بغداد .

- اما (ايلكا نويان) و(قربغا) فكانا على بوابة (كلوذاى) . ونزل (قولي) و(بولغا) و(توتار) و(شيرامون)و(ارقيو) في عرض المدينة في مواجهة بوابة سوق السلطان . وكان (بوقا تيمور) يقف في جهة القلعة وجانب القبلة بموضع « دولاب بقل » . وكان « بايجو » و« سونجاق » يرابطان في الجانب الغربي حيث المارستان العضدي . وكان الهجوم الرئيسي للمغول من الجهة الشرقية من بغداد على برج العجمي ، (وهو موضع مستضعف) من سور بغداد ، كما كان اقصر ابراج السور ، ويقع على مقربة من باب كلواذى[٦٥] .

- وقد حاول الخليفة (المستعصم بالله) الخروج من هذا المازق ، فارسل وفداً مكوناً من الوزير (ابن العلقمي) و(الجاثليق مارمكيكا) - جاثليق النساطرة - ليتفاوض في الصلح ، طالباً من هولاكو عدم مهاجمة بغداد قائلاً : (ان الملك قد أمر بان أبعث اليه الوزير ، وها أنذا قد لبيت طلبه ، فينبغي ان يكون الملك عند كلمته) . فاجابه هولاكو : (ان هذا الشرط طلبته وانا على ابواب همدان . اما الان فنحن على باب بغداد ، وقد ثار بحر الاضطراب والفتنة فكيف اقنع بواحد ؟ ينبغي ان ترسل هؤلاء الثلاثة[٦٦] يعني الدويدار وسليمان شاه والوزير ابن العلقمي الخائن الموتور .

- وفي اليوم التالي ، حضر ابن العلقمي مع صاحب الديوان وجماعة من اعيان بغداد ، فردهم هولاكو خائبين واستمرت الحرب بين الطرفين[٦٧] طاحنة مدة ستة ايام ثم رمى هولاكو المدينة بوابل من السهام مربوط بها منشورات تقول : (كل من ليس يقاتل فهو آمن على نفسه وحريمه وامواله)[٦٨] وتقول اخرى : (القضاة والعلماء والشيوخ والسادات والتجار وكل من لا يحاربنا لهم الامان منا)[٦٩] والمعروف ان المجرم الملعون (نصير الدين الطوسي) هو الذي كان يكتب الرسائل والمنشورات على لسان هولاكو لارهاب الناس وترويعهم وتحطيم معنوياتهم ، وهو صاحب الفتوى التي تنص على (شرعية تفضيل الكافر العادل على المسلم الجائر) !

والغريب ان الطوسي - الذي كان يدعي الاسلام ، صاحب كتاب في علم الاخلاق من أوسع الكتب انتشاراً ! فتاملوا !!

- وبعد قتال شديد ، استطاع المغول ان يحدثوا ثغرة في « برج العجمي » في يوم الجمعة الخامس والعشرين من المحرم سنة ٦٥٦هـ .

- وفي يوم الاثنين الثامن والعشرين من المحرم ٦٥٦هـ تسلق جنود المغول السور من برج العجمي واستطاعوا ان يقضوا على

المقاومة التي كانت على اعالي اسوار بغداد .

ـ وفي مساء اليوم نفسه ، تمت سيطرة المغول على الاسوار الشرقية لمدينة بغداد بالكامل .

ـ ولما يئس الخليفة المستعصم من الاحتفاظ ببغداد ، لم ير امامه وسيلة سوى اعلان الاستسلام ، فارسل (فخر الدين الدامغاني) و(ابن الدرنوس) مع تحف وهدايا للمجرم الملعون هولاكو ليحصلوا على الامان ، الا انه لم يجبه الى ذلك وعاد الوفد الى بغداد ، ولم يامر الطاغية بايقاف القتال .

ـ وفي يوم الثلاثاء ، التاسع والعشرين من محرم سنة ٦٥٦هـ ـ ارسل الخليفة ولده الاوسط (ابا الفضل عبد الرحمن) ومعه صاحب الديوان وجماعة من الاكابر ، حاملين معهم اموالًا عظيمة لاسترضاء هولاكو ، الا ان الطاغية لم يقبل ذلك منهم بتاتاً .

ـ وفي اليوم التالي ـ اخر المحرّم ٦٥٦هـ ـ خرج ابن الخليفة الاكبر مع الوزير (ابن العلقمي ـ الخائن الموتور) وجماعة من المقربين للشفاعة ، فلم يجدوا فائدة .

ـ وفي اليوم التالي ، اي في غرة صفر ٦٥٦هـ / عادوا وكان بصحبتهم « نصر الدين الطوسي » (كاتب رسائل هولاكو وحامل اختامه) و« ايتيمور » حاملين رسالة الى الخليفة[٧٠] تتضمن اصرار هولاكو على ضرورة حضور (الدويدار) و(سليمان شاه) اللذين كانا يتوليان قيادة المقاومة ضد المغول .

ـ كما ارسل هولاكو (فخر الدين الدامغاني) و(ابن الجوزي) و(ابن الدرنوس) الى المدينة لاخراج الدويدار وسليمان شاه منها ، ومنحهم (فرماناً وبايزة تطميناً لهم وتقوية لموقفهم)[٧١] .

ـ وفي اليوم نفسه ، الاول من صفر ، قرر الدويدار وسليمان الخروج لمقابلة هولاكو ، فطلب اليهما اصدار الاوامر الى المدافعين عن بغداد بالانضمام الى الجيش المغولي الذي سيتوجه الى الشام ومصر[٧٢] !

ـ ولما رفض البطلان عرض هولاكو ـ على ما يبدو ـ أعادهما الى المدينة ليخرجا اتباعهما كافة ، وطمانهم بانه سيسمح لاتباعهما باللجوء الى مصر والشام[٧٣] .

ـ ولكن المغول ، كعادتهم في عدم حفظ عهودهم ، قتلوا الدويدار وسليمان والأمير تاج الدين ابن الدويدار الكبير مع الجند الذي خرجوا معهم كافة ، وأرسلوا (رؤوس الأمراء الثلاثة الى الموصل مع الملك الصالح اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ لتعلق في مدينة الموصل[٧٤] تخويفاً لاهل الموصل بتعليق رؤوس الثلاثة الذين قاوموا المغول ، من أجل ردع كل من تسول له نفسه مقاومتهم والدخول معهم بحرب . وكان (بدر الدين) صديقاً لسليمان فبكى عندما رأى رأسه ، ولكنه علق رؤوسهم خوفاً على حياته[٧٥] .

ـ هذا وقد سلك الخائن الموتور (ابن العلقمي) ايضاً طريق التضليل والخداع مع الخليفة المستعصم ، حين اشار عليه بالخروج الى هولاكو والمثول بين يديه لتقرير الصلح (على ان يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه له[٧٦]) .

ـ وفي رواية اخرى ان ابن العلقمي اخبر الخليفة : (ان هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد ان يزوج ابنته من ابنك ابي بكر) وَحَسَّنَ له الخروج الى هولاكو[٧٧] .

ـ وفي يوم الأحد الرابع من صفر ٦٥٦ هـ ـ خرج الخليفة من بغداد يصحبه أولاده الثلاثة : ابو الفضل عبد الرحمن وأبو العباس أحمد وأبو المناقب مبارك ومعه ثلاثة ألاف من السادات والائمة والقضاة والأكابر وأعيان المدينة لمقابلة المجرم الملعون هولاكو ، وكان ابن العلقمي قد غرر بهم بحجة حضور عقد المصالحة .

ـ طلب هولاكو من المستعصم ان يأمر أهل بغداد بوضع اسلحتهم والكف عن مقاومة المغول .

فارسل الخليفة من ينادي في المدينة ليضع الناس اسلحتهم ويخرجوا .

ـ ألقى الناس اسلحتهم زمراً زمراً ، وصاروا يخرجون ، فكان المغول يقتلونهم ، واقيمت للخليفة وابنائه الخيام بالقرب من بوابة كلواذى في معسكر (كيتو بوغا)[٧٨] .

ـ وكان بدء القتل العام والنهب التتري في بغداد في يوم الاربعاء السابع من صفر سنة ٦٥٦هـ ـ ، حيث دخل الغزاة الى المدينة واخذوا بنهبها وحرقها وقتل كل من يصادفهم من اهلها .

ـ استمر النهب والسلب والقتل في بغداد سبعة ايام وقيل اربعين يوما (واخذوا يحرقون الاخضر واليابس) و(بذلوا السيف في السكان ، دون رحمة ولا شفقة ، فقتلوا الرجال والنساء والصبيان والاطفال ، فلم يبق من اهل البلد ومن التجأ اليهم من اهل السواد الا القليل)[٧٩] ممن التجأ في الآبار واماكن الحشوش وقنى الوسخ[٨٠] حتى بلغ عدد القتلى مليون وثمنمائة ألف انسان[٨١] اضافة الى القائهم كتب العلم بدجلة[٨٢] وزاد ابن الساعي على ذلك بقوله : (ان التتر بنوا اسطبلات الخيول وطولات المعالف بكتب العلماء عوضاً عن اللبن)[٨٣] (واحرقوا معظم البلد وجامع الخليفة وما جاوره)[٨٤] كما انهم (احرقوا اكثر الاماكن المقدسة مثل مشهد موسى الجواد وقبور الخلفاء)[٨٥] .

ـ وفي يوم الجمعة التاسع من صفر سنة ٦٥٦هـ ـ دخل هولاكو مدينة بغداد لمشاهدة قصر الخليفة ، وجلس هناك مع أمرائه ، وأمر بإحضار الخليفة المستعصم فاحضر بين يديه وطلب

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

منه ان يدلّه على جميع ممتلكاته الظاهرة للعيان والمخفية . فاعطاه الخليفة كل ما يملك من ذهب وفضة واحجار كريمة ومخلّفات الخلفاء العباسيين القيمة ، فوزعها هولاكو على امرائه وقادة جيشه وفرسانه البارزين . ثم خرج هولاكو من بغداد الى معسكره ، حيث بقي فيه الى اليوم الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦هـ ، وفي هذا اليوم رحل هولاكو عن بغداد بسبب عفونة الهواء ، ونزل بقريتي (وقف وجلابية)[٨٦] .

ـ اما مصير الخليفة المستعصم فقد تآمر على انهاء حياته كل من ابن العلقمي والمولى ـ الخواجة ـ نصير الدين الطوسي ، اللذين حسّنا لهولاكو عدم مصالحة الخليفة ، والمبادرة بقتله فوراً . يذكر ابن كثير : (ان الوزير ابن العلقمي قال لهولاكو : متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا الا عاماً او عامين ثم يعود الامر الى ما كان عليه قبل ذلك ، وحسّنا له قتل الخليفة ... وان الذي اشار بقتله الوزير ابن العلقمي والمولى نصير الدين الطوسي ... كما ان الوزير هوّن لهولاكو قتل الخليفة)[٨٧] .

ـ ففي يوم الاربعاء الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦هـ ـ قضي هولاكو على الخليفة ، بعد ان أمر به ليقتل ، حيث وضع في غرارة ، وشدوا عليه ورفسوه بالارجل الى ان توفي دون ان يراق دمه لأن (بعض المسلمين اخافوا هولاكو بان قالوا له انه اذا سفك دم الخليفة على الارض ، فسوف لن ينزل المطر ، وستصعد أعمدة من النار من مكان الدم المسفوك .

ـ اما ابن كثير فيقول : (فقتلوه رفساً ، وهو في جوالق[٨٨] لئلا يقع على الارض شيء من دمه ، وخافوا ان يؤخذ بثاره ، فيما قيل لهم)[٨٩] .

ـ اما ابن حبيب فيذكر ان هولاكو امر بان يجعل الخليفة في عِدل ويداس بالارجل الى ان يموت ، ففعل به ذلك ورحل الى رحمة الله تعالى . وهذه عادة التتار ان لا يسفكوا دماء الملوك والاكابر)[٩٠] .

ـ وفي اليوم التالي ، قتل الذين كانوا قد نزلوا مع الخليفة في بوابة (كلواذى) . كذلك قضى المغول على كل شخص وجدوه حياً من العباسيين ، اللهم الا افراداً قلائل لم يابهوا بهم . وقد سُلّم مبارك شاه الابن الاصغر للخليفة الى (أولجاي خاتون) فارسلته الى « مراغة » ليكون مع الخواجة الدجّال نصير الدين الطوسي . وهناك زوّجوه من إمرأة مغولية فانجب منها ولدين[٩١] .

ـ وفي يوم الجمعة السادس عشر من صفر سنة ٦٥٦هـ ألحق المغول ابن الخليفة الثاني بوالده ، وبذلك قضي على سلالة دولة خلفاء بني العباس[٩٢] وزالت دولتهم بسقوط بغداد على يد المغول وعملائهم من الشعوبيين اعداء العروبة والاسلام .

مشاهد مؤلمة

ـ اما مشهد الناس يوم سقوط بغداد فهو مشهد مؤلم يدمي القلب ، (فالنساء والاطفال خرجوا من بيوتهم يحملون المصاحف على اكفهم ويتضرعون الى الجنود ـ الغزاة ـ كي يبقوا على حياتهم ، غير ان الخيل وطئت اجسادهم بحوافرها قبل السيوف .

ـ اما النساء المدللات اللواتي لم تالفن رؤية الجماهير ، فقد اجبرن على السير في الشوارع العامة ، وتعرضن لابشع ضروب الاذى والاهانة والتنكيل .

ـ اما الكنوز الفنية والادبية التي جمعها الخلفاء المتعاقبون بكثير من المشقة والعناء ، فقد دمرت تدميراً في خلال بضع ساعات .

ـ شوارع بغداد كانت تغرق طوال ثلاثة ايام بالدماء ، واصطبغت مياه دجلة بالحمرة عدة اميال ، واستمرت اعمال التقتيل والتخريب ستة اسابيع ، فدمرت القصور والمساجد والضرائح ، اما بالنار اوبالمعاول بغية الحصول على قبابها الذهبية .

ـ حتى المرضى ، لم يسلموا من القتل ، فقد اعمل المغول السيف في رقابهم في المشافي ، كما اعملوه في رقاب الطلاب والاساتذة في الكليات .

ـ وفي الضرائح ، نبشت قبور الاولياء والائمة الصالحين ، وخاصة مشهد الامام موسى الكاظم ومراقد الخلفاء .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ وفي المجامع العلمية التهمت النيران تآليف كبار العلماء ، والقيت الكتب طعمة للنيران او في مياه دجلة[٩٣] .

ـ وقيل ان ملابس العباسيين وزينتهم وبردة الرسول محمد (ﷺ) والقضيب ، لم تسلم من تدمير هولاكو الذي أمر بإحراقها وذرّ رمادها في نهر دجلة بعد ان وجدها لدى الخليفة المستعصم .

ـ لقد وصف (ابن الطقطقي) المذبحة وصف شاهد عيان بقوله : (وقد ذبح المغول السواد الاعظم من الاهلين كما تذبح الشاة ، وأضرموا النيران في المدينة ... حتى سالت الدماء بنهر دجلة ، وكانما قد زلزلت الارض زلزالها وقامت الساعة في ذلك اليوم)[٩٤] .

تملق الضعفاء وشماتة الاعداء

لقد أوقع احتلال بغداد بيد المغول العالم الاسلامي في فزع وذهول وحيرة ، فسارع حكامه الضعفاء الى المجرم الملعون (هولاكو) يقدمون له فروض الطاعة والتهنئة ويتملقونه

بلا خجل ، فكان ممن حضر لتهنئته في (مراغة) [أتابك الموصل الهرم ، بدر الدين لؤلؤ] كما هناه أتابك فارس ايضاً وأرسل إبنه اليه لينقل تهانيه الحارة !.

ويلغ الامر بالسلطان (عز الدين كيكاوس الثاني) أحد سلاجقة الروم انه ذهب الى معسكر هولاكو بالقرب من « تبريز » ليهنئه باحتلال بغداد !.

وتميّز هذا السلطان عن غيره بنبوغ مبتكر في فن التملق ، وذلك انه رسم صورته هو على نعل زوج من الاحذية ثم قدمها لهولاكو الساخط قائلًا له : (عبدك يأمل أن يتفضل الملك فيشرف رأس عبده بوضع قدمه المباركة على هذا النعل)[٩٥] .

والمعروف ان السلاجقة ـ وهم اتراك ـ كانوا قد استولوا على العراق في سنة ٤٤٧هـ ، بعد ان تقدم (طغرل بيك السلجوقي) نحو بغداد بجيش كبير وتمكن من احتلالها .

وبموت السلطان مسعود بهمذان في سنة ٥٤٧هـ ـ أي بعد مائة سنة من الخطبة ببغداد للسلطان طغرل بيك ـ اول ملوك السلاجقة ، طويت صحيفة الدولة السلجوقية في العراق ، حيث نهض الخليفة العباسي (المقتفي) وطرد السلاجقة فساد الهدوء في العراق ، قبل الزوبعة التترية .

إذلال إبن العلقمي

بيد ان التتر لم يطمانوا لابن العلقمي ، فاذلوه وأهانوه بعدئذ . يقول ابن كثير : (ان الله ردّ كيده في نحره ، وأذله بعد العزّة القسعاء وجعله « حوشكاشا » ـ أي العوبة ـ للتتر بعدما كان وزيراً للخلفاء ، واكتسب إثم من قُتل ببغداد من الرجال والنساء والاطفال)[٩٦] .

ويصف ابن خلدون حال الخائن الغدّار (ابن العلقمي) مع التتر بالقول : (واستبقى التتر ابن العلقمي على الوزارة ولرتبة ساقطة عندهم ، فلم يكن قصارى أمره الا الكلام في الدخل والخرج[٩٧] فصار معهم في صورة بعض الغلمان[٩٨] وانعكست تبعات خيانته عليه ، وندم حيث لا ينفعه الندم ، فكان كثيراً ما يقول : (وجرى القضاء بعكس ما أملته) لانه عومل بانواع الهوان من اراذل التتار المرتدة[٩٩] .

وأشار الذهبي واصفاً أحوال الخائن الموتور ابن العلقمي تلك فقال : (وعض يده ندماً ، وبقي يركب إكديشاً ، فنادته عجوز : « يا ابن العلقمي !! أهكذا كنت تركب ايام المستعصم ؟ »[١٠٠] مشيرة بذلك الى ما لحق بهذا الخائن من ذل وهوان على أيدي الغزاة الذين آزرهم وأعانهم على احتلال البلاد ، مقارنة بحالة العزّ التي كان عليها في دولة العرب قبل خيانته لهم ، حيث ظل وزيراً لمدة أربعة عشر عاماً . تلك الخيانة العظمى التي (دلت على سوء أصله) كما يقول ابن الفوطي[١٠١] .

وقيل ان هولاكو بعد ان رحل عن بغداد اثر جريمته الكبرى التي تسببت في عفونة الهواء (تلوث البيئة) قد عيّن (ابن العلقمي) وزيراً له على العراق مكافاة له على الدور الخياني الذي لعبه في تدمير بغداد ودولة العرب والاسلام .

ان هذا التعيين فتح باباً للتساؤلات عن مغزى هذا التعيين ، وليس من الصعب معرفة ذلك ، فقد خان الوزير سيده ، وتواطأ مع العدو الاجنبي واستقدمه لغزو البلاد ، كما يؤكد الكثير من المعاصرين والمؤرخين . وهذا الشاعر شمس الدين محمد بن عبيد الله الكوفي الواعظ يغمز في قناة ابن العلقمي ويفضح دوره الخياني من خلال مرثية للخليفة المستعصم :

يا عُصبة الاسلام نوحي واندبي
أسفاً على ما حَلَّ بالمستعصم
دست الوزارة كان قبل زمانه
لابن الفرات[١٠٢] فصار لابن العلقمي[١٠٣]

بكاء بغداد في الشعر

يظهر تفجع المسلمين المعاصرين لسقوط بغداد واضحاً فيما قيل من أشعار في رثاء بغداد . وأمامنا العديد من القصائد التي قالها شعراء معاصرون لذلك الخطب الجلل ، تظهر مدى تفجعهم لاحتلال بغداد منهم :

١ . تقي الدين بن ابي اليسر الشامي التنوخي :

كان كاتباً للانشاء لدى الملك الناصر داود الحاكم الأيوبي على قلعة الكرك ، وقد توفي سنة ٦٧٢هـ . ومن قصائده ، تلك القصيدة الرائية التي وصف فيها أخذ المغول لبغداد ، معبراً عن عواطف المسلمين أصدق تعبير ، وذاكراً فيها المآسي التي حصلت نتيجة ذلك الاحتلال البغيض :

لسائل الدمع عن بغداد أخبارُ
فما وقوفك والاحباب قد ساروا ؟
يا زائرين الى الزوراء لا تفدوا
فما بذاك الحمى والدار ديّار
تاج الخلافة والربع الذي شرفت
به المعالم قد عَفاهُ إقفار
اضحى لعصف البلى في ربعه اثرٌ
وللدموع على الآثار آثارُ
يا نار قلبي من نارٍ لحرب وغى
شبت عليه ووافى الربع إعصار

وكم حريم سبته الترك غاصبةً
وكان من دون ذاك الستر أستار
وكم بدورٍ على البدرية[١٠٤] انخسفت
ولم يعد لبدور منه إبدار
وكم ذخائر أضحت وهي شائعة
من النهاب وقد حازته كفّار
وكم حدود أقيمت من سيوفهم
على الرقاب، وحطت فيه أوزار
ناديت والسبي مهتوك يجز بهم
الى السفاح من الاعداء دعّار
وهم يساقون للموت الذي شهدوا
النار - يا رب من هذا - ولا العار
والله يعلم ان القوم اغفلهم
ما كان من نعم فيهن كثار
من بعد اسر بني العباس كلهم
فلا أنار لوجه الصبح إسفار
ما راق لي قطّ شيء بعد بينهم
الا احاديث أرويها وآثار
لم يبق للدين والدنيا وقد ذهبوا
شوق لمجد وقد بانوا وقد باروا
انّ القيامة في بغداد قد وجدت
وحدّها حين للاقبال إدبار
آل النبي وأهل العلم قد سُبيوا
فمن ترى بعدهم تحويه أمصار
ما كنت آمل ان ابقى وقد ذهبوا
لكن أبت دون ما أختار اقدار[١٠٥]

٢ . شمس الدين محمد عبد الله الكوفي الواعظ:

نظم هذا الشاعر العديد من القصائد في رثاء بغداد وصلتنا منها ثلاث قصائد جميعها تشرح عواطف العراقيين تجاه سقوط الخلافة وبغداد يقول في اولاها، وكان شاهد عيان للسقوط:

بانوا، ولي أدمع في الخد تشتبك
ولوعة في مجال الصدر تعترك
بالرغم، لا بالرضا مني فراقهم
ساروا، ولم أدر أيّ الارض قد سلكوا
يا صاحبي ما احتيالي بعد بعدهم
اشر علي فإن الرأي مشترك
عزّ اللقاء وضاقتا دونه حيلي
فالقلب في امره حيران مرتبك
يعوقني عن مرادي ما بليت به
كما يعوق جناحي طائر شرك
أروم صبراً، وقلبي لا يطاوعني
وكيف ينهض من قد خانه الورك
إن كنت فاقد إلف نح عليه معي
فاننا كلنا في ذاك نشترك
يا نكبة ما نجا من صرفها احد
من الورى، فاستوى المملوك والملك
تمكنّت بعد عزٍ في احبتنا
أيدي الأعادي فما بقوا ولا تركوا
ربع الهداية أضحى بعدهم
معطلًا، ودم الاسلام منسفك
اين الذين على كل الورى حكموا؟
أين الذين اقتنوا؟ أين الالى ملكوا؟
وقفت من بعدهم في الدار أسالها
عنهم، وعما حووا فيها وما ملكوا
أجابني الطلل البالي وربعهم الـ
خالي: نعم! ها هنا كانوا، وقد هلكوا
لا تحسبوا الدمع ماءً في الخدود جرى
وانما هي روح الصب تنسبك[١٠٦]

وفي قصيدة ثانية يقول شمس الدين الواعظ:

عندي لأجل فراقكم آلام
فإلام أعذر فيكم وألام؟!
من كان مثلي للحبيب مفارقاً
لا تعذلوه! فالكلام ... كلام
نعم المساعد دمعي الجاري على
خدي، الا انّه نمام
ويذيب روحي نوح كل حمامة
فكانما نوح الحمام .... حمام
ان كنت مثلي للاحبة فاقداً
او في فؤادك لوعة وغرام
قف في ديار الظاعنين ونادها:
(يادار ما فعلت بك الايام؟)
اعرضت عنك لانهم مذ اعرضوا
لم يبق في بشاشة تستام
يا دار .... اين الساكنين؟ واين ذيّا
كَ البهاء، وذلك الاعظام؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يـــا دار ... اين زمـــان ربعـك مـونقــاً
وشعـــــارك الاجـــلال والاكـــــرام ؟
يـــا دار ... مـــذ افلت نجـومـك عمنــا
والله من بعـــد الضيـــاء ... ظـــلام
فلبعـــدهم قـــرب الهـــدى ، ولفقـــدهم
فقـــد الهـــدى ، وتـــزلـــزل الاســلام
فمتى قبلت من الاعـــادي ســـاكنـــاً
بعـــد الاحبـــة ، لا سقـــاك غمـــام
يـــا ســـادتي .... امـــا الفـــؤاد فشيق
قلق ، وامـــــا أدمعي فسجـــــام
والـــدار مـــذ عـــدمت جمـــال وجـــوهكم
لم يبق في ذاك المقـــام ... مقـــام
لا حظّ فيهـــــا للعيـــون وليس للـ
إقـــدام في عـــرصـــاتهـــا .... اقـــدام

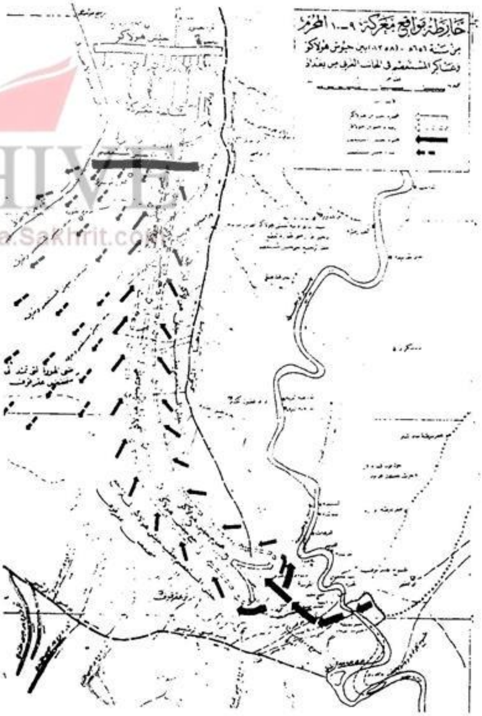

وحيـــاتكم إني على عهـــد الهـــوى
بـــاقٍ ، ولم يخفـــر لـــدي ذمـــام
فـــدمي حـــلال ان اردت ســـواكم
والعيش بعـــــدكم علي حـــــرا
يـــا غـــائبين ، وفي الفـــؤاد لبعـــدهم ،
نـــار لهـــا بين الضلـــوع ضـــرا
لا كتبكم تـــــاتي ولا اخبـــــاركم
تـــروى ، ولا تـــدنيكم الاحـــلا
اقصتكم الـــدنيـــا علي وكلمـــا
جـــد النـــوى ، لعبت بي الاسقـــا
ولقيت من صـــرف الـــزمـــان وجـوره
مـــا لم تخيلـــه لي الاوهـــا
يـــا ليت شعـــري ! كيف حـــال احبتي ؟
وبـــاي ارض خيمـــوا وأقـــامـــوا
مـــا لي انيس غيـــر بيت قـــالـــه
صبّ ، رمتـــه من الفـــراق سهـــا
والله مـــا اختـــرت الفـــراق وانمـــا
حكمت عليّ بـــذلـــك الايـــام(١٠٧)

ويقول في قصيدته الثالثة :

ان لم تقـــرح أدمعي اجفـــاني
من بعـــدكم فمـــا اجفـــان
انســـان عيني مـــذ تنـــاءت داركم
مـــا راقـــه نظـــر الى انســـا
يـــا ليتني قـــد مت قبـــل فـــراقكم
ولســـاعـــة التـــوديـــع لا احيـــا
مـــالي ولـــلايـــام شتت شملهـــا
حـــالي وخـــلاني بـــلا خـــلا
مـــا للمنـــازل اصبحت لا اهلهـــا
اهلي ولا جيـــرانهـــا جيـــرا
وحيـــاتكم مـــا حلهـــا من بعـــدكم
غيـــر البلى والهـــدم والنيـــرا
ولقـــد قصـــدت الـــدار بعـــد رحيلكم
ووقفت فيهـــا وقفـــة الحيـــرا
وســـالتهـــا لكن بغيـــر تكلم
فتكلمت لكن بغيـــر لســـا
نـــاديتهـــا يـــا دار مـــا صنـــع الاولى
كـــانـــوا هم الاوطـــار في الاوطـــ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اين اللـــــذين عهـــــدتهم ولعـــــزهم
ذلا تخـــر معـــاقـــد التيجـــان
كـــانـــوا نجـــوم من اقتـــدى فعليهم
يبكي الهـــدى وشعـــائـــر الايمـــان[108]

الخاتمة

لقد كان التحدي المغولي من اخطر التحديات التي واجهتها الامة العربية منذ قيام الدولة العربية الاسلامية ، ذلك ان المغول لم يسقطوا الخلافة بوصفها مؤسسة سياسية حسب ، بل استهدفوا وجود الامة القومي والحضاري بما أشاعته هذه القبائل الهمجية من المذابح الجماعية للسكان وتشريدهم ، وتخريب المدن ومراكز العلم ، والقضاء على الموروثات الحضارية .

لقد استهدفت غزوات المغول اقامة امبراطورية عالمية استطاعت ايام مؤسسها جنكيز خان (١١٥٤ - ١٢٢٧) ان تحتل اجزاء واسعة من الصين وأواسط آسيا وإيران وروسيا واجزاء من أوربا الشرقية ، ارتكبوا خلالها فضائع تهلع لها القلوب وتشمئز منها النفوس من تعذيب وقتل لعشرات الالوف من السكان الامنين دونما تمييز بين الشيوخ والنساء والاطفال ، ومن نهب وتخريب كاملين لمدن كانت عامرة مزدهرة حتى صارت قاعاً صفصفاً[109] وكانت بغداد عاصمة النور والحضارة ضحية من ضحاياهم في سنة ١٢٥٨م .

ولعل ابلغ وصف لحصار المغول للعاصمة بغداد ما ورد على لسان (تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن تقي السبكي) حيث قال : (لا بأس بشرح واقعة التتار على الاختصار ، حكاية كائنة بغداد لتعتبر بها البصائر وتشخص عندها الابصار ، وليجري المسلمون على عمر الزمان دموعهم دماً .... وليروي المؤرخون بانهم ما سمعوا قبلها واقعة جعلت السماء أرضاً ، والارض سماءً)[110] .

ولكن بغداد ، هي بغداد ، نهضت من تحت الرماد ومن فوقه ، مثل طائر (الفينيق) الذي ما إن يحترق الا لينبعث من جديد ....

نهضت ، وانبعثت بغداد لتاخذ دورها الحضاري الريادي ، نافضة عنها كل غبار الازمان ، وركامات الاحزان ، ورافضة عنها رماد الفجيعة .

بعثت بغداد ، كما ينبعث النور من بين مخالب الظلام ، كيما تشع وتضيء وتتألق ...

بعثت لتبقى ، ووجدت لتعطي وتأخذ نصيبها من الدنيا ..... كيف لا .... فالحياة أخذ وعطاء .

بعثت بغداد - مدينة السلام - لتبني وتعمر ، لتزرع وتحصد ، لتورق وتزهر وتنشر روائحها الذكية ، رافضة الدخان .

ولأن بغداد وجدت لتبقى ، فان بغداد لن تحرق مرتين .

التوثيق

(١) د . نوري عبد الحميد خنيل : التحدي المغولي وموقف الامة العربية منه . مجلة (دراسات الاجيال) العدد الثالث / ايلول - بغداد ١٩٦٨ ص٥١ - ٥٢ .

(٢) الخان : لقب اطلقه المغول على رؤسائهم الذين يتولون جزءاً من الامبراطورية المغولية .

(٣) هولاكو (١٢٥٨ - ١٢٦٤م) حفيد جنكيز خان ، وجهه اخوه منكو خان المغولي لاخماد ثورة في فارس ، فعبر نهر جيحون سنة ١٢٥٦م فاعلن صغار الامراء المغول ولاءهم له ، وقام أبان هذه الحملة بالقضاء على (الحشاشين) وقتل (ركن الدين) زعيمهم ، واتجه غرباً فزحف على بغداد ... ثم زحف سنة ١٢٦٠م على شمال الشام واحتل حلب ، ثم تصدى له المماليك الذين رفضوا الاستسلام لتهديداته ، والحقوا بالمغول هزيمة ماحقة في معركة (عين جالوت) قرب مدينة (الناصرة) في فلسطين ، كان ذلك في عام ١٢٦٠م ، وانسحب (هولاكو) شرقاً ، وقد عمرت دولته الايلخانية التي شملت فارس حتى سنة ١٣٣٥م ، وفي هذه السنة قسمت الى خمسة اقسام .
يراجع كتاب : بغداد خلفاؤها ، ولاتها ، ملوكها ، رؤساؤها . للسيد باقر امين الورد ص٧٩ .

(٤) الاسماعيلية : فرقة تنسب الى (اسماعيل) الابن الاكبر للامام جعفر الصادق ، الامام السادس المتوفي بالمدينة المنورة سنة (٧٦٠/٧٦١م) . وقد انتشرت الاسماعيلية في دماوند وخراسان وقندهار والهند والشام والمغرب ...
تراجع (الموسوعة السياسية) للدكتور عبد الوهاب الكيالي وكامل زهيري ص٥١ .
وعن احتلال المغول لقلاع الاسماعيلية تراجع المصادر الاتية :
آ - ابن العبري : مختصر تاريخ الدول / تحقيق الاب صالحاني . بيروت ١٨٩٠ .
ب - ابن الفوطي : الحوادث الجامعة / تحقيق مصطفى جواد - بغداد ١٩٣٢ .
جـ - الموسوعة السياسية / للكيالي وزهيري بيروت / ١٩٧٤ .

(٥) د . عبد المنعم رشاد : احتلال المغول لبغداد / مجلة آداب الرافدين - العدد الاول - آب - ١٩٧١ ص٦ - ٧ .

(٦) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص١٩٩ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٧) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص١٩٩ ، ابو الفدا : المختصر في أخبار البشر ٣ / ١٧٤ ، الذهبي : دول الاسلام ٢ / ١١٢ .

(٨) الدويدار الصغير : كان أكثر قادة الجيش العباسي نفوذاً في زمن المستعصم بالله . والدويدار او الدوادار او الداواتدار تعني : حامل الدواة ، وهي من الالقاب العباسية المهمة .

(٩) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣ / ١٦٨ .

(١٠) د . محمد عمارة : معارك العرب ضد الغزاة ص١٢ ـ ١٥ .

(١١) د . عبد الحميد خليل : مرجع سبق ذكره ص٥٣ .

(١٢) الخاقان : لقب اطلقه المغول على الرئيس الاعلى لدولتهم ، ومعناه (الخان الاعظم) .

(١٣) الباز العريني : المغول ص١٦٠ ـ ١٦١ .

(١٤) ستيفنس رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ـ ترجمة الباز العريني ٣ / ٥٠٥ ـ ٥١١ .

(١٥) د . محمد عمارة : مرجع سبق ذكره ص١٢٢ .

(١٦) فؤاد الصياد : المغول في التاريخ ص٢١٥ .

(١٧) د . نوري عبد الحميد خليل : مرجع سبق ذكره ص٥٤ .

(١٨) د . محمد عمارة : مرجع سبق ذكره ص١٢٢ ـ ١٢٣ .

(١٩) الذهبي : دول الاسلام ٢/١١١ .

(٢٠) د . حسن فاضل زعين ، د . عبد الرحمن عبد الكريم العاني . التحدي المغولي . وضمن كتاب : العراق في مواجهة التحديات ٢/٢٦٧ .

(٢١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٦/٣٥٦ .

(٢٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٤٦٥ .

(٢٣) د . زعين ، د . العاني : مرجع سبق ذكره ص٢٦٧ .

(٢٤) عبد الله بن فتح البغدادي الغياثي : التاريخ الغياثي ص٤٢ .

(٢٥) الذهبي : دول الاسلام ٢/١٢٠ .

(٢٦) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣/٢٠٢ .

(٢٧) المقريزي : السلوك ٢/٤١٢ .

(٢٨) الديار بكري : تاريخ الخميس ٢/٤٢٠ ـ ٤٢١ .

(٢٩) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ٣/٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

(٣٠) د . زعين ، د . العاني : مرجع سبق ذكره ص٢٧١ .

(٣١) المخصف : المثقب الذي تثقب به النعل .

(٣٢) رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ م٢جـ١/٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

(٣٣) المصدر نفسه ص٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

(٣٤) المصدر نفسه ص٢٧١ .

(٣٥) المصدر نفسه ص٢٧٥ ـ ٢٧٦ .

(٣٦) المصدر نفسه ص٢٧٩ ـ ٢٨٠ .

(٣٨) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣/٢٠٠ .

(٣٩) نهر دجيل : يقول الدكتور المهندس احمد سوسة : (كانت المنطقة الغربية من بغداد الممتدة على الجانب الغربي من نهر دجلة تروي من مياه جدول كان يعرف باسم نهر دجيل .

ونهر دجيل هذا كان يتفرع من الجانب الغربي لنهر دجلة في نقطة تقع شمال بلد الحالية بقليل ، فيسير موازياً لنهر دجلة حتى ينتهي الى بغداد الغربية فيفنى هناك .

(٤٠) نهر عيسى : بعد ان عبر جيش المغول نهر دجلة في الموصل نحو نهر دجيل ، اخترق المنطقة الواقعة غربيه حتى وصل نهر عيسى الواقع في ذنائب نهر الصقلاوية الحالي ، فعسكر هناك ومن ثم وصل الى محلة الحربية من شمال غربي بغداد « شمال غربي الكاظمية الحالية » في نقطة تقع على بعد فرسخ واحد من قنطرة البصرة ، وهي القنطرة التي تقع في جوار موضع (الجعيفر) الحالية ببغداد .

يراجع : د . احمد سوسة : وقعة نهر دجيل واحتلال المغول لمدينة بغداد ـ مجلة المجمع العلمي العراقي ـ المجلد الخامس ١٣٧٧هـ/١٩٥٨ ص١٠٧ ـ ١٠٨ .

(٤١) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص٣٢٠ .

(٤٢) د . عبد المنعم رشاد : احتلال المغول لبغداد . مجلة آداب الرافدين ـ العدد الاول/١٩٧١ ص١١ .

(٤٣) جعفر خصباك : الاحتلال المغولي لبغداد ـ مجلة كلية الاداب ـ جامعة بغداد ـ العدد الثالث ١٩٥٨ ص١٤٠ .

(٤٤) جامع التواريخ ص٢٨٢ .

(٤٥) الحوادث الجامعة ص٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

(٤٦) الحوادث الجامعة ص٣٢٣ .

(٤٧) جامع التواريخ ص٢٨٥ .

(٤٨) الحوادث الجامعة ص٣٢٤ .

(٤٩) نهر بشير : فرع من فروع نهر دجيل على بعد تسعة فراسخ من بغداد شمالاً ... ويعتقد العلامة الراحل د . احمد سوسة [وكان مهندس ريّ] ان النهر العتيق المتشعب من الضفة اليمنى لنهر دجيل هو من التلول المعروفة اليوم باسم « تلول الناظري » الواقعة بين النهرين ، دجلة والفرات وكان يتجه نهر بشير نحو بزايز نهر « الصقلاوية » الحالي . وكان نهر بشير يسير بموازاة النهر العتيق المعروف باسم « نهر مسعود » من الناحية الشمالية متجهاً نحو الاراضي المنخفضة المعروفة باسم « اراضي الهورة »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في جوار النهرين : الكصاوي والعيساوية ، من فروع ذنائب نهر الصقلاوية الحالي .

يراجع د. احمد سوسة : مرجع سبق ذكره ص١٠٨ - ١٠٩ .

(٥٠) الحوادث الجامعةص ٣٢٤ .

(٥١) تاريخ الخميس ٢/٤٢١ .

(٥٢) د. زعين ، د. العاني : مرجع سبق ذكره ص٢٧٥ .

(٥٣) تاريخ الخميس ٢/٤٢١ .

(٥٤) ابن الصبري : ص٢٧٣ .

(٥٥) الحوادث الجامعة ص٣٢٦ .

(٥٦) د. زعين ، د. العاني : مرجع سبق ذكره ص٢٧٦ .

(٥٧) ابن الساعي : مختصر اخبار الخلفاء ص٤٢٦ .

(٥٨) النجوم الزاهرة ٦/٤٩ .

(٦٠) الحوادث الجامعة ص٣٢٥ .

(٦١) جامع التوازيخ ص٢٨٦ .

(٦٢) الحوادث الجامعة ص٣٢٥ .

(٦٣) الحوادث الجامعة ص٣٣٦ .

(٦٤) الكازروني : مختصر التاريخ ٩٥أ .

(٦٥) جامع التواريخ ص٢٨٦ .

(٦٦) المصدر نفسه ص٢٨٦ - ٢٨٨ .

(٦٧) المصدر نفسه .

(٦٨) ابن العبري : مختصر الدول ص٤٧٤ .

(٦٩) جامع التواريخ ص٢٨٨ .

(٧٠) د. عبد المنعم رشاد : مرجع سبق ذكره ص٢٠ - ٢١ .

(٧١) جامع التواريخ ص٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٧٢) ابن العبري ص٢٧١ .

(٧٣) جامع التواريخ ص٢٨٩ .

(٧٤) المصدر نفسه ص٢٩٠ .

(٧٥) جامع التواريخ ص٢٩٠ .

(٧٦) ابن كثير : البداية والنهاية .

(٧٧) ابو الفدا : المختصر ٣/١٩٤ ، شذرات الذهب ص٢٧١ .

(٧٨) جامع التواريخ ص٢٩٠ - ٢٩١ .

(٧٩) المصدر نفسه ص٢٩١ .

(٨٠) الحوادث الجامعة ص٣٢٩ .

(٨١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣/٢٠١ .

(٨٢) الذهبي : دول الاسلام ٢/١٢١ ، مقدمة ابن خلدون ٥/١١٥٠ .

(٨٣) ابن خلدون : التاريخ ٥/١١٥٠ ، ابن الساعي : مختـ
اخبار الخلفاء ص١٢٧ .

(٨٤) الحوادث الجامعة ص٣٣ ، تاريخ الخميس ٢/٤٢١

(٨٥) جامع التواريخ م٢ جـ١ ص٢٩٣ .

(٨٦) المصدر نفسه ص٢٩٣ .

(٨٧) البداية والنهاية ١٣/٢٠١ .

(٨٨) الجوالق : وعاء من الاوعية .... وقيل : الجوالق : اللبيـ
(لسان العرب - مادة جلق) .

(٨٩) البداية والنهاية ١٣/٢٠١ .

(٩٠) د. عب المنعم رشاد : مرجع سابق ذكره ص٣٢

(٩١) المرجع نفسه ص٢٦ .

(٩٢) جامع التواريخ ص٢٩٤ .

(٩٣) سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب . ترجمة عفيـ
بعلبكي ص٣٤٦ - ٣٤٧ .

(٩٤) ابن الطقطقي : الفخري في الاداب السلطانية .

(٩٥) جامع التواريخ ص٣٢٢ بطرسبو
١٨٥٨ - ١٨٨٨م .

(٩٦) البداية والنهاية ١٣/٢٠٢ .

(٩٧) تاريخ ابن خلدون ٥/١١٥٠ .

(٩٨) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٤٧٣ .

(٩٩) الصفدي : الوافي بالوفيات ١/١٨٤ ، ابن شا
الكتبي : فوات الوفيات ٣/٢٥٣ .

(١٠٠) دول الاسلام ٢/١٢٢ ، الديار بكري : تاريخ الخميـ
٢/٤٢٢ .

(١٠١) د. زعين ، د. العاني : مرجع سبق ذكـ
ص٢٧٨ - ٢٧٩ .

(١٠٢) ابن الفرات : هو علي بن محمد بن موسى بن الفرات ابـ
الحسن ، الوزير العباسي المشهور . استوزر للخليفة المقتدر ثلا
مرات .

(١٠٣) الحوادث الجامعة ص٣٣٥ ، وبالامكان الرجوع الـ
ترجمة (ابن العلقمي) في : الوافي بالوفيات للصفدي وفوا
الوفيات لابن شاكر الكتبي .

(١٠٤) البدرية : منسوبة الى بدر ، مولى الخليفة المعتضد
والمراد بها الزيادة التي اضافها هذا المولى الى جامع المنصو
من قصر المنصور المجاور له فسميت باسمه .

يراجع : دليل خارطة بغداد - للدكتور مصطفى جواد والدكتو
احمد سوسة - بغداد ١٩٥٨ ص٥٦ - ٥٨ .

(١٠٥) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٤٧٣ وقد اورد الذهبي هذه القصيدة كاملة في (تاريخ الاسلام) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١٠٦) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص٣٣٥ .

(١٠٧) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات جـ١ ص٣٠٣ القاهرة/١٨٦٦ .

(١٠٨) المرجع نفسه ص٤٩٩ - ٥٠١ .

(١٠٩) جعفر حسين خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين بغداد/١٩٦٨ ص١ .

(١١٠) السبكي : طبقات الشافعية جـ٥ص١٠٩ .

المصادر والمراجع

١ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة/ طبعة مصر .

٢ . ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الاعيان - الطبعة الاولى/١٩٥٢ الهند .

٣ . خصباك ، جعفر حسين : العراق في عهد الايلخانيين - بغداد/١٩٦٨ .

٤ . خصباك ، جعفر حسين : الاحتلال المغولي لبغداد مجلة كلية الاداب - جامعة بغداد / العدد الثالث١٩٥٨ .

٥ . ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر [او ما يعرف بتاريخ ابن خلدون] .

٦ . خليل ، د . نوري عبد الحميد : التحدي المغولي وموقف الامة العربية منه مجلة (دراسات للاجيال) العدد الثالث - السنة السادسة - ايلول١٩٦٨ بغداد .

٧ . الديار بكري : تاريخ الخميس في احوال أنفس نفيس الطبعة الاولى - القاهرة/١٣٠٢هـ .

٨ . الذهبي : دول الاسلام . دائرة المعارف - الدكن/١٣٦٥هـ .

٩ . رشاد ، د . عبد المنعم : احتلال المغول لبغداد مجلة (آداب الرافدين) العدد الاول - آب ١٩٧١ جامعة الموصل .

١٠ . رشيد الدين ، فضل الله الهمداني : جامع التواريخ نقله الى العربية محمد صادق نشأت وجماعته . طبعة القاهرة - دار احياء الكتب العربية .

١١ . رنسيمان ، ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية . ترجمة الباز العريني - بيروت/١٩٦٩ .

١٢ . زعين ، د . حسن فاضل ، د . عبد الرحمن عبد الكريم العاني . العراق في مواجهة التحديات (فصل التحدي المغولي) جـ٢ بغداد ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م سلسلة دراسات في تاريخ العراق وحضارته .

١٣ . ابن الساعي : مختصر اخبار الخلفاء - مصر١٣٠٩هـ .

١٤ . السبكي : طبقات الشافعية - مصر/١٣٢٤هـ .

١٥ . سوسه ، د . احمد [مهندس ري وآثاري] : وقعة نهر دجيل واحتلال المغول لمدينة بغداد - مجلة المجمع العلمي العراقي - المجلد الخامس - بغداد١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م .

١٦ . سيد ، أمير علي : مختصر تاريخ العرب (ترجمة عفيف بعلبكي) . دار العلم للملايين - بيروت / ١٩٦٧ .

١٧ . السيوطي : تاريخ الخلفاء . تحقيق محمد محي الدين - القاهرة/ ١٩٦٤ .

١٨ . ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات . (تحقيق احسان عباس) بيروت/ ١٩٧٤ وطبعة القاهرة/١٨٦٦م .

١٩ . الصفدي : الوافي بالوفيات (باعتناء هلموت ريتر) طبعة ١٩٦٢ .

٢٠ . ابن الطقطقي : الفخري في الاداب السلطانية . طبعة مصر - ١٩٦٢م .

٢١ . ابن العبري ، (غريغوريوس) . تاريخ مختصر الدول/ بيروت/ ١٨٩٠ .

٢٢ . العريني ، الباز : المغول - بيروت/١٩٦٧ .

٢٣ . الغياثي : التاريخ الغياثي / تحقيق طارق الحمداني - بغداد/١٩٧٥ .

٢٤ . ابن الفوطي : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة . تحقيق د . مصطفى جواد (مطبعة الفرات - بغداد ١٣٥١هـ) [ويرى العلامة جواد رحمة الله ان هذا الكتاب منسوب خطأ الى ابن الفوطي] والله اعلم .

٢٥ . الكازروني : مختصر التاريخ / تحقيق د . مصطفى جواد - مطبعة الحكومة - بغداد .

٢٦ . المقريزي : السلوك لمعرفة دلول الملوك - القاهرة/ ١٩٣٤ .

٢٧ . الورد ، باقر امين ، المحامي : بغداد ، خلفاؤها ، ولاتها ، ملوكها ، رؤساؤها منذ تاسيسها عام ١٤٥هـ - ٧٦٢م الى عام ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م . (طبع بمساعدة اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري في جمهورية العراق) بغداد / ١٩٨٤ .

٢٨ . ابن كثير : البداية والنهاية / القاهرة/ ١٩٣٢ .

٢٩ . الصياد ، فؤاد عبد المعطي : المغول في التاريخ / بيروت / ١٩٦٠ .

٣٠ . د . مصطفى جواد ، د . احمد سوسة : دليل خارطة بغداد / بغداد - ١٩٥٨ .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعر الجهاد في مواجهة حروب التتار في القرن السابع الهجري .

د . فؤاد ابو الهيجاء
جامعة عمر المختار
كلية التربية ـ المسرح

تقديم تاريخي :

الحمد لله فاتحة كلّ خير والتي نردّها في تمام كل عمل بخيره وشره والصلاة والسلام على خير البشر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ووفقنا إلى السير على هداه .

حين تضعف السلطة المركزية ، وتشرئب أعناق الطامعين وسرعان ما يقطع كل واحد منهم جزءاً من أجزاء الدولة ، وهذا ما حدث للدولة العباسية التي اضطربت أحوالها بعد القرن الأول من ظهورها إلى الوجود ، فاستغلّ كلّ والٍ أو طامع بما تحت يده من بلاد ،.وعمل بعد ذلك على توسعة رقعة بلاده ، وظهرت إلى الوجود دول ، ودول ، ظهرت دولة السلاجقة ودولة بني بويه ، ودول الاتابكة والخلافة الفاطمية وغير ذلك وأصبح لكل مدينة في العراق والشام حاكم انفصل عن الخلافة العباسية ، ولم يبق للخليفة في بغداد من سلطة سوى الدعاء له على المنابر .

في هذا الجو المضطرب ، ظهرت في سماء الغرب أطماع تنظر إلى بلاد المسلمين في بلاد الشام نظرة شهية وسرعان ما تقدمت جحافل الاوربيين سنة ٤٩١ هـ الموافق ١١٤٤ م بحجة تخليص قبر السيد المسيح من أيدي المسلمين في بيت المقدس ، وهنا أدرك أمراء المسلمين المنقسمون على أنفسهم ، المتصارعون على السلطة خطورة الموقف لكن بعد فوات الأوان وحققت الحملات الصليبية الأولى أهدافها ، وأقامت لها ممالك في القدس والرّها وأنطاكية وغيرها .

وتطلعت الأمة الأسلامية إلى قوة مسلمة وطال زمن انتظارها وتطلعها وأخيراً يسّر الله سبحانه لها أتابك تركيّ الأصل هو عماد الدين رنكي[1] الذي استطاع أن يحرر أول مدينة من أيديهم وهي مدينة الرّها كما استطاع ابنه نور الدين محمود رنكي يحقق انتصارات عظيمة عليهم حتى أنه كان قد وضع نصب عين تحرير بيت المقدس وكلّف نجاراً من قرية قريبة من حلب بُص محراب للمسجد الاقصى ولكن أهم أعماله كان توحيد حلب وحم ودمشق وحماة ومن ثم توحيد الشام ومصر بعد أن أرسل شير قائده العسكري إليها . ثم ظهر صلاح الدين الأيوبي الكردي الأ والذي كان يعمل في بلاطه مع أبيه وعمه شيركوه المذكور الذ أصبح وزيراً للعاضد آخر خليفة فاطمي ، ثم أنهى الخلا الفاطمية وضمّ مصر إلى الشام تحت قيادة نور الدين وحين تو الاخير خلفه ابنه الصغير ، فطمع صلاح الدين بتوحيد مصر والشا تحت قيادته وتحقق له ذلك ، وأصبح يقف في مواجهة الصليبي وأمل أن يحرر الأقصى وعمل جاهداً على تحقيق أمله وكان ما أراد بفضل جهاده وجلاده وصموده وحقق . أعظم نصر له علي في معركة حطين سنة ٥٨٣ هـ[2] ثم دخل القدس فاتحاً ومحرراً السنة نفسها[3] ، وكاد أن يحرر كل البلاد من أيديهم لكنّ مدي صور استعصت عليه وجاءت نجدات الصليبيين ، واستطاع هؤلا إعادة احتلال بعض المدن الشامية خاصة عكّا التي صمدت أما حصارهم لها سنتين كاملتين ، وتمّ صلح الرملة بينهم وب صلاح الدين سنة ٥٨٧ هـ[4] وتوفى الأخير سنة ٥٨٩ هـ[5] وظل حلفاؤه يصارعون الصليبيين خاصة أخوه العادل ، وظل الحرب سجالًا بين الفريقين .

في هذا الجو ظهرت دولة المماليك في مصر على أنقاض فر من البيت الأيوبي ظهرت هذه الدولة على يد شجرة الدر مملوك نجم الدين أيوب والتي قتلت ابنه توران شاه . وامتاز بعض سلاطين المماليك بحب الجهاد والرغبة في قتال الصليبيين وخلال صراعهم هذا فوجئوا بزحف جحافل جديدة من الشرق ، بعد أن كانت عيونهم تراقب الغرب فاصبحوا مهددين من الصليبيين القادمين من الغرب ومن المغول القادمين في موجات جارفة من الشرق .

لقد كانت نكبة المسلمين بالصليبيين عظيمة ، ولكن نكبتهم بالتتار كانت أشد وأنكى وأعظم ، كادت نكبتهم بالتتار تقضي على حضارتهم وثقافتهم ، لقد دمّر المغول مكتباتهم وجامعاتهم ومدارسهم وقتلوا العلماء وشرّدوا الآلاف منهم ، ولم يُفجع المسلمون بفجيعة أعظم منها ، لقد احتلوا إيران وبلاد الإسلام الشرقية كلّها ثم اتجهوا صوب العراق فخربوا بغداد وجعلوا أرضها قاعاً صفصفا ، وقضوا على الخلافة العباسية تماماً سنة ٦٥٦ هـ . ثم اتجهوا إلى بلاد الشام فاحتلوا كل المدن ، احتلوا حلب ودمشق أعظم المدن الشامية وأشرأبت أعناقهم إلى مصر لكن الله سبحانه وتعالى يسّر لهم من سلاطين المماليك مَنْ أوقف مسيرتهم وصدّ هجماتهم وكسر شوكتهم وحقق عليهم انتصارات عظيمة وفاصلة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التتار أو المغول قبائل كانت تستقر في أواسط آسيا وقد استطاع جنكيز خان أن يوحد صفوفها،[٦] وكانت هذه القبائل قبائل بدوية، وهم أهل خيام وعمد، ليس لهم إلّا الاغنام والخيل يأكلون لحومها ويشربون البانها ولا ماكل لدوابهم سوى الحشيش[٧] ولم يكن لهم دين يدينون به إلّا أنهم يعترفون بالصانع سبحانه وتعالى ويعظمونه ولا يعتقدون بشريعة من الشرائع وقد وضع لهم جنكيز خان ضوابط يدينون بها ويعملون بما جاء فيها ويسمونها « الآسة » وصار هذا الرجل « جنكيز خان » عندهم بمثابة نبيّ يرجعون إليه في كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه[٨] وفي سنة ١٢٠٦ م أصدر جنكيز خان قانون « الياسا » وذلك عقب انتخابه امبراطوراً ومن مواده :[٩]

١ ـ من وجد عبداً هارباً أو اسيراً قد هرب ولم يرده إلى صاحبه قُتل.

٢ ـ من أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل.

٣ ـ منعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى.

٤ ـ منعهم من أن يقال لشيء إنّه نجس فإنّ جميع الأشياء طاهرة.

٥ ـ منعهم من تفخيم الالفاظ فلا يخاطب الشخص مهما علتْ مكانته إلّا باسمه فقط.

٦ ـ ألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر والكلف في مدة غيابهم في القتال.

٧ ـ رتبّ للعساكر أمراء ألوف وأمراء مئين، وأمراء عشرات. وهناك مواد أخرى كثيرة.

وبدأ جنكيز خان فتوحاته واحتلّ منغوليا سنة ١٢٠٦ م وأكمل فتح بلاد الصين وتُركستان ما بين سنتي ١٢١١ ـ ١٢١٦،[١٠] ثم اتجه إلى إيران وفيها مَلِكها خوارزم شاه، ودارت بين الطرفين معارك طاحنة انتهت بانتصار المغول وهزيمة خوارزم شاه وهربه، وقد قتل المغول في حروبهم مئات الألوف من الناس، ويروي ابن واصل انهم عندما دخلوا بخارى[١١] بذلوا في أهلها السيف وسبوا ما فيها من النساء والذرية وارتكبوا مع النساء العظائم ورجالهن ينظرون ولا يستطيعون الدفع[١٢]

ويروى أيضاً أنّ عدد القتلى في قزوين بلغ أربعين ألفا واحتل بعد ذلك سمرقند في مارس ٦١٧ هـ ١٢٢٠ م[١٣] ووصل بعد ذلك إلى بلاد الروس سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م ثم تقدم إلى بلاد البلغار، وأرسل بعض أولاده إلى مرو فاستعصت عليه، فلما فتحها وضع السيف في رقاب أهلها وأحصيت القتلى فكانوا سبعمائة ألف قتيل.[١٤]

ولحق جنكيز خان بجلال الدين بن محمد خوارزم شاه وكان خوارزم شاه قد مات في ديسمبر من سنة ١٢٢٠ م الموافق ٦١٧ هـ وقد أرسل جنكيز خان فرقة وراء جلال الدين إلى الهند سنة ٦٢٠ هـ ولحق به جنكيز خان نفسه فهرب جلال الدين إلى الهند سنة ٦٢٠ هـ يقول السيد الباز العريني هرب خوارزم شاه حتى بلغ بحر قزوين والجزيرة ولحق به المغول حتى فقدوا أثره.

وفي سنة ٦٢٩ هـ عاد التتار إلى الجزيرة وحران فقتلوا وأسروا وسبوا وكان ذلك في عهد الملك الكامل ابن الملك العادل فخرج إلى أن وصل إلى ديار بكر واجتمع مع أخيه الأشرف موسى، وعزموا على دفع التتار وخروج أهل حران لقتال التتار فما رجع منهم أحد إلّا القليل وعاد التتار إلى ديارهم.[١٥]

وفي سنة ٦٣٢ هـ قطع التتار دجلة في مائة طلب كل طلب خمسمائة فارس فوصلوا إلى سنجار فخرج إليهم صاحبها فقتلوه على بابها ثم رجعوا.

ظل التتار يهجمون على أطراف البلاد فينهبون ويسلبون ثم يعودون حتى سنة ٦٥٣ هـ الموافق الثاني من يناير ١٢٥٦ م حين عبر هولاكو بجيشه نهر جيحون.[١٦]

ورحب به إتباعه على الضفة الفارسية للنهر من أمثال ملك هراة وأبي بكر السلفوري أتابكْ فارس وأمير من أمراء السلاجقة بآسيا الصغرى وغيرهم وهجم هولاكو على بلاد الاسماعيلية ومعاقلهم في آلموت وغيرها، وأنشا حكومة مركزية في إيران تستند إلى قانون جنكيز خان.

وحاول الإسماعيلية توحيد قواهم والاستعانة بمن حولهم حتى من أعدائهم واتصلوا بملكي انجلترا وفرنسا عام ١٢٣٨ م، لكنّ ذلك كله لم يفد ودخل التتار آلموت في نوفمبر ١٢٥٦ م.[١٧]

ويضع هولاكو بغداد نصب عينيه، كان الخليفة آنذاك هو المستعصم ١٢٤٢ ـ ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) وهو السابع والثلاثون من بين خلفاء العباسيين.[١٨]

وراسله هولاكو وطلب منه أن تكون له السلطات الزمنية في بغداد فرفض وأنذره هولاكو لكن الخليفة رفض إنذاره، وعندئذ أعلن هولاكو عزمه على احتلال بغداد، وأخذت جيوشه تهبط إلى بغداد ابتداء من نوفمبر ١٢٥٧ م وظلت هذه الجيوش تتوالى إلى الثاني والعشرين من يناير ١٢٥٨ م ودخل هولاكو المدينة في الحادي عشر من فبراير ١٢٥٨ م الموافق التاسع من صفر ٦٥٦ وقتل هولاكو الخليفة في العشرين من فبراير كما قتل كل أفراد أسرته واستولى على أمواله وأموال أجداده ونسائه وسراياه وحاشيته التي بلغ عددها ألفا.[٢٠]

وأباح هولاكو المدينة لجنده فقتلوا ونهبوا وأحرقوا ما لايستطيع الواصفون وصفه ولا المشاهدون عدّه وذكره.

حروب التتار في الشام :ـ

كان لهذه النكبة أسى في جميع البلاد الاسلامية ولا عجب في ذلك فبغداد كانت العاصمة الروحية للمسلمين جميعاً عربهم وعجمهم.

لقد تركت هذه النكبة آثارها البعيدة على النفوس، ودبّ الذعر والخوف في نفوس أمراء وملوك المسلمين، فصانع بعضهم هولاكو مثل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الذي كان قد استقلّ بالموصل عام ١٢٣٣ م وتوجّس الباقون خيفة وظلوا ينتظرون ما سيفعله هولاكو.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أمر هولاكو جيوشه بالزحف الى بلاد الشام ، فاتجهت صوبها مدمّرة كل البلاد التي مرّت بها ، وكان هولاكو يأمل بأحتلال الشام وضمها ، وكانت بلاد الشام يومذاك تحت الحكم الايوبي في الداخل والصليبي على الساحل .

كان الأيوبيون قد بلغوا حضيض الضعف كما بلغ الاضطراب بالإمارات الصليبيين حداً كبيراً ، لكنّ حضور لويس التاسع إلى عكا في مايو ١٢٥٠ م ساعد على تهدئة الصليبيين .[٢١]

وفي سنة ١٢٥٠ م ظهرت دولة المماليك إلى الوجود إثر مقتل توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب على أيدي مماليكه وخاصة جارية أبيه شجرة الدّر والتي كان لويس التاسع قد وقع في أسرها وحدثت امور كثيرة قتلت بعدها شجرة الدّر وفي نوفمبر ١٢٥٩ انتزع قطز السلطة لنفسه ، وحاول هولاكو أن يوقع بينه وبين الملك الناصر يوسف الايوبي لكنّ قطز استطاع أن يرتق الشقّ ويزيل ما بنفس الناصر من شكوك فأرسل إليه يقسم له بأغلظ الأيمان أنه لا ينازعه في الملك ولا يقاومه وانه نائب عنه بديار مصر وأنّه مستعد أن يرسل إليه العساكر نجدة له على القادم إليه « التتار » فاطمأن الناصر إليه .[٢٢]

وتقدمت جحافل المغول إلى حرّان واجتازت نهر الفرات فاضطربت أحوال حلب فلجأ الناصر إلى دمشق حانقاً قلقاً ، وكتبَ مستنجداً إلى الامراء الايوبيين وراسل قطز يطلب النجدة ، واستمرت جيوش المغول في تقدمها فاحتلت الرُّها وسروج والبيرة ومنبج وأحاطوا بحلب واستولوا عليها في يناير سنة ١٢٦٠ م .[٢٣]

وهربَ الناصر يوسف من دمشق بأتجاه مصر واحتلّ التتار دمشق صُلْحاً كما احتلوا بقية المدن القريبة ، واحتل كتبغا القائد المغولي قلعة دمشق في مارس سنة ١٢٦٠ م ، وهكذا تم فتح بلاد الشام التي كانت بيد الايوبيين .

وهكذا تم فتح ثلاث مدن من أعظم المدن الإسلامية قديمها وحديثها . وأصبح المغول على أبواب مصر وفي أوائل يناير ١٢٦٠[٢٤] وجّه هولاكو سفارة إلى مصر يطلب فيها من قطز التسليم وهذا نصّ خطابه :

من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم ، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء ، يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الأقليم يتنعمون بأنعامه ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك يعلم الملك قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال أنّا نحن جند الله في أرضه خلقنا من سخطه ، وسلّطنا على من حلّ به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر ، فاتّعظوا بغيركم ، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ ....[٢٥]

وجمع قطز أمراءه للتشاور وَجُلُّهم من المماليك الترك ، وكان هولاكو قد رحل إلى فارس وبقي كتبغا على رأس جيش عَدَوهُ ما بين ١٠ ـ ٢٠ ألفاً .

كان قطز قويّ الإيمان راغباً في الجهاد فخاطب الأمراء قائلًا :

ـ يا أمراء المسلمين ، لكم زمان تاكلون أموال بيت المسلمين وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته ، فإنّ الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين»[٢٦] ثم قتل رسل كتبغا .

وقاد الجيش على امتداد الساحل في اغسطس ١٢٦٠ ، وأقام أياماً خارج عكا ثم سار حتى بلغ عين جالوت في الثاني من سبتمبر ١٢٦٠ واطمان إلى تفوق جيشه وحث جنده على القتال والجهاد واشتدت المعركة وفرح المؤمنون بنصر الله وانتهت في الخامس والعشرين ٦٥٨ هـ الموافق سبتمبر ١٢٦٠ م .[٢٧]

وعظمت فرحة المسلمين واشتدّ حزن هولاكو وانتهت الأسطورة القائلة بانتصار المغول الدائم .

لم يكتف المماليك بهذا النصر ، فلحق بيرس بالتتار المنهزمين عند حلب وأطلق سراح أسرى المسلمين الذين كانوا في أيديهم وهكذا أصبحت بلاد الشام تحت أمرة المماليك .

وحاول المغول بعد ذلك احتلال حلب فنهبوها لكنهم لقوا هزيمة ملحقة بالقرب من حمص في ديسمبر ١٢٦٠ م .[٢٨]

وفي طريق عودة قطز الى مصر اغتاله بيرس وتولى السلطة في اليوم نفسه في السابع عشر من ذي القعدة ٦٥٨ الموافق ٢٤ من اكتوبر ١٢٦٠ م .[٢٩]

وحاول التتار استغلال الخلاف بين بيرس ونائب قطز في دمشق سنجر الحلبي الذي تولى السلطة فيها ، فعادوا واحتلوا حلب[٣٠] وتوجهوا إلى حمص وحماة لكن هزيمة نكراء لحقت بهم هناك .

وظلّت الأيام سجالا بين هولاكو والمماليك إلى أن توفي في فبراير ١٢٦٥ م في أذربيجان .[٣١]

وفي الفترة الواقعة بين ١٢٧٧ هـ و ١٢٨٠[٣٢] أي منذ وفاة بيرس حتى قيام المنصور قلاوون حفلت مصر بالفتنة فاستغلها المغول وهجموا على شمال الشام ووصلوا الى حلب ودخلوها سنة ١٢٨٠ م ، وخرج قلاوون والتقِى بالمغول بقيادة منكوتمر عند حمص[٣٣] وعاد المغول مجتازين نهر الفرات الذي أضحى الحد الفاصل بينهم وبين المماليك . وبعد مقتل السلطان خليل قلاوون سنة ١١٩٣ م حاول المغول مساعدة حليفهم ملك قليقية هيثوم ، فتوجهت ثلاث حملات لمهاجمة الشام في السنوات ١٢٩١ ـ ١٣٠٣ انتهت كلها بالفشل .[٣٤]

وأخيراً انتهت هذه النكبة بدخول ملوك المغول في الاسلام وكان أول من أعلن اسلامه من ملوكهم محمود غازان ، وعلى الرغم من إسلامه ظل يهاجم أطراف البلاد بين الحين والحين .

انتهت الحروب المغولية بدخول ملوكها في الاسلام واستيلاء الاتراك سنة ١٣٧٧ على كثير من أملاكها وفي سنة ١٣٧٥ م اشترك الاتراك والمماليك في اخضاع ما تبقى من أملاكها .[٣٥]

□ ——— الهوامش ——— □

(١) التاريخ الباهر في الدول الاتابكية (الموصل) ابن الاثير الجزري ، وقد تم فتح الرها في جمادى الاخرة سنة ٥٣٩ هـ ص٦٦ .

(٢) النوادر السلطانية والمحجابن اليوسفية (ابن شداد) وقد تمت معركة حطين في ١٧ ربيع الاخرة سنة ٥٨٣ ص٧٥ .

(٣) النوادر السلطانية ، وقد تم فتح القدس في يوم الاحد ١٥ من رجب سنة ٥٣٨ ص ٨١ .

(٤) النوادر السلطانية وقد تم صلح الرملة يوم الخميس ٢٣ من شعبان ٥٨٧ ص ٢٣٤ وكتابه المغول للعريني ص٨٥ .

(٥) توفي السلطان صلاح الدين يوم الاربعاء ٢٧ من صفر ٥٨٩ ، النوادر السلطانية ٢٤٦

(٦) كتاب المغول للعريني ص٤٠ ـ ٥٢

(٧) مفرج الكروب جـ٤ / ٣٦ ـ ٣٧

(٨) مفرج الكروب جـ٤ / ٣٦ ـ ٣٧

(٩) كتاب المغول للعريني ص٦٦

(١٠) كتاب المغول للعريني ص٥٤

(١١) كتاب المغول / احتل بخارى في (١٢) مفرح الكروب ٤ / ٤٣

(١٣) كتاب المغول ص١٢٤

(١٤) المرجع السابق ص١٣٢

(١٥) المرجع السابق ص١٣٧

(١٦) المرجع السابق ٢٠٩

(١٧) المرجع السابق ٢١٠

(١٨) المرجع السابق ص٢١٤

(١٩) المرجع السابق ص٢١٥ ومؤرخ المغول ص٣٢

(٢٠) المرجع السابق ص٢٢٢ ولزيادة المعرفة يراجع كتاب مؤرخ المغول ٣٩ ـ ٤١

(٢١) المرجع السابق ٢٢٦ ولزيادة التفصيلات يراجع مؤرخ المغول الكبير ص٤٦ وما بعدها

(٢٢) المرجع السابق ٢٤١

(٢٣) المرجع السابق ص٢٤٤

(٢٤) المرجع السابق ص٢٥٥

(٢٥) المرجع السابق ٢٥٦ ومؤرخ المغول الكبير ص٥٢ ـ ٥٣

(٢٦) المرجع السابق ٢٥٧

(٢٧) المرجع السابق ٢٦٠ ومؤرخ المغول الكبير ص ٥٣ ـ ٥٤ ولمعرفة تفاصيل مقتل كتبغا

(٢٨) المرجع السابق ٢٦٢

(٢٩) المرجع السابق ٢٦٥

(٣٠) المرجع السابق ٢٦٦

(٣١) المرجع السابق ٢٧٨

(٣٢) المرجع السابق ٢٩٨ ٢٩٩١

(٣٣) المرجع السابق ٣٠٠

(٣٤) المرجع السابق ٣١٩

(٣٥) المرجع السابق ٣٢٠

الشعر يرصد الهجمات التتارية
على البلاد العربية
في العراق وبلاد الشام

بدأت الهجمات التتارية على البلاد الإسلامية في وقت سابق لظهور الشعر الراصد لها . فنحن كما ذكرنا في التمهيد التاريخي نعلم أن هذه الهجمات بدأت في عهد جنكيز خان ابتداء من سنة ٦٢٠ هـ تقريباً أوقبلها بقليل .

وكان قد صبّ غضبه وحقده على بلاد فارس ، واحتلها وقتل الالآف مُن اهلها ممّا زرع الرعب في نفوس المسلمين في العراق والشام بل وفي البلاد الإسلامية الأخرى في المشرق .

لكنّ خطر المغول الحقيقي على البلاد العربية لم يصل الّا سنة ٦٤٨ هـ حين تولى منكوقاً آن الحكم ، وهو الذي جهّز حملة هولاكو ورسم له خطة الاحتلال[1] وتقدم هولاكو فاحتلّ قلاع الإسماعيلية ثم توجّه إلى المغرب لتحقيق هدفه الرئيس ألا وهو احتلال بغداد العاصمةِ العظيمةِ للمسلمين جميعاً ، وتمّ له ما أراد بعد أحداث ومحاولات وخيانات أدّت في نهايتها إلى خراب بغداد ومقتل الخليفة المستعصم ، وقد أثارت هذه الفجيعة الحزن في نفوس المسلمين وسالت عبراتهم وانهمرت دموعهم بسبب ما حلّ بها من خراب ، وعندها بدأ صوت الشعراء يرتفع وبدأنا نسمع أنينهم وبكاءهم وعويلهم ، ولم نكن قد سمعنا ذلك منهم قبل هذه النكبة المدمرة أو على الأصح لم يسجل لنا الأدباء ولا مؤرخو الأدب ولا مؤرخو التاريخ ما قاله الشعراء في الفترة السابقة من تحذير أو تنبيه أو أنذار إنْ كانوا قد قالوا شيئاً من ذلك بالفعل .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشعراء ونكبة بغداد :ـ

لكنّ صوت الشعراء بدأ يظهر ويعلو بعد الفجيعة بتدمير بغداد وإباحتها أمام السلب والنهب والقتل وسفك الدماء .

نسمع أصوات شعراء المسلمين من مختلف البلاد الاسلامية خاصة بلاد فارس والعراق وبلاد الشام ومصر .

فهذا سعدي الشيرازي الفارسي الأصل يرثي أمير المؤمنين المستعصم بالله العباسي بعد أن قتله هولاكو إثر دخوله بغداد سنة ٦٥٦ هـ الموافق ١٢٥٨ م ، وينس لخراب بغداد في قصيدة نظمها بالعربية بدأها بالبكاء والتحسر على بغداد وما حلّ بأهلها من نكبات ونوائب ويقول في بدايتها :

حبستُ بجفنّي المـــدامـــع لا تجـــري
فلمّــا طغى الماء استطال على السِّكـر[٢]

نسيم صبا بغداد بعد خرابها
تمنّيْتُ لو كانت تمرُّ على قبري

لأنّ هلاك النفس عند أولي النهى أحبّ له من عيشٍ منقبض الصدر
زجرت طبيبا جسّ نبضي مداويا
إليك فما شكواي من مرضي تبري

ويصف حصار التتار لبغداد والقتل الذي أنزله جنودهم بأهلها :ـ
تسائلني عما جرى يوم حصرهم
وذلك مما ليس يدخل في الحصر
أديرت كؤوس الموت حتى كأنما
رؤوس الأسارى ترجَحِنّ من السُكر[4]
نوائب دهر ليتني مِتُّ قبلها
ولم أرغُدوانَ السَفيه على الخبَر[5]

ويطلب من ناصحه بالصبر التوقف عن نصحه لأن المصاب عظيم ، وكيف يستطيع الصبر من يحترق كبده فوق النار وهو يرى دماء أهله في بغداد تتدفق مع مياه دجلة حتى تصل إلى عبادات المدينة القريبة من البصرة ، يقول :ـ

أيانا صحي الصبر دعني وزفرتي
أموضع صبر والكبود على الجمر[6]
وقفت بعبّادان[7] أرقب دجلة
كمثل دم قان يسيل إلى البحر
ولاتسألاني كيف قلبك والنوى
جراحة صدري لا تبين بالسبر[8]

ويئس لذهاب بني العباس وزوال ملكهم فيقول :ـ
وهب أن دار المُلْك ترجع عامرا
ويغسل وجه العاملين من العفر
فأين بنو العباس مفترع الورى
ذوو الفلق المرضى والغرر الزهر
غدا سمراً بين الأنام حديثهم
وذا سمر يدمي المسامع كالسمر
وفي الخبر المروي دين محمد
يعود غريباً مثل مبتدأ الأمر

ويستمر في وصف هذا المصاب وتصويره بلوعة ظاهرة وحزن واضح وصدر مملوء بالاسى ، يقول في آخرها :ـ

آحدّث أخباراً يضيق بها صدري
وأحمل اصاراً ينوء بها ظهري
خليلي ما أحلى الحياة حقيقة
وأطيبها لولا الممات على الإثر

وقد نقلت لنا كتب التاريخ والدواوين الشعرية بعض القصائد في هذا المجال من ذلك ما نقله صاحب عيون التواريخ ، يقول :ـ

استهلت سنة ٦٥٦ هـ والخليفة المستعصم بالله وصاحب مصر المنصور بن الملك المعز وصاحب الشام الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز ويقول : وفي المحرم من هذه السنة (٦٥٦ هـ) استولى التتار خذلهم الله على بغداد فقتلوا ونهبوا وأسروا ، ونظم الشعراء في ذلك الأشعار ، فمما قاله المجد النشابي[9] من قصيدة :ـ

ياسائلي ولمحض الحقّ يرتاد
أصنخ أصنخ فعندي نشدان وإنشاد
واسمع فعندي روايات تحققها
رواية وأحاديث وإسناد
فهم ذكي وقلب حافظ يقظ
وخاطر لنقود النقد نقاد

ويصف في هذه القصيدة أحوال بغداد قبل دخول هولاكو إليها ، ففيها الفساد والتهتك والخروج على الدين والتراخي في الحكم والقضاء فالوزير مشغول بتطييب رائحته والقائمون على أمور الجند لا يعرفون شيئاً من أمورهم فضلًا عن انشغال الحارس بشرب الخمر وابن عباس مغرم باللواط أما شيخ الاسلام فهمّه جمع المال ، يقول في ذلك :
عن فتية فتكوافي الدين وانتهكوا
حماه جهلًا برأى فيه إفساد
إذا ترامت أمور الناس ليس لهم
فيها رواء ولا حزم وإنجاد
أما الوزير فمشغول بعنبّره
والعارضان نَسّاجٌ ومدّاد[10]
وحارس الباب طوراً شارب ثَمِلٌ
وتارة هو جنكيّ وعوّاد[11]
وابن عباس مغرى باللواط له
في كل ناحية علق وقواد
وشيخ الإسلام صدر الدين همّته
مقصورة لحطام المال يصطاد[12]

ثم يتوجه بالحديث والخطاب الى الرسول عليه الصلاة والسلام الراقد في يثرب ويبلغه ما حلّ بالإسلام والمسلمين من مصائب وما حققه أهل الكفر من انتصارات وما أنزلوه بالمسلمين من نكبات تشيب لها الرؤوس ، يقول :ـ

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

إن جئت يثـرب أو شـارفت سـاحتهـا
فقـل لمن أنـزلت في حقّـه صـاد
الكفـر أضرم في الإسـلام جـذوتـه
وليس يـرجى لنـار الكفـر إخمـاد

واضيعة الملك والدين الحنيف وما تلقاه من حادثات الدهر بغداد
أين المنيـة مني كي تسـاورني
فللمنيـة إصـدار وإيـراد
من قبـل واقعـة شنعـاء مظلمـة
يشيب من هـولهـا طفـل وأكبـاد

ولشمس الدين الكوفي الواعظ ثلاث قصائد، جاءت الأولى في ثمانية عشر بيتاً، والثانية في عشرين بيتاً والثالثة في ثمانية عشر بيتاً حسب ما أوردها صاحب عيون التواريخ.

أما الأولى فقد بدأها باكياً على ما حدث ملتاعاً لفراق أهله وأحبابه يقول في مطلعها:(١٣) -

بـانـوا ولي أدمـع في الخـد تشتبـك
ولـوعـة في مجـال الصـدر تعتـرك
بـالـرغم لا بـالـرضى مني فـراقهم
سـاروا ولم أدر أي الأرض قـد سلكـوا
يـاصـاحبي مـا احتيـالي بعـد بُعـدهم
أشِـرْ عليّ فـإن الـرأي مشتـرك
عـزّ اللقـاء وضـاقت دونـه حِيَلي
فـالقلب في أمـره حيـران مـرتبـك
يعـوقني عن مـرادي مـا بليت بـه
كمـا يعيق جنـاحَي طـائـر شـرك

وفيها يصف هذه النكبة المدمرة فيقول: -

يـانكبـة مـا نجـا من صـرفهـا أحـد
من الـورى فـاستـوى المملـوك والملـك
تمكنت بعـد عـزّفي أحبتنـا
أيـدي الأعـادي فمـا أبقـوا ولا تـركـوا
لـو أنّ مـالهم يفـدى فـديتهم
بمهجتي وبمـا أصبحتُ أمتلـك
ربـع الهـدايـة أضحى بعـد بعـدهم
معطـلا ودم الاسـلام ينسفـك
والشـرك منجبـر والملـك منكسـر
والحق مستتـر والستـر منهتـك

وفي الثانية يصور هروب حبيبه المفاجيء وما حلّ به بعد فراقه من ذل وتبدل أحواله وبكائه وحزنه الدائمين، يقول في مطلعها:(١٤) -

أين سـارت حـداة العيس
بحبيبي وواحـدي وأنيسي
حين ساروا حثّوا الركاب ولم يلووا على رواحة ولا تعريس
جـرعـوني من الفـراق كـووسـا
مُـرة مـا أمـرّهـا من كـؤوس
فتبـدلت بعـد عـزُ بـذلِ
وتبـدلت من نعيم ببـوس

ويستمر في البكاء والعويل لهذا الفراق الذي أحدثته النكبة فالمصائب جلل، والمصيبة عظيمة، لقد عاث الأعادي في البلاد فساداً وتدميراً يقول: -

ياديار الاحباب ماصنع الدهـر المعادي بربعك المأنوس
أين تلـك الـوجـوه فيـك منيـرات
حسـان مضيئـة كـالشمـوس
كـل وجـه كـالشمس لكن سـرى
بين أوج سعـدٍ الى حضيض النحـوس

قد وقفنا في الدار سكرى ولكن سكر حزن لاسكرة الخندريس
حين أضحت عـواطـلا بعـد مـاكـا
نت تجلّى في زينـة كـالعـروس
مـا انتفـاعي من بعـدهم بـوقـوفي
في محـلِّ ببـالٍ ورسمٍ دريس

ويدأ الثالثة بالأسلوب نفسه فهو يبكي على فراق أحبابه الذين نأوا عنه وابتعدوا، حين نأوا أظلمت الدنيا في ناظريه يقول:(١٥) -

أحبـاب قلبي نـأوا فـالـدمـع يستبق
وكم سـألتهم رفقـا فمـا رفقـوا
ضاقت بي الارض مذ جدت ركائبهم وأظلم الجو في عينيّ والافق

ويختتم هذه القصيدة بذكر المصطفى عليه السلام الذي خففَ من مصابه يقول: -

جـار الزمـان على قلبي الحـزين وَلَـوْ
لا مـدحي المصطفى لم يبق لي رمق
المجتبى خيـرُ خلقِ الله كلهم
ومن تكمـل فيـه الخَلق والخُلق

صلّى إلاله على المختار ماطلعت شمس وأشرق نجم أودجا غسق

على النهج نفسه نظم موفق الدين القاسم بن أبي الحديد قصيدة يبكي بغداد وماحلّ بها وبأهلها من بلاد وتخريب: قال(١٦)

لـولا البكـاء لمـا قـدرت على الأسى
إنّ البكـاء معـونـة الملتـاع
لـو أن روحـاً فـارقت من شـدة
لـوجـدْتَ روحي أسـرع الأرواح

حتى عمّ البلاء وأشتدت المجاعة ، واضطر صاحبها الكامل محمد بن الملك المظفر غازي ابن الملك العادل إلى الإستسلام ، فقتلوه شرّ قتله ، وقطعوا رأسه وطافوا به في دمشق وبقي معلقاً حتى عادت دمشق إلى المسلمين فدفن بمشهد الحسين فقال أبو شامة في هذه الحادثة :[٢٤] ـ

ابن غازي غزا وجاهد في الله قوماً اثخنوا في العراق والمشرقين
طاهراً عالياً ومات شهيدا
بعد صبر عليهم عامين
لم يشنه إذ طيف بالرأس منه
وله أسوة برأس الحسين
ثم راوا في مشهد الرأس ذاك
الرأس واستعجبوا من الحالين
وأرتجوا أنه يحيى لدى البعث
رفيق الحسينِ في الحسنيين

وقد قدمت جحافل هولاكو الى المدن الشامية واحتلتها المدينة تلو المدينة وقتلت سكان بعضها عن آخرهم كروج ثم سار الجيش المغولي إلى حلب وحاصرها ودخلها في الحادي عشر من ربيع الأول سنة ٦٥٧ (١٢٥٩) ، فقتلوا خلقاً كثيراً وحرقوا المسجد الكبير وخربوا المدينة فلما عاد إليها الصاحب كمال الدين عمر بن العزيز المعروف بأبن العديم وكان قد قدم إلى مصر من حلب عندما جفل الناس من التتار ثم عاد إليها بعد خرابها ، فلما نظر ما فعل التتار من خرابها وقتل أهلها بعد ذلك العمارة الرائعة :[٢٥] ـ

هو الدهر ما تبنيه كفُّك يهدم
وإن رُمْتَ إنصافاً لديه فتظلمُ
أباد ملوك الفرس جمعا وقيصرا
وأصمت لدى فرسانها منه أسْهُمُ
وأغنى بني أيوب مع كثر جمعهم
وما منهم إلّا مليك معظم
وملك بني عباس زال ولم يدع
لهم أثراً من بعدهم وهم وهم
وأعتابهم أضحت تداس وعهدها
تباس بأفواه الملوك وتُلْثَمُ
وعن حلب ماشئت قل من عجائب
أحلّ بها ياصاح إن كنت تعلم
فيالك من يوم شد يد لغامهُ[٢٦]
وقد أصبحت فيه المساجد تهدم
وقد درست تلك المدارس وارتمت
مضاجعها فوق الذي وهي ضخم

ويقول أبو الفداء : وهي طويلة آخرها :ـ

ولكنّما لله في ذا مشيئة
فيفعل فينا ما يشاء ويحكم

ب ـ عين جالوت (قطز والملك المنصور الثاني)

وتقدم هولاكو الى دمشق فدخلها بالأمان وأرسل رسالة التهديد والوعيد المذكورة سابقاً إلى السلطان قطز وشاء القدر أن يموت أخو هولاكو وأن تظهر على حدوده اضطرابات ومشاكل ، فيضطر هولاكو إلى العودة إلى بلاده تاركاً أمر البلاد المفتوحة إلى أحد قادته المسمى كتبغا .

وكان الملك المنصور الثاني محمد بن المظفر الثاني محمد ملك حماه قد هرب إلى مصر مستنجداً بقطز فخرج قطز على رأس جيش مصريّ ومعه المنصور الثاني وأبلى السلطان والملك في المعركة بلاء رائعاً في المعركة المعروفة في التاريخ معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠) فاستحقا بذلك وسام الشرف والوطنية والايمان وشاء القدر أن تكون هزيمة المغول الاولى في معاركهم مع المسلمين في العراق وبلاد الشام والتي حولت مسار المعارك واتجاهها بل تركت آثارها النفسية العظيمة على المسلمين والسلبية القاتلة على المغول أما قطز فعاد إلى مصر ولكن لم يهنأ ولم يتذوق حلاوة انتصاره ولذته اذ سرعان ماقتله بيرس وتولى السلطنة .

وأما الملك المنصور فقد عاد الى حماه ومدحه وزيره شرف الدين الانصاري في أربع قصائد هي القصائد المثبتة في ديوانه المطبوع .

أما القصيدة الأولى فجاءت في ستة عشر بيتاً ومطلعها :[٢٧] ـ

لك العلا أعيت المبارينا
تقرع منها الابكار والعونا

ويثني على أفعاله وجهاده وجلاده وموقفه الرائع في عين جالوت فيقول :ـ

بعين جالوت خضت بحر وغىً
يخال فلكا بالأسد مشحونا
وكنت للجيش غرة شدخت
أنوفهم فانثنوا مُهانينا
أوسعت فيه التتار بحر طلى
هدّا وطعنا يخال طاعونا
أخذت ثار الإمام إذْ فتكوا
به وصالوا عليه عادينا

ويختتم قصيدته هذه بتذكيره بمدحه إياه وأن على الممدوح أن يرد أجر الثناء فعلى الشاعر أن يمدح وعلى الممدوح أن يكون معطاء كريماً .

تغنى الأعادي قتلا وتسعف من
والاك من جودك الافانينا

http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويختتم قصيدته بتوجيه ندائه إلى بغداد هذه المدينة العظيمة التي لا تساويها مدينة حتى بعد أن أقفرت ، يقول :

يا أرض بغداد لاكان امرؤ أبدا
إلى سواك من البلدان ساواك
لو صار ربعك قفرا كنت أنزة من
كل البلاد فلا أسلو محياك

ومن أروع القصائد التي قيلت في رثاء بغداد بعد أن دمّرها مولاكو قصيدة محكمة النسخ رائعة التأثير نظمها تاج الدين اسماعيل بن أبي اليسير يقول فيها :[٢٠] ـ

لسائل الدمع عن بغداد أخبار
فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يازائرين إلى الزوراء لا تفدوا
فما بذاك الحمى والدار ديّار
تاج الخلافة والربع الذي شرفت
به المعالم قد عفّاه إقفار
أضحى لعطف البلى في ربعه أثر
وللدموع على الآثار آثار
يانار قلبي من نارٍ لحرب وغى
شبت عليه ووافى الربع إعصار
علا الصليب على أعلى منابرها
وقام بالأمر من يحويه زنّار
وكم حريم سبته الترك غاضبة
وكان من دون ذاك الستر أستار
وكم بدور على البدرية انخسفت
ولم يعد لبدور منه إبدار
وكم ذخائر أضحت وهي شائعة
من النهاب وقد حارته كفّار
وكم حدود أقيمت من سيوفهم
على الرقاب وحطّت فيه أوزار

ويختتم قصيدته بتصوير ما حل ببغداد وآل العباس من بلاء وأسر يقول : ـ

إنّ القيامة في بغداد قد وَجَدَتْ
وجدها حين للإقبال إدبار
آل النبي وأهل العلم قد سبيوا
فمن ترى بعدهم تحويه أمصار
ماكنت آمل أن أبقى وقد ذهبوا
لكن أتى دون ما أختار أقدار

وفي هذه المحنة القاسية والنكبة القاصمة يقول أبو شامة مؤرخاً وناعياً زوال الخلافة العباسية ، وذاكراً النار التي ظهرت في الحجاز والتي بقيت أياماً ثمّ اختفت :[٢١] ـ

بعد ست من المئتين والخمسين لدى أربع جرى في العام
نار أرض الحجاز مع حرق المساجد معه تفريق دار إسلام
ثم أخذ التتار بغداد في أوّ
ل عام من بعد ذاك وعام
لم يعن أهلها وللكفر أعوا
ن ، يا ضيعة الإسلام
وانقضت دولة الخلافة منها
صار مستعصماً بغير اعتصام
فحناناً على الحجاز ومصر
وسلاماً على بلاد الشام
ربِّ سِلْمٌ وَمَنٌّ وعاف بقايا
المدن ياذ الجلال والإكرام

ولابن كثير أرجوزة وصفها بانها تتمة لأرجوزة أثبتها في تاريخه لشاعر لم يذكر اسمه والأبيات الأخيرة منها في خلافة المستعصم ، يقول الشاعر المجهول :[٢٢] ـ

فأرسل الرسل الى الآفاق
يقضون بالبيعة والوفاق
وشرفوا بذكره المنابرا
ونشروا في جوده المفاخرا
وسار في الآفاق حُسْنُ سيرته
وعَدْ له الزائدُ في رعيته

يقول ابن كثير : ثم قلت أنا بعد ذلك تكملة أرجوزة لبعض الفضلاء :[٢٣] ـ

ثم ابتلاه الله بالتتار
أتباع جنكيزخان الجبارِ
صحبته ابن ابنه هولاكو
فلم يكن من أمره فكاكُ
فمزقوا جنوده وشمله
وقتلوا الاحفاد والاجدادا
وانتهبوا المال مع الحريم
ولم يخافوا سطوة العظيمِ
وغرّهم إنظاره وحلمه
وما اقضاه عدله وحكمه

والارجوزة كما ترى وصفية تاريخية لا روح فيها ولا عاطفة وإنما تسجيل حوادث وكتابة وقائع .

الشعراء وهجمات التتار على بلاد الشام :

أ ـ احتلال بعض المدن الشامية : ـ

بعد أن دان العراق شماله وجنوبه لهولاكو اتجه إلى بلاد الشام فاحتل في طريقه ميافارقين بعد حصار دام سنتين

حتى عمّ البلاء وأشتدت المجاعة ، واضطر صاحبها الكامل محمد بن الملك المظفر غازي ابن الملك العادل إلى الإستسلام ، فقتلوه شرّ قتله ، وقطعوا رأسه وطافوا به في دمشق وبقي معلقاً حتى عادت دمشق إلى المسلمين فدفن بمشهد الحسين فقال أبو شامة في هذه الحادثة :(٢٤) ـ

ابن غازي غزا وجاهد في الله قوماً اثخنوا في العراق والمشرقين
طاهراً عالياً ومات شهيدا
بعد صبر عليهم عامين
لم يشنه إذ طيف بالرأس منه
وله أسوة برأس الحسين
ثم راوا في مشهد الرأس ذاك
الرأس واستعجبوا من الحالين
وأرتجَوا أنه يحيى لدى البعث
رفيق الحسينِ في الحسنيين

وقد قدمت جحافل هولاكو الى المدن الشامية واحتلتها المدينة تلو المدينة وقتلت سكان بعضها عن آخرهم كروج ثم سار الجيش المغولي إلى حلب وحاصرها ودخلها في الحادي عشر من ربيع الاول سنة ٦٥٧ (١٢٥٩) ، فقتلوا خلقاً كثيراً وحرقوا المسجد الكبير وخربوا المدينة فلما عاد إليها الصاحب كمال الدين عمر بن العزيز المعروف بأبن العديم وكان قد قدم إلى مصر من حلب عندما جفل الناس من التتار ثم عاد إليها بعد خرابها ، فلما نظر ما فعل التتار من خرابها وقتل أهلها بعد ذلك العمارة الرائعة :(٢٥) ـ

هو الدهر ما تبنيه كفُّك يهدم
وإن رُمْتَ إنصافاً لديه فتظلمُ
أباد ملوك الفرس جمعا وقيصرا
وأصمت لدى فرسانها منه أسْهُمُ
وأغنى بني أيوب مع كثر جمعهم
وما منهم إلّا مليك معظم
وملك بني عباس زال ولم يدع
لهم أثراً من بعدهم وهم وهم
وأعتابهم أضحت تداس وعهدها
تباس بأفواه الملوك وتُلْثَمُ
وعن حلب ماشئت قل من عجائب
أحلّ بها ياصاح إن كنت تعلم
فيالك من يوم شد يد لغامهُ(٢٦)
وقد أصبحت فيه المساجد تهدم
وقد درست تلك المدارس وارتمت
مضاجعها فوق الذي وهي ضخم

ويقول أبو الفداء : وهي طويلة آخرها :ـ

ولكنّما لله في ذا مشيئة
فيفعل فينا ما يشاء ويحكم

ب ـ عين جالوت (قطز والملك المنصور الثاني)

وتقدم هولاكو الى دمشق فدخلها بالأمان وأرسل رسالة التهديد والوعيد المذكورة سابقاً إلى السلطان قطز وشاء القدر أن يموت أخو هولاكو وأن تظهر على حدوده اضطرابات ومشاكل ، فيضطر هولاكو إلى العودة إلى بلاده تاركاً أمر البلاد المفتوحة إلى أحد قادته المسمى كتبغا .

وكان الملك المنصور الثاني محمد بن المظفر الثاني محمد ملك حماه قد هرب إلى مصر مستنجداً بقطز فخرج قطز على رأس جيش مصريّ ومعه المنصور الثاني وأبلى السلطان والملك في المعركة بلاء رائعاً في المعركة المعروفة في التاريخ معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠) فاستحقا بذلك وسام الشرف والوطنية والايمان وشاء القدر أن تكون هزيمة المغول الاولى في معاركهم مع المسلمين في العراق وبلاد الشام والتي حولت مسار المعارك واتجاهها بل تركت آثارها النفسية العظيمة على المسلمين والسلبية القاتلة على المغول أما قطز فعاد إلى مصر ولكن لم يهنأ ولم يتذوق حلاوة انتصاره ولذته اذ سرعان ماقتله بيرس وتولى السلطنة .

وأما الملك المنصور فقد عاد الى حماه ومدحه وزيره شرف الدين الانصاري في أربع قصائد هي القصائد المثبتة في ديوانه المطبوع .

أما القصيدة الأولى فجاءت في ستة عشر بيتاً ومطلعها :(٢٧) ـ

لك العلا أعيت المبارينا
تقرع منها الابكار والعونا

ويثني على أفعاله وجهاده وجلاده وموقفه الرائع في عين جالوت فيقول :ـ

بعين جالوت خضت بحر وغىً
يخال فلكا بالأسد مشحونا
وكنت للجيش غرة شدخت
أنوفهم فانثنوا مُهانينا
أوسعت فيه التتار بحر طلى
هذا وطعنا يخال طاعونا
أخذت ثار الإمام إذ فتكوا
به وصالوا عليه عادينا

ويختتم قصيدته هذه بتذكيره بمدحه إياه وأن على الممدوح أن يرد أجر الثناء فعلى الشاعر أن يمدح وعلى الممدوح أن يكون معطاء كريماً .

تغنى الاعادي قتلا وتسعف من
والاك من جودك الافانينا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تهنّ ما شئت من مدائحنا
كما لنا من نداك ماشينا

أي له ما شاء مقابل مدحه إياه :-

وله قصيدة ثانية في مدحه ويذكر فيها هزائم التتار في عين جالوت وقد أورد أبو الفداء بعض أبياتها في تاريخه في حوادث من سنة ٦٥٨ وكان قطز قد كافاه فاعاده إلى حماة ومنحه معرة النعمان على بلائه وحسن فعاله وصموده ، وحين استقر في حماه قبض جماعة عاونوا التتار ووضعهم في المعتقل فهناه الانصاري بذلك وبعودة معرة النعمان إليه وذلك في قصيدة جاءت في عشرين بيتاً :(٢٨) -

رُغِمَ العِدا فضمنت ثلّ عروشها
ولقيتها فاخذت كُلَّ جيوشها
لله دركتيبة ملمومة
تبغيك حين حملت في جاليشها(٢٩)

ويقول في منازلته للتتار :-

نازلت أملاك التتار فأنزلت
عن فحلها قسرا وعن إكديشها

ويتحدث فيها عن بطولة الملك التي أوقفت المغول عن طمعهم في دخول مصر وغيرها من بلاد ويشيد بدخوله حماه ويهنئه بعودة معرة النعمان فيقول :-

وطويت عن مصر نسيج مراحل
ما بين بركتها وبين عريشها
حتى حفظت على العباد بلادها
من رومها الاقصى إلى أحبوشها
فرشت حماة لوطىء نعلك خدها
فوطئت عين الشمس من مفروشها
وكذا المعرة إذ ملكت قيادها
دهشت سروراً سار في مدهوشها

وله قصيدة ثالثة بلغت ثمانية عشر بيتاً مطلعها :(٣٠) -

لما شكا دينُ الهدى أشكيته(٣١)
بشديد باسك والسلاح الشاكي(٣٢)

ويصف فيها دوره الفعّال في التخطيط لمعركة « عين جالوت » وتنظيم الجيوش ومقارعة جنود التتار وطعنهم فيقول :-

جُزْتَ يوم الأربعاء عزيمة
خفيت عواقبها عن الإدراك
وأقمت في يوم الخميس مبالغا
في الجمع بين طوائف الاتراك

ووقفت في يوم العروبة موقفا
أوسعت فيه الفتك بالفتاك
قَيَّدْتَ أبطال التتار بصولة
تركتهم كالصَّيد في الاشراك

ويستمر في تصوير هذه المعركة تصويراً مجسمّاً لما حدث فيها من قتل وسفك دماء المغول ، وأثر ذلك على نفوس المسلمين الذين فرحوا فرحاً لا نظير له :-

أضحت سن ثغورنا من بعد ما
ظفروا بها فبكى عليها الباكي
غادرتهم صرعى كأنّ كماتهم
في المرح صرعى من سلاف حناك

وله قصيدة رابعة في مدح الملك المنصور نفسه بدأها متغزلًا وقد أطال الغزل حتى بلغ اثنتي عشر بيتاً ، وفيها يقول في مدح السلطان :(٣٣) -

محمد خير ماجد يقظ
يرضى هداه محمد القرشي
صادم جيش التتار مقتحما
ما جشأت نفسه ولم تجش
لما طغى كبشه تَعَمَّدَهُ
قصيرُ الرأس منه في الكُرَش
فأسلموا الشام بعد ما طمعوا
في ملك أرض الحجاز والحبش

ولعلنا نلاحظ أن شرف الدين الانصاري لم يذكر قطز في هذه القصائد كما أنه لم يذكره في اية قصيدة أخرى في ديوانه .

ولابي شامة بيتان في هزيمة التتار على أيدي الترك المماليك بزعامة قطز يقول فيهما :(٣٤) -

غلب التتار على البلاد فجاءهم
من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدد شملهم
ولكل شيء آفة من جنسه

ج) أحداث بعد عين جالوت (معارك وتخريب بعض المدن)

يقول أبو شامة ايضاً ، في رابع عشر من رمضان جرت علىّ حكاية من نائب التتار اسمه إيل سبان لعنه الله واياهم - إهانة وتهديداً بضرب الرقبة على أن وضعت لهم خطي بمبلغ كبير من المال ظلماً وقهراً فلم تمض بعد ذلك اليوم إلّا عشرةُ أيام حتى كسر التتار بارض كنعان بعين جالوت وما والاها كسرة عظيمة مشهورة كسرهم الملك المظفر قطز - وهرب إيل سبان ومن كان بدمشق معهم ليلة جاءهم الخبر وعجب الناس من سرعة هذا الفرح وقيل في ذلك :(٣٥) -

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تفرق جمع الكفر لما تعرضوا
أبا شامة ظلماً وكدر خاطره
أرادوا به كيداً وما هيب علمه
فغار له الرحمن إذْ هو عبده
فما كان بين الجور منهم وكسرهم
لدى رمضان غير عشر بعده
فحاشى لفتى الشام يهمل أمره
ويخفض ذو علم ويرفع ضده
له أسوة بالأنبياء وصالحي
البرية فيه ليس يخلف وعده
يعز علينا ما جرى غير أننا
نسرّ به حيناً فلا كان فقده

وقد نظم أبو شامة في وصف أحوال بلاد الشام والقائمين عليها وسوء سلوكهم وأحوالهم وأقوالهم وأفعالهم الأبيات التالية من قصيدة طويلة يذُم فيها رجال الحكم في ذلك الزمان واتصالهم بالتتار أو مكاتبتهم ، يقول :(٣٦) ـ

يا لها وصمة على أهل ذا آلـ
عصر يكفيك ما رأيناه خبرا
ان منهم من كان يلنغ بالقاف
ومنهم من كان يلنغ بالرا
وهما من أوائل القوم فاعجب
واعتبر وانشر الغرائب نشرا

والذي كاتب التتار ومن سار إليهم قصدا فاتنى وأطرا

وفي سنة ٦٥٩ هـ قتل هولاكو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز غياث الدين الملك محمد بن الملك الظاهر شهاب الدين غازي ابن السلطان الشهيد صلاح الدين الأيوبي ، كان سلطان دمشق واتصل بهولاكو ولحق به ثم كتب له هولاكو فرمانا بعودته إلى بلاده وجهز العساكر معه حتى يفتح مصر ، فلما كان في أثناء طريق « العودة الى دمشق » بلغ هولاكو قتْل عساكره وقتل كتبغا نوين على عين جالوت وأن اكثر من فعل ذلك بعسكره هم جند الملك الناصر ، فلما حضر عنده أمر بضرب رقبته وكذلك جميع أقاربه وأتباعه فقتلوهم أجمعين .

وقد قتله بطريقة عجيبة قاسية تدل على قسوة قلب وتحجر مشاعر فقد ربط أطرافه باربع شجرات بواسطة الحبال الغلاظ ثم أمر بقطع هذه الحبال فعادت الأشجار إلى مواضعها وتقطع الملك قطعاً .(٣٨)

يقول أبو شامة : ورثاهُ غير واحد من شعراء دولته وغيرهم فمن جملة من رثاه أمين الدولة علي بن عثمان السليماني ، قال :(٣٨) ـ

رمت الخطوب فأقصدتك نبالها
والأرض بعد ذلك زلزلت زلزالها
أبا المظفر يوسف بن محمد
لاطلت بعدك للحوادث بالها
خذلتك أسرتك الذين ذخرتهم
للنائبات وقد وقفت حيالها
تركوك منفرداً بقطيعة ذاهلا
تسفى عليك العاصفات رمالها
ماذا تقول جحافل ملهومة
ملأت سهول بلادها وجبالها
رهبت وما شهدت وغى فاستسلمت
من قبل أن تضع الحروب سجالها
تبكيك ولولة الحريم حواسرا
من كل معولة تضم عيالها
ومصونة في خدرها ما شاهدت
قبل الرزية ما يروّع بالها
برزت ولم تك أبرزت من قبلها
كيما يشاهد ذو الحية حالها

ولها بقية في عيون التواريخ ومرآة الزمان .

وقبل أن ننتقل إلى الظاهر بيبرس وجدنا أبياتاً من قصيدتين تؤرخان لهدم قلعة معرة النعمان ، وخراب بيت المقدس .

يروي ابن الوردي أن والده أخبره أنه رأى شحنة التتار على قلعة المعرة ، وقد سخر العوام في تخريب سورها ، فقال بعض المعريين (لم يذكر اسمه) يبكيها ويأسف لما حلّ بها من الدمار والخراب وبأيدي أصحابها وبُناتها الأوائل يقول :(٣٩)

رفقا عليها قلعة منعة
يهدمها من هو من حزبها
فغاية المفرط سلمها
كغاية المفرط في حربها
تحتثنا في هدمها أعجم
ونحن مكروبون من كربها
تبخل أيدينا بأرواحنا
وتشتكى منّا إلى ربها
فهذه الارواح من جوّها
وهذه الاجسام من تُربها
لما أسرفت في العلا
كان علاها منتهى ذنبها

ويذكر القاضي مهد الدين خراب القدس على أيدي التتار فيقول :(٤٠) ـ

مررت على القدس الشريف مسلما
على من تبقى في ربوع كانجم
ففاضت دموع العين مني صبابة
على ما مضى في عصرنا المتقدم
وقد رام علجٌ أن يعفى رسومه
وشمّرَ عن كفّي لئيم مذمّم
فلو كان يفدى بالنفوس فديته
بنفسي وهذا الظن في كل مسلم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

د ـ الظاهر بيرس : ـ

وحمل راية الكفاح والجهاد بعد مصرع قطز قالله الظاهر بيرس وقد استطاع ان يحقق عدة انتصارات على التتار، ففي سنة ٦٧١ هـ. علم الظاهر أنّ جماعة من التتار عازمة على التوجه إلى البلاد الشامية فسار اليها وخاض مياه الفرات حتى وصل إليها وقاتلها وانتصر عليها واستأصل شأفتها فمدحه الشهاب محمود بقصيدة استهلها قائلاً :(٤١) ـ

سـر حيث شئت لـك المهين جـار
واحكم فطـوع مـرادك الاقـدار

وفيها ينوه بهزائم المسلمين السابقة وثأر بيرس لهذه الهزائم وقتله لاعدائه من التتار فيقول : ـ

لم يبق للـدين الـذي أظهـرتـه
يـاركُنَـه عنـد الاعـادي ثـار
لمـا تـراقصت الـرؤوس وحـركت
من مطـربـات قسـك الأوتـار
خضت الفـرات بسـابـح أقصى منى
هـوج الصبـا من نعلـه آثـار
حملتـك أمـواج الفـرات ومن رأى
بحـرا سـواك تقلـه الأنهـار
وتقطعت فـرقـا ولم يـك طـورهـا
إذ ذاك إلّا جيشـك الجـرار
رشت دمـاؤهم الصعيـد فلم يطـر
منهم على الجيش السعيـد غبـار
شكـرت مساعيـك المعـاقـلُ والـورى
والتـرب والآسـالُ والأطيـار
هـذي منعت وهـؤلاء حميتهم
وسقيت تلـك وعمّ ذا الإيسـار
فـلامـلان الـدهـر فيـك مـدائحاً
تبقى بقيت وتـذهب الاعصـار

وقال الموفق عبد الله بن عمر الانصاري في هذه الوقعة :(٤٢) ـ

الملـك الظـاهـر سلطـاننـا
نفـديـه بـالامـوال والأهـل
اقتحم المـاء، ليطفي بـه
حـرارة القلب من المغـل

وقد نظم عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان المصري ٦٢٠ ـ ٦٩٢ في هذه الوقعة التي عبر فيها الظاهر الفرات وراء فلول المغول(٤٣) قصيدة منها : ـ

تجمـع جيش الشـرك من كـل فـرقـة
وظنّـوا بـأنّـا لا نطيق لهم غَلبـا
وجـاءوا إلى شط الفـرات ومـا دَرَوْا
بـأن جيـاد الخيـل تقطعـه وثبـا
وجـاءت جنـود الله في العـدد التي
تميس لهـا الأبطـال يـوم الـوغى عَجبـا

وفي سنة ٦٧٥ اجتمعت عساكر الروم والتتار على نهر جيحون فتواردت الأخبار على الملك الظاهر بيرس باجتماعهم فبادر إلى مكانهم وقطع الطريق في نصف نهار، فلما تكاملت عساكره حملوا على اعدائهم حملة رجل واحد فنصر الله المؤمنين نصراً عظيماً وأحاطوا بالحشود من كل جانب وأعملوا السيف في رقابهم ووقع الكثيرون منهم في الأسر، وقتل عدد كبير من أعيان الروم والتتار، وقد خلّد الشهاب محمود هذه الواقعة الرائعة والمعركة الميمونة بقصيدة حماسية ظهرت فيها روح الاعتزاز والعزيمة الصادقة والفرحة الغامرة والسعادة البالغة، يقول :(٤٤) ـ

كـذا فليكنْ في الله تمضي العـزائم
وإلّا فـلا تجفـوه الجفـون الصـوارم
عـزائم حـاذتهـا الـريـاح فـأصبحت
محلقـة تبكي عليهـا الغمـائم

ويصور جيش المسلمين المتجه لقتال الأعداء، ويصف ضخامته عدة وعدداً فيقول :

سرت من حمى مصر إلى الـروم فاحثوت
عليـه وسـوراه الظبّـا واللهـارم
بجيش تظـل الأرض منـه كـأنهـا
على سعـة الأرجـاء في الضيق خـاتم
تحيط بمنصـور اللـواء مظفـر
لـه النصـر والتـأييـد عبـد وخـادم
كتـائب كـالبحـر الخضم جيـادهـا
إذا مـا تهـادت، مـوجـه المتـلاطم
مليـك يلـوذ الـدين من عـزمـاتـه
بـركن لـه الفتـح المبين دعـائم

ويصور المعركة وشراستها فيقول : ـ

ولمـا رمى الـروم المنيـع بخيلـه
ومن دونـه سدّ من الصخـر عـاصم
يـروم قـاب الجـو قطـع عقـابـه
إليـه فـلا تقـوى عليـه القـوادم
وسـالت عليهم أرضهم بمـواكب
لهـا النصر طـوعـاً والـزمـان مسالم

ولها بقية في مديح الظاهر وشجاعته وبسالته وجرأته في الهجوم على أعدائه .

ولمحمد بن يوسف المهمندار قصيدة يثني فيها على بيبرس لانتصاراته العظيمة على التتار ويقلد فيها بطولته الفذة ، وبسالته على أعدائه يقول :(٤٥)

لـو عـاينت عينـاك يـوم نـزالنـا
والخيـل تصبـح في العجـاج الأكـدر
وسنـا الأسنـة والضيـاء من الظبـا
كشفـا لأعيننـا قتـام العثيـر
وقد أطرخمَ الأمر واحتدم الوغـى
ووهى الجبان وساء ظن المجتري
لـرأيت سـدا من حـديد مـائـد
فـوق الفـرات وفـوقـه نـارٌ تـرى
لمـا سبقْنـا أسهمـاً طـاشت لنـا
فيهم إلينـا بـالخيـول الضمـر
لم يفتحـوا للـرمي منهم أعينـاً
حتى كحلن بكـلّ لـدن أسمـر
فتسـابقـوا هـربـاً ولكن ردّهم
دون الهـزيمـة رمـح كـل غضنفـر
ما كان أجرى خيلنا في إثرهـم لو أنها برؤوسهم لم تعثر
وجـرت وجـوههم على وجـه الثـرى
حتى جـرى منهم بجـارى الأنهـر
والظـاهـر السلطـان في آثـارهم
يـروى الـرؤوس بكـل عضب أسمـر
ذهب العجـاج مـع النجيـع بصقلـه
فكـأنـه في غمـده لم يشهـر

د) المعارك والصدامات الأخيرة في القرن السابع الهجري :ـ

وتولى غازان خان السلطة في شهر ذي الحجة ٦٩٤ هـ وخرجت أولى حملاته من عاصمة تبريز في التاسع عشر من محرم ٦٩٩ قاصداً دمشق(٤٦) واستطاع أن يحقق نصراً كبيراً على المماليك قرب مرج المروج شرقي حمص في ١٧ ربيع الأول ٦٩٩ واستعد غازان لغزو دمشق ، وخرب جيشه البلاد والمدن المحيطة بحمص وفزع اهل الشام فجاءه أهل دمشق يطلبون الأمان ، ودخلها التتار . وفي ذلك يقول ابن الزملكاني العالم الفقيه الدمشقي :(٤٧) ـ

لهفي على جلق سـوء مـالقيت
من كـل علـج لـه في كفـره فنّ
بالظلم والرم جاء عديد لهـم فالجن بعضهم وبعضهم الجنّ .

وقال ابن قاضي شهبة واصفاً حالة البلاد والمصائب التي نزلت بها ، مصائب سبع شملت هجمات الأعداء والغلاء والغارات والغمّ والظلم وغير ذلك ، يقول :(٤٨) ـ

رمتنـا صـروف الـدهـر منهـا بسبعـةٍ
فمـا أحـد منـا مـع السبـع سـالم
غـلاء وغـازان وغـزو وغـارة
وغـدر وإغبـان وغم مـلازم

وكانت قصيدة علاء الدين على الأوتارى الدمشقي أهم وأطول ما وجدناه في دخول التتار الى دمشق سنة ٦٩٩ وقد بلغ عدد أبيات هذه القصيدة خمسين بيتاً كما أوردها النويري في نهاية الأرب ومطلعها :(٤٩) ـ

لـك علم بمـا جـرى يـا جهـادي
من جفـوني على افتقـاد رقـادي
لم أجـد عنـد شـدتي مـؤنسـالي
غيـر سُهـدي مـلازمـاً لجـوادي

ويقول في تصوير دمشق قبل دخول التتار إليها وما حلّ بها بعد دخولهم

أحسن الله يـادمشقُ عـزاك
في مغـانيـك يـا عمـاد البـلاد
وبـرستـاق نيـربيـك مـع المسـزة
مـع رَوْنَقٍ بـذاك الـوادي
وبـأنس بقـاسيـون ونـاسٍ
أصبحـوا مغنمـا لأهـل الفسـاد
طـرقتهم حـوادث الـدهـر بـالقتـل
ونهب الأمـوال والأولاد
وبنـاتٍ مُحَجَّبـات من الشمـس
تنـاءت بهن أيـدي الأعـادي
وقصـور مشيـدات تَقَضَّتْ
في ذراهـا الأيـام كـالأعيـاد
وبيوت فيها التـلاوة والذكـر وعالي الحديث بالاسناد
خـرقـوهـا وخـربـوهـا وبـادت
بقضـاء الله رب العبـاد

وفيها يصور خراب شوارعها وسورها وسوء أحوال دمشق وارتفاع أسعارها وجوع أهلها وعريهم ونهب أقواتهم وأكل أموالهم قسْراً وظلماً .

ويختمها بالتوسل إلى الله سبحانه أن يرحمهم ، ومن ذلك : ـ

فـلانت الـرحيم قلبـاً ولُبـا
ولانت الهـادي لسبـل الـرشـاد

ويصلي على رسوله الكريم وحبيبه المفضل في خاتمة قصيدته فيقول :

فعليـك الصـلاة يـرجـو بهـا
الأمـن عليٌ من سـائـر الانكـاد

واضطر غازان الى العودة الى الرحبة وترك مهمة فتح سورية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إلى قتلغ شاه وقد عبر الأخير الفرات في ١٣ شعبان سنة ٧٠٢ هـ (٥٠)

واحتل المدن التي مر بها وأخيراً التقى جيش التتار بجيش الملك الناصر المملوكي في مرج الصفر في يوم السبت الثاني من رمضان سنة ٧٠٢ ودارت الدائرة على المغول وهلك الكثيرون وفرّ الباقون ، وضمهم نائبه على دمشق بعساكره وقد ذكر المؤرخون أنه لم ينج من جيش قتلغ أكثر من عشرة أشخاص .(٥١)

وقد سجلّ الشعراء هذا النصر وعبروا عن فرحتهم العظيمة به من ذلك ما قيل لأحد الشعراء :(٥٢) ـ

وكان نهار السبت بالنصر شاهدا
بصدق وكان الوقت قد رحم العصرا
فلله در الشرك كم سُفكت دما
وكم قطعت رأسا وكم نُحرت نحرا
تولت ولاذت بالجبال تحصنا
ولولا تخاف القتل لاختارت الأسرا

وقال شاعر آخر :(٥٣) ـ

إنّ البغاة بني خاقان أقدمهم
على هلاكهم الطغيان والأشرُ
راموا وقد حشدوا غلبا فما غلبوا
وحاولوا النصر تضليلاً فما نصروا

ومنها في الفخر بهذه الوقعة : ـ

ياوقعة المرج مرج الصفر افتخرت
بك الوقائع في الآفاق والعصر
رفعت بالنصر أعلام الهدى ولقد
جبرت للشرك كسراً ليس ينجبر

وقد تركت هذه الهزيمة أثرها السيىء في نفس غازان فاعتلت صحته وتوفي في ١١ شوال سنة ٧٠٣

□ ـــ الهوامش ـــ □

(١) مؤرخ المغول الكبير. د . الصياد ص٢٩ .
(٢) نقلًا عن تاريخ الادب العربي . د . عمر فروخ ص٦٩٩ ـ ٦٧١
(٣) طفى الماء : عظم وفاض . واستطال : قوى ، السكر بكسر السين وفتحة السد على النهر (القاموس المحيط ٢ /٥٠
(٤) ترحجن : تميل وتهتز .
(٥)
(٦) الكبود : جمع كبد بكسر وفتح .
(٧) عبادان : مدينة معروفة تتبع ايران حالياً وقريبة من البصرة .
(٨) السبر : قياس عمق الجرح بالمسبار .
(٩) عيون التواريخ جـ٢ / ١٢٩ ـ ١٣٠ وقد نسبت هذه القصيدة كما يقول محقق عيون التواريخ الى الشاعر عبد القاهر النواجي نظمها سنة ٦٥٥ وكان يومئذ كاتب ديوان العرض وذكر ابن القفطي ص٢٩ ملائمة أبيات منها ولم يشر الى قائلها .
(١٠) الوزير هو مؤيد الدين بن العلقمي والعارض هو الذي يتولى ديوان العرض المختص بالجند .
(١١) الجنك آلة طرب معربة عن الفارسية .
(١٢) شيخ الشيوخ أبو المظفر صدر الدين علي بن النيار وكان يلقب شمس الدين أيضاً واختص بخدمة الخليفة المستعصم « الحوادث الجامعة ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .
(١٣) عيون الاخبار جـ٢٠ ص١٣٧ والحوادث الجامعة ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .
(١٤) عيون الاخبار جـ٢٠ ص١٣٨ ـ ١٣٩ .
(١٥) عيون الاخبار جـ٢٠ ص١٣٩ ـ ١٤٠ .
(١٦) عيون الاخبار جـ٢٠ ص١٣٨ والحوادث الجامعة ص ٤٧ .
(١٧) عيون الاخبار جـ٢٠ ص١٤٠ ـ ١٤١ .
(١٨) عيون الاخبار جـ٢٠ ص١٤١.
(١٩) عيون اوخبار جـ٢٠ ص٤١٤ ـ ١٤٢ .
(٢٠) مؤرخ المغول الكبير ٤٤ /٤٥ نقلها عن فوات الوفيات وعن تاريخ الاسلام الذهبي .
(٢١) البداية والنهاية ١٣ /١٩٣ وذيل الروضتين ص١٩٤ .
(٢٢) البداية والنهاية ١٣ /٢٠٩ .
(٢٣) المرجع نفسه والصفحة نفسها .
(٢٤) مختصر تاريخ البشر الايوبي الفداء جـ٦ / ١١٠ وذيل الروضتين ص٢٠٥ .
(٢٥) مختصر تاريخ البشر الايوبي الفداء جـ٦ /١٢٤ .
(٢٦) اللغام : زبد أفواه الابل والمعنى على المجاز .
(٢٧) ديوان شرف الدين الانصاري ٤٧٤ ـ ٧٤٦ وتوفي الشاعر سنة ٦٦٢ هـ .
(٢٨) ديوان شرف الدين الانصاري ٢٦٩ ـ ٢٧٢ ووردت بعض ابياتها في المختصر لابي الفداء جـ٣ /٢١٤ .
(٢٩) جاليشها : الراية العظيمة في راسها خصلة من الشعر وكان المماليك يطلقونها على الطليعة من الجيش راجع هامش رقم ٤ من ديوان الانصاري ص٢٧٠ .
(٣٠) ديوان شرف الدين الانصاري ص٥٥٦ ـ ٥٥٧ .
(٣١) أشكيته أي أزلت من ما تشكوه فارضيته .
(٣٢) رجل شاكي السلاح إذا كان ذا شوكة وحد في سلاحه .
(٣٣) ديوان شرف الدين الانصاري ص٢٦٩ والقصيدة طويلة ولكن معظمها جاء في الغزل .
(٣٤) ذيل الروضتين ص٢٠٨ سنة ٦٥٨ هـ .
(٣٥) ذيل الروضتين ص٢٠٩ سنة ٦٥٨ هـ .
(٣٦) ذيل الروضتين ص٢٢٥ والقصيدة طويلة في وصف أحوال ذاك الزمان .
(٣٧) عيون التواريخ جـ٢٠ ص٢٥٨ ـ ٢٥٩ وكذلك ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .
(٣٨) عيون التواريخ جـ٢٠ ص٢٦١ ـ ٢٦٣ وللقصيدة بقية في مرآة الزمان ٢ /١٤٧ ـ ١٤٨
(٣٩) تاريخ ابن الوردي جـ٢ / ٢٩٥ .
(٤٠) النجوم الزاهرة ٧٤ /٣٣٤ .
(٤١) النجوم الزاهرة ٧ /١٥٩ . والبداية والنهاية ١٣ /٢٦٣ ـ ١٦٤ ونوات الوفيات ١ /١٦٤ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٤٢) الأدب في العصر المملوكي ١ /٢٠٠ د . سلام . والبداية والنهاية ١٣ /٢٦٤ وللزيادة النجوم الزاهرة ٧ /١٦٠ .
(٤٣) تاريخ الادب العربي . عمر فروخ جـ ٣ / ٦٦٢ . نقلًا عن قوات الوفيات ١ /٨٧
(٤٤) النجوم الزاهرة ٧ /١٧٠ ـ ١٧٤ .
(٤٥) الادب في العصر المملوكي جـ٢/ ١١٢ و جـ ١ / ٢١ . نقلًا عن قوات الوفيات ١ /٨٧
(٤٦) مؤرخ المغول ص٧١ ، ١٢٩ .
(٤٧) السلوك للمغريزي ١ /٨٩٢ .
(٤٨) السلوك للمغريزي ١ /٨٩٢ . (٤٩) نهاية الارب جـ٥ ص٢٢٧ ـ ٢٢٩ .
(٥٠) مؤرخ المغول الكبير ١٣٥ / ١٣٦ / ١٣٧ . (٥١) المرجع السابق ١٣٦ .
(٥٢) المرجع السابق ١٣٧ نقلًا عن تاريخ سلاطين المماليك ١٢١ ـ ١٢٣ .
(٥٣) المرجع السابق ١٣٧ .

أغراض شعر الجهاد في مواجهة التتار

تعددت اغراض هذا الشعر ومجالاته ، ولكن أهم أغراضه كانت في رثاء المدن التي حل بها الدمار والخراب ثم رثاء الخلفاء والملوك الذين نكبوا على يد المغول .

ومعظم هذا الشعر قيل في المرحلة الاولى التي تم فيها احتلال بغداد وحلب ودمشق .

فضلًا عن مدح الملوك والسلاطين الذين حققوا انتصارات على المغول كقطز والملك المنصور الثاني وبيبرس .

يلي ذلك وصف المعارك التي دارت رحاها بين الطرفين خاصة معركة عين جالوت ووقعة الفرات في زمن بيبرس ثم مرج الصفر .

وجاءت بعض المقطوعات في نم المتخاذلين وليس وصف احوال الناس في ذلك الزمان .

أولًا : رثاء المدن :ـ

ومعظم ما وجدناه من هذا الشعر كان في رثاء المدن التي سقطت بأيدي المغول فدمروها او هدموا اسوارها او اقلاعها ، ولعل بغداد هي اعظم المدن التي نالت نصيب الأسد في هذا المجال ، ونظرة سريعة في القصائد او اجزائها التي اوردناها في الفصل السابق والذي تناولنا فيه رصد الشعر للاحداث والمعارك التي دارت بين المسلمين والتتار تدل دلالة واضحة على قولنا هذا ، لقد اوردنا في رثاء بغداد قصائد لعدة شعراء وأهمها :

أ ـ قصيدة لسعدي الشيرازي يأسى فيها لخراب بغدا بدأها بالبكاء ومطلعها :

حبست بجفني المدامع لا تجري
فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها
تمنيت لو كانت على قبري

وفيها يصف ما حل ببغداد من خراب وقتل وسفك دماء يقول :

تسائلني عما جرى يوم حصرهم
وذلك مما ليس يدخل في الحصر
اديرت كؤوس الموت حتى كانما
رؤوس الاسارى ترحجن من السكر

ب ـ ورثاها كذلك الشاعر المجد النشابي من قصيدة مطلعها :

يا سائلي ولمحض الحق يرتاد
أصخ فعندي نشدان وإنشاد

وفيها يصور ما حل من بلاء فيقول :

واضيعة الملك والدين الحنيف وما
تلقاه من حادثات الدهر بغداد
اين المنية مني كي تشاورني
اللمنية اصدار واثراء
من قبل واقعة شنعاء مظلمة
يشيب من حولها طفل واكباد

جـ ـ وقد رثاها شمس الدين الكوفي الواعظ في ثلاث قصائد :

بانوا ولى ادمع في الخد تشتبك
ولوعة في مجال الصدر تعترك

ويقول في تصوير نكبة بغداد العظيمة ومصيبتها الجسيمة :

يا نكبة ما نجا من صرفها احد
من الورى فاستوى الملوك والملك
تمكنت بعد عز في اجنتنا
ايدي الاعادي فما ابقوا ولا تركوا

والثانية ومطلعها :

اين سارت ترى حداة العيس
بحبيبي وواحدي وانيسي

ثم يصور ما حل ببغداد من عبث ومصاب جلل وخراب مروع :

يا ديار الاحباء ما صنع الدهر
المعادي بربعك المأنوس
اين تلك الوجوه فيك منيرات
حسان مضيئة كالشموس
قد وقفنا في الدار سكرى ولكن
سكر حزن لا سكرة الخندريس
حين اضحت عواطلا بعد ماكا
نت تجلى في زينة كالعروس

والثالثة ومطلعها :

احباب قلبي نأوا فالدمع مستبق
وكم سألتهم رفقة فما رفقوا

وفيها يصور ما حل ببغداد واهلها :

ضاقت بي الارض مذ جدت ركائبهم
واظلم الجوفي عيني والافق
كانوا جمالي وتاجي في الملا وشموسي
في الضحى وانسي ان دجا الفسق

د ـ ورثاها موفق الدين القاسم بن ابي الحديد في قصيدة قال فيها :

لولا البكاء لما قدرت على الاسى
ان البكاء معونة الملتاع

ثم يصور ما حل باهل بغداد من بلاء وتفرق وتشريد ونهب على يد المغول فيقول :

نعب الغراب باهلها فتفرقوا
بالنهب بين صفائح ورماح
تركوا منازلهم وصاروا جيرة
للوحش بين مفارز وضواحي

هـ ـ كما رثاها ابو عبد الله محمد بن الحسين بن ابي بكر بن احمد الموصلي المعروف بابن الشروى ، قال يندب بغداد واهلها :

وانزل على بغداد واندب اهلها
دار السلام وقلْ عليك سلام

ويقول :

فإذا رايت وقد عفت من اهلها
واعتادها بعد الضياء ظلام
فانشد هناك وقلْ بقلب واله
يا دار ما صنعت بك الايام
وتمشَّ في تلك الرسوم ونادها
لم يبق فيك بشاشة تشتام

ويقول :

ويلاه بغداد أورثت الحشا
نارا لها بين الضلوع ضرام

ذ ـ كما رثاها ياقوت المستعصمي وعلي بن ممدود بن مسعود البخاري وتاج الدين اسماعيل بن ابي اليسر وقد وردت هذه القصائد في استعراضنا لمتابعة الشعراء للاحداث .

وكانت قصيدة تاج الدين بن ابي اليسر من اروع القصائد واكثرها تاثيراً في النفس :

لسائل الدمع عن بغداد اخبار
فما وقوفك والاحباب قد ساروا
يا زائرين الى الزوراء لا تفدوا
فما بذلك الحمى والدار ديار

وهي طويلة ومنها ابيات في تغير احوالها وتبدل حكامها وسبي نسائها وارتفاع الصليب فوق منابرها :

علا الصليب على اعلى منابرها
وقام بالامر من يحويه زنار
وكم حريم سبته الترك غاضبة
وكان من دون ذاك الستر استار

ثانياً : رثاء الأفراد :

ونعني به رثاء الخلفاء والحكام من العباسيين والايوبيين الذين قتلهم المغول .

لقد قتل هولاكو المستعصم اخر الخلفاء العباسيين ولكن الغريب في الامر ان اسمه لم يرد كثيراً في شعر الشعراء الذين رثوا بغداد ، ولكن ذكر بني العباس كان كثيراً يقول سعدي الشيرازي :

فاين بنو العباس مفتخر الورى
ذوو الخلق المرضي والغرر الزهر
غدا سمرا بين الانام حديثهم
وذا سمر يدمي المسامع كالسمر

وللياقوت المستعصمي قصيدة في رثاء مواليه وفيها يبدي اسفه على فراقهم :

يا مجلسا قد فقدت بهجته
اصبحت والحادثات في قرن
واوجه مذ عدمت رؤيتها
ما نظرت مقلتي الى حسن
اوحشني كل من انس به
انا الغريب الديار في وطني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لابلغت مهجتي مـــآربهـــا
ان سكنت بعـــدكم الى سكن
محبكم يـا اهـل كـاظمـة
علم نـوح العـام في الغصن

ومما جاء في هذا المجال ما نظمه ابو شامة في وصف القائمين على امر الشام وقد اتصفوا بالسوء والخيانة وعدم اجادة الكلام ، يقول :

يـا لهـا وصمـة على اهـل ذا الـ
عصـر يكفيك مـا رأيناه خبـرا
ان منهم من كـان يلثـغ بـالقـاف
ومنهم من كـان يلثـغ بـالـرا
وهمـا من امـاثـل القـوم فـاعجب
واعتبـر وانشـر الغـرائب نشـرا
والـذي كـاتب التتـار ومن سـار
اليهم فـأثنى وأطـرا

خامساً : مديح الابطال والمنتصرين من الملوك والقادة :

وقد ظهر هذا الغرض بعد انتصار قطز على كتبغا وقتله في عين جالوت ولكننا للاسف لا نجد في الشعر الذي وجدناه مديحا في قطز، وكان الملك المنصور الايوبي قد قاتل بشجاعة الى جانب قطز فمدحه وزيره شرف الدين الانصاري باربع قصائد، اوردنا بعض ابياتها في استعراضنا لمتابعة الشعر للاحداث مع التتار يقول في الاولى منها :

جـردت يـوم الاربعـاء عـزيمـة
خفيت عـواقبهـا عن الادراك
واقمت في يـوم الخميس مبـالغـا
في الجمـع بين طـوائف الاتـراك
ووقفت في يـوم العـروبـة مـوقفـا
اوسعت في الفتـك بـالفتـاك
قيـدت ابطـال التتـار بطـولـة
تـركتهم كـالصيـد في الاشـراك
واطـرت منهم هـام كـل مـدجـج
للـه كـل مـوحـد سفـاك

وقارىء هذه القصائد الاربع كاملة لا يجد ذكرا لقطز او بيبرس او اي بطل اخر كان له دور واضح في معركة عين جالوت .

لماذا لم يذكر شرف الدين الانصاري هؤلاء واكتفى بمدح سيده ، هل كانت نظرته الى قطز وبيبرس انهما مملوكان من مماليك الايوبيين وبالتالي لا يجوز له ان يقرن بين المنصور الثاني وبينهما في المديح ، ام هل كانت نظرته اليهما انه مهما علت منزلتهما يبقيان مملوكين رفعهما الايوبيون ، وربما كانت نظ الناس عامة اليهم على انهم مغتصبون للحكم بقوة السلاح استفسارات لعل اجابة واحدة مما ذكرنا توضح السبب ولعلها جميعها توضحها ، وتجيب عنها .

لكن نظرة ابي شامة تختلف عن اقتراحاتنا السابقة فها هو يفتخر بما فعله قطز ويظهر اعجابه الشديد في قوله :

غلب التتـار على البـلاد فجـاءهم
من مصـر تـركي يجـود بنفسـه
بـالشـام اهلكهم وبـدد شملهم
ولكـل شيء آفـة من جنسـه

ونال بيبرس اهتماماً اكثر واعجاباً اشد من قطز وذلك بسبب طول الفترة التي تصدى فيها التتار .

فها هو الشهاب محمود يمدحه حين خاض الفرات التتار سنة ٦٧١ هـ يقول في مطلع قصيدته مبالغا في مديحه مبالغة شديدة .

سـر حيث شئت لـك المهيمن جـار
واحكم فطـوع مـرادك الاقـدار

ثم يمدحه بروح اسلامية فهو حامي المسلمين المدافع عنهم ويصف المعركة التي خاضها فيقول :

لم يبق للـدين الـذي اظهرتـه
يـاركنـه عنـد الاعـادي ثـار
لمـا تـراقصت الـرؤوس وحـركت
من مطـربـات قسيـك الاوتـار
خضت الفـرات بسـابـح اقصى منى
هـوج الصبـا من نعلـه اثـار
حملتـك امـواج الفـرات ومن راى
بحـرا سـواك تقلـه الانهـار

واثنى عليه الشهاب محمود مرة ثانية حين حقق انتصاراً اخر على التتار عند جيحان وجاء مطلع قصيدته رائعا قويا ، قال :

كـذا فليكن في اللـه تمضي العـزائم
والا فـلا تجفـو الجفـون الصـوارم

ويصف جيشه وسيره الى حمص ثم يثني على بيبرس المنتصر واورد فيه هذا الجناس اللطيف في كلمة الظاهر ، يقول :

من التـرك اما في المعـاني فـإنهم
شمـوس واما في الـوغى فعزائم
غدا ظاهـرا بـالظـاهـر النصر منهم
تبين الليـالي والعـدا وهـو دائم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فـــاهـووا الى لثم الاسنــة في الـوغى
كـــأنهم العشـــاق وهي المبـــاسم
وصـــافحت البيض الصفــاح رقــابهم
وعـــانقت السمـــر القــدود النـــواعم

هذه هي اهم المدائح التي وجدناها في المصادر والمراجع التي بين ايدينا وجلها في ثلاثة من المنتصرين : المنصور الثاني ، وقطز وبيبرس .

بسم الله الرحمن الرحيم
الدراسة الفنية

يقول الدكتور محمود ابراهيم في كتابه « صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني » قلما نجد اديباً لا يتاثر بمقاييس عصره بصورة او باخرى وعلى تفاوت في هذا التاثر[١] .

ويقول ايضاً في نقده لشعر ابن القيسراني « والمقاييس الادبية في شعر ابن القيسراني كان من ابرز مظاهرها الاتجاه الى البديع او الصناعة اللفظية ، ويكفي ان يطالع المرء ما خلفه شعراء هذا العصر وكتابه حتى يدرك الى اي حد تغلغلت الصناعة اللفظية في ثغر العصر ونثره »[٢] .

لقد درسنا خريدة القصر وجريدة اهل العصر في رسالتنا عن العماد الاصفهاني الاديب [٣] ، وقارىء هذا الشعر الضخم يجد ان العماد التزم التزاما شديدا بالبديع والصناعة اللفظية خاصة السجع الذي طغى وسيطر بصورة واضحة كما ظهر في كثير من كتاباته الميل الى الغموض في الالفاظ ، بل انه التزم بذلك بصورة اشد في كتاباته التاريخية خاصة الفتح القسي في الفتح القدسي والبرق الشامي ورسائله التاريخية التي الفها في الفترة الاخيرة من حياته .

وقد ظهرت الصيغة اللفظية في الفتح القسي بصورة مزعجة فلا يكاد القارىء يفهم ما يريده العماد ببساطة بل انه مضطر الى كد ذهنه للوصول الى المعاني المقصودة .

كما ظهرت هذه الصيغة في كتابات المؤلفين في هذا العصر من امثال القاضي الفاضل وابن شداد وابن الاثير وغيرهم .

وبالتالي فان شعر الجهاد في مواجهة التتار في القرن السابع الهجري جاء متصفا بهذه الصنعة مكبلا بالبديع الى حد واضح .

ان قارىء هذا الشعر تظهر في معظمه الروح الاسلامية الصادقة والتي كانت في الفترة الاولى من هجمات التتار على الامة الاسلامية تهدف الى اشارة الامة بوصف ما حل ببغداد وغيرها من بلاء وشقاء .

يقول المجد النشابي في قصيدته التي سبق ذكرها :

الكفـــر اضـــرم في الاســـلام جـذوتـه
وليس يـــرجى لنـــار الكفـــر اخمـــاد
ان جئت يثـــرب او شـــارفت ســـاحتها
فقـــل لمن انـــزلت في حقـــه صـــاد
واضيعـــة الملك والـــدين الحنيف ومـــا
تلقـــاه من حـــادثـــات الـدهـــر ببغـــداد

ويقول شمس الدين الكوفي الواعظ في وصف نكبة بغداد وقد ظهرت فيه ايضا روح الحزن واليأس :

ربـــع الهـــداية أضحى بعـــد بعـــدهم
معطـــــلا ودم الاســـــلام منسفـــــك
والشـــرك منجبـــر والملـــك منكســـر
والحق مستتـــــر والستـــــر منهتـــــك

ويقول الكوفي ايضا في قصيدة ثانية وقد سيطر عليه الحزن حتى كاد يقضي عليه لولا مدحه الرسول عليه الصلاة والسلام الذي ذكره واعاد اليه الامل ، يقول :

جـــاء الزمـــان على قلبي الحـــزين ولـــولا
مـــــدحي المصطفى لم يبق لي رمق
المجتبى خيـــــر خلق اللـــــه كلهم
ومن تكمـــــل فيـــــه الخلق والخلق
صلى الالــــه على المختـــار مـــا طلعت
شمس واشـــرق نجم او دجـــا غسق

وتظهر هذه الروح في قصيدة ابن ابي اليسر في وصف نكبة بغداد ذاكرا ال النبي من بني العباس وما حل بهم من مصاب جلل ، يقول :

لم يبق للـــدين والـــدنيـــا وقـــد ذهبـــوا
ســـوق لمجد وقـــد بـــانـــوا وقـــد بـــاروا
ان القيـــــامـــة في بغـــداد قـــد وجـــدت
وجـــدهـــا حين لـــلاقبـــال ادبـــار
ال النبي واهـــــل العلم قـــــد سبيـــوا
فمن تـــرى بعـــدهم تحـــويـــه امصـــار
مـــا كنت امـــل ان ابقى وقـــد ذهبـــوا
لكن اتى دون مـــــا احتـــــار اقـــــدار

واحيانا كانت تظهر هذه الروح الدينية في ذكر المساجد وما اصابها من هدم كما فعل ابن العديم في احدى قصائده في وصف ما ارتكبه التتار بحق حلب يقول :

فيـــالـــك من يـــوم شـــديـــد لغـــامـــه
وقـــد اصبحت فيـــه المســـاجـــد تهـــدم

ولكنما لله في ذا مشيئة
فيفعل فيهما ما يشاء ويحكم

وظهرت هذه الروح في قصيدة شرف الدين الانصاري في مدح الملك المنصور الايوبي الذي شارك في عين جالوت وابلى فيها بلاء حسنا الى جانب قطز وبيبرس ويقول فيها :

اخذت ثار الامام اذ فتكوا
به وصالوا عليه عادينا
دعا عليهم ال النبي بان
يروا فقالت ظباك امينا

ويقول في القصيدة نفسها مثنيا على المنصور وقد ظهرت فيها هذه الروح :

يا ناصر الدين يا محمد ما
اولى بحمد من ينصر الدينا(٤)

وتبرز هذه الروح بروزاً شديداً في مطلع قصيدة ثانية يقول :

لك في الندى وردي ذوي الاشراك
شيم تفوق بها على الاملاك
لما شكا دين الهدى اشكيته
بشديد باسك والاسلام الشاكي

وتظهر هذه الروح في قصيدة ابي شامة حينما اعتدى عليه وظلمه ايل سبان التتاري ، يقول :

تفرق جمع الكفر لما تعرضوا
ابا شامة ظلما وكدر خاطره
ارادوا به كيدا وما هيب علمه
فغار له الرحمن اذ هو عبده(٥)

وظهرت هذه الروح في قصيدة للقاضي مجد الدين يصف فيها خراب القدس على ايدي التتار ، ويرى ان كل مسلم يفتدي القدس بنفسه مما اصابها وحل بها لو استطاع ، يقول :

فقلت له شلت يمينك خلها
لمعتبر او سائل او مسلم
فلو كان يفدي بالنفوس فديته
بنفسي وهذا الظن في كل مسلم (٦)

وظهرت كذلك في قصيدة للشهاب محمود وقد بالغ في المديح مبالغة ممقوتة يقول :

سر حيث شئت لك المهيمن جار
واحكم فطوع مرادك الاقدار

وفيها يقول ايضا منوها بان ما فعله بيبرس هو ثار للدين مما نزل به :

لم يبق للدين الذي اظهرته
يا ركنه عن الاعادي ثار(٧)

وظهرت مرة اخرى عند الشهاب محمود في قصيدة ثانية له يقول :

كذا فلتكن في الله تمضي العزائم
والا فلا تجفو الجفون الصوارم

وفيها يقول :

مليك يلوذ الدين من عزماته
بركن له الفتح المبين دعائم

وظهرت بصورة كبيرة في قصيدة علاء الدين الاوتاري الدمشقي حين استولى التتار على دمشق سنة ٦٩٩ هـ ، وقد لجا فيها الى الله ورسوله المصطفى متوسلا داعيا ان يخلص الناس مما هم فيه ، يقول :

يا حبيب الاله لا تتخلى
عن عصاة غمرتهم بالايادي
يا حبيب الاله قد مسنا الضر
فجُد بالإسعاف والإسعاد
يا حبيب الاله تبنا الى الله
وأنت العماد حتى المعاد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبعد ان يصور احوال ابناء الامة كبيرهم وصغيرهم طفلهم وشيخهم رجلهم وامرأتهم يعود ليتوسل الى الله ان يسمع نداءه ويحقق أمانيه ويحل رحمته على عباده ، يقول :

فلانت الرحيم قلباً ولباً
ولانت الهادي سبيل الرشاد
ولانت البديع خلقاً وخلقاً
ولانت السميع للانشاد(٩)

ولقد سيطرت روح الحزن الشديد على شعر الفترة الاولى فترة انتصار التتار على ابناء الامة بعد تدمير مدنهم وقراهم في الفترة التي حل البلاء بالبلاد عامة وببغداد خاصة لقد ظهر الحزن في كل كلمة وعبارة نظموها في وصف المصاب ، ونجد هذه الروح في اشعار سعدي الشيرازي والمجد النشابي وشمس الدين الكوفي وموفق الدين ابن ابي الحديد وغيرهم وكلها تعج بالاسى والحسرة ونسمع فيها البكاء والعويل والتحسر .

وقد ظهرت روح الحزن هذه في قول سعدي الشيرازي :

ايا ناصحي بالصبر دعني وزفرتي
اموضع صبر والكبود على الجمر

وظهرت في قول الكوفي :

صبـرا وقلبي لا يطـاوعني
وكيف ينهض من قـد خـانـه الـورك
كنت فـاقـد الف نـح عليـه معي
فـإننـا كلنـا في النـوح نشتـرك

ويقول في القصيدة نفسها :

...فت من بعـدهم في الدار اسـالهـا
عنهم ومـا هـو فيهـا ومـا ملكـوا
لا تحسبوا الدمع ماء في الخـدود جرى
وإنمـا هي روح الصب تنسيـك

ويقول الكوفي في قصيدة ثالثة :

جـرعـوني من الفـراق كـؤوسـاً
مـرة مـا امـرهـا من كـؤوس
تبـدلت بعـد عـز بـذل
وتبـدلت من نعيم ببـؤس
...شـرابي دمعي وزادي حـسرتي
وسقـامي من بعـدهـا ملبـوس
انا اشكـو امـراض حـزن وشـوق
كـل عنهـا عـلاج جـالينـوس

وتبرز هذه الروح الحزينة المتالمة الباكية عند موفق الدين بن ابي الحديد وابن الشروى وامين الدولة السليماني وابنه ابي اليسر ، يقول الاخير في قصيدته التي نظمها في رثاء بغداد :

ان القيـامة في بغـداد قـد وجـدت
وجـدهـا حين لـلاقبـال ادبـار
آل النبي واهـل العلم قـد سبيـوا
فمن تـرى بعـدهم تحـويـه امصـار
مـا كنت امـل ان ابقى وقـد ذهبـوا
لكن اتى دون مـا اختـار اقـدار

وظلت هذه الروح بارزة حتى تغيرت الحال وحقق المسلمون النصر على التتار في عين جالوت فحلت كلها روح السعادة والسرور وروح الاعتزاز والفخر ، روح الامل بالتحرر والخلاص .

وجدنا هذه الروح الاملة المنتشية والفرحة المتغنية في قصائد شرف الدين الانصاري الاربع التي مدح فيها ملكية الملك المنصور ولنكتف بقوله عن احدى قصائده :

رعت العـدا فضمنت ثـل عـروشهـا
وليقتـل فـاخـذت فـل عـروشهـا

ولننظر الى قوله وهو يتغنى :

اضحكت سن ثغـورنـا من بعـدمـا
ظفـروا بهـا فبكى عليهـا البـاكي
غـادرتهم صـرعى كـان كمـاتهم
في المـرج صـرعى من سـلاف حنـاك

وظهرت هذه الروح في قصيدة الشهاب محمود حين انتصر بيبرس على التتار سنة ٦٧١ هـ ونسمعه يصيح بملء فيه مادحا ومثنيا ، فرحا سعيدا يقول :

سـر حيث شئت لـك المهيمن جـار
واحكم فطـوع مـرادك الاقـدار

ويقول فيها مثنيا على الظاهر بيبرس لانه اخذ بثار المسلمين وهزائمهم السابقة :

لم يبق للـدين الـذي اظهـرتـه
يـاركنـه عنـد الاعـادي ثـار
لمـا تـراقصت الـرؤوس وحـركت
من مطـربـات قسيـك الاوتـار
حملتـك امـواج الفـرات ومن رأى
بحـرا سـواك تقلـه الانهـار

وهناك امثلة اخرى كثيرة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وظهرت كذلك بعض المعاني الخاصة بالفرق الاسلامية كالمعاني الشيعية فضلا عن رثاء خلفاء العباسيين والبكاء عليهم لانهم حكام الامة الممثلون للسنة وقد اظهر بعضهم التعلق بالعباسيين وقد مرت نماذج من هذه الاشعار .

اما المعاني الشيعية فقد ظهرت في قصيدة ابي شامة في رثاء الملك الكامل محمد بن الملك المظفر غازي بعد ان قتله هولاكو وقطع راسه وطاف به جنده في دمشق يقول :

ابن غـازي غـزا وجـاهـد قـومـا
اثخنـوا في العـراق والمشـرقين
ظـاهـرا عـاليـا ومـات
شهيـدا بعـد صبر عليهم عـامين
لم يشنـه اذ طيف بـالـراس منه
ولـه اسـوة بـراس الحسين
وافق السبط في الشهـادة والحمـ
ل لقـد حـاز اجـره مـرتين
ثم واروافي مشهـد الـراس ذاك
الـراس فـاستعجبوا من الحـالين
وارتجـوا لـه يحيـا لـدى البعث
رفيق الحسين في الحسنيين

ولان المغول استعانوا بالمسيحيين بل ان منهم من اعتنق الدين المسيحي او تزوج من مسيحية لذا فقد سمح قادة المغول للقساوسة المسيحيين ببناء الكنائس وارتكبوا في سبيل ذلك وغيره افعالا ازعجت المسلمين وقد وجدنا اشارة واحدة الى ما ارتكبه المسيحيون بحق المسلمين في قصيدة ابي اليسر في رثاء بغداد يقول :

علا الصليب على اعلى منابرها
وقام بالامر من يحويه زنار

واذا ما تابعنا دراسة معاني هذا الشعر وقراءته نستطيع القول ان القارىء لا يكاد يجد اشارة الى العرب ودورهم في مقارعة المغول وصدهم ، اللهم الا استثنينا ذكر بني العباس الذين كانوا خلفاء الامة الاسلامية كلها وباسمهم يحكم الحكام في مشارق الارض ومغاربها وان كان هذا الحكم اسميا كما نعرف .

اننا نعني ان الشعراء مدحوا الاتراك ومدحوا الايوبيين والمماليك كما فعل شرف الدين الانصاري في مديحه للايوبيين والشهاب محمود في مديحه المماليك وقبلهم اثنى الشعراء على دور الاتراك في مقاومة الصليبيين وغيرهم .

اننا لا نجد كلمة واحدة او فكرة واحدة تشير الى دور العرب في هذه المعارك التي امتدت قرابة نصف قرن من الزمان .

لقد تاثرت هذه القصائد بمعاني القران الكريم والحديث الشريف فاقتبست منهما وقد ظهر ذلك في عدة قصائد ، من ذلك قصيدة لاحد الشعراء المجهولين نظمها في الفخر بسبب انتصار المسلمين على التتار وهروب ابل سبان المغولي يقول :

له اسوة بالانبياء وصالحي
البرية فيه ليس يخلف وعده

والشطر الثاني اقتباس من قوله تعالى « وعد الله لا يخلف الله وعده » الاية (٦) سورة الروم وكذلك ورد الاقتباس من القران في مطلع قصيدة امين الدولة السليماني في رثاء الملك الناصر حيث يقول :

رمت الخطوب فاقصدتك نبالها
والارض بعدك زلزلت زلزالها

وهو مقتبس من قوله تعالى : « اذا زلزلت الارض زلزالها » سورة الزلزلة الاية (١) وكذلك في قول عبد الله بن عبد الله الظاهر بن نشوان المصري في مديح الظاهر بيبرس يقول :

فعمتنا بسد من حديد سباحة
اليهم فما استطاع العدو لها نقبا

وهو مقتبس من قوله تعالى : « فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا » سورة الكهف (٩٧) واخذ بعضهم بعض معاني الحديث وان كانت قد ظهرت بصورة اقل من اخذهم من القران الكريم ، وقد ورد ذلك في قول سعدي الشيرازي في رثائه لبغداد :

وفي الخبر المروي وين محمد
يعود غريبا مثل مبتدأ الامر

وهو مقتبس من قول الرسول عليه السلام يعود هذا الدين غريبا كما بدأ غريبا كما اخذ من الامثال المتداولة او الشائعة ظهر ذلك في قول ابي شامة .

بالشام اهلكهم وبدد شملهم
ولكل شيء افة من جنسه

والشطر الثاني هو المثل العربي المعروف « لكل شيء افة من جنسه » .

الاساليب :

أ- الحوار في هذا الشعر .

ظهر الحوار في كثير من القصائد وخاصة تلك القصائد التي قيلت في بغداد اذ نجد الشاعر يختلق صديقا او اكثر يحدثه او يحدثهم عما راى من اهوال او مصائب وقد ظهر ذلك في قصيدة سعدي الشيرازي في اكثر من موضع منها ، يقول :

تسائلني عما جرى يوم حصرهم
اموضع صبر والكبود على الجمر

ويقول ايضا :

لا تسألني كيف قلبك والنوى
جراحة صدري لا تبين بالسير

وظهر الحوار ايضا في قصيدة المجد النشابي في رثائه لبغداد في اكثر من موضع يقول :

يا سائلي ولمحض الحق يرتاد
اصخ فعندي نشدان وانشاد
واسمع فعندي روايات تحققها
رواية واحاديث واسناد

وظهر ذلك عند الكوفي في قصيدته في رثاء بغداد ايضا :

يا صاحبي ما احتيالي بعد بعدهم
اشر علي فان الراي مشترك

بل انه يخاطب الاطلال في هذه القصيدة في قوله :

اجابني الطلل البالي ورسمهم الخالي
نعم ها هنا كانوا وقد هلكوا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويقول :

وقفت بعدهم في الدار اسالها
عنهم وعما حووا فيها وما ملكوا

وقد ظهر هذا الحوار في قصيدة ابن الشروى في قوله :

يا صاحبي بلغ حديث رسالة
من مدنف اودت به الاسقام
واركب جواد العزم واخترق الفلا
فلسيرك التبجيل والاعظام
وانزل على بغداد واندب اهلها
دار السلام وقل عليك سلام
فاذا رايت وقد عفت من اهلها
واعتادها بعد الضياء ظلام
فانشد هناك وقل بقلب واله
يا دار ما صنعت بك الايام

ويستمر بهذا الاسلوب القصص الشيق يخاطب الناس والديار وتسيطر عليه عاطفة صادقة باكية حزينة ، فيقول :

يا دار كيف تسركت ال محمد
بالله مالك يا ديار ذمام

واسلوب القصيدة كلها يسير على هذا النمط الحواري الحزين .

وظهر هذا الاسلوب في قصيدة المنجاري في رثاء بغداد وقصيدة تاج الدين اسماعيل ابن ابي اليسر في رثائها ايضا ، وتكاد تختفي في قصائد شرف الدين الانصاري حيث اصبح الشعر يميل نحو المباشرة في المدح والثناء على المنتصرين من ملوك ذاك الزمان واصبح الشاعر يخاطب الممدوح مباشرة دون حاجة الى صديق متخيل او دار منكوبة او مدينة متهدمة .

ب ـ اما الاساليب اللغوية فقد تنوعت ما بين اساليب خبرية وانشائية بكل انواعها ومعانيها البلاغية المختلفة .

لكن اكثر ما ظهر منها في هذا المجال اساليب الامر والنهي والاستفهام والنداء . ان قارىء قصيدة سعدي الشيرازي يجد فيها اساليب عدة منها ما هو خبري ، فقد بدأ قصيدته بسبعة ابيات كلها من الاساليب الخبرية الحزينة المعبرة عن نفس متالمة باكية نادبة ثم ينتقل الى اسلوب النداء في قوله :

ايا ناصحي بالصبر مني وزفرتي
اموضع صبر والكبود على الجمر

ولعل القارىء يجد في هذا البيت الامر والاستفهام الانكاري .

وانظر الى النهي والاستفهام والامر في قوله :

ولا تسالاني كيف قلبك والنوى
جراحة صدري لا تبين بالسبر
وهب ان دار الملك ترجع عامرا
ويغسل وجه العالمين من العفر
فأين بنو العباس مفخرة الورى
ذوو الخلق المرضي والغرر الزهر

وتتعدد هذه الاساليب في قصائد الكوفي ، انظر الى قوله وقد اورد ثلاثة استفهامات في بيت واحد ونعتقد ان هذا الامر يدل على الحيرة الشديدة وعدم القدرة على التركيز والسيطرة على التفكير لان المصاب جلل وما تراه العين لا يصدقه العقل يقول :

اين الذين كانوا على كل الورى حكموا ؟
اين الذين اقتنوا ؟ اين الذين ملكوا ؟
وقفت من بعدهم في الدار اسالها
عنهم وعما حووا فيها وما ملكوا
لا تحسبوا الدمع ماء في الخدود جرى
وانما هي روح الصب تنسبك

ولعلنا نلاحظ النهي في البيت الاخير والطباق في قوله بين جرى وتنسبك .

وانظر الى هذا الاستفهام وقد بلغ فيه التحسر مبلغه والذي جاء بعد النداء المعبر عن الم الفراق الذي لا يرجى من بعده لقاء ، يقول :

ياديار الاحباب ماصنع الدهر
المعادي بربعك المانوس
اين تلك الوجوه فيك منيرات
حسان مضيئة كالشموس ؟

والامثلة على ذلك كثيرة تحتاج الى صفحات كثيرة .

الصورة الشعرية :

واذا ما اردنا دراسة الصورة الشعرية في هذا المجال نجد ان الصورة الجزئية قد سيطرت عليها ونعني بها ، التشبيه والاستعارة والكناية ، اما الصورة الشعرية الممتدة او ما يسمى بالصورة الكلية فنادرا ما نجدها .

انظر الى التشبيه في قول :

كنتم للقلوب روحا والاو
طان روحا وراحة للنفوس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقوله :

كل وجه كالشمس لكن سرى
بين اوج سعد الى حضيض النحوس

وقوله :

وقد وقفنا في الدار سكرى ولكن
سكر حزن لا سكرة الخندريس

وانظر الى الاستعارة في قوله :

بانوا ولي ادمع في الخد تشتبك
ولوعة في مجال الصدر تعترك

وانظر الى الكناية في قوله :

علا الصليب على اعلى منابرها
وقام بالامر من يحويه زنار

وهي كناية عن انتصار المسيحيين على المسلمين وسيطرة الكفار عليهم والامثلة كثيرة وذكرها يطول .

تقليد السابقين :

جاءت معظم هذه القصائد تقليداً للسابقين في افكارها والفاظها لكن هذه القصائد خلت من المقدمات الطللية المعروفة .

فقارىء هذه القصائد لا يجد هذه المقدمات وانما جاءت هذه القصائد بطريق مباشر بمعنى ان الشعراء كانوا يتحدثون عن مشاعرهم وافراحهم ومصائبهم بطريق مباشر ، ولعل الشاعر لم يكن يطيق الصبر ليصف الاطلال اولا ثم ينتقل الى موضوعه الرئيسي ، لان المصاب كان عظيما او لان الفرحة بالنصر كانت مفاجئة له .

اما اللغة فقد جاءت فصيحة ولكن تخللتها احيانا الفاظ فارسية او تركية . ومن الامثلة على ذلك استعمال شرف الدين الانصاري كلمة « جاليش » في قوله :

لله در كتيبة ملمومة
تبغيك حين حملت في جاليشها

والجاليش البراية العظيمة في راسها خصلة من الشعر ، واورد محقق الديوان ان معاجم اللغة لم تورد ذكر معنى جاليش [١٠] ولكنها غير عربية .

وقول المجد النشابي :

وحارس الباب طورا شارب ثمل
وتارة هو جنكي وعواد[١١]

والجنك الة طرب معربة عن الفارسية :

لكن هذه الالفاظ بدات تظهر بصورة كبيرة في قصيدة علاء الدين الاوتاري في قصيدته في رثاء دمشق سنة ٦٩٩ حين استولى التتار عليها فقد اورد الاوتاري الفاظا عدة ضمن بيت شعر كامل باللغة الفارسية .

قال الاوتاري :

كاتر اقجا كبر خوار انت ياغيه
لمحمود غازان قان لمن البلاء[١٢]

ويشرح المحقق هذا البيت قائلا : عرضنا هذا البيت على العالم الجليل موسى افندي جار الله فشرحه بما يلي :

كاتر : هات ، اقجا : النقود ، كبرخوار : كافر حقير كتابي .

ياغيه : العدو الباغي ، قان : كبير الملوك .

ثم يعلق على وزنه قائلا : وهذا البيت تتفق اوزانه مع التفاعيل الشعرية[١٣]

لقد مالت الفاظ هذه القصائد الى القوة في التعبير عن الافكار الحزينة وكذلك في التعبير عن الفرحة الغامرة ايام الانتصارات على المغول جاءت قوية الجرس اقرأ معي قول الشاعر الكوفي :

اين سارت حداة العيس
بحبيبي وواحدي وانيسي
حين ساروا حثوا الركاب
ولم يلووا على رواحة ولا تعريس
جرعوني من الفراق كؤوسا
مرة ما امرها من كؤوس

واقرا معي قول موفق الدين القاسم بن ابي الحديد :

لولا البكاء لما قدرت على الاسى
ان البكاء معونة الملتاع
لو ان روحا فارقت من شدة
لوجدت روحي اسرع الارواح
لا تعذل السكران خمر الهوى
مما يكابده وقلبك صاحي

وقوله :

نعب الغراب باهلها فتفرقوا
بالنهب بين صفائح ورماح
تركوا منازلهم وصاروا جيرة
للوحش بين مفاوز وضواحي

جاءت هذه الالفاظ الباكية الحزينة صادقة معبرة عن عاطفة صادقة ولذا جاءت الفاظها طبيعية في مكانها غير قلقة ولا وحشية لان صدق العاطفة دائما يجعل العبارات والالفاظ تخرج سلسةً بلا تصنع ولا زيف .

وعلى الرغم مما ذكرناه نجد انها احيانا تخرج عن الذوق السليم فقد استعملوا الالفاظ الجنسية احيانا للتعبير عن افكارهم ، قال شرف الدين الانصاري في مدح الملك المنصور :

لك العلا اعيت المبارينا
تقرع منه الابكار والعونا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولعلنا نلاحظ الشطر الاخير وما فيه من معنى مجازي لكنه خارج عن الذوق .

المحسنات البديعية :

وقد برزت المحسنات البديعية في هذه الاشعار برزوا واضحا واكثر الشعراء من ايرادهم لهذه المحسنات خاصة : الطباق والمقابلة والجناس ، والترادف وحسن التقسيم وغير ذلك .

نجد الطباق في قول الكوفي ؛

يا نكبة ما نجا من صرفها احد
من الورى فاستوى المملوك والملك

ونجد في قوله :

تمكنت بعد هز في احبتنا
ايدي الامادي فما بقوا ولا تركوا

وانظر الى المقابلة وحسن التقسيم في قوله :

الشرك مجبر والملك منكسر
والحق مستتر والشر منهتك

وانظر الى قوله في قصيدة ثانية :

تبدلت بعد عز بذل
وتبدلت من نعيم ببوس

ونجد الطباق ايضا في قول موفق الدين القاسم بن ابي الحديد نجده في كل بيت من الابيات التالية :

قد اوحشتني دار علوة لا ارى
انسانها في ليلتي وصباحي
تركوا منازلهم وصاروا جيرة
للوحش بين مفارز وضواحي
كانت طريقي مثل حادثة النـ
ـوى وهوى غدوي دائما ورواحي

واقرا معي هذا البيت من قول الكوفي لنجد فيه حسن التقسيم وجماله في قصيدة ثانية :

كانوا جمالي وتاجي في الملا وشموسي
في الضحى وانسي ان دجا الغسق

ولعلنا نلاحظ الطباق في البيت السابق بين الضحى والغسق

وقوله :

ان الذين بكاسات المنى شربوا
صبحا فمصطبح منها ومغتبق

رفعت بالنصر اعلام الهدى ولقد
جردت للشرك كسرا ليس ينجبر

وقارىء هذه الاشعار يجد الكثير من المحسنات التي كان يقصد اليها . الشعراء قصدا ويتعمدون الاتيان بها تعمدا لان الكتاب والشعراء في ذلك القرن وقبله كانوا يؤمنون ان هذه المحسنات صفة جمالية من صفات الكتابة في ذلك الزمن .

وعلى الرغم مما ذكرنا نستطيع القول ان المحسنات البديعية لم تسيطر على هذا الشعر سيطرتها في المديح والرثاء والالغاز والاحاجي والغزل وغيرها من الاغراض اذ برزت في هذه الاغراض بصورة كبيرة ذلك ان هذا الشعر (شعر الجهاد) كان ينبع من نفس صادقة وعاطفة حارة بل احيانا كانت حرارتها تشتد وانفعالها يبرز وكلما اشتدت هذه الحرارة قلت المحسنات لان المحسنات من قبيل الصنعة والتصنيع في الشعر اما في المجالات الاخرى خاصة شعر المديح والرثاء والالغاز والشعر التعليمي فقد سيطرت عليه المحسنات سيطرة مزعجة .

خاتمة البحث

تناولنا في هذه الدراسة موقف الشعر من المغول الذين ارتكبوا افعالًا خطيرة في العالم الاسلامي ، واحدثوا الكثير من المصائب والنوائب .

لقد مهدنا لهذه الاحداث الجسام بدراسة تاريخية عن المغول واصلهم وعقائدهم واهم ملوكهم واشهر المعارك التي خاضوها والمجازر التي ارتكبوها في ايران والعراق والهند والشام ، ثم عرضنا لتبدل الاحوال وانتصار المسلمين على المغول في عين جالوت وعن صمود المماليك في وجه التتار ثم دخول المغول في الاسلام وضعف خطرهم على بلاد المسلمين .

ثم استعرضنا بعد ذلك مواقف الشعراء من الاحداث المختلفة والخطيرة التي ارتكبها المغول في بلاد المسلمين ، وقد علا صوت الشعراء وارتفع بعد دخول هولاكو الى بغداد وقد سجلنا اهم القصائد التي نظمها الشعراء في رثاء بغداد والنكبة التي انزلها المغول فيها .

وسجلنا بعد ذلك مواقف الشعراء من هجمات المغول على حلب ودمشق والخطر الداهم الذي كانت تتوقعه مصر منهم .

ثم استعرضنا مواقف الشعراء من انتصارات المسلمين على المغول بعد ان انتصروا في عين جالوت وظهور قطز وبيبرس في الميدان .

سجلنا كل القصائد التي وجدناها في بطون الكتب والتي وقفت ايدينا عليها وبعد ان انهينا هذا العرض درسنا اهم اغراض هذا الشعر الجهادي .

وقد برز من هذه الاغراض رثاء المدن التي دمرها المغول ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكذلك مديح الملوك المسلمين المنتصرين وكذلك ذم المتخاذلين منهم ووصف المعارك وانتقلنا بعد ذلك الى دراسة هذا الشعر من الناحية الفنية وظهر لنا من خلال هذه الدراسة الفنية ان عاطفة الشعراء في هذا المجال كانت حارة . كانت هذه العاطفة حزينة باكية حين كان المغول منتصرين على الامة الاسلامية ثم اصبحت صادقة ولكنها سعيدة . فرحة كل الفرح حين تغيرت الحال واصبح المسلمون منتصرين والمغول منهزمين بعد عين جالوت .

لقد سيطرت الروح الاسلامية على هذه القصائد الحزينة منها والفرحة ، وقد برزت هذه الروح في عاطفتها وفي افكارها وفي عباراتها والفاظها .

وظهر لنا من خلال الدراسة الفنية ان لغة هذه القصائد كانت فصيحة لكن بعض الالفاظ الفارسية والتركية قد تخللتها احيانا .

كما سيطر البديع عليها لكنه ظهر بدرجة اقل من ظهوره في اغراض شعر هذه الفترة الزمنية الاخرى التي ظهرت فيه الصنعة بصورة واضحة .

اننا نعتقد ان الشعراء قد قصروا في التعبير عن المصائب التي احدثها التتار وكان عليهم ان ينظموا الكثير من الاشعار لاثارة الامة وايقاظها من رقودها .

والله المستعان

مصادر البحث ومراجعه :

١ - القرآن الكريم .
٢ - الادب في العصر المملوكي (محمد زغلول سلام) دار المعارف ١٩٧٠ .
٣ - البداية والنهاية : ابن كثير ط ١ - ١٩٣٢ ، مطبعة السعادة - مصر .
٤ - تاريخ الادب العربي د . عمر فروخ .
٥ - تاريخ ابن الوردي : زين الدين عمر بن الوردي . تحقيق احمد رفعت البدرادي دار المعرفة - بيروت ١٩٧٠ .
٦ - التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية - الموصل . ابن الاثير الجزري تحقيق عبد القادر احمد طليحات دار الكتب الجديدة - القاهرة ١٩٦٣ .
٧ - الحوادث الجامعة ، تحقيق د . مصطفى جواد - بغداد ١٣٥١ هـ .
٨ - ديوان شرف الدين الانصاري تحقيق عمر موسى باشا ١٩٦٧ دمشق - المطبعة الهاشمية .
٩ - الذيل على الروضتين او تراجم رجال القرنين السادس والسابع . لشهاب الدين ابي محمد عبد الرحمن اسماعيل المعروف - بابي شامة دار الجبل بيروت ط ٢ - ١٩٧٤ .
١٠ - السلوك لمعرفة دول الملوك . نشره محمد مصطفى زيادة .
١١ - العماد الاصفهاني الاديب - رسالة دكتوراه د . فؤاد ابو الهيجاء مخطوطة .
١٢ - عيون التواريخ لمحمد بن شاكر الكتبي ج ٢٠ ، تحقيق الدكتور فيصل الشاعر ونبيلة عبد المنعم داود دار الرشيد للنشر ١٩٨٠ .
١٣ - فوات الوفيات - ابن شاكر الكتبي - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد / مكتبة النهضة المصرية - اغسطس ١٩٥١ .
١٤ - القاموس المحيط الفيروز ابادي دار مكتبة التربية بيروت ط ٢ ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م .
١٥ - لسان العرب - ابن منظور - مصورة مطبعة بولاق ١٣٠٠ هـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر .
١٦ - المختصر في تاريخ البشر لابي الفداء - دار الكتاب اللبناني .
١٧ - مرآة الزمان - سبط ابن الجوزي م ٦٥٤ - مطبعة دائرة المعارف العثمانية الهند - ١٩٥١ .
١٨ - المغول د . الباز العريني - بيروت .
١٩ - مفرج الكروب - في اخبار بني ايوب ابن واصل جـ ٢ ، ٣ تحقيق جمال الدين الشيال المطبعة الاميرية ١٩٥٧ ، ج ٤ تحقيق الدكتور حسنين محمد ربيع مطبعة دار الكتب ١٩٧١ .
٢٠ - مؤرخ المغول الكبير - د . فؤاد الصياد دار الكاتب للطباعة والنشر .
٢١ - النجوم الزاهرة - في ملوك مصر القاهرة - ابن تغري بردي ١٩٣٦ - ١٩٣٨ دار الكتب المصرية .
٢٢ - نهاية الارب في فنون الادب - النويري - مصورة مطبعة دار الكتب تحقيق محمد مجد حسنين وابراهيم طفيش .
٢٣ - النوادر السلطانية او سيرة صلاح الدين - بهاء الدين بن شداد تحقيق جمال الدين الشيال ط ١ - ١٩٦٤ . الدار المصرية للتأليف والترجمة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

(١) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ص ١٩٨ .
(٢) المرجع السابق ص ١٩٨ .
(٣) رسالتنا عن العماد الاصفهاني الاديب وخريدته ما زالت مطبوعة .
(٤) ديوان شرف الدين الانصاري ٥٥٦ ٥٥٧ .
(٥) ذيل الروضتين ص ٢٠٨ .
(٦) النجوم الزاهرة ٣٣٤ .
(٧) النجوم الزاهرة ٧ / ١٥٩ - ١٦٠ والبداية والنهاية ١٣ / ٢٦٣ - ٢٦٤ .
(٨) النجوم الزاهرة جـ٧ / ١٧٠ - ١٧١ .
(٩) نهاية الارب جـ ٥ / ٢٢٨ - ٢٢٩ .
(١٠) ديوان شرف الدين ص ٢٧٠ .
(١١) عيون التواريخ جـ ٢ / ١٢٩ - ١٣٠ .
(١٢) نهاية الارب جـ ٥ / ٢٢٨ .
(١٣) نهاية الارب جـ ٥ / ٢٢٨ .

ما قيل في كلمة أشياء

د . هاشم طه شلاش

كلية التربية - ابن رشد

لم يختلف الصرفيون في كلمة مثلما اختلفوا في كلمة « أشياء » وقد ظهر اختلافهم فيها منذ عهد الخليل بن احمد الفراهيدي ، واستمرّ الاختلاف فيها الى يومنا هذا . فقد حاروا بعلة منعها من الصرف ، وتبع تلك الحيرة محاولة معرفة أصلها الذي كان مُسوِّغاً لهذا المنع ، فاجتهدوا في ذلك بما يقوّي مذاهبهم المختلفة ، وحاولوا دعم تلك المذاهب بكلٍ ما من شانه ايجاد تفسير عقلي ، أو استعمالي يكشف الغموض عن حقيقة هذه الكلمة . ومع كل ما ذهبوا اليه يبقى الغموض محيطاً بها ، ويبقى ما ذهب اليه الصرفيون جميعاً مجرّد تفسير وتوجيه لمسالة أوقعتهم في حيرة وشكّ دائمين ، وجعلتهم يتنافسون في ايجاد الحلّ لها بكل ما يملكون من حجج منطقية تقرّب رأي بعضهم وتبعد رأي البعض الاخر . ولعلّ ابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ هـ شعر بثقل الاقوال التي قيلت في هذه الكلمة فحاول ان يتجاوزها لقلة الفائدة في عرض مشكلاتها ، في حين أسهب المعجميون جميعاً في الحديث عنها وبيان أصلها ، وعرض آراء العلماء فيها . فقد اكتفى ابن فارس - في مادة شيأ من المجمل - بقوله : « الشيء : الواحد من الأشياء ، ولأهل العربية فيه كلام كثير » ، في حين عرض مرتضى الزبيدي المتوفى سنة (١٢٠٥ هـ) في كتابه (تاج العروس[١]) أقوال أئمة اللغة القدماء وعلماء اللغة المعاصرين له عرضاً واسعاً احتل نحو تسع صفحات من القطع الكبير .

و[الرأي الأول] هو رأي الخليل بن أحمد المتوفى سنة (١٧٥ هـ) وقد ينسب الى سيبويه والى جمهور البصريين[٢] ، ولا غرابة في ذلك فالخليل مصدره الأول ، ونقله سيبويه فأشاعه بين البصريين من تلامذته .

وقد عرض سيبويه ، رأي الخليل في الكتاب عرضاً أكثر وضوحاً وتفصيلًا ، وهذا يعني ان جمهور البصريين هم الذين صاغوا قول الخليل فيما بعد بما جعله اكثر وضوحاً . فقد جاء في كتاب سيبويه[٣] : « وكان أصل أشياء شيئاء » وجاء في موضع آخر من الكتاب[٤] : « وزعم الخليل أن أشياء مقلوبة كقِسيّ »[٥]

وفي كتاب العين المطبوع[٦] اقوال متضاربة في كلمة اشياء والمؤلف يدافع عن اقوال لا علاقة للخليل بن احمد بها ولم ينسبها أحدٌ إليه ، وأشار المحققان الى ذلك ، وبيّنا أن قول الخليل المشهور سقط من الاصول ، وقد اضطرا الى نقله من كتاب التهذيب للازهري لانه أشهر من ان يشك فيه ، وقول الخليل المنقول هو « أشياء اسم للجمع كان أصله فعلاء « شيئاء » فاستثقلت الهمزتان فنقلت الهمزة الاولى الى أول الكلمة فجعلت « لفعاء » كما قلبوا « أنْوُق » فقالوا « أنْيق »[٧] وكما قلبوا «قُوُوس» فقالوا : « قِسِيّ » .

والظاهر أن الازهري لم ينقله من نسخة من نسخ كتاب العين ، لانه لم يرد فيه ، وانما نقله من مكان اخر بحسب شهرته ، قال ابو منصور : « وأمّا الليث فانه حكى عن الخليل غير ما حكى عنه الثقات وخلّط فيما حكى وطوّل تطويلًا دلّ على حيرته » . قال : « ولذلك تركته فلم أحكه بعينه »[٨]

وما ذكره الازهري هو الذي ورد في كتب النحو والتصريف والمعجمات العربية منسوباً الى الخليل بن احمد وسيبويه وجمهور البصريين .

فابو عثمان المازني المتوفى سنة (٤٤٩ هـ) يقول : « وقال - يعني الخليل - « أشياء » فعلاء مقلوبة وكان أصلها « شيئاء » مثل حمراء ، فقلب ، فجعل الهمزة التي هي لام أولًا ، فقال « أشياء » كأنها لفعاء ... »[٩]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقال المبرد[١٠] : « ومن ذلك اشياء في قول الخليل ، انما هي عنده فعلاء وكان اصلها شيئاء .. فكرهوا همزتين بينهما ألف فقلبوا لنحو ما ذكرت لك من « خطايا[١١] » كراهية الفين بينهما همزة بل كان هذا أبعد ، فقلبوا فصارت اللام التي هي همزة في اوله ، فصار تقديره من الفعل ، « لَفْعاء » ، ولذلك لم ينصرف قال الله عز وجل (لا تسالوا عن أشياء ان تُبد لكم تسؤكم) ولو كان افعالاً لانصرف كما ينصرف (احياء) وما أشبهه » .

ويرد رأي الخليل وتلميذه سيبويه وجمهور البصريين في كتب اللغةالتي ظهرت متتابعة في عصور لاحقة فقد أورد رأيه فضلًا عمن تقدم ذكرهم من علماء اللغة كلٌ من :

١ ـ أبو محمد عبد الله بن محمد بن اسحق الصيمريّ من نحاة القرن الرابع الهجري[١٢] .

٢ ـ أبو على النحوي (ت ٣٧٧ هـ) في كتابه التكملة .[١٣]

٣ ـ أبو الفتح عثمان بن جنّي النحوي (ت ٣٩٢ هـ) في المنصف .[١٤]

٤ ـ اسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى في حدود سنة ٤٠٠ هـ في كتابه الصحاح[١٥] .

٥ ـ مكي بن ابي طالب القيسي (ت ٤٣٧ هـ) في كتابه : مشكل إعراب القرآن .[١٦]

٦ ـ ابن سيده الاندلسي (ت ٤٥٨ هـ) في كتابه المخصص[١٧] .

٧ ـ هبة الله ابن الشجري (ت ٤٥٨ هـ) في أماليه[١٨] .

٨ ـ ابو البركات الانباري في كتابه الانصاف في مسائل الخلاف[١٩] .

٩ ـ محمد بن الحسن الصغاني (ت ٦٥٠ هـ) في كتابه العباب الزاخر واللباب الفاخر[٢٠] .

١٠ ـ ابن عصفور الاشبيلي (ت ٦٦٩ هـ) في كتابه الممتع[٢١] .

١١ ـ رضيّ الدين الاستربادي (ت ٦٨٦ هـ) في شرحه لشافية ابن الحاجب[٢٢] .

١٢ ـ ابن منظور (ت ٧١١ هـ) في لسان العرب[٢٣] .

١٣ ـ ابوحيان النحوي (ت ٧٤٥ هـ) في البحر المحيط[٢٤] .

١٤ ـ ابو الحسن الجا بردي (ت ٧٤٦ هـ) في شرحه شافية ابن الحاجب[٢٥] .

١٥ ـ أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (ت ٧٧٠ هـ) في كتابه المصباح المنير في غريب الشرح الكبير[٢٦] .

١٦ ـ ابن خطيب الدهشة (ت ٨٤٣ هـ) في كتابه التقريب في علم الغريب[٢٧] .

١٧ ـ محمد بن الطيب الفاسي (ت ١١٧٠ هـ) في كتابة اضاءة الراموس وافاضة الناقوس عَلى اضا[...] القاموس[٢٨] .

١٨ ـ مرتضى الزَبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) في كتابة تا[...] العروس[٢٩] .

وأورد القول غير هؤلاء كثيرون ، وقد اقتصرنا على م[...] ذكرنا اسماءهم لقصد التمثيل لا الحصر .

وخلاصة قول الخليل : ان « أشياء » اسم جمع وأصل[...] « شيئاء » على وزن « فعلاء » ، وفعلاء ممنوعة من الصر[...] لان همزتها همزة تانيث ، ولذلك كان مقلوبها ممنوعاً [...] الصرف أيضاً ووزنه « لفِعاء » .

وقد أيّد علماء كثيرون قول الخليل للأسباب الآتية[...]

١ ـ أن « أشياء » تجمع على أشياواتِ وأش[...] وأشاوى ، فجمعت كما جُمعت « فعلاء » اسماً نح[...] « صحـــراء » ، اذ قيـل في جمعهــا « صحـراوات[...] و « صحارِى » ، فجمعهم (أشياء) على (أشياوات[...] يسوغه ان همزتها للتأنيث ، وان همزة التأنيث تقلب و[...] عند جمع الاسم جمع سلامة ، اما جمعهم (أشياء) ع[...] (أشايا) مثل صحراء وصحارى فهو جمع قياسي[٣٠] فع[...] جمع (صحراء) على صيغة منتهى الجموع يقال في[...] (صحاريّ) فقلبت ألف صحراء (ياء) ثم أدغمت ال[...] بالياء ، ثم خففتِ (الياء) المشددة فحذفت احدى اليا[...] ثم أبدلت كسرة الراء فتحه تخفيفاً ، ثم قلبت الياء المتحر[...] ألفاً لفتح ما قبلها .

واذا طبقنا ذلك على (أشياء) قلنا في جمع[...] (أشاييّ) بثلاث ياءات ، الياء الاولى عين الكلمة وال[...] الثانية منقلبة عن ألف أشياء والياء الثالثة منقلبة [...] الهمزة التي اصلها الالف فخففت الياء المشددّة فحذ[...] احدى الياءين ثم أُبدلت كسرة الياء الاولى فتحة تخفيفاً[...] قلبت الياء الاخيرة المتحركة ألفاً لفتح ما قبلها فاصب[...] (أشايا)[٣١]

أما (أشاوى) فهي عند الكثيرين (أشايا) قل[...] ياؤها واواً شذوذاً كما قالوا (جبيت الخراج جباية وجب[...] وأتيته أتية وأتوة[٣٢] . وقد سمع هذا الجمع في كلام العر[...]

ومما يؤيد ورود كلمة (أشاوى) عند العرب ما ورد [...] كتب اللغة من ان الاصمعي حدّث أنّ أعرابياً وقف على خ[...] الاحمر ، فقال له : يا أحمرُ إن عندك لاشاوى فقلب ال[...] واواً[٣٣] .

وقد ذكر الجوهري في الصحاح[٣٤] عند حديثه [...] جمع (أشياء) على (أشاوى) أن اصله « أشائيّ » ق[...] الهمزة ياء فاجتمعت ثلاث ياءات فحذفت الوسطى وق[...] الاخيرة ألفاً فابدلت من الاولى واواً كما قالوا : « أتيتهُ أت[...] وقد انكر الفيروزآبادي قول الجوهري : ان اصله (أشائ[...] قلبت الهمزة ياءً ، لان الياء في (اشياء) لا تقلب همزة[...] وقعت بعد ألف صيغة منتهى الجموع لكونها أصلية وال[...]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يقلب كذلك الياء اذا كانت حرف مدٍ زائداً في المفرد المؤنث ، والصواب ان يقال ان اصلها (أشاييّ) - بثلاث ياءات -[35] وقد وضّح ذلك ابن برّي في تعليقاته على الصحاح[36] .

وقد حاول ابن الطيب الفاسي[37] الدفاع عن الجوهري وردّ قول صاحب القاموس ولكن مرتضى الزبيدي أنصف الفيروزآبادي فيما ذهب اليه[38] .

وقد أورد محققو كتاب شرح الشافية لرضيّ الدين الاستراباذي كلاماً في أصل (أشايا) أبعد من كلام الجوهري ، نرجح ان فيه وهماً فات المحققين الافاضل فقد جاء في الحاشية[39] : « أصل (أشايا) الذي هو جمع (أشياء) : (أشاييء) فقلبت الياء همزة على رأي سيبويه وجمهور البصريين فصار (أشائىء) بهمزتين فقلبت الثانية ياء ثم قلبت كسرة أولى الهمزتين فتحة ثم قلبت الياء الفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها حينئذ فاجتمع شبه ثلاث ألفات فكان لا بد من قلب الهمزة فقلبت ياء لامرين الاول ان الياء أخف من الواو والثاني أنها أقرب مخرجاً الى الهمزة فلا جرم ان الياء قد غلبت الواو في هذا الباب كثيراً ، واذا عرفت هذا كان من السهل ان تدرك ان قلب الياء واواً بعد ذلك غير القياس » .

ويؤخذ على هذا التعليل ما ياتي :

أ - ان (ياء) أشياء لا تقلب همزة اذا وقعت بعد ألف صيغة منتهى الجموع لانها ليست حرف مدّ زائداً في مفرد مؤنث .

ب - ان قولهم (أشائىء) بهمزتين غريب لان صيغة منتهى الجموع بالنسبة الى جمع كلمة (أشياء) تقتضي وجود ثلاثة احرف بعد ألف صيغة منتهى الجموع ، الحرف الاول هو (ياء) أشياء ، والحرف الثاني (الياء) المنقلبة عن (الف) أشياء والحرف الثالث (الياء) المنقلبة عن همزة أشياء التي هي (ألف) في الاصل . وكان على المحققين الافاضل القول : ان جمع (أشياء) هو (أشاييّ) بثلاث ياءات وقد خفّفت الياء المشددة فحذفت منها الياء الاولى الساكنة ثم ابدلت كسرة اولى الياءين الباقيتين فتحة للتخفيف أيضاً ثم قلبت الياء المتطرفة ألفاً لتحركها وفتح ما قبلها .

٢ - لما كانت (أشياء) اسم جمع لحقت الياء الفاظ العدد معها مراعاة للمفرد في قولهم : ثلاثة أشياء وأضيف اليها العدد كما يضاف الى اسم الجمع . وقد وضح سيبويه ذلك بقوله : « وأما ثلاثة أشياء فقالوها لانهم جعلوا أشياء بمنزلة أفعال لو كسّروا عليها (فَعْل) وصار بدلاً من أفعال[40] » . ومثّل لذلك بقول العرب : ثلاثة رَجْلة ، لان رَجْلة صارت بدلاً من ارجال ، ورَجْلة اسم جمع لرجال .

٣ - ان تصغيرها يكون على (أُشَيّاء) واسم الجمع يصغر على لفظة ، ولو كانت جمعاً لفظاً ومعنى وجب أن يقال في تحقيرها (شُيَيْئات)[41] ، وهذا يقوّي رأي الخليل وجمهور البصريين في كون (أشياء) منقلبة من (شيئاء) ووزنها (لفعاء) .

٤ - ان مذهب الخليل في (أشياء) أرجح من مذاهب علماء اللغة الآخرين[42] إذ لا يلزمه مخالفة الظاهر الا من وجه واحد هو القلب مع ان القلب ثابت في لغتهم في امثلة كثيرة[43] .

واذا أردنا التمثيل للقلب المكاني في العربية قلنا ، ان كلمة (آدُر) - مثلا - جمع (دار) . والألف في (دار) أصلها الواو ، وعند جمع المفرد جمع قلة على (أفعُل) قلنا (أدْوُر) . واذا كانت الواو مضمومة ضمة لازمة جاز قلبها (همزة) فقيل (أدؤُر) وقد قدم العرب الهمزة التي هي عين الكلمة فجعلوها قبل (الدال) التي هي فاء الكلمة ، فقالوا (أأدُر) فاجتمعت همزتان في أول الكلمة ، الثانية منهما ساكنة ، فقلبوا الثانية حرف مدّمن جنس حركة الاول فقلبوها ألفاً فقالوا (آدُر) .

وجمع (بئر) قياساً (أبآر) قدموا العين على الفاء فقالوا (أأبار) ثم قلبوا الهمزة الثانية الساكنة ألفاً فقالوا (آبار) ، وأمثلة القلب المكاني كثيرة في العربية . وهذا القلب يقوّي القلب المكاني في كلمة أشياء .

وقد أورد ناس من اهل اللغة مآخذ على قول الخليل منها :

١ - أنّ قول الخليل لا يصح لانهم يقلبون إذا نطقوا بالاصل كقولهم صواقع وصواعق . وهذا هو قول الامام السخاوي في سفر السعادة ، نقله ابن خطيب الدهشة[44] ، ومحمد بن الطيب الفاسي في حاشيته على القاموس[45] ، ثم اورده مرتضى الزبيدي في التاج نقلًا عن حاشية شيخه ابن الطيب الفاسي[46] .

وقد ذكر الصيمري في التذكرة[47] وابن عصفور في الممتع[48] ان نقل الهمزة من موضع اللام الى موضع الفاء شذوذ .

والذي يضعف قول الصميريّ وابن عصفور ان القلب كثير في اللغة العربية ، وليس له قياس ثابت فقد نقلوا العين الى موضع الفاء كما في (آدُر) جمع (دار) ، وكما في (آبار) جمع (بئر) ، وكما في (جاء) مقلوب (جايىء) ، وكما في (أيس) مقلوب (يئس) . ونقلوا اللام الى موضع العين كما في (قِسِيّ) جمع (قوس) . ونقلوا الفاء الى موضع العين كما في (جاه) مقلوب (وجه) ، ونقلوا الفاء الى موضع اللام كما في (حادي) مقلوب (واحد) .

وقد وضح ذلك علماء اللغة فقد قال ابن عصفور في الممتع[49] : « فثبت اذاً ان الاحسن مذهب الخليل اذ ليس فيه أكثر من القلب والقلب كثير في كلامهم » . وقال ابن الطيب الفاسي[50] بعد ان استبعد المذاهب الاخرى : « وهو أهون الشرّين » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢ ـ ان اخراج الخليل (أشياء) الى غير ابنية الجموع أو أخراجه (أشياء) الى جمع على غير واحده ، شاذ ، وهذا القول هو قول الصميريّ في التذكرة[٥١] ، وقد ورد مثله في التقريب في علم الغريب[٥٢] .

والواضح ان الخليل لم يورد أشياء جمعاً وانما أوردها اسم جمع ، وهذا واضح من تفسير سيبويه في الكتاب[٥٣] .

واذا كان المقصود من قول الصيمريّ انه كان ينبغي ان يرد على أبنية الجموع المعروفة لانه القياس ، فقد ورد في كلام العرب ما يدعم قول الخليل في قولهم ثلاثة رَجْلة ، والمقصود ثلاثة أرجال وقد وضح ذلك سيبويه في الكتاب[٥٤] ، وأسهب في توضيحه ابن سيده في المخصص[٥٥] نقلاً عن أبي سعيد السيرافي ، قال : « قال سيبويه : واما ثلاثة (أشياء) فقالوها لانهم جعلوا (أشياء) بمنزلة افعال لو كسّروا عليها فَعْلاً ، وصار بدلاً من أفعال . قال ابو سعيد ... جعلوا أشياء هي التي لا تنصرف ووزنها فعلاء نائبة عن جمع شيء لو كُسّر على القياس . وشيء اذا كُسِّرَ على القياس فحقه أن يقال أشياء كما يقال بيت وأبيات وشيخ وأشياخ فقالوا أشياء كما يقال ثلاثة أشياخ لو كسروا شيخاً على القياس .قال سيبويه : ومثل ذلك ثلاثة رجلة في جمع رَجُل لان رَجْلة صار بدلاً من أرجال . قال ابوسعيد أراد أنهم قالوا : ثلاثة رَجلة نائباً عن ارجال ومكتفى بها من ارجال ، وكان القياس ان يقال ثلاثة أرجال لانّ رَجُلا وزنه عَجُز وعَضُد ويجمع على اعجاز وأعضاد ... »

٣ ـ ان أشاوي جمع اشاوة مثل اداوة وأداوى وهراوة وهراوى . واشاوة غير مستعملة ولا يبنى من لفظة شيء . وزعم سيبويه أنّ اشاوة أصلها شياءة لانّ عين الفعل من شيء ياء ولامه همزة . واذا بنينا من فعالة مثل اداوة صار شياءه ثم قدمت الهمزة التي هي لام الفعل الى موضع الفاء كما فعل ذلك باشياء فصارت اشاية ، ثم قلبت من الياء واو فقيل اشاوة كما قالوا جبيت الخراج جباوة والاصل جباية وكذلك أتيته أتوة . والاصل أتيته أتية فقلبوا الياء واو لدخول الياء على الواو كثيراً ... فلما جمعوا إشاوة قالوا أشاوى كما قالوا اداوة وأداوى وهراوة وهراوى »

وهذا المأخذ أورده الصيمري في التذكرة[٥٦] ، وهو يريد بقوله هذا أنّ أشاوى ليست جمعاً لاشياء وانما هي جمع لإشاوة ، وجمع اشياء (أشايا) . وقد اعتمد الصيمريّ في مأخذه هذا على قول سيبويه الذي أورده في الكتاب[٥٧] ، ولكن سيبويه لم يذكر أن أشاوى جمع اشاوة على الحقيقة وانما قال[٥٨] : « وكذلك أشاوى أصلها (أشايا) كانك جمعت عليها (اشاوة) وكانّ أصل (إشاوة) شيئاء ، ولكنهم قلبوا الهمزة قبل الشين وأبدلوا مكان الياء الواو كما قالوا أتيته أتوة وجبيته جباوة .. » فعبارة سيبويه مبنية على التقدير لا على الحقيقة وعبارة الصيمري مأخوذة من عبارة سيبويه للرد على الخليل والبصريين ، لذلك انكر الرضي الاستراباذي[٥٩] عبارة سيبويه المبنية على التقدير قال : « قال سيبويه ، أشاوى جمع اشاوة في التقدير فيكون اذن مثل اداوة وأداوى كانه بنى من شيء شياءة ثم قدمت اللام الى موضع الفاء وأخرت العين الى موضع اللام فصار اشاية ، ثم قلبت الياء واواً على غير قياس كما في جباوة ، ثم جمع على اشاوى كاداوة وأداوى » ولذلك قال الرضي[٦٠] : « وأقرب طريقاً من هذا ان نقول جمع أشياء على اشايا ثم قلبت الياء واواً على غير القياس » .

وعرض ابن عصفور في الممتع[٦١] وجه الخلاف في هذه المسألة ، فقال : فمذهب المازني انها ـ أي أشاوى ـ جمع اشياء وكان الاصل أن يقال (أشايا) ، فابدلت الياء واواً شذوذاً كما قالوا : جبيتُ الخراج جباية ، وفيها على هذا شذوذان قلب اللام الى اول الكلمة وقلب الياء واواً ، ومذهب سيبويه انها جمع اشاوة وان لم ينطق بها ، وتكون إشاوة المتوهمة كانها في الاصل شياءة فقلبت اللام الى اول الكلمة وأخرت العين الى موضع اللام ، وابدلت الياء واواً ، فلما جمعوا فعلوا به ما يُفعل بعلاوة .. فقالوا أشاوى كما قالوا : علاوى . ورأى سيبويه أنّ هذا أولى ليكون الشذوذ في المتوهم وهو المفرد الذي لم ينطق به ، ثم يجيء الجمع على قياس المفرد ، واذا جعلنا أشاوى جمع أشياء كان الشذوذ في الملفوظ به » .

و [الرأي الثاني] هو رأي علي بن حمزة الكسائي المتوفى سنة ١٨٩ هـ . فقد كان يرى أنّ (أشياء) جمع لـ (شيء) ، ووزن هذا الجمع (أفعال) لان فعلاً اذا كان معتل العين جمع كذلك كقولهم في جمع بيت أبيات ، وفي جمع شيخ أشياخ ، وفي جمع سيف أسياف وفي جمع حيّ أحياء ، وقد مُنعت من الصرف لكثرة استعمالها تشبيهاً لها بفعلاء مثل حمراء وخضراء مما كان منتهياً بهمزة زائدة للتانيث ، وجمعها على أشاوى كما جمعوا عذراء عذارى وصحراء صحارى وأشياوات كما قيل حمراوات . وقد ذكر هذا الرأي الفراء في معاني القرآن[٦٢] ولكنه لم يصرح باسم قائله . والذي يُقَوي مذهب الكسائي قولهم : ثلاثة أشياء وأربعة أشياء ، لان الثلاثة وما بعدها الى العشرة تضاف الى الجمع .

والذي يدل على ذلك أيضاً تذكيرهم ثلاثة وعشرة في قولهم ثلاثة أشياء وعشرة أشياء ولو كانت كطرفاء مؤنثة لما جاز التذكير فيقال ثلاثة أشياء ، وكان يجب أن يقال ثلاث أشياء ... وفي امتناع ذلك دليل على انه جمع وليس باسم مفرد[٦٣] .

والذي يؤخذ على قول الكسائي ما ياتي :

١ ـ منع صرفها بلا علة تقتضيها لذلك كان المنع شاذاً ، وأشياء وردت ممنوعة من الصرف في القرآن الكريم وكلام العرب ، ويبعد أن يكون ذلك المنع جاء شاذاً بلا علة سوى التوهم[٦٤] . وقد ذكر الفراء[٦٥] في ضعف هذا الرأي أنّ منع أشياء من الصرف لو كان على التوهم لكان أملك الوجهين بها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أن تجري لان الحرف اذا كثر في الكلام خفّ كما كثرت التسمية بـ (يزيد) فاجروه وفيه ياء زائدة تمنع من الاجراء »

وقد قال الفراء [٦٦] أيضاً : « وقد قالت العرب : هذا من ابناوات سعد ، وأعيذك باسماوات الله ، وواحدها اسماء وأبناء تجري ، فلو منعتُ أشياء الجري لجمعهم أياها على أشياوات لم أجر أسماء ولا أبناء لانهما جمعتا على اسماوات وأبناوات »

والمقام هنا يقتضي أن نشير الى خلاف لفظي وقع في علة منع (أشياء) من الصرف عند الكسائي . فقد نقل العلامة الاثري[٦٧] قول عبد القادر المغربي في كتابه الاشتقاق والتعريب : « منع صرف أشياء أن العرب أشتبه عليهم أمر همزة هذه الكلمة لوقوعها بعد الالف فظنوها زائدة كهمزة حمراء مع انها أصلية كهمزة أفياء ، ومنعوها من الصرف بناء على هذا الاشتباه بل هذا التوهم » وعقب عليه بقوله : « هكذا عزا هذا التعليل بالفاظه الى الكسائي ، والكسائي فيما علّل به منع صرف أشياء لم ينسب الى العرب الاشتباه ولا التوهم في أمر همز هذه الكلمة وانما ذكر التشبيه ، والتشبيه هو غير الاشتباه والتوهم بداهة ، وعبارتهُ ـ في لسان العرب ـ وقد وردت فيه في صورتين خلتا من الاشتباه والتوهم ، اما الصورة الاولى فقد نقلها عنه ابو اسحق الزجاج قال ـ وهو يسرد أقوال أهل اللغة في تعليل منع أشياء من الصرف ـ « وقال الكسائي أشبه آخرها آخر حمراء وكثر استعمالهم لها فلم تصرف . وأما الصورة الثانية في لسان العرب فهي « قال الكسائي (أشياء) أفعال مثل فرخ أفراخ ، وانما تركوا صرفها لكثرة استعمالهم لها لانها شبهت بفعلاء » فاين الاشتباه والتوهم في كلام الكسائي ؟ على أن الزجاج قد قرر ان البصريين واكثر الكوفيين أجمعوا على ان قول الكسائي خطأ في هذا وألزموه أن لا يصرف أبناء وأسماء » . وقول العلّامة الاثري هو عين الصواب فقد تابعنا عبارة الكسائي في غالب المعجمات العربية فلم نجد أثراً للاشتباه والتوهم بل وجدنا التشبيه والتشبيه غير الاشتباه وغير التوهم .

ولكننا وجدنا في كتب اللغة الاخرى أثراً لذلك ، ولعلّ ما ورد على لسان العلامة المغربي هو من قبيل التاثر بعبارات المتقدمين فقد وردت لفظة التوهم عند الفراء في كتاب معاني القرآن[٦٨] ووردت اللفظة في شروح الشافية فقد ذكرها رضيّ الدين الاستراباذي[٦٩] وابو الحسن الجاربردي[٧٠] وذكرها من المحدثين محمد عبد الخالق عضيمة[٧١]

حتى ان الرضي الاستراباذي[٧٢] قال في ردّه على الكسائي : « وما ذهب اليه بعيد لان منع الصرف بلا سبب غير موجود والحمل على التوهم .... بعيد عن الحكمة »

٢ ـ جمعها على (أشايا) و (أشاوى) و (أشياوات) . والجمع الذي يكون على وزن (أفعال) لا يجمع على هذه الجموع . أي لا يُجمع على (أفاعل) ولا يُجمع بالالف والتاء جمع سلامة[٧٣] .

و[الرأي الثالث] ليحيى بن زياد الفراء الكوفي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ .

وقد أورد رأيه في كتاب معاني القرآن[٧٤] ، وخلاصته أن (أشياء) جمع لـ (شَيِّء) بتضعيف الياء ، وأن (أشياء) أصلها (أشيئاء) على وزن (أفعلاء) فحذفت الهمزة للتخفيف فصار (أشياء) على وزن (أفعاء) . فهو يقول : « ولكننا نرى أن أشياء جُمعت على (أفعلاء) كما جُمع ليِّن على أليناء فحذفت من وسط (أشياء) همزة كان ينبغي لها أن تكون (أشيئاء)فحذفت الهمزة لكثرتها »[٧٥]

ويؤخذ على رأيه ما ياتي :

١ ـ عدم وجود دليل على ان أشياء جمع (شيِّء) بالتشديد لانه لم يرد في كلامهم لا في النثر العربي ولا في الشعر . ولو كان اصل (شيء) المخفف (شيِّئاً) المشدد لجاء الاصل في كلامهم كما جاء الاصل كثيراً في لين وهين وميت وسيد لانهم قالوا فيها ليِّن وهيِّن وميِّت وسيد[٧٦] .

٢ ـ ان حذف لام الكلمة أي الهمزة من (أشيئاء) من غير سبب يقتضيه حذف شاذ[٧٧] .

وقد نقل ابن عصفور[٧٨] أن الفراء حكى (بُراء) والاصل (بُرءاء) فحذفت الهمزة التي هي لام وعقب على ذلك بقوله : « وذلك من القلة بحيث لا يقاس عليه »

٣ ـ ان جمع (أشياء) على أشياءات وأشايا وأشاوى جمع شاذ لان أفعلاء لا تجمع على اوزان هذه الجموع[٧٩] .

٤ ـ ان (أشيئاء) لا تصغر على (أُشيَّاء) لان جمع الكثرة لا يصغر على لفظة بل يُرَدُّ الى جمع القلة ان كان للاسم جمع قلة أو يرد الى مفرده ثم يصغر المفرد ويجمع بالالف والتاء اذا كان المفرد لغير العاقل او مؤنثاً عاقلًا .

ويجمع بالواو والنون اذا كان المفرد مذكراً عاقلًا . في حين ان اشياء صُغرت هنا على لفظها . ولا يُصغر على لفظه الا المفرد واسم الجمع وجمع القلة[٨٠] .

و [الرأي الرابع] هو رأي أبي الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي المتوفى سنة ٢١٥ هـ . فقد ذهب الى ان اشياء جمع (شيء) بالتخفيف ، جُمع على (أفعلاء) والاصل (أشيئاء) كما جمع شاعر على شعراء ثم حذفت اللام للتخفيف فصار (أشياء) على وزن (أفعاء)[٨١]

وقال ابو الفتح عثمان بن جني النحوي :[٨٢] « إعلم انه انما ذهب الخليل وأبو الحسن في (أشياء) الى ما ذهبا اليه وتركا ان يحملاها على ظاهر لفظها فيقولا انها (أفعال) لانهما رأياها نكرة غير مصروفة نحو قوله تعالى (لا تسالوا عن اشياء انْ تُبْدَ لكم تسؤكم) . فلما رأياها نكرة غير مصروفة في حال التنكير ذهبا الى ان الهمزة فيها للتانيث فقال الخليل هي (فعلاء) منقولة الى (لفعاء)

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقال ابو الحسن هي أفعلاء » . وقال ابن جني ايضاً[٨٣] : « أما تشبيهه لها بشاعر وشعراء فمن قبل ان شيئاً (فَعْل) ، وليس حكم (فَعْل) أن يجمع على (أفعلاء) ، كما انه ليس حكم فاعل ان يجمع على (فُعلاء) ، وكما قالوا : سمح وسُمحاء فجمع (فعلا) على فُعلاء ، وعلى انه قد حكى سمح وسميح فيكون على هذا سُمحاء جمع سميح والمشهور عنهم سَمْح »

ومما يؤخذ على قوله ما ياتي :

١ - أن (فَعْل) لا يجمع على (افعلاء) ، وانما يكسر على فعول وأفعال

٢ - ان حذف الهمزة التي هي لام الكلمة من غير سبب حذف شاذ .

٣ - ليس في كلام العرب جمع (أفعلاء) على (فعالى) فجمع اشياء على اشايا وعلى اشاوى يرد هذا القول[٨٤]

٤ - تصغير أشياء على لفظها يبطل كونها جمعاً على افعلاء لان صيغة أفعلاء من صيغ جموع الكثرة ، وهذه الصيغة لا تصغر على لفظها وانما يصغر مفردها ثم يجمع[٨٥]

وقد ناظر ابو عثمان المازني الاخفش في ذلك اذ قال له كيف تحقّرها ؟ فقال : أقول في تحقيرها (أشَيّاء) فقال له : هلّا رَددت الى الواحد فقلت (شُيَيْئات) لان افعلاء لا تصغر على لفظها فلم يات بمقنع[٨٦]

وقد أجاب ابو على النحوي في التكملة[٨٧] عن مناقشة ابي عثمان المازني للأخفش بـ (أنّ أفعلاء في هذا الموضع جاز تصغيرها وان لم يجز التصغير فيها في غير هذا الموضع لانها قد صارت بدلًا من أفعال بدلالة استجازتهم اضافة العدد كما أضيف الى افعال . ويدلّ على كونها بدلًا من أفعال تذكيرهم العدد المضاف اليها في قولهم ثلاثة أشياء ، فكما صارت بمنزلة افعال في هذا الموضع بالدلالة التي ذكرت ، كذلك يجوز تصغيرها من حيث جاز تصغير (أفعال) ، ولم يمتنع تصغيرها على اللفظ من حيث امتنع تصغير هذا الوزن في غير هذا الموضع لارتفاع المعنى المانع من ذلك عن اشياء وهو انها صارت بمنزلة أفعال »

وحاول الصيمري في التذكرة والتبصرة[٨٨] أن يجد للاخفش مسوغاً فيقول : « وللاخفش أن يقول انه لما جاء على غير لفظ واحده المطرد فيه صار بمنزلة ما لا واحد له وجاز ان يصغر على لفظه لهذه العلة . وشذوذ أشياء على قول الاخفش من وجه واحد وذلك ان افعلاء جمع فعيل نحو خميس واخمساء ونصيب وانصباء فلم يجيء اشياء على واحدها مثله شعراء جمع شاعر ، وفعلاء جمع فعيل صفة نحو كريم وكرماء »

و [الرأي الخامس] هو رأي يقرن برأي الفراء وكانه تفسير له كما يرى علماء اللغة فقد قال ابو الفتح عثمان بن جني النحوي في المنصف[٨٩] : « وأما الفراء فذهب الى أنّ أشياء أفعِلاء محذوفة اللام كما رأى أبو الحسن الا أنه ادّعى أنّ شيئاً محذوف من (شَيِّىء) كما قالوا في هيِّن هَيْن ، فكما جمعوا هَيْناً على افعِلاء فقالوا أهوِناء كذلك جمعوا شيئاً على افعِلاء لان أصله شيِّىء عنده ، والذي ادّعاه من أنّ شيئاً محذوف من شيِّىء لا أعلم له دلالة تدلّ عليه لاننا لم نسمعهم قالوا (شيِّىء) كما قالوا هَيِّن ، ولو كان أصله شيئاً لنطقوا به كما قالوا هَيْن وهيِّن . وكانّ أبا الحسن رَغب عن قول الفراء إنّ أصله (فيعِل) لانه معلوم أنّ فيعِلا ليس حكمه أن يجمع على أفعِلاء ، وان كانت قد جاءت عليه أحرف يسيرة نزرة . كما أنّ فَعْلًا ليس حكمه ان يجمع على أفعِلاء ، فإن قال انّ فيعِلًا إنما أصله فعيل والى هذا ذهب كانّه كان (شييئاً) ثم عدل إلى (فيعِل) ثم حذف فصار (شيء) وكذلك قوله في جميع ما هو على (فيعِل) نحو مَيت وسيِّد . فاذا كان أصله (فعيلًا) جاز ان يجمع على (أفعِلاء) نحو صديق وأصدقاء فان هذا باطل أيضاً لانّه قد ادّعى مالا دلالة له عليه . وأيضاً فإنّ ما عينه تاء لا يجيء فيه (فعيل) نحو (بييع) الّا ان تكون لامه ياء نحو (حييّ) . وشيِّىء ولين مما عينه ياء ولامه صحيحة » .

وقال مكي القيسي -[٩٠] من غير ان يقرنه برأي أحد « وقال بعض أهل النظر (أشياء) أصلها (أشيئاء) على وزن أفعلاء كقول الاخفش الا انّ واحدها فعيل كصديق وأصدقاء فاعِلَّ على ما تقدّم من تخفيف الهمزة » .

وجاء في البحر المحيط -[٩١] من غير عزو الى أحد - « وذهب قوم إلى أنّ وزن (شيء) في الاصل (شييء) كصديق وأصدقاء ثم حذفت الهمزة الاولى وفتحت ياء المدّ لكون ما بعدها ألفاً ، قال ووزنها في هذا القول (أفعاء) .

وذكر ابن الطيب الفاسي في حاشيته على القاموس»[٩٢] ان النحاة ذكروا « مذهباً خامساً في أشياء لم يتعرض له اللغويون وهو أنّه (أفعِلاء) كما يقول الاخفش ومفرده (شييء) على (فعِيل) كنصيب وأنصباء وصديق وأصدقاء حذفت الهمزة الاول التي هي لام الكلمة وفتحت الياء لتسلم الالف فصارت أشياء بزنة (أفعاء) » .

وذهب الدكتور مصطفى جواد[٩٣] من المحدثين مذهب أصحاب الرأي الخامس فكان يرى ان (أشياء) أصلها (أشيئاء) جمع (شييء) على فعِيل مثل (شتيت) - ثم حذفوا المدّ الخفيف وبقيت الكلمة ممنوعة من الصرف تنبيهاً على الاصل .

ويرى الدكتور رشيد العبيدي[٩٤] ان مفردها (شييء) ولكنها لم تُجمع على (أشيئاء) بهمزتين وانما جُمعت على (أشيياء) بياءين متحركتين أولاهما مكسورة والثانية مفتوحة فحذفوا الزائدة منها وهي ياء (فعيل) تخلصاً ، من الثقل الحاصل من اجتماع الياءين متحركتين فصارت

أشياء ، ومثالها في الصحيح نبي وانبياء ومنعت عندئذ من الصرف لان أفعلاء غير منصرف » وتوجيه الدكتور رشيد العبيدي توجيه سديد اذا ثبت استعمال (شيىء) في كلام العرب ، وثبت أيضاً أستعمالهم (شييَ) مخففاً عن (شيىء) كنبيّ المخفف عن (نبيء) ، ولكن لم يرد في المسموع ما يؤيد ذلك أما نبيّ فقد سمع فيها ذلك ولذلك سمع في جمعها أنبياء لهذه العلة .

هذه أقوال تناولت أصل كلمة (أشياء) كان سببها منع هذه الكلمة من الصرف . فذهب العلماء في أصلها مذاهب لم يستقر أحدها في النفوس وبقيت تعتورها الظنون والمزاعم على أنّ العلماء يقفون مع قول الخليل والبصريين على أنه القول الراجح مع كونه يتمسك بالقلب الذي لا نجد له أساساً غير كثرته في كلام العرب .

وقد قرأنا في بعض الكتب(٩٥) نقلاً عن مجلة مجمع اللغة العربية(٩٦) بالقاهرة ، رأيا للدكتور رمضان عبد التواب قال فيه : « ولعل المسؤول عن منع كلمة أشياء من الصرف وقوعها في القرآن الكريم في سياق تتوالى فيه الامثال لو صرفت في قوله تعالى : (لا تسالوا عن أشياء إن تُبد لكم تسؤكم) »(٩٧) اذ لو صُرفت لقيل (عن أشياءٍ إن ..) ولا يخفى ما فيه من تكرار المقطع (إنْ) وليست العربية بدعاً في سلوك طريق الحذف للتخلص من توالي الامثال .

والذي قرأناه رأي جميل . والذي يدعو الى التامل والاستفسار هو : ألم ترد كلمة أشياء نكرة في نصوص عربية قبل الاسلام ؟ واذا كانت واردة كذلك ألم تكن ممنوعة من الصرف ؟ واذا كانت ممنوعة من الصرف ، أكان تكرار المقطع هو السبب في منعها ؟ هذه الاسئلة وغيرها تدعو إلى استقراء النصوص العربية قبل الاسلام لإزالة الغموض عن كلمة واحدة قيل فيها ما قيل .

□ ——— الهوامش ——— □

(١) مادة (شيا) .
(٢) اضاءة الراموس ٦٢٩
(٣) ٤ /٣٨٠ .
(٤) ٣ /٥٦٤ .
(٥) « قسِيّ » مقلوب « قُؤوس » جمع « قَوْس » ، قدمت اللام على العين فاصبحت الكلمة « قُسْوو » ثم قلبت الواو الاخيرة ياء لانها مسبوقة بواو وضمتين ، فاصبحت الكلمة « قُسُوي » ثم قلبت الواو الاخرى ياء لمجانسة الياء وأدغمت الياءان فاصبحت « قُسِيّ » ثم أبدلت ضمة السين كسرة لمجانسة الياء وتبعها ابدال ضمة القاف كسرة فاصبحت الكلمة « قِسِيّ »
(٦) ٦/ ٢٩٥ – ٢٩٧
(٧) عندما قلبوا « أنْوُق » قالوا « أوْنق » ثم ابدلوا الواو ياء فقالوا « أيْنُق »
(٨) التاج مادة (شيا) نقلاً عن تهذيب الازهري
(٩) المنصف لابن جني ٢ /٩٤ . وانظر : ابو عثمان المازني ومذاهبه في الصرف والنحو ، للدكتور رشيد عبد الرحمن العبيدي ٣١ .
(١٠) المقتضب ١ /٣٠
(١١) خطايا جمع خطيئة . فعند جمع خطيئة على صيغة منتهى الجموع قيل في جمعها (خطايىء) ثم حدث قلب مكاني على رأي الخليل فقيل (خطائي) ثم (خطاءا) ثم (خطايا) .
(١٢) التذكرة والتبصرة ٢ /٣٠٣
(١٣) ٣٢٨ – ٣٣٠ .
(١٤) ٢ /٩٥ .
(١٥) مادة (شيا) .
(١٦) ١ /٢٣٨ .
(١٧) ١٦ /٦٣ .
(١٨) ٢ /٢٤ .
(١٩) المسالة ١١٨ .
(٢٠) مادة (شيا) .
(٢١) ٢ /٥١٣ .
(٢٢) ١ /٢٩ .
(٢٣) مادة (شيا) .
(٢٤) ٤ /٢٨ .
(٢٥) مجموعة الشافية ١ /٢٦ .
(٢٦) مادة (شيا) .
(٢٧) ٢ /١٢٨٧ .
(٢٨) ١ /٦٢٤ .
(٢٩) مادة (شيا) .
(٣٠) انظر شرح الشافية للرضي ١ /٢٩ فقد أوردنا ما قصده الرضي بعبارة أخرى
(٣١) المقتضب ١ /٣١ حاشية لمحمد عبد الخالق عضيمة .
(٣٢) انظر كتاب سيبويه ٤ /٣٨٠ والمنصف ٢ /٩٩ .
(٣٣) المقتضب ١ /٣١ .
(٣٤) مادة (شيا) .
(٣٥) التاج : مادة (شيا) .
(٣٦) انظر لسان العرب (شيا) .
(٣٧) اضاءة الراموس ١ /٦١٢ .
(٣٨) التاج (شيا) .
(٣٩) ١ /٣١ .
(٤٠) الكتاب ٣ /٥٦٤ .
(٤١) الامالي الشجرية ٢ /٢٤ .
(٤٢) سترد مذاهبهم فيما ياتي من البحث .
(٤٣) شرح الشافية لابي الحسن الجاربردي ١ /٢٦ .
(٤٤) التقريب في علم الغريب ٢ /١٢٨٨ .
(٤٥) اضاءة الراموس ١ /٦٢٠ .
(٤٦) التاج (شيا)
(٤٧) ٢ /٩٠٤ .
(٤٨) ٢ /٥١٦ .
(٤٩) ٢ /٥١٦ .
(٥٠) اضاءة الراموس ١ /٦٢٩ .
(٥١) ٢ /٩٠٤ .
(٥٢) لابن خطيب الدهشة ٢ /١٢٨٨ .
(٥٣) الكتاب ٣ /٥٦٤ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٥٤) نفسه ٣ /٥٦٤
(٥٥) ١٧ /١١٧
(٥٦) ٢ /٩٠٢ ـ ٩٠٣ .
(٥٧) ٤ /٣٨٠ .
(٥٨) نفسه ٤ /٣٨٠ .
(٥٩) شرح الشافية ١ /٢٩ .
(٦٠) نفسه ١ /٢٩ .
(٦١) ٢ /٥١٦ ـ ٥١٧ .
(٦٢) ١ /٣٢١ وانظر المنصف ٢ /٩٦ والصحاح (شيا) ومشكل اعراب القرآن ١ /٢٤١ والممتع ٢ /٥١٣ ، والانصاف المسالة ١١٨ والعباب الزاخر واللباب الفاخر (شيا) ، وشرح الشافية للرضي الاسترابادي ١ /٢٩ ولسان العرب (شيا) وشرح الشافية للجاربردي ١ /٢٦ ـ ٢٧ والبحر المحيط ٤ /٢٨ والقاموس المحيط (شيا) والتقريب في علم الغريب ٢ /١٢٨٨ والتاج لمرتضى الزبيدي (شيا) .
(٦٣) الانصاف ٢ /٨١٤ .
(٦٤) المغني في تصريف الافعال ٣٩
(٦٥) معاني القرآن ١ /٣٢١ .
(٦٦) نفسه ١ /٣٢١ وانظر الصحاح (شيا) والقاموس المحيط (شيا)
(٦٧) نظرات فاحصة ١٣٣ .
(٦٨) ١ /٣٢١
(٦٩) شرح الشافية ١ /٢٩
(٧٠) شرح الشافية ١ /٢٦ ـ ٢٧
(٧١) المقتضب ١ /٣٠ الحاشية . والمغني في تصريف الافعال ٣٩
(٧٢) شرح الشافية ١ /٢٩ .
(٧٣) شرح الشافية للجاربردي ١ /٢٦
(٧٤) ١ /٣٢١
(٧٥) معاني القرآن ١ /٣٢١ وانظر المنصف ٢ /٩٦ ، والانصاف المسالة ١١٨ ، والممتع ٢ /٥١٤ ـ ٥١٦ ، وشرح الشافية للرضي الاسترابادي ١ /٢٩ وشرح الشافية للجاربردي ١ /٢٦ ـ ٢٧ .
(٧٦) انظر المنصف ٢ /٩٧ ومشكل اعراب القرآن ١ /٢٣٨ والامالي الشجرية ٢ /٢٠ والممتع ٢ /٥١٦ . وشرح الرضي على الشافية ١ /٢٩ والمغني في تصريف الافعال ٣٨ .
(٧٧) انظر الممتع ٢ /٥١٤ والمغني في تصريف الافعال ٣٨
(٧٨) الممتع ٢ /٥٤١
(٧٩) المغني في تصريف الافعال ٣٨ .
(٨٠) انظر مشكل اعراب القرآن ١ /٢٣٨ والممتع لابن عصفور ٢ /٥١٥ ، وشرح الشافية للرضي ١ /٢٩ والمغني في تصريف الافعال ٣٨ .
(٨١) المقتضب ١ /٣٠ والمنصف ٢ /٩٤ ، والتذكرة للصيمري ٢ /٩٠٣ والبحر المحيط ٤ /٢٨
(٨٢) المنصف ٢ /٩٤ ، ٩٥
(٨٣) المنصف ٢ /٩٥ . وانظر شرح الشافية للجاربردي ١ /٢٦ ـ ٢٧
(٨٤) انظر ما أخذ على قول الفراء السابق وانظر مصادر ذلك .
(٨٥) المنصف ٢ /١٠٠ ـ ١٠١ .
(٨٦) المقتضب ١ /٣٠ ، والمنصف ٢ /١٠٠ ، والصحاح (شيا) ومشكل اعراب القرآن ١ /٢٤٠ والمخصص ١٦ /٦٣ والامالي الشجرية ٢ /٢٠ والعباب الزاخر واللباب الفاخر (شيا) .
(٨٧) ٣٣١ ـ ٣٣٢ .
(٨٨) ٢ /٩٠٤
(٨٩) ٢ /٩٦ ـ ٩٧ .
(٩٠) مشكل اعراب القرآن ١ /٢٤١ .
(٩١) ٤ /٢٨ .
(٩٢) اضاءة الراموس ١ /٦٢٤
(٩٣) تاج العروس تحقيق مصطفى جواد ١ /٢٢٦
(٩٤) ابو عثمان المازني د . رشيد العبيدي ١٣٢ .
(٩٥) نظرات فاحصة ١٣٤ .
(٩٦) العدد ٣٣ /١١٩
(٩٧) سورة المائدة ١٠١ .

مراجع البحث

١ ـ ابو عثمان المازني مذاهبه في الصرف والنحو د . رشيد عبد الرحمن العبيدي مطبعة سلمان الاعظمي بغداد ١٩٦٩ م .
٢ ـ إضاءة الراموس وافاضة الناموس على اضاءة القاموس ـ لمحمد بن الطيب الفاسي (ت ١١٧٠ هـ) تحقيق عبد الجبار داود عبد الله سلمان ـ رسالة دكتوراه على الآلة الكاتبة ـ جامعة الازهر ـ كلية اللغة العربية .
٣ ـ الامالي الشجرية لأبي السعادات هبة الله بن علي بن حمزة العلوي الحسيني المعروف بابن الشجري (ت٥٤٢ هـ) نسخة مصورة بالأوفست . دار المعرفة ، بيروت ـ لبنان (د . ت)
٤ ـ الانصاف في مسائل الخلاف لأبي البركات كمال الدين الانباري (ت٥٧٧ هـ) مطبعة السعادة ط٤ مصر ١٩٦١ م .
٥ ـ البحر المحيط لأبي حيان النحوي (ت ٧٤٥ هـ) نسخة مصورة بالاوفست السعودية ـ الرياض (د . ت) .
٦ ـ تاج العروس من جواهر القاموس ـ محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) م ١ تحقيق عبد الستار احمد فراج ـ الكويت ١٩٦٥ م .
٧ ـ التبصرة والتذكرة لأبي محمد عبد الله بن علي ابن اسحاق الصيمري من نحاة القرن الرابع تحقيق د . فتحي أحمد مصطفى علي الدين ـ دار الفكر دمشق ، ط ١ ١٩٨٢ م .
٨ ـ التكملة لأبي علي النحوي (ت٦٧٧ هـ) تحقيق د . كاظم بحر المرجان مطبعة جامعة الموصل ١٩٨١ م.
٩ ـ التقريب في علم الغريب لابن خطيب الدهشة (ت٨٤٣ هـ) (رسالة دكتوراة من جامعة بغداد) تحقيق محمد جاسم معروف الهيتي على الآلة الكاتبة ١٩٨٦ م .
١٠ ـ شرح الشافية لرضي الدين الاستر آبادي (ت٦٨٨ هـ) تحقيق محمد نور الحسن وجماعة من الاساتذة ـ مطبعة حجازي ـ القاهرة (١٣٥٦ هـ)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١١ ـ شرح الشافية لابي الحسن الجاربردي (ت٧٤٦ هـ) مجموعة الشافية ـ المطبعة العامرة ١٣١٠ هـ .

١٢ ـ الصحاح ـ لاسماعيل بن حماد الجوهري (ت في حدود ٤٠٠ هـ) تحقيق أحمد عبد الغفار عطار مطابع دار الكتاب العربي ـ مصر ١٩٥٦ م .

١٣ ـ العباب الزاخر واللباب الفاخر للحسن بن محمد الصغاني (ت ٦٥٠ هـ) تحقيق محمد حسن آل ياسين مطبعة المعارف بغداد ١٩٧٧ م .

١٤ ـ العين للخليل بن احمد الفراهيدي ت ١٧٥ هـ ج٦ تحقيق د . ابراهيم السامرائي ود . مهدي المخزومي ـ منشورات وزارة الثقافة والاعلام ١٩٨٢ م .

١٥ ـ القاموس المحيط ـ مجد الدين الفيروز آبادي (ت٨١٧ هـ) المطبعة المصرية ط٣ ١٩٣٥ م .

١٦ ـ كتاب سيبويه ـ ابو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠ هـ) تحقيق عبد السلام هارون دار القلم ١٩٦٦ ـ ١٩٧٧ م .

١٧ ـ لسان العرب لابن منظور (ت٧١١ هـ) بيروت ١٩٨٢ .

١٨ ـ المجمل لاحمد بن فارس ت٣٩٥ هـ تحقيق د . زهير عبد المحسن سلطان بيروت ١٩٨٤ م .

١٩ ـ المخصص لعلي بن اسماعيل (بن سيده) (ت٤٥٨ هـ) طبعة بولاق .

٢٠ ـ مشكل اعراب القرآن لابي محمد مكي بن أبي طالب القيسي (٤٣٧ هـ) تحقيق د . حاتم صالح الضامن بيروت ١٩٨٢ م .

٢١ ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ـ لاحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (ت٧٧٠ هـ) تحقيق د . (عبد العظيم الشناوي ـ دار المعارف ١٩٧٧ م

٢٢ ـ معاني القرآن ليحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧ هـ)

٢٣ ـ المغني في تصريف الافعال ـ محمد عبد الخالق عضيمة ط٢ مطبعة العهد الجديد مصر ١٩٥٥ م .

٢٤ ـ المقتضب لابي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥ هـ) تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة مصر ١٩٦٣ م .

٢٥ ـ الممتع في التصريف لابن عصفور الاشبيلي (ت ٦٦٩ هـ) تحقيق فخر الدين قباوة ـ دار القلم العربي حلب ط ٢ ١٩٧٣ م .

٢٦ ـ المنصف لابي الفتح عثمان بن جني النحوي (٣٩٢ هـ) تحقيق ابراهيم مصطفى وعبد الله امين ـ مصر ١٩٥٤ م .

٢٧ ـ نظرات فاحصة في قواعد رسم الكتابة العربية وضوابط اللغة وطريقة تدوين تاريخ الادب العربي ـ محمد بهجة الاثري ـ دار الشؤون الثقافية ـ وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد ١٩٩١ م .

اصدارات
دار الشؤون الثقافية العامة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الغزل القبلي
في ابعاده الموضوعية والفنية
في عصر ما قبل الاسلام

د . احمد اسماعيل النعيمي

توطئة :

لا تخفى على دارسي تاريخ الأدب العربي حقيقة ان الغزل ، يشغل حيزاً واسعاً مما ابدعته قرائح الشعراء ، حتى ان ديوان اي واحد منهم لا يكاد يخلو من قصيدة او اكثر قيلت في الغزل او فيما له علاقة به بوجه من الوجوه فحسبنا ان نعرف انه علق فنون الشعر بقلبهم ، وأقربها الى عواطفهم الانسانية ، واحاسيسهم المرهفة .

وهذا ما يفسر لنا دواعي كون الغزل قاسماً مشتركاً ـ ان جاز التعبير ـ في محاولات تقسيم القدماء للشعر الى موضوعات بعينها على نحو ما نطالعه في تقسيمات ابي تمام في « حماسته » وقدامة بن جعفر في « نقد الشعر » وابي هلال العسكري في « الصناعتين » وابن رشيق القيرواني في « العمدة » ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ .

حتى كان من الطبيعي ان نطالع وافراً من الآراء المتناثرة في المظان الادبية وطائفة من المصنفات والدراسات والابحاث التي افردت للغزل او الحب مستقصية جذوره ونشاته الأولى ، ومراحل تطوره من عصر ادبي الى آخر وموضحة دلالة مصطلحاته ، وتحديد انواعه ، فضلاً عن تعليل ظاهرة اقترانه بالمقدمات الطللية ضمن المنهج الفني التقليدي الموروث الذائع الصيت .[١]

واذ نطمئن الى هذه المعطيات ، فقد تبدو مهمة من يروم تناول الغزل او الكتابة في احد محاوره عقب ما هو متحقق من دراسات جديرة بالاهتمام والتثمين صعبة للغاية ، او ضرباً من مغامرة حرية أن تنتهي الى اخفاق ! بيد اننا لم نعدم ـ على الرغم من ذلك ـ لوناً غزلياً (جاهلياً) قد تصح تسميته بـ « القبلي » بعد ان تجاوزه القدماء ، ووقف عنده المعاصرون وقفات عابرة من جهة وتباينت آراؤهم في مسميات من جهة ثانية ، وتوهموا في تعيين العصر الادبي الذي تكامل فيه (موضوعاً وفناً) من جهة ثالثة وذلك ما سوغ اختياره عنواناً لبحثنا ومنطلقاً لدراستنا ، أملاً بتقرير نتائج تحسب لها .

وقد يستحسن في هذا المقام ان نبتدىء بوقفة عجلى عند مفهوم الغزل بعامة ، سبيلاً الى الكشف عن دلالة مصطلح « الغزل القبلي » بخاصة . ليستقيم طرفا المعادلة ، ويفهم احدهما بوساطة الآخر قبل ان ندلف الى بقية المحاور ذات الصلة الوثيقة بما سيتمخض عنه المفهوم لهذا اللون من الغزل .

مصطلحات الغزل ودلالاتها :

تشير حصيلة استقراء جهود القدماء في تحديد مفهوم الغزل الى ان هنالك مصطلحين آخرين يترددان معه في الاستعمال الادبي هما (النسيب والتشبيب) ومما يستفاد من خلاصة آراء العلماء في دلالات هذه المصطلحات الثلاثة انها متباينة في فروق لا تكاد تذكر عند طائفة منهم ،[٢] ومترادفة عند طائفة اخرى[٣] مما يرجح انه لا فائدة ترجى من التفريق بينها والاولى عدها من المترادف للتداخل لقائم في مدلولاتها المتضمنة « ذكر الشاعر المرأة بالحسن ، والاخبار عن تصرف هواها به ، والاستشهاد بمودتها ، والصبوة اليها ، والتخلق بما يوافقها ، واللهو معها ، والتشوق بمعاهدها بالرياح الهابة والبروق اللامعة ... » ،[٤] وان كان مصطلح الغزل يبدو (جامعاً مانعاً) لها من حيث استغراقه لمعنى شمولي هو كونه استجابة لعاطفة انسانية طبيعية هي عاطفة الحب ،[٥] ليغدو من هذا لمفهوم اكثر شيوعاً في التداول وبروزه ظاهرة عامة في شعرنا العربي ، خلاف الغزل القبلي الذي يمكن عده استثناء منها بعد ان وضعنا نصب اعيننا انه فن مجرد من النفسية الصادقة للشاعر ، ومن عواطفه الحقيقية ، ونمط شعري وليد بواعث موضوعية صرف يقوم بقيامها وينتهي بانتهائها ، وتبدو البواعث التي حدت بالشاعر الى نظمه ، ومسوغات تسميته بالقبلي كامنة في رصد البيئة الطبيعية والاجتماعية ، من خلال لمحات ذات مدلول ، من منطلق ان النتاج الادبي غالباً ما يكون متاثراً بها او انعكاساً لها .

وقد اغنتنا في هذا الشان المدونات التاريخية والادبية المفصحة عن تقرير حقيقة بروز (القبيلة) في الحياة البدوية بخاصة وحدة سياسية واجتماعية واقتصادية مستقلة ، حتى لم ير العربي ـ قبل الاسلام ـ في الاغلب الاعم افقاً اوسع منها ، وانتهاء بديلاً عنها ولعوامل شتى اسهمت في بلورة نظامها على اساس من رابطة النسب او الدم ، بوصفها الوسيلة شبه الوحيدة التي تجمع ابناء القبيلة ، وتحتم عليهم الخضوع لاعرافها وتقاليدها والوفاء باحتياجاتها والالتزام بنصرتها .[٦]

وقد عبر الشاعر عن هذه القيم والمفاهيم افضل تعبير ، لا لكونه الشاعر العام الذي ينطق باسم قبيلته ، ويسجل مآثرها ، ويذيع مفاخرها ، فحسب ، بل لشعوره انه عنصر ذائب في كيانها الاجتماعي ـ شأن اي فرد ـ جعله يرى ان من حق قبيلته عليه ان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يقف عليها موهبته الشعرية ، ولاسيما في مناضلة خصومها !
وما دام الامر قائماً على هذا النمط من الذوبان في وحدة النسب ، فحسبنا ان ندرك ان الجهد الشعري ظل يمثل الحصيلة الاساسية لجملة استجابات الشاعر لواقع انتمائي قبلي ، حتى اصبح هذا الواقع مدار أغراض الشعر وموضوعاته بوجه عام ، وبمستويات مختلفة من التعبير والدلالة بعضها مباشر وبعضها غير مباشر.(٧)

ويعد الغزل القبلي واحداً من تلك الفنون الشعرية ، المنبثقة عن بواعث قبلية بصيغة (غير مباشرة) وذلك لانه يقوم - في الاساس - على ادعاء الشاعر بأن الحب قد عقد آصرة بينه وبين فتاة شلت القطيعة بين قبيلتيهما وسيلة الى اغاظة خصومه ، واثارة مشاعرهم وبث الفرقة بينهم ، لتحقيق الغلبة عليهم في ساحات المنازلة ، وذلك ما يعد احدى وسائل (الحرب النفسية) السابقة للحرب العادية او المتداخلة معها ، بسبب ما تتضمنه صور الغزل من معاني الشوق والحنين الى المرأة ، وما يلقى منها من وصال وضجر ، ووعد وخلاف ، ودل وغنج ، وسعادة وشقاء ، كان العرف يقتضي ان يحظى ابناء عمومتها بذلك الوجد والهيام ، فهم أولى من غيرهم في هذا الميدان الرحب الجميل . وتلك هي الدلالات الاكثر تشعباً واثارة المستنبطة من هذا اللون من الغزل الذي غدت فيه المرأة عنصراً مشاركاً وفاعلاً في صنع الحدث ، او مؤثراً في مجراه التطبيقي ، على الرغم من خلوه من اي افحاش ، حتى يمكن القول انه في مظهره اقرب الى ان يكون من الغزل العذري ، وهو بهذه الصوة - كما يصفه طه حسين - « شديد الخطر لانه يلبس عليك امر الشاعر ويجعل حكمك على عاطفته عسيراً جداً فانت لا تكاد تتبين اجاد هو في غزله ام لاعب ، أمادح هو صاحبته لانه يحبها ، ام لانه يكره أهلها » .(٨)

الا ان تغزل بعض الشعراء بامرأة بينه وبين قومها قتال - كما تفيدنا الحقائق التاريخية - وقدره ان يؤدي مهمته كاملة في المواجهات والايام والوقائع ، وتبادل بعضهم الاخر هذا الغزل في مناقصات (او مبارزات شعرية) سناتي على ذكرها لاحقاً ... يقيم القناعة لدينا بان الشعراء كانوا ادعياء في عواطفهم لا صادقين .

ومن هنا يكون لنا ان نتامل ابعاد تسميته (بالقبلي) التي يمكن عدها اقرب الى الصواب او الموضوعية من تلك المسميات التي اطلقها بعض الباحثين على هذا اللون من الغزل مما سنفصل فيه القول في المحور الآتي :

بدايات الغزل القبلي ومسمياته :

لقد سبق القول ان النقاد القدماء لم يولوا هذا اللون من الغزل اهتماماً جديراً بالذكر ، عدا تلك الاشارات اليتيمة المتناثرة في بعض المظان الادبية التي يستفاد منها حقيقة احتضان عصر ما قبل الاسلام وما تلاه من عصور اسلامية للون غزلي ذي مضامين فكرية ظاهرها يتفق مع عاطفة الحب الحقيقية ، وباطنها مشدود الى نوازع انسانية يحتمها الظرف الآني الباعث على القول متمثلاً بتلك الخصومات القبلية والسياسية ... بعد ان اتخذه الشعراء وسيلتهم في هذا الشأن .(٩)

ويبدو ان بعض النقاد المحدثين قد وضع نصب عينيه تلك الاشارات واتخذها منطلقاً في بلورة مصطلح لذلك النوع من الغزل على وفق رؤيته الخاصة .

ولعل (طه حسين) كان اول باحث معاصر تصدى لهذا النمط الشعري وحدد مصطلحه من خلال تسميته اياه بـ « الغزل الهجائي » .

وقد وصفه بانه « لون من الالوان الفنية الجديدة التي استحدثها الشعراء المسلمون » وعد « عبيد الله بن قيس الرقيات مبتدعه » اذ كان يراه « يتغزل لا للهو ولا لوصف حب صادق ، بل ليعبث بخصومه السياسيين ... (حتى) بلغ من هذا الغزل الهجائي ما لم يبلغه احد من شعراء العصر الأموي » .(١٠) وقد خيل لباحثين معاصرين انهما تمكنا من « طه حسين » عندما « ظنا » انه وهم بعده من التغزل بنساء الخصوم امر ابتدعه الشعراء المسلمون بعد اطلاعهما على نصوص جاهلية تدحض ما افاد به !(١١)

ونقول خيل اليهما ، لان مثل هذا الأمر لا نتوقع ان يتوهم باحث واسع الاطلاع في مجال الأدب العربي ، كالدكتور طه حسين الملقب بعميده !

ونرى انه تغافل عمداً تلك النصوص الجاهلية ، لعلة بسيطة هي اننا لو عرفنا ان آراءه فيما سماه (بالغزل الهجائي) قد تضمنها كتابه « حديث الاربعاء » الذي فرغ منه سنة ١٩٢٥ ، لتبين لنا ان طه حسين كان وقتئذ متمسكاً بمنهج يقوم على الشك في الشعر الجاهلي ، يفصح عنه رأيه القائل : « ان الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء ، وانما هي منحولة بعد ظهور الاسلام » المودع في كتابيه « في الشعر الجاهلي ١٩٢٦ » و « في الأدب الجاهلي ١٩٢٧ » .(١٢)

ذلك ما يدخلنا في دراسة (قضية الانتحال) التي اشهر من ان تعاد او تعرف ، فحسبنا ان نقر بمصداقية رأي من يؤكد جاهلية هذا اللون من الغزل ، ونتفرغ لمناقشة تسميته بـ « الهجائي » التي نراها لا تستقيم مع دلالة الهجاء في مفهومه العام (نقيض المدح) ، ومن يطالع من آراء طه حسين في غزل (ابن الرقيات) يلحظ انه يقر له بخصلة لا يجدها عند غيره وهي « انه كان يخاصم الرجال دون النساء ، وكان يتخذ النساء وسيلة الى حرب الرجال ، فكان يحرص الحرص كله على الا يؤذيهن او يذيع بينهن الفاحشة كذباً وزوراً ... » .(١٣)

معنى ذلك ان غزله كان خالياً من اي مثالب يتكيء عليها فن الهجاء في بعده الفكري ، وفي هذه الحالة تبدو صفة (الهجائي) مخالفة للموصوف (الغزل) في الابعاد الفكرية ، واذا كان من باب

الحمل على المعنى ، فحسبه ان يسميه بالغزل السياسي ، لأن طه حسين نفسه يقر بأن ابن الرقيات « اتخذ الغزل ليعبث بخصومه السياسيين » .(١٤)

ومثل هذه التسمية تستقيم مع واقع الحياة السياسية في العصر الأموي الذي كان يتحتم ان يكون ولاء الشاعر وقبيلته للدولة في المقام الأول ، حتى ان تنافس الأحزاب السياسية في ذلك العصر وليد ذلك الولاء الذي تنشده الدولة التي حلت محل القبيلة ، فضلاً عن تجانس مثل هذه التسمية مع بواعث نظمه .

ويبدو ان هذه المعطيات هي التي حدت بأحد الباحثين المعاصرين ان ينعت هذا الغزل بـ(السياسي) وان يفرد له دراسة ، يؤخذ عليها ان مؤلفها وقع في مغالطة تاريخية ، عندما حذا حذو طه حسين ورأى ان هذا الغزل « لوناً من الالوان الفنية الجديدة التي ابتدعها الشعراء المسلمون في العصر الأموي » ،(١٥) دون ان يشكل اختلافه معه بشأن المبدع الأول شيئاً ذا بال وذلك ما أشار اليه في قوله « والذي أراه هنا ان ابن قيس الرقيات لم يكن هو أول من ابتدع هذه الطريقة في الغزل ـ كما ذهب الى ذلك طه حسين ... فقد سبقه في ذلك (ابو دهبل الجمحي) و (عبد الرحمن بن حسان الانصاري) .(١٦)

اذ لو اكتفى بالبحث عن ملامح هذا الغزل في العصر الأموي وتحديد اول مبتدعه ، لكان قد سجل لنفسه مأثرة ، اما انه يتجاوز حقيقة وجود هذا الغزل في العصر الجاهلي فتلك وايمن الله ـ قاصمة الظهر ، مما يتوجب في الباحث الفاضل ان يعيد النظر في منطلقاته ، ويتثبت في اطلاق الأحكام قبل تمحيصها ، فهو لم يكن واقعاً تحت تأثير منطلقات طه حسين فحسب ، بل تعداه الى غيره ممن عزا ابتداع هذا اللون من الغزل الى شاعر اسلامي بعينه متخذاً اياه مصدراً يتكىء عليه ، من ذلك اقتباسه رأي محقق ديوان (عبد الرحمن بن حسان الانصاري) القائل : ان ابن حسان حين اراد ان يهاجم معاوية ابتكر طريقة سار عليها كثير من شعراء الحجاز وهي ان يهاجمه عن طريق الغزل بابنته)(١٧) ليغدو هذا شاهداً على كونه أسير أحكام مقررة سلفاً دون ان يكلف نفسه عناء استقراء دواوين شعراء جاهليين قبل ان يقطع الشك باليقين فيما انتهى إليه من نتائج ، كما صنع غيره اذ اعتمدوا الاستقراء حجة في تفنيد ما ذهب اليه (طه حسين) ، وأشاروا الى اسماء شعراء جاهليين ، تناولوا هذا الغزل في بعض القصائد ، قبل ان يخلص بعضهم الى القول ان « العرب الاقدمين لا يكادون يشببون بامرأة الا ان تكون من قبيلة (لم تكن على وفاق مع الشاعر او قومه) .(١٨) اطلق بعضهم الآخر على هذا الغزل تسمية (الكيدي) ، ناسباً اياه الى العصر الجاهلي ، بعد ان ايقن (ان قيس الرقيات) لم يكن مبتدعه ولم يوشك ان يكون مبتدعه فقد سبقه ـ كما يرى ـ في الجاهلية قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت » .(١٩) ومما يؤخذ على هذا الرأي انه اعتمد رواية (ابن الاثير) بشأن عده هذين الشاعرين دليلاً على جاهلية هذا الغزل ، ونسي صاحبه ان المتقدمين عليهما كان لهم اسهامة فيه ايضاً ، فيما سنفصل فيه القول لاحقاً .

اما دلالة تسميته بـ « الكيدي » فهي كامنة فيما كان يؤديه هذا النمط الشعري من اغراض لا تخرج اساساً عن « الكيد والاغاظة وتجريح الخصم »(٢٠) وربما تكون اقرب الى الموضوعية من المسميات الآخر ، لكن ربطها بالبواعث على نظمه قد تكون أجدى ، وذلك ما جعلناه متمسكين بكونه غزلياً قبلياً لا هجائياً او سياسياً او كيدياً لانها مسميات لا تاخذ في الحسبان الباعث الرئيس على نظمه الذي يعد اول مراحل تشكل النص الشعري ، الذي على الناقد استيعابه ليرى اثره في اختيار البناء الفني للقصيدة ، وتحليل عناصره ، وفهم العلاقة التكاملية بين عباراته وصوره وموسيقاه وتركيباته اللغوية وليقر من بعد بوحدة القصيدة الموضوعية بوصفها انعكاساً للتجربة الباعثة على القول ، لا لكونها اي الوحدة قائمة في اطار فني فحسب او بمعزل عنها .

ولا سيما ان هناك نمطاً شعرياً (قصائد او مقطعات او ابياتاً) وليد بواعث موضوعية صرف يقوم بقيامها وينتهي بانتهائها ، كالغزل القبلي الذي نحن بشأنه . ويبقى بعد ذلك كله استقراء النصوص الشعرية الموثقة وتحليلها وتقويمها مع الافادة من الحقائق التاريخية كفيلاً بتشخيص المدلولات وتثبيت الحقائق وملمة طبيعة التفاصيل المطروحة في هذا النمط الشعري المتفرد في ابعاده الفكرية ، وأن أودع في القالب البناء الفني التقليدي الموروث الذي يعمد الشاعر الى صياغته ، ويستمر فيه طاقة التعبير الابداعي لايصال القناعة الى وعي المتلقي واستثارة مشاعره ، وعلى هذا الاساس ، ندع الصيغة الادائية الفنية تكشف عما نرغب في تكشفه .

الغزل القبلي وصيغته الادائية :

يشير ما وصل الينا من قصائد عصر ما قبل الاسلام الى ان تغزل الشاعر بالمرأة ظل يتمخض عن ضربين من الاداء الفني في بنية القصيدة المكتملة ، أحدهما : ذلك الذي نقله الينا (ابن قتيبة) وخلاصته ابتداء الشاعر بذكر الديار والزمن والاثار المقرون بالنسيب ، ثم وصف الرحلة وما ناله من المكاره فيها ، حتى يخلص الى المديح ....(٢١) سواء أكانت تجربة الشاعر مع المرأة حقيقية أم مجازية ، او كانت ـ اي المرأة ـ غاية أو وسيلة وفي كلتا الحالتين ترد المرأة عنصراً اساسياً من عناصر تشكيل وحدة الموضوع في القصيدة : بوعي ياخذ في الحسبان استيعاب البعد الرمزي للوحتها .

أما الضرب الاخر : فهو المتمثل باتجاه النموذج الشعري الى اختيار المرأة المتغزل بها في لوحات افتتاح (غير طللية)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

او داخلية او موضوعية ، تستثمر فيها صورتها (بصيغة مباشرة) لتحقيق زخم تأثيري يستدر تعاطف المتلقي وقناعته بالموقف الموضوعي » .[٢٢]

وقد خلص استقراؤنا لبعض الدواوين والمختارات الشعرية الموثقة الى ان لوحة الغزل ذات البواعث القبلية التي نحن بشأنها قد توزعت على كلا الضربين بتعادلية فنية تمليها قدرة الشاعر وتجربته الابداعية . متجاوزين بنية القصيدة ذات الموضوع الشعري الواحد ، بسبب ان الشاعر « لا يجعل لكلامه (فيها) بسطاً من النسيب ، بل يهجم على ما يريده مكافحة ، ويتناوله مصافحة »[٢٣] كما يقول ابن رشيق القيرواني ... وحسبنا ان نبتدىء بمن نهج الشعراء الجاهليين نهجه في « استيقاف الصحب ، والبكاء على الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ... وفصل بين النسيب والمعنى » ،[٢٤] ونعني به (أمرأ القيس) ولعله سبق باشعار في هذه الموضوعات ولكنه هو من اعطاها النسق النهائي .[٢٥]

فاذا ما انتهى الامر الى القناعة بريادته في الوقفة الطللية ـ الغزلية ـ ترجح لدينا ان نعزو اليه ابتداع ذلك اللون من الغزل المسمى بـ (القبلي) الذي يمثل بهذا الاتجاه علاقة خصوص من عموم ، ولاسيما ان ديوانه يضم (رائيه) تنتمي الى ضرب من الافتتاح التقليدي الذي استثمرت فيه صورة المرأة (غاية) لتحقيق زخم تأثيري يستدر حفيظة المتلقي (الخصم) بوجه خاص ، الى جانب كونها (وسيلة) وذلك في تطويع ابعادها الرمزية لاداء مضمون المحور الموضوعي في قصيدته الوثيقة بلوحتها .

وبوسعنا ان نتابع هذه الدلالات ابتداء من لوحة الافتتاح التي نجتزىء منها هذه الابيات :

سَمَا لَكَ شوقٌ بعدما كانَ أقصَرا
وحلّتْ سُليمى بطنَ قَوٍ فَعَرْعَرا
كنانيةٌ بانتْ وفي الصدرِ وِدُّها
مجاورةٌ غسّانَ والحيَّ يَعمَرا
بعينيَّ ظعنُ الحيِّ لما تحمّلوا
لدى جانبِ الأفلاجِ من جَنبِ جَمرا[٢٦]

واضح من هذا النص ان الشاعر كان يكابد شوقاً ممزوجاً بالحنين الى الحبيبة سليمى (الكنانية) ، بعد ان نأت ، وحلت في موضعين متباعدين حتى زاد ذلك من شدة الشوق ، وتضاعف الحزن ، « بعد ما كان أقصرا » عنه وكفّ بقرب من يحب دنوه منه ، وهي على الرغم من انقطاعها ومجاورتها حياً غير حيه (غسان ويعمرا) ، الا أنّ حبها باق في القلب ولا يزول ... متذكراً يوم رحيلها عن المرتبع الذي جمعه واياها ، وكان قد تابعه بعينيه (حزناً وألماً) وهو يتفرس في هوادجها الماضية الى مربعها الجديد ، مسترسلاً بتشبيهها بما يُضفي عليها مسحة الجمال والفتنة والاغراء والدلال .

ويقيناً ان هذا الشرح المعجمي (الضيق الأفق) لا ينبئنا بشيء ذي بال ولا يفصح عن دلالة الغزل القبلي الذي نحن بشأنه ، لكننا عندما نستعين بالحقائق التاريخية ، ونخضع هذه الوقفة الطللية للشرح والتحليل بحثاً عما وراء المعنى الظاهري مقصوداً ايضاً ، فستقرأ لنا دلالات النص بأبعاده الرمزية بوصفها روح الشعر وقيمته الحقيقية ...

مبتدئين بالقول ان امرأ القيس لم يختر امرأة من بني كنانة ليتغزل بها ، او يصرح بحبه وشوقه لها اعتباطاً او جزافاً ، اذا عرفنا ـ كما تفيدنا الوقائع التاريخية ـ ان الكنانيين كانوا قد اجاروا خصومه (بني اسد) الذين قتلوا اباه حجراً ، ولم يكتف بهذا بل عمد الى (وضع السلاح فيهم وقال : يا لثارات الملك ... قبل ان تخرج اليه عجوز من بني كنانة ، وتقول له : « أبيت اللعن لسنا لك بثار ، نحن من كنانة فدونك ثارك فاطلبهم فان القوم قد ساروا بالامس » .[٢٧]

وبذلك يبدو تغزلهم بـ « امرأتهم » وسيلة لاغاظتهم وتجريحهم عقاباً على فعلتهم تلك ، لتغدو (سليمى) رمزاً لحب لم يدم ، لا بين الشاعر وهذه المرأة انما بينه وبين الكنانيين بمعنى ادق .

فابتعادها او ابتعادهم ، وحلولها او حلولهم في موضعين بعيدين بدلاليته المجازية والحقيقية على السواء ، ذهب به كل مذهب ، أما قوله « كنانية بانت » فهي اشارة شبه واضحة الى اختيار الكنانيين القطيعة برمز « أمرأتهم » بدل الود ، وايثارهم البعد بدل القرب .

وقد شهدت عيناه « ظعن الحي لما تحملوا » في افصاح عن رحيل القوم بأجمعهم لا من مكان الى آخر ، بل من صديق الى خصم ، وذلك كان اشد حزناً وايلاماً على نفسه ، وقد ظل متشبثاً بأمل عودتهم الى افياء ربوعه ، وهو يتابع سير الهوادج ، ويضفي عليها كل مظاهر الجمال التي تريح القلب ، وتشعر النفس بالطمانينة والامل حتى ادرك حقيقة ان ما وقع لا رجعة فيه ، فما كان عليه الا ان يقول :

أَلَسماءُ أمسى ودُّها قد تغيّرا
سنبدِلُ إن ابدلتَ بالودّ آخرا[٢٨]

مؤثراً عليها تذكره لاهله ، واشتياقه اليهم ، كما في قوله :

تذكرتُ الصالحين وقد أتتْ
على خَمَلَى خُوضُ الرِّكابِ وأوجَرا[٢٩]

فذلك هو الود المستبدل بودها ، لا حب امرأة جديد انما رحلة الى قيصر القسطنطينية على ناقة نشيطة تجسر على الهول والصبر

اذا قامت الشمس في وسط السماء وانتصف النهار ، تمل النفس وتبعد الهم وذلك هو مفتتح لوحة رحلة الشاعر أثر رحلة (ظعائن الحيّ) كما في قوله :

فـدغ ذا وسَـلِ الـهمّ عنـك بجَسـرةٍ
ذمـولٍ اذا صـام النـهـار وهَجُـرا[٣٠]

وأبرز ما يفيدنا من هذه اللوحة الفنية انها تجيء لتبديد مشاعر الحزن والخيبة التي ولدها في نفسه احجام الكنانيين عن نصرته ، فما كان عليه الا ان يمضي على ناقة ذات قوة ونشاط في سريها وفعلها ، حين يقول :

ولـو شاءَ كـان الغـزو من أرض حِمـيرِ
ولكنـه عَمْـدا الى الـروم أنفَـرَا[٣١]

ملتفتاً الى ابراز هواجيس (خليله) الذي كان يرافقه في هذه الرحلة وشعوره بالحزن من ان لا ينالا مأربهما فيهما ، قائلًا :

بكى صـاحبي لمـا رأى الـدربَ دُونَـهُ
وأيقـن انـا لاحقـان بقيْصَرا
فقلـتُ لـه لا تبـكِ عينـك انمـا
نحـاوِل ملكـاً او نمـوت فنُعـذَرا
وانـي زعيـم إنْ رجـعـتُ مُملكـا
بسـيرٍ تـرى منـه الفُـرانـقَ أزوَرا[٣٢]

ثم يسترسل في وصف خيل البريد المقصوقة الاذناب ، المعودة على سير الليل في طرق لو احب اذا سلكتها الابل انكرتها وخفت الى أهلها لتتاجج في نفسه مشاعر الغربة والحنين الى جانب ما يكابده من غدر الناس وتلونهم في ايمانه الى (بني كنانة) وغيرهم ، اذ يقول :

كـذلـك جَـدّى مـا أُصاحبُ صـاحبـاً
مـن النـاس إلا خـانني وتَـغـيّرا[٣٣]

ثم يختم قصيدته بالفخر بنفسه وقومه ، وبالاشادة بوقائعهم وأيامهم ، حتى يكون معيناً له في سعيه لمجد مؤثّلٍ مات دونه .

وبذلك تتضح ابعاد الوحدة الموضوعية في القصيدة ودلالة الغزل الذي افتتحت به الذي كان بدوافع قبلية متمثلة بالوفاء لـ (كندة) التي خان عهدها الكنانيون بتحالفهم مع الاسديين مما اوجب عليه تجريحهم واغاظتهم بامرأتهم .

ويبدو ان مفارقة الحبيبة ، ورحيلها وحلولها في ديار نائية ، افضل صيغة اتخذها الشعراء للتعبير عن تغير العلائق ، وانفصام عرى المواثيق والعهود اذ لم يكن من السهل المحتمل ان يحنث حليف بعهد ، او ينقض حام ذمة عقدها لجاره ، حتى كان ذلك مدعاة الى أن يرفعها للغادر لواء بسوق (عكاظ) ليشهروا به ، او يتخذ بعض الشعراء هذا النوع من الغزل لغرض النيل من ذلك الحليف الغادر والانتقاص منه ، والتشهير به .

ولعل تغزل الحارث بن حلزة اليشكري بـ « اسماء » في مطلع معلقته المشهورة اقدر نص على رد فعل الشاعر ازاء قبيلة (الحبيبة) التي رحلت الى (الخلصاء) في ديار بني تميم ، ولم يكن بين تميم وبكر الا السيف[٣٤] وحسبنا ان نعرف ان الحارث انشد قصيدته (المعلقة) في حضرة الملك (عمرو بن هند) رداً على عمرو بن كلثوم التغلبي وغضباً لقومه ، حتى عدّت فضل مثال للشعر القبلي في العصر الجاهلي ، ومما ضمه المطلع هذه الابيات :

آذنتنـا بينـهـا أسمـاءُ
رُبّ ثـاوٍ يُمـلُّ منـه الثَـواءُ
بـعـدَ عـهـدٍ لنـا ببـرقـةِ شَمّـا
ءَ فـادنـى ديـارهـا الخلصـاء
....
لا أرى مَـنْ عَهِـدتَ فيـهـا فـابكى الـ
يـومَ دَلْـهـاً ومـا يُحيُـز البُكـاء[٣٥]

فواضح ان الشاعر متأس عندما اعلمته اسماء بمفارقتها اياه ، متمنياً ان تطول اقامتها (ببرقة شماء) التي اتاحت له اللقاء بها ، والتعرف عليها والتمتع بوقته معها ، فهي ممن لا يمل اقامته وان طالت ، حتى جعله رحيلها الى الخلصاء وما جاورها ذاهب العقل باكياً بعد ان لم ير في هذه المواضع من عهده فيها ... وذلك هو المعنى المكشوف للنص الذي يمكن عده من جملة الرديء بيد اننا لو بحثنا عما وراءه من معان مختبئة لرجحنا ان قول الشاعر (بعد عهد لنا) يحمل في دلالاته المجازية الميثاق واليمين التي تستوثق بها من يعاهدك ... وذلك ما يكون بين طرف وآخر ، ومن هنا تبدو مفارقة اسماء رمزاً لعهد لم يدم بين بكر وقومها .

ولا أدل على ذلك من تفسير يتضمن (الجحود) الذي هو (نقيض الاقرار كالانكار)[٣٦] وذلك ينطبق على كل من ينقض ميثاقا ، لا من يفارق حبيبا ، مثل صنيع (أهل أسماء) الذين نسوا إعزازهم للحليف وحمايتهم له ، شأنهم في ذلك شان التغلبيين الذين اخلوا بالعهد وتقديم الكفلاء فيه ، وهو ما يمثل شأن التغلبيين الذين اخلوا بالعهد وتقديم الكفلاء فيه ، وهو ما يمثل الباعث الرئيس على نظم المعلقة ، كما في قول الحارث :

واذكـرُوا حِلـفَ ذي المجـاز ومـا تقـ
ـدّمَ فيـه الـعُـهـودُ والكُفـلاءُ
حَـذرَ الخـونِ والتـعـدى وهـل ينـ
ـقض مـا في المـهـارقِ الاهـواءُ[٣٧]

وعندئذ تتوضح اواصر الشد لا بين المطلع ـ الغزلي ـ والمحور الموضوعي فحسب ، بل بين اللوحات الفنية الاخرى (لوحة الناقة ، لوحة الهجاء ، لوحة الفخر الجماعي ، لوحة المدح) ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فليس المهم بعد ذلك ان يكون الشاعر ماثلاً ازاء طلل حقيقي او تجربة حب بائس ، ولكن الامر يبقى معلقاً على انشداد الشعر الى اطر عدت كالارث الفني من جهة ، وانشداده الى تجارب الحياة اليومية من جهة اخرى ، في موازنة رائعة او قل في قصيدة محبوكة ذات نسق شعري واحد ياخذ موضوعاتها بعضها برقاب بعض من خلال صور لفظية ونقلات شعرية وتبلور الفكرة التي راودت الشاعر من المطلع حتى الخاتمة ، باسلوب يفهمه عالمه الادبي ، ويستحسنه جمهوره المتابع ، ويستذوقه الناقد الباحث عن الرموز المختبئة وراء الالفاظ او المكنونة في الصور الفنية .

ويطالعنا ضرب آخر من الاداء الفني في لوحات افتتاح (غير طللية) ولاسيما ذلك الذي يقوم على الاستطراد القصصي من خلال صيغة من المتابعة الفنية يشكل (الحوار) فيها عنصراً اشد وضوحاً وعناية بالتفاصيل ، « غالباً ما ياتي على شكل اجابة لموقف واقعي او متخيل لزوجة وحبيبة يشكل اللوم والعذل محوره ، فضلاً عن اعتماد الحوار على التجريد الذي يختلقه الشاعر حتى ينتهي الى عرض غنائي محض ليؤكد في نفسه صفة مشهورة » .[38] وذلك ما نتأمله في دالية (عامر بن الطفيل) كما في هذه الابيات :

لتسألُ أسماءُ وهي حَفيّةٌ — نصحاءها أطُرِدتُ أم لم أطرَدِ
قالوا لها: إنّا طَرَدنا خيلَهُ — قلحَ الكلابِ وكنتُ غيرَ مطرَّدِ
فلابغينكُمُ المَلا وعوارضاً — ولاوردِنَّ الخيلَ لابةَ ضرغدِ[39]

لقد استطاع الشاعر ان يلتمس الطريق السليم للكشف عن شجاعته وبطولته من خلال هذا التجريد ، ومحاورته للمرأة التي يظهرها بارة مشفقة عليه ، وهي تسأل نصحاءها عنه وتتعهد احواله ، ان كان قد هزم او لم يهزم ، بعد ان اخبرت هذه المرأة بالهزيمة التي مني بها ، مما زاد من اشفاقها عليه محاولاً ان يطمئنها بنفيه ما قيل لها بهذا الشان ، وتوعده من آثار حفيظة امرأته ، بحوار أسهم في تحديد ملامح التساؤل ، بعد ان اتخذ من (اسماء) محوراً محركاً لكل الاجوبة الجاهزة .

ان هذه الصياغة الفنية بابعادها الفكرية الظاهرة لا تنبئنا بشيء ذي بال لكننا عندما نعلم ان (اسماء) امرأة فزارية ، كما جاء في القصيدة نفسها :

يا اسمَ اختَ بني فزارةَ إنّني — غازٍ وإنّ المرءَ غيرُ مخلّدِ[40]

وتوجيه الشاعر سهام هجائه الى الفزاريين في بعض قصائده[41] اثر تلك الوقائع المشهورة بين (بني عامر) و (فزارة) ولاسيما (يوم رحرحان) ويوم « شعب جبلة » ،[42] نزداد قناعة ان هذه المرأة لم تكن الا وسيلة الشاعر في النيل من شان خصومه من حيث ان فرسانهم لم يكونوا جديرين بنسائهم ، فهن متطلعات الى غيرهم ، وذلك ما جعل عامر بن الطفيل يزداد فخراً بنفسه ويخاطبها قائلاً :

فيئي اليكِ فلا هوادةَ بيننا — بعدَ النوارسِ اذ ثووا بالمرصَدِ
وأنا ابنُ حربٍ لا أزال أشبُّها — سَعرا وأوقدُها اذا لم تُوقَدِ[43]

وما يزيد الامر رسوخاً بان الشاعر كان مدعياً او مختلقاً لتلك العلاقة الجامعة بينه وبين تلك المرأة الفزارية ، وان تغزله بها قد جاء بدوافع قبلية صرف ، هو توصل باحث معاصر الى تأكيد حقيقة ان هذا الحوار الذي يكتنف بعض القصائد « هو متخيل ، ولا وجود للنسوة اللائي تخيلهن الشعراء ... وان المرأة لم تكن الزوجة على الاطلاق ، لأن الشعراء ذكروا اكثر من اسم »[44] اذ من غير المعقول ان يقترنوا بمثل هذا العدد من الزوجات ، او يرتبطوا بصلات حب مع اكثر من امرأة .

وبذلك يمكننا ان نعد هذا التخيل من اكثر الصيغ الفنية ملاءمة لطبيعة الغزل القبلي ، ولا سيما اذا كانت المرأة في ذلك الحوار منتسبة الى قبيلة لم تكن على وفاق مع الشاعر او قومه على السواء .

وهذا لبيد بن ربيعة العامري يحذو حذو (عامر بن الطفيل) في تغزله بامرأة من (بني مرة عوف بن سعد بن ذبيان) الذين كانوا خصوم العامريين ايضاً في (يوم الرقشم)[45] ... في اطار (لوحة داخلية) تمنح مدلولاتها الواقعية بالتجربة الموضوعية المتمثلة في فخر الشاعر بقومه ، ومما قاله في الغزل :

بل ما تذكّرُ من نوارَ وقد نأتْ — وتقطّعتْ أسبابُها ورِمامُها
مُريّةٌ حلّتْ بفيدَ وجاورتْ — أهلَ الحجازِ فاينَ منكَ مَرامُها

....

فاقطعْ لُبانةَ من تعرّضَ وصلُهُ — ولَشرُّ واصلِ خلّةٍ صَرّامُها[46]

بعد وقوف عند اعتاب اطلالها الذي كان قد اثار في نفسه شوقاً الى حبيبة آثرت الرحيل والبعد ، مما يتعذر عليه طلبها والوصول اليها ، وذلك ما يتوجب عليه ان يضرب عن ذكر (نوار) ، فشر من وصل حبيباً من قطعها .

ويبدو ان الشاعر لم يجد افضل من هذه المرأة المرية رمزاً يتخذه في التعبير عن تقطع المودة بين قومه وبين مرة ... وما حديث

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشاعر عن العهد والقطيعة الا ترجيح لذلك ، من منطلق ان الحبيبة لا تبرم عهداً او اتفاقاً انما تمنح عاطفة حب فحسب ، لمن تراه جديراً بها ... ثم ان لوحة (الناقة) المشبهة ببقرة وحشية (مسبوعة) ، وما يكتنفها من صراع بينها وبين كلاب صيد مدربة ، التي اعقبت اللوحة الطللية ـ الغزلية ـ ... قد تشير في ابعادها الرمزية الى ذلك الصراع القائم على ارض الواقع بين قبيلة الشاعر والمريين الذين نقضوا العهد والاتفاق وقطعوا حبال المودة ... على اساس ان تشكيل هذه اللوحات الفنية لا يفسر بمعزل عن حياة الشاعر الشخصية وما يكتنفها من احداث وتحديات وتجارب ... ولعل وجود الكلاب بوصفها رمزاً (للاعداء) في صلب تلك التجربة ، وهزيمتها في ذلك الصراع ، ترجح لنا مثل هذه المنطلقات حتى ان قول الشاعر في خاتمة هذه اللوحة :

فبتلكَ اذا رقصَ اللوامع بالضحى
واجتابَ أوديةَ السراب إكامُها
أقضي اللُبانةَ لا أُفرِّطُ ريبةً
أو ان يلومَ بحاجة لوّامُها(47)

دليل مضاف على ان الشاعر لا يفرط في طلب بغيته ، ولا يدع ريبة الا ان يلومه لائم قبل ان يخاطب نوار في قوله :

اولم تكن تدري نوار بانني
وصّال عقد حبائل جذّابها(48)

ثم يمضي في شرب الصبوح مفتخراً بنفسه ، وبشجاعة قومه في وقائعهم ، وكرمهم للمعوزين ، ووفائهم للعهود التي يقطعونها للغير ، فضلاً عن كونهم متوافقين متعاضدين كراهية ان يبطىء الحساد بعضهم عن نصر بعض ، وميل آثامهم الى الاعداء ، او مظاهرتهم اياهم على الاقارب ، وذلك هو المحور الموضوعي في القصيدة (المعلقة) الذي يبدو وثيق الصلة ببقية اللوحات الفنية الاخرى في ابعادها الرمزية بخاصة .

واذا كانت الامثلة الشعرية المستشهد بها تمثل منطلقاً أحادي الجانب عند بعض الشعراء لم يواجه بنظير له من خصومهم الذين ربما آثروا التغافل عنه ـ عمداً ـ ليتجنبوا ما قد يسوؤهم في هذا الشأن ، وسلكوا اتجاهاً آخر يكفل لهم ما يسكت تلك الالسنة ، فاننا نطالع نصوصاً اخرى تفصح عن تبادل طائفة من الشعراء هذا اللون من الغزل في ما اصطلح الباحثون على تسميته بـ(شعر النقائض) الذي لا يعدو غير مبارزات شعرية ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بتلك الوقائع والأيام ، طرفاها شعراء القبائل ، اذ كانت قصائدهم ـ التي يتوافر فيها عنصر التبادل والمقابلة بالمثل ـ حرياً ادبية تساير وقائعهم المادية .(49)

''' ، ما نتأمل معطياته في بعض ايام (الأوس والخزرج) وما اقترن بها من مناقضات شعرية تكاد تستغرق موضوعات الشعر التقليدية ، ولاسيما (اللوحات الغزلية) في مفتتح القصائد لتؤكد حقيقة وجود لون غزلي ذي بواعث قبلية صرف ، ترجح لنا موضوعية تسميته بـ(الغزل القبلي) .

على نحو ما نطالعه في (يوم الربيع)(50) المقترن بمناقضة شعرية ابتدأها حسان بن ثابت (شاعر بني النجار) بتغزله بليلى بنت الخطيم (اخت الشاعر قيس بن الخطيم) ، في نونية مطلعها :

لقد هاجَ نفسكَ أشجانُها
وعاودها اليومَ أديانُها
تذكّرُ ليلى وما ذِكرُها
وقد قُطِعتْ منك أقرانُها(51)

فأجابه قيس بن الخطيم شاعر الأوس دون منازع متغزلاً (بعمرة) قائلاً فيها :

أجدُّ بعمرةَ غُنيانُها
فتهجُرُ ام شأنُنا شأنُها
وانْ تُمسِ شطتْ بها دارُها
وباحَ لك اليومَ هِجرانُها(52)

وقد لا يغير من الأمر شيئاً اختلاف أقوال الرواة في (عمرة) هذه ، فمنهم من عدها « أمرأة كانت لحسان بن ثابت » وقيل : « هي عمرة بنت عبد الله بن رواحة » ،(53) وقيل انها « ام النعمان بن بشير الانصاري ، وأخت عبد الله بن رواحة » ،(54) وان كنا نرجح القول الآخير ، اذا أخذنا في الحسبان رواية (ابن الاثير) وملخصها : « ان عمرة التي شبب بها قيس ابن الخطيم في قصيدته البائية المودعة في ديوانه ومطلعها :

أتعرفُ رسماً كاطِّرادِ المَذاهبِ
لعمرةَ وحشاً غيرَ موقفِ راكبِ
ديارُ التي كادتْ ونحن على مِنىً
تحلُّ بنا لولا نَجاءُ الركائبِ(55)

في (يوم بعاث) الذي كان آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج ثم جاء الأسلام ، هي اخت (عبد الله بن رواحة) الذي اجابه ـ كما يقول ابن الاثير ـ بمثل ما أتى به عندما شبب بـ(ليلى) أخت قيس ، وتحداه بالأسلوب نفسه » ،(56) في بائية مطلعها :

أشاقتكَ ليلى في الخليط المُجانبِ
نَعمْ فرشاش الدمعَ في الصدر غالبي
بكى إثرَ من شطتْ نواه ولم يقف
لحاجةِ محزونٍ شكا الحب ناصبِ(57)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهناك جملة من الحقائق يمكن استنباطها من هذه النقائض ابرزها :

ان شعراءها لابد ان يكونوا قد حذوا حذو المتقدمين في تناول هذا اللون من الغزل ، ففي ابداعهم اياه في قالب فنّي تقليدي يرجح ذلك ، كما لا يعقل ان يشهد العصر وهو يقرب من الأفول مثل هذه التجربة الشعرية الناضجة دون محاكاة من ناحية الشكل والمضمون لتجارب متقدمة أرسى أسسها شعراء العصر الأوائل الذين هم انفسهم اعترفوا بنهجهم منهج من كان قدوة لهم في المقدمات الغزلية ، مما يرجح لنا اكتناف بعض المقدمات الجاهلية المتقدمة غزلًا ذا بواعث قبلية صرف ، وان لم تتضح دلالته الا بعد تحليل استوعب ابعاده الرمزية ، المعززة بالمعطيات التاريخية .

ثم ان هذه النقائض قد اقتصرت على موضوعين رئيسين تمثل الأول في ذلك الافتتاح الغزلي (التقليدي) الذي وظفت فيه صورة المرأة في مجرى الحدث القبلي ، واتخذت وسيلة من الوسائل التي تدخل في اطار الدفاع من القبيلة والرد على خصومها ...

اما الآخر ، فقد اقتصر على فخر الشاعر بالشجاعة التي ابداها قومه في الحرب ، وشدة بلائهم فيها ، وما يتحلون به من الفضائل والاخلاق الحميدة التي يتصف بها الشجعان .

وذلك ما يرجح لنا موضوعية تحليلنا لتلك المقدمات الغزلية في اكتنافها غزلًا ذا بعد قبلي ، اذا أخذنا في الحسبان ان خواتيمها كانت مقتصرة على موضوع الفخر ، من منطلق ان احداث الحرب وما يرافقها من حوادث ونتائج ظلت وثيقة الصلة بفنون شعرية أخرى املت على الشعراء التطرق اليها بهذا القدر او ذاك ... دون ان يشكل ذلك قاعدة مطردة لأن هناك قصائد غزلية ذات عاطفة حقيقية تكشف عن امتزاج الحب بالحماسة واختلاط نار الحرب بنسيم الحب . كما تؤكد لنا هذه (النقائض) ان الغزل الذي اكتنف مقدماتها كان بعيداً عن الأسفاف والأبتذال ، او مايخدش المشاعر ، ولا اثر فيه لوصف الجسم ومطالب الجسد ، وانما هو نجوى وشكوى وتنفيس عما يعتلج بالقلب من اشواق وما يختلج بالصدر من حنين ولهفة ، وفي هذا لدليل على صيانة الشعراء لأغراض النساء حتى في اشد خصوماتهم ووقائعهم وان اتخذ وسيلة لغاية ...

مكررين القول ان التحليل التطبيقي المعلل للنصوص الشعرية المعززة بالحقائق التاريخية ، مع وجود قرائن أخر تكاد تقطع الشك باليقين رجح لنا ان الغزل القبلي اقترن بأوائل شعراء العصر الجاهلي ، وظل انموذجاً احتذاه شعراء العصر المتأخر ونظراؤهم الاسلاميون ايضاً .

وذلك هو منطلقنا في الرد على من شكك في حقيقة وجود هذا اللون من الغزل في العصر الجاهلي ، او أنكر ريادة شعرائه ، او ظن انه لم يعرف الا في آخره .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

(١) أنظر : على سبيل المثال لا الحصر - رسالة العشق والنساء . من مجوعة (رسائل الجاحظ) تحقيق حسن السندوبي ، مصر ١٩٦٦ ، والزهرة ، لأبي بكر الاصفهاني ، تحقيق د. ابراهيم السامرائي ، ود. نوري القيسي ، بغداد ١٩٧٧ ، وروضة المحبين ونزهة المشتاقين ، لأبن القيم الجوزية ، تعليق احمد عبيد ، مصر ١٩٥٦ ، وطوق الحمامة في الألفة والآلاف ، لأبن حزم الاندلسي ، تحقيق صلاح الدين القاسمي ، بغداد - تونس (. ت .) وتطور الغزل بين الجاهلية والأسلام ، د. شكري فيصل ، بيروت ، ط٥ ، د.ت. ومقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، د. حسين عطوان ، القاهرة ١٩٧٠ ، والحب والعشق والتوجه الاجتماعي في التراث العربي ، ضمن كتاب « نظرات نقدية في الادب العربي » د. نوري القيسي ، الموصل ١٩٧٧ ، ص٣٨ وما بعدها .

(٢) أنظر : نقد الشعراء ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، بيروت ، د. ت. ، ص ١٣٤ .

(٣) أنظر : العمدة لأبن رشيق ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، بيروت ١٩٧٢ : ٢ / ١٧٢ .

(٤) أنظر : نقد الشعر : ص١٣٤ ، والعمدة : ٢ / ١٧ ، وشرح ديوان الحماسة ، للتبريزي ، تعليق محمد عبد القادر ، بيروت د. ت. ، ٢ / ص٥٩ ، واللسان ، دار صادر بيروت د. ت: (شبب وغزل ونسب) .

(٥) أنظر : تراث الحب في الادب العربي - قبل الاسلام . د. عادل البياتي ، مجلة آداب المستنصرية ، العدد السابع ١٩٨٣ : ص٨٦ ، والحب العذري ، د. مصطفى كامل الشبيبي ، الموسوعة الصغيرة عدد (١٥٩) : ص٢١ وما بعدها .

(٦) أنظر : القبيلة في الشعر العربي - قبل الاسلام . أحمد اسماعيل النعيمي ، رسالة أجازتها آداب المستنصرية ١٩٨٥ : ص٦٧ وما بعدها .

(٧) المصدر نفسه : ص٢٣ ومابعدها .

(٨) حديث الأربعاء ، طه حسين ط١٣ ، مصر ١٩٨٢ : ١ ص٢٥٢ .
(٩) أنظر : العقد الفريد ، لابن عبد ربه ، تحقيق احمد امين وآخرين ، القاهرة ١٩٥٢ : ٥/ص٣٢٢ ، الاغاني لأبي فرج الأصفهاني (ط دار الكتب) : ١٥ / ١١١ وما بعدها ، والكامل في التاريخ ، لابن الاثير ، بيروت ١٩٦٥ ، ١ / ١٦٨٤ .
(١٠) حديث الأربعاء : ص٢٥٠ ، ٢٥١ .
(١١) أنظر المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها د. عبد الله الطيب المجذوب ، مصر ١٩٥٥ : ١ /ص٤١٦ ، والغزل في العصر الجاهلي ، د. احمد محمد الحوفي ، بيروت د. ت: ص٣٠٨ - ٣٠٩ .
(١٢) في الشعر الجاهلي ، طه حسين ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٢٦ : ص٧ ، وفي الأدب الجاهلي ، طه حسين ، مصر ، ط١٠ ، ١٩٥٩ : ص٦٥ .
(١٣) حديث الأربعاء : ص٢٥١ .
(١٤) المصدر نفسه : ص٢٥٠ .
(١٥) الغزل السياسي في العصر الأموي ، غانم جواد رضا ، البصرة ١٩٨٣ : ص١٧ .
(١٦) المصدر نفسه : ص٢٥٨ .
(١٧)شعر عبد الرحمن بن حسان الانصاري ، جمع وتحقيق الدكتور سامي مكي العاني ، بغداد ١٩٧١ : ص٩ .
(١٨) المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها : ١ / ص٤١٥ .
(١٩) الغزل في العصر الجاهلي: ص٣٠٩ .
(٢٠) المصدر نفسه : ص٣٠٥ .
(٢١) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، تحقيق احمد محمد شاكر ، مصر ١٩٨٢ ، ١/ ٧٤ .
(٢٢) دراسات نقدية في الادب العربي : د. محمود الجادر ، بغداد ١٩٩٠ : ص٢٢ .
(٢٣) العمدة ، ابن رشيق : ١ / ص٢٣١ .
(٢٤) طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي ، قراءة وشرح محمود محمد شاكر ، مصر د. ت: ١ / ص٥٥ .
(٢٥) العصر الجاهلي ، شوقي ضيف : ط١٠ ، ١٩٨٢ : ص٢٦٠ .
(٢٦) ديوان امرىء القيس ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، مصر ١٩٨٤ : ق٤ / ص٥٦ .
(٢٧) ملوك كندة من بين آكل المرار جونار اولندر ترجمة د. عبد الجبار المطلبي ، بغداد ١٩٧٣ : ص١٥٩ .
(٢٨) ديوان امرىء القيس : ق٤ / ص٦١ .
(٢٩) المصدر نفسه : ق٤ / ص٦١ .
(٣٠) المصدر نفسه : ق٤ / ص٦٣ .
(٣١) المصدر نفسه : ق٤ / ص٦٥ .
(٣٢) المصدر نفسه : ق٤ / ص٦٥ - ٦٦ .
(٣٣) المصدر نفسه : ق٤ / ص٦٩ .
(٣٤) أنظر : أخبار (يوم الوقيظ) في العقد الفريد : ٦ / ٤٤ وما بعدها .
(٣٥) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ابن الانباري تحقيق عبد السلام هارون ، مصر ١٩٨٠ ص٤٣٣ - ٤٣٦
(٣٦) شرح المعلقات السبع الزوزوني ، بيروت ١٩٧٢ : ص٢١٧ .
(٣٧) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات : ص٧٨ .
(٣٨) تاريخ الادب العربي - قبل الاسلام - د. نوري القيسي وزميلاه ، بغداد ١٩٨٩ : ص١٩٨٠ - ١٩٨١ .
(٣٩) ديوان عامر بن الطفيل ، تحقيق كرم البستاني بيروت ١٩٧٩ : ص ٥٥ .
(٤٠) المصدر نفسه : ق٤ / ص٥٦ .
(٤١) أنظر : المصدر نفسه : ص١٦ ، ٨٩ ، ١٢٩ .
(٤٢) أنظر : اخبار هذين اليومين في العقد الفريد : ٦ / ٨ وما بعدها .
(٤٣) ديوان عامر بن الطفيل : ص٥٧ .
(٤٤) تاريخ الأدب العربي - قبل الاسلام - ص١٨٨ .
(٤٥) أنظر : اخبار ذلك اليوم في العقد الفريد : ٦ / ١٢ وما بعدها .
(٤٦) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات : ص٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٧ .
(٤٧) المصدر نفسه : ص٥٧١ - ٥٧٢ .
(٤٨) المصدر نفسه : ص٥٧٣ .
(٤٩) تاريخ النقائض في الشعر العربي ، احمد الشايب ، مصر ، ط٢ : ص٣٩ .
(٥٠) أنظر : الأغاني (ط دار الكتب) : ٢ / ٤٢٧ ، والكامل في التاريخ ، ١ / ص٦٨٣ .
(٥١) ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق دايد عرفات ، بيروت عن طبعة كمبردج ، لندن ١٩٧١ : ص٢٣٩ - ٢٤٠ .
(٥٢) ديوان قيس بن الخطيم ، تحقيق د. ناصر الدين الاسد ، بيروت ١٩٦٧ : ت٣ / ص٦٦ .
(٥٣) الأغاني (ط دار الكتب) : ٣ / ص١٢ .
(٥٤) الكامل في التاريخ : ١ / ص٦٨٤ .
(٥٥) ديوان قيس ابن الخطيم : ق٤ / ص٧٦ - ٧٧ .
(٥٦) الكامل في التاريخ : ١ / ص٦٨٤ .
(٥٧) ديوان عبد الله بن رواحة ، دراسة وجمع وتحقيق حسن محمد باجودة ، القاهرة ١٩٧٢ : ص٨٣ .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

جهود ابي حيان التوحيدي في نقد النثر

د . فائز طه عمر
جامعة بغداد / كلية الاداب

تمثلت الموسوعية ، بأجلى مظاهرها ، في كتب أبي حيان التوحيدي (ت بعد ٤٠٠هـ) ورسائله ، فقد احتوت معارف وعلوماً من الممكن وصف صاحبها بها بانه مؤرخ الثقافة في القرن الرابع الهجري ، وقد حفلت هذه الاثار بآراء نقديّة كثيرة ومتنوعة ، منها ما تعلق بالنثر وصناعته ، قال هو بعضها ، ونقل بعضها الاخر عن اخرين ، مما هو مدار هذاالبحث .

وهذه الاراء التي تناولت النثر وما يتعلق به تجعلنا لا نتفق كثيراً مع رأي المرحوم الدكتور زكي مبارك الذي ذهب فيه الى ان التاليف في نقد النثر كان قليلا بازاء التأليف في نقد الشعر(١) ، فان اتفقنا معه في الجانب الكمي ، لا نتفق في الجانب النوعي ، لان آراء ابي حيان في نقد النثر وما نقله عن الاخرين ، في هذا الميدان ، تجعلنا نعتقد بسموّ المستوى النوعي لنقد النثر عند العرب الى مستوى نقدهم الشعر .

• مفهوم النثر عنده

قبل تناولنا أوجه جهود ابي حيان في نقد النثر لابد من الاشارة الى ان مصطلح النثر عنده يعني فن الكتابة فحسب ، وليس اي نوع اخر من انواع النثر الفني الاخرى . فقد اورد رأياً لشيخه أبي سليمان المنطقي (ت ٣٨٠هـ)في كتاب (الامتاع والمؤانسة) عن البلاغة وأنواعها قال فيه : « وقال ابو سليمان : البلاغة ضروب فمنها بلاغة الشعر ، ومنها بلاغة الخطابة ، ومنها بلاغة النثر ، ومنها بلاغة المثل ، ومنها بلاغة العقل ، ومنها بلاغة البديهة ، ومنها بلاغة التأويل »(٢) فواضح ، في هذا النص ، ان ابا سليمان ميّز النثر من الخطابة ومن المثل بوصفهما نوعين مستقلين من أنواع النثر المتداولة ، واعطى للنثر مفهوماً مختلفاً عنهما نتبيّنه في قوله عن بلاغة النثر : « واما بلاغة النثر فان يكون اللفظ متناولًا ، والمعنى مشهوراً ، والتهذيب مستعملًا ، والتاليف سهلًا ، والمراد سليماً ، والرونق عالياً ، والحواشي رقيقة ، والصفائح مصقولة ، والامثلة خفيفة المأخذ ، والهوادي متصلة ، والاعجاز مفصلة »(٣) ، فبلاغة النثر كانت عند ابي سليمان تعتمد على عناصر تتعلق باسلوب الكتابة وتأليفها وصناعتها ، ويبدو ان ذلك مما يتفق فيه ابو حيان مع ابي سليمان ، فبعد فراغه من نقل رأي ابي سليمان في ذلك عقب قائلًا : « وامثلة هذه الابواب موجودة في الكتب ، ولولا ذلك لرسمت في هذا المكان لكل فنّ مثالًا .... »(٤) .

*****

ان تناولنا نقد النثر عند ابي حيان سيكون من اوجه مستقلة ، تسهيلًا للبحث ، على انها متداخلة فهي تنطلق من اساس واحد هو موضوع هذا البحث الذي سيظهر لنا ابا حيان : « عالما بدقائق الاسلوب الرائع ، وقادراً عليه .... »(٥) ، كما وصفه آدم متز .

آراؤه في الكتاب :

من المعروف ان النقد الادبي ، في اوسع مفاهيمه يتناول النص الادبي ومنشاه من جانبي الاحسان والاساءة ، لذا فمن الممكن النظر الى اراء ابي حيان في الجاحظ على انها ضرب من ضروب النقد وان كانت كلها اطراء وحباً وثناء ، فقد تأثر ابو حيان بالجاحظ ، وكان ذلك منطلقه الى إبداع الطريقة الاقرب الى نفسه وثقافته وعصره ؛ فأبو حيان الذي اعتقد بضرورة الكتابة بطريقة

تتباين مع ما كان شائعاً في عصره من طريقة في الكتابة اساسها السجع والبديع، عرفت بطريقة ابن العميد[٦]، كان يجد في طريقة الجاحظ مثلا للفن المبني على اساس من الطبع والذوق والدربة والمعرفة اللغوية والادبية مما نقرؤه في قوله: « .... ان مذهب الجاحظ مدبر بأشياء لا تلتقي عند كل انسان ولا تجتمع في صدر كل احد: بالطبع والمنشأ والعلم والاصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ، وهذه مفاتح قلما يملكها واحد، وسواها مغالق قلما ينفك منها واحد .... »[٧]، فقد كان هذا الفهم الدقيق منطلقه في احكام طريقة الجاحظ، فقد كان متحمساً لنجاحه هذا الذي عجز عنه الاخرون في القرن الرابع، مما قاله د. احسان عباس[٨]، على ان نجاحه هذا لم يكن نهاية الامر بل كان منطلقه نحو الابداع، والتميز من الجاحظ وطريقته في خصائص كثيرة تفرد بها[٩].

وقد اكثر ابو حيان من الاشادة بالجاحظ وكتبه، من ذلك قوله واصفاً كتبه: « ... وكتبه هي الدر النثير، والنور المطير، وكلامه الخمر الصرف والسحر الحلال ..... »[١٠]، وقوله هذا مبني على معرفة مباشرة بهذه الكتب فهي كانت واحدة من اهم مصادره في تأليفه كتبه ولاسيما كتاب البصائر والذخائر[١١]، وهو قد عرف بعنايته بكتاب « الحيوان » للجاحظ وتصحيحه ونسخه[١٢]، مع كتب الجاحظ ورسائله الاخرى التي نقل منها في غير موضع من كتبه.

وقد اظهر أبو حيان براعة الجاحظ في أمور كثيرة منها براعته في الذم والمدح في قوله: « هذا عمرو بن بحر الجاحظ وهو واحد الدنيا، كتب رسالة طويلة في ذمّ اخلاق محمد بن الجهم، ومدح اخلاق ابن أبي دؤاد، وبالغ في الوصفين، وخطب على الرجلين، ولم يترك قبيحة الّا اعلقها محمداً، ولا حسنة الا منحها احمد، وحتى جعل ابن الجهم مع ابليس في نصاب واحد، وابن ابي دؤاد مع ملك في نقاب واحد ..... نعم وأفاد أبو عثمان في رسالته فوائد لا يخفى مكانها على قارئها، وقام فيها مقام الخطيب المصقع، والسهم النافذ، والناصر المدل، والمنتقم المستأصل ... »[١٣]، فقد أحسن أبو حيان في إظهار تمكن الجاحظ من الذم والمدح باسلوب رائع ودقة تعبيرية قوامها المقابلات اللفظية المثيرة.

وقد افرد ابو حيان للجاحظ كتاباً وسمه بـ(تقريظ الجاحظ) ذكره ياقوت في معجمه مع مؤلفات أبي حيان الاخرى[١٤]، ونقل منه في مواضع عديدة[١٥]، كما ان ابن ابي الحديد (ت ٦٥٦هـ) نقل نصاً منه ضمنه كتابه (شرح نهج البلاغة)[١٦]، مما يدل على ان كتاب (تقريظ الجاحظ) كان متداولا بعد وفاة ابي حيان باكثر من قرنين.

ان عنوان الكتاب وما وصل الينا منه من نصوص تدل على ان أبا حيان أوقف الكتاب للثناء على الجاحظ مستعيناً، في ذلك، بما قاله أدباء وعلماء وفلاسفة في حق الجاحظ، فضلًا عن تضمن الكتاب روايات رواها من عاصر الجاحظ عنه، ورسائل كتبها الجاحظ او كتبت اليه من آخرين، على ان ذلك لا يعني ان هذه النصوص الباقية من « تقريض الجاحظ » تمثل المحتويات الكاملة له كما ذهب الى ذلك د. عبد الامير الاعسم[١٧]، بل هي تعطي فكرة واضحة عنه، كما اننا لا نستطيع الاتفاق مع رأي د. عبد الرزاق محيي الدين الذي رأى فيه ان أبا حيان في تقريظ الجاحظ، قد تقمص روح الجاحظ (وساير اسلوبه، وتاثر بطريقته، حتى لكأن المؤلف الجاحظ نفسه .....)[١٨].

ويبدو ان معاصري ابي حيان كانوا يعرفون شدة اعجابه بالجاحظ فهذا ابو علي مسكويه (ت ٤٢١هـ) الذي اشترك مع أبي حيان في تأليف كتاب (الهوامل والشوامل) يقول لأبي حيان: « وهذا صديقك أبو عثمان يقول ..... »[١٩]، وعندما سأله أبو حيان عن « الفضيلة السارية في الاجناس المختلفة كالعرب والروم والفرس والهند ... » قال له مسكويه: « وزعمت انك حذفت الترك لان ابا عثمان لا يعتد بهم »[٢٠].

وقد سنحت لأبي حيان فرص كثيرة للتعرف على الكثير من كتاب عصره على نحو مباشر، جالسهم وتناظر مع بعضهم وألفهم واطلع على نتاجهم، فأتقن خصائص طرائقهم التعبيرية في فن الكتابة، وعرف، من كثب، محاسنهم ومساوئهم مما أشار اليه في مصنفاته.

وكان من أهم من عني بهم من كتاب عصره ابو الفضل بن العميد، وابنه ذو الكفايتين ابو الفتح بن العميد (ت ٣٦٦هـ)، وأبو إسحاق الصابي (ت ٣٨٤هـ)، والصاحب بن عباد (ت ٣٨٥هـ)، وابو القاسم عيسى بن علي (ت ٣٩١هـ)، وابو علي مسكويه، وابن عبيد الكاتب النصراني، الذي لم نهتد الى سنة وفاته، على انه كان من ندماء الوزير ابن سعدان (ت ٣٧٥هـ) الذي سامره ابو حيان في ليالي (الامتاع والمؤانسة)، وكانت له مع أبي حيان مناظرة طريفة عن الحساب والبلاغة نقلها ابو حيان في (الامتاع والمؤانسة)[٢١]، فضلًا عن تناوله كاتبين آخرين مثلًا الطريقة التي كتب بها أبو إسحق الصابي والتي اختلفت عن طريقة ابن العميد، وهما ابو طالب الجراحي الذي قال عنه أبو حيان: « ابو طالب الجراحي من آل علي بن عيسى كتب للمرزبان ملك الديلم بعدما انتجع فناء ابن العميد أبي الفضل، فحسده وطرده، وعضّ بعد ذلك على ناجذه ندماً على سوء فعله، ولقي منه ابو طالب الامرين، ورسائله مبثوثة »[٢٢]، وأبو الحسن الفلكي الذي قال عنه ابو حيان:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

« .... وكان من اهل البصرة ، ووقع الى المراغة ونواحيها ...... وله مكاتبات واسعة بينه وبين رجل من اهل المراغة يقال له : محمد بن ابراهيم ، من اهل (سرّ من رأى) ..... »[٢٣] ويبدو انهما معاصران لأبي حيان كذلك . زد على ذلك آخرين سنشير اليهم .

وتتباين طبيعة نقد ابي حيان هؤلاء الكتاب بين نقد شخصي ، ونقد فني ، اما الشخصي فكان متعلقاً ، على الاكثر ، بالصاحب بن عباد وأبي الفضل بن العميد وابنه ابي الفتح مما ملأ به رسالته الشهيرة (مثالب الوزيرين) او (اخلاق الوزيرين) وبعضاً قليلًا من (الامتاع والمؤانسة) ، كذلك كان نقده مسكويه وغيره ذا طابع شخصي ، على ان نقده هؤلاء لا يخلو من نواح فنية سنشير اليها ، اما النقد الشخصي فلا مصلحة للبحث في الاتيان به .

فمن آرائه في تقليد أبي الفضل بن العميد الجاحظ واخفاقه فيه ما رأيناه عند حديثنا عن فهمه طريقة الجاحظ في الكتابة وعناصرها التي لم يحظ بها ابو الفضل مما كان سبباً في اخفاقه . كذلك ما نقرؤه في قول أبي حيان عن محاولة ابي الفتح بن العميد في تقليد الجاحظ وانتهائه الى النتيجة ذاتها التي انتهى اليها والده : « واما ابنه نو الكفايتين فلو عاش كان ابلغ من ابيه ، كما كان أشعر منه ؛ ولقد تشبه بالجاحظ فافتضح في مكاتبته لإخوانه ، ومجانته في كلامه ومسائله لمعلمه ...... وكان مع هذا ناس ادّعاء لكلّ غريبة ، وأبعد الناس من كل قريبة ، وهو نزر المعاني ، شديد الكلف باللفظ ...... »[٢٤] ، فبعد ان اكد ابو حيان على عدم مقدرة ابي الفتح على الكتابة بطريقة الجاحظ ، اشار الى قوام طريقة ابي الفتح في الكتابة التي تستند الى معان نزرة وشدة اهتمام باللفظ وكلف به مما هو قوام طريقة السجع والبديع في القرن الرابع .

ومما هو متعلق بازدرائه شدة الاهتمام باللفظ نقده طريقة الصاحب بن عباد في الكتابة التي ترتكز على اكثار بين من السجع على نحو لا يتطلبة المعنى ، في قوله : « وكان كلفه بالسجع في الكلام والقلم عند الجدّ والهزل يزيد على كلف كلّ من رأيناه في هذه البلاد »[٢٥] ، ثم ياتي ، بعد ذلك ، بما يؤيد ذلك من روايات وأخبار وأقوال تظهر هذا الشغف بالسجع عند الصاحب جلياً ، من ذلك قوله : « ومما يدل على ولوع ابن عبّاد بالسجع ومجاوزة الحد فيه بالافراط قوله يوماً : حدثني ابو علي بن باش ، وكان من سادة الناس ، جعل السين شيناً ، ومرّ في الحديث ، وقال: هذه لغة ..... »[٢٦] ، ولا يخلو هذا القول من سخرية من الصاحب ومما يقوله :

ومن نصوص ابي حيان النقدية الرائعة تناوله طريقة الصاحب في الكتابة ونقده لها نقداً فنياً تمثل في نقاط أوضحها أبو حيان وأشار الى انها كانت على الصاحب وليست له لانه تجاوزها الى ما يفسد الكتابة ، يقول ابو حيان : « وابن عباد بلي في هذه الصناعة باشياء كلها عليه لاله ، وخاذلته لا ناصرته ، ومسلمته لا منقذته ، فاول ما بلي به انه فقد الطبع ، وهو العمود ؛ والثاني العادة وهي المواتية ؛ والثالث الشغف بالجاسي من اللفظ وهو الاختيار الرديء ، والرابع تتبع الوحشي ، وهو الضلال المبين ، والخامس الذهاب مع اللفظ دون المعنى ؛ والسادس استكراه المقصود من المعنى ، واللفظ على النبوة ؛ والسابع التعاظل المجهول بالاعتراض ؛ والثامن الف الرسوم الفاسدة من غير تصفح ولا فحص ؛ والتاسع قلة الاتعاض بما كان ـ للثقة الواقعة في النفس ـ من الفائت ، والعاشر تنفيق المتاع بالاقتدار في سوق العزّ ، وهذه كلها سبل الضلالة ، وطرق الجهالة »[٢٧] ، واظن انّ هذه الملاحظات لا تحتاج الى ايضاح ، وقد انطلق ابو حيان في ايرادها مما قاله احد المعنيين بالكتابة في زمانه عن تقدّم طريقة العراقيين في الكتابة على غيرها بمزايا أوردها ، قال ابو حيان : « وقال احمد بن محمد : اذا انصفنا التزمنا مزيّة العراقيين علينا بالطبع اللطيف ، والمأخذ القريب ، والسجع الملائم ، واللفظ المونق ، والتأليف الحلو ، والسيوطة الغالبة ، والموالاة المقبولة في السمع ، الخالبة للقلب العابثة بالروح ، الزائدة في العقل ، المشعلة للقريحة ، الموقوفة على فضل الادب ، الدالة على غزارة المغترب ، النائية عن عادة كثير من السلف والخلف »[٢٨] .

ويبدو ان أبا حيان كان يؤمن بأن من يمثل هذه الطريقة في الكتابة هو أبو إسحاق الصابي في رسائله وكتبه ، فقد تجلت مهارة ابي حيان في نقد النثر في اظهاره مزايا طريقة الصابي في الكتابة ، تلك الطريقة التي يرتفع فيها نثر الصابي الى مستوى شاعري كبير في اتقان الصناعة ، واختيار اللفظ ، وتأليف التراكيب ، واختيار المعاني ، على ان ابا حيان ، مع شدةاعجابه بنثر الصابي ، أشار الى قلة نصيب الصابي من النحو ، مما رآه عند ابي الفضل وعند الصاحب ، في قوله : « فاما أبو إسحاق فانه احب الناس للطريقة المستقيمة ، وأمضاهم على المحجّة الوسطى ، وإنما ينقم عليه قلة نصيبه من النحو ، وليس ابن عباد في النحو بذاك ، ولا كان أيضاً ابن العميد الّا ضعيفاً ؛ وكان يذهب عنه الشيء اليسير . وأبو إسحاق معانيه فلسفية ، وطباعه عراقية ، وعادته محمودة ...... »[٢٩] ، فوصف أبي حيان لأبي إسحاق الصابي بأن طباعه عراقية يجعلنا نظن إنه يقصد ان الصابي هو خير من يمثل مزيّة العراقيين في الكتابة على سواهم .

وقد وازن ابو حيان بين الصابي ، وإمامه في الكتابة محمد بن عبد كان (ت ٢٧٠هـ) كاتب الدولة الطولونية ، فرجحت كفة الصابي على كفة شيخه ، عند أبي حيان في قوله : « وقال لنا : إمامي ابن

كان . وهو قد أوفى عليه ، وناظره أنقد ، وروضه أنضر ، وسراجه أزهر ، ويزيد على كل من تقدم بالكتاب « التاجي »[٣٠] ، فانه أبان عن أمور ، وكنى في مواضع ، وشن الغارة في الصبح المنير مع الرعيل الاول ، ودلّ على التفلسف ، وعلى الاطلاع على حقائق السياسة ولو لم يكن له غيره لكان به اعرق الناس في الخطابة ، وأعرق الكتاب في الكتابة »[٣١] ، فأبو حيان ، هنا ، يظهر صورة رائعة من صور مراحل التدرج في الكتابة ؛ قوامها التقليد ثم الابداع ، فالصابي الذي يعترف بإمامة (ابن عبد كان) له في الكتابة ، يصبح أوفر حظاً في فن الكتابة ، في جوانب يبينها ابو حيان في قوله المذكور ، ثم يستمر ابو حيان على وصف الصابي ونثره ، بعبارات نقدية دقيقة ، في قوله : « هذا ونظمه منثوره ، ومنثوره منظومه ؛ انما هو ذهب ابريز كيفما سبك فهو واحد ، وانما يختلف بما يصاغ منه ويشكل عليه ؛ هذا مع الظرف الناصع ، والتواضع الحسن ، واللهجة اللطيفة ، والخلق الدمث ، والمعرفة بالزمان ، والخبرة بأصناف الناس ؛ وله فنون من الكلام ما سبقه اليها أحد ، وما ماثله فيها إنسان . »[٣٢] ، ويبدو أبو حيان ، هنا ، معجباً بالصابي ونثره اعجاباً كبيراً ، وهو يقصد ، في اغلب الظن ، الى تخطئة من يرى عكس ذلك في نثر الصابي وشخصه ، فهو ، بعد الذي قرأناه ، يقول : « واني لأرحم من لا يسلم له هذا الوصف ، لأنه اما ان يكون جاهلًا ، واما عالماً ، فإن كان جاهلًا فهو معذور ، وان كان عالماً فهو ملوم ، لأنه يدلّ من نفسه ـ يدافع ما يعلمه ـ على حسده ، والحاسد مهين . »[٣٣] ، فخصوم الصابي هم اما جهلة ، واما علماء يحسدونه ، مما قال به ابو حيان .

ويؤكد أبو حيان ان هناك من يكتب على طريقة الصابي ، التي هي طريقة العراقيين ، في القرن الرابع الهجري ، فقد سأل الوزير ابن سعدان أبا حيان عمّا اذا « كان في زمان هؤلاء من يلحق بهم ، ويدخل في زمرتهم ؟ »[٣٤] ، فأشار الى ابي طالب الجراحي ، وابي الحسن الفلكي اللذين أشرنا اليهما ، وقد وصف ابو حيان طريقة أبي الحسن الفلكي في الكتابة بقوله : « ..... وهو حسن الديباجة ، رقيق حواشي اللفظ ؛ وهو احدهم غرباً واغزرهم سكباً ، وابعدهم مناخاً ، واعذبهم نفاخاً . »[٣٥] ، ولا شك في اعجاب ابي حيان بطريقة الفلكي في الكتابة مما يتضح فيما قرأناه .

ان إشارات أبي حيان الى خصائص طريقة الصابي في الكتابة وتعبيره عن طريقة العراقيين التي اختلفت ، في خصائصها ، عن طريقة ابن العميد ومن تابعه في الكتابة تجعلنا نعتقد بأن هناك اتجاهاً اخر في النثر الفني مختلفاً عن اتجاه السجع والبديع الذي مثله ابن العميد والصاحب واضرابهما في القرن الرابع الهجري ، سوف نحاول بيان خصائصه وممثليه من الكتاب في بحثٍ منفرد ، ربما استطعنا به رد الكثير من الاوهام التي علقت بالنثر العربي وتطوره ، ولا سيما في القرن الرابع .

ومن الكتاب الاخرين الذين وصفهم ابو حيان ، عيسى بن علي ، وذلك في عبارات بعضها فني ، وبعضها شخصي ، مبيناً عن مقدرة هذا الكاتب في الترجمة وتصرفه في اللغات وفي المعاني ، واطّلاعه على الكثير من الكتب في الخزائن ، مع اشارته الى بخله باسلوب مباشر تارةً ، وباسلوب الكناية اخرى ، في قوله : « واما عيسى بن علي فله الدرع الواسع ، والصدر الرحيب في العبارة ، حجة في النقل والترجمة ، والتصرف في فنون اللغات وضروب المعاني والعبارات ، وقد تصفح ما لم يتصفح كثير من هذه الجماعة ، وقلب بخزائن الكبراء والسادة ، واعين بالعمر الطويل والفراغ المديد ، ولكنه مع هذا الفضل الكثير بخيل بكلمة واحدة ، ونصيح على ورقة فارغة لسودائه الغالبة عليه ، ومزاجه المتشيط بها . »[٣٦] .

ووصف ابن عبيد الكاتب بعبارة موجزة ذات مدلول عميق على طريقته ، في الكتابة ، المتمثلة باستعمال فنون البلاغة على نحو سهل غير متكلف ، مع اختيار للالفاظ الحلوة ، ومقدرة على الايجاز باشارة غريبة متفردة ، فضلًا عن براعته في الفصل والوصل ، كل ذلك نتبينه في هذه العبارة الموجزة لأبي حيان في ابن عبيد : « وكان سهل البلاغة ، حلو اللفظ ، حسن الاقتضاب ، غريب الاشارة ، مليح الفصل والوصل ... »[٣٧] .

وقد اتى أبو حيان ، في كتابه البصائر والذخائر ، بنتفٍ من رسائل كتبها ابو القاسم الاسكافي علي بن محمد (لم اهتد الى سنة وفاته) ، وبعد فراغه منها عرّف بكاتبها مبيناً مكانته بين أهل المشرق ، موضحاً ان فنه الكتابي مردود في العراق لتكلفه وتباعد تأليفه عن العادة ، مما يؤكد ان للعراقيين اتجاهاً مختلفاً في الكتابة ، عمّا هو شائع في مشرق الدولة العربية الاسلامية ، قال أبو حيان : « هذا الكاتب الذي رويت عنه هذه الفصول هو ابو القاسم الاسكافي كاتب خراسان ، ولم يوجد في أهل المشرق أكتب منه في زمانه ، وهذا مختار مما مر في طريقته ، على انه مردود الفن بالعراق ، وذلك لتكلف يسير يعتري كلامه ، وتباعد في التأليف عن العادة »[٣٨] .

واشار ابو حيان الى فصاحة الكاتب ابي بكر الخوارزمي (ت ٣٨٣هـ) مع كونه اعجمياً ، في قوله : « وكان الخوارزمي من افصح الناس ما رأينا في العجم مثله »[٣٩] .

وثمة نصوص اخرى لابي حيان تظهر براعته في نقد الكتاب والفلاسفة والمترجمين والمؤرخين[٤٠] ، على ان غلبة الطابع الشخصي عليها دفعنا الى عدم الاتيان بها .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ ثقافة الكاتب وصفاته :

يؤمن ابو حيان التوحيدي بأن الكاتب الناجح ينبغي ان تكون له صناعة متقنة ، وإلمام جيد ، ودراسة طويلة الباع ، فضلاً عن الطبيعة الجيدة ، والمزاج الصحيح ، والسليقة السليمة [٤١] . وقد انطلق ، في ذلك ، من حقيقة ان المقدرة على التصرف بالكلام وقياده مسألة لا تتأتى لكل من أراد ، اذ يقول : « فان الكلام صلف تياه لا يستجيب لكل انسان ، ولا يصحب كل لسان ...... » [٤٢] ، وتبدو هذه المسألة ، في الكتابة ، أشد الحاحاً ، فعلى الكاتب ان يعنى بما يكتبه عناية شديدة ، وان يكون متأنياً في ذلك ، مما لايطالب به الخطيب كثيراً ، مما نجده في قول أبي حيان : « والكتاب يتصفح اكثر من تصفح الخطاب ، لان الكاتب مختار ، والمخاطب مضطر ؛ ومن يرد عليه كتابك فليس يعلم اسرعت فيه ام ابطأت ، وانما ينظر أصبت فيه أم أخطأت ، واحسنت أم أسأت ، فابطاؤه غير اصابتك كما ان اسراعك غير معفٍ على غلطك ...... » [٤٣] . فعلى ذلك لابد للكاتب من ثقافة واسعة وعميقة في معارف عصره ، ومن اتقان لصنعة الكتابة وأدواتها ، ففي اثناء مناظرته لابن عبيد الكاتب في المفاضلة بين الحساب والانشاء يرى ان كاتب الانشاء في الدواوين يجب ان يلم باعمال الدواوين ويضبط شؤون ديوانه ، مع أمور أخرى مهمة أجملها بقوله : « فعلى جميع الاحوال لا يكون الكاتب كاملاً ، ولا لاسمه مستحقاً ، الا بعد ان ينهض بهذه الاثقال ، ويجمع اليها اصولاً من الفقه مخلوطة بفروعها ، وآيات من القرآن مضمومة الى سعته فيها ، واخباراً كثيرة مختلفة في فنون شتى لتكون عدة عند الحاجة اليها ، مع الامثال السائرة والابيات النادرة ؛ والفقر البديعة ، والتجارب المعهودة ، والمجالس المشهودة ، مع خطٍّ كتبر مسبوك ، ولفظ كوشي محوك ؛ ولهذا عز الكامل في هذه الصناعة ..... » [٤٤] ، ولا شك في ان ابا حيان الذي عرف بمهنة الوراقة [٤٥] ، والذي كتب رسالة في علم الكتابة [٤٦] ، كان ينطلق ، في ابداء ملاحظاته المذكورة في نصه عن صفات الكاتب ، من تجربة حقيقية . ويؤكد ابو حيان ، في قول اخر ، على مزايا الكاتب المذكورة ، فضلاً عن مزايا اخرى ذات طابع شخصي ينبغي ان يتمتع بها الكاتب ، يقول ابو حيان : « يجب على الكاتب ان يكون حافظاً لكتاب الله تعالى لينتزع من اياته ، وان يعرف كثيراً من السنة والاخبار والسير ، حافظاً لكثير من الرسائل والكتب ، وان يكون متناسب الالفاظ متشاكل المعاني ، متشابه الخط ذكياً عارفاً بما يحتاج اليه خبيراً بالحلي والشيات مضطلعاً لعب الكتابة ، له يد في السواد وعمل في الحساب ، وان يكون له يد في عمل الشعر ، نظيف الثوب لطيف المركب ، ظريف الغلام ، لقيق الدواة ، حاد السكين ، صقيل الكاغد ، صلب الاقلام ، متوددا الى الناس مخالطهم غير متكبر عليهم ولا منقضبا منهم ، دمث الاخلاق ، رقيق الحواشي ، ترف الاطراف ، عذب السجايا ، حسن المحاضرة ، مليح النادرة ، غير قنف ولا متعجرف ولا متكلف للالفاظ الغريبة ، ولا متعسفاً للغة العويصة . [٤٧] » ، فهذا النص يحمل دستوراً [٤٨] للكتاب يهتدون به الى اتقان صنعتهم ، من نواح عديدة .

وقد عنى ابو حيان بالنحو وضرورته للكاتب كثيراً ، فقد رأيناه يأخذ على ابي الفضل بن العميد ، والصاحب بن عباد ، وابي اسحاق الصابي قلة نصيبهم من النحو . وهو يرى ان الكلام يشبه الجسم والنحو كالحلية له ، ولا يكون تمييز جسم من آخر الا بما عليه من حلى ، وان الحاجة الى النحو والاعراب هي مساوية للحاجة الى الكلام نفسه ، يقول ابو حيان : « ...... ان الكلام كالجسم والنحو كالحلية ، وان التمييز بين الجسم والجسم انما يقع بالحلى القائمة ، والاعراض الحالة فيه ، وان حاجته الى حركة الكلمة بأخذه وجود الاعراب حتى يتميز الخطأ من الصواب كحاجته الى نفس الخطاب ...... » [٤٩] . فالنحو هو من أهم الاسس التي يرتكز عليها الكاتب في المهارة بالكلام ، وفي تصريف المعاني والتعبير عنها ، فضلاً عن المعرفة اللغوية يقول ابو حيان : « كل من تكامل حظه من اللغة ، وتوفر نصيبه من النحو كان بالكلام أمهر ، وعلى تصريف المعاني أقدر ، وإزداد بصيرة في قيمة الانسان المفضل على جميع الحيوان ، وعرف عوار المتكلمين ، ووقف على عادة الفقهاء .... » [٥٠] ، وقد نال ابو حيان كثيراً من أولئك الذين يكثرون من اللحن [٥١] بحجة ان المهم هو إيصال المعنى . وعنى هو كثيراً بالمعرفة اللغوية والنحوية فقد حفلت مصنفاته ولاسيما البصائر والذخائر » بمباحث ومعلومات نحوية ولغوية غزيرة لا سبيل الى حصرها هنا لغزارتها .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ الكتابة وشروطها :

يرى ابو حيان ان من أراد الفوز بالمقدرة على الكتابة البليغة والناجحة ان يبدأ ، أولاً ، بالعناية بالنماذج العالية والقوية من النصوص الادبية حفظاً ودراسة وفهماً ، ثم يأخذ ، بعد ذلك ، في محاولة تقليدها ألفه من هذه النماذج ، اوالكتابة بطريقة تقترب منها ، على ان يكون ذلك منطلق الكاتب الى الاعتماد على نفسه وقدراته في الكتابة التي ينبغي ان يهتدي اليها بمعرفة أصول التأليف الحسن الذي لا يهتم فيه باللفظ فحسب ، بل ينبغي فيه الاهتمام بالمعاني وتدبرها وفهمها على حقيقتها بادراك مغزاها ، ثم تجنب اللفظ الغريب والوحشي والمستكره الذي يكلف به من

يريد اظهار معرفته ، والامر كله ينبغي ان ينطلق من طبع تعمق بالثقافة والدربة ، مما نقرؤه في قوله : « وينبغي ان تعلم ان من أراد خطابة البلغاء على طريقة الادباء ، ومجاراة الحكماء على عادة الفضلاء احتاج ضرورة الى تقديم العناية بأصول الأساس ، وحفظ فصول هي الاركان ، ولن ينفعها تقديمها دون احكامها ، كما لايجدي عليه حفظها دون عرفانها ؛ فمن أوائل تلك العناية جمع بدد الكلام ، ثم الصبر على دراسة محاسنه ، ثم الرياضة بتأليف ما شاكل كثيراً منه ، او وقع قريباً اليه ، وتنزيل ذلك على شرح الحال الا يقتصر على معرفة التأليف دون معرفة حسن التأليف ، ثم لا يقف مع اللفظ وان كان بارعاً رشيقاً حتى يفلي المعنى فلياً ، ويتصفح المغزى تصفحاً ، ويقضي من حقه ما يلزم في حكم العقل ليبرأ من عارض سقم ، ويسلم من ظاهر استحالة ويتعمد حقيقته اولاً ثم يوشيه ثانياً ، ليترقرق عليه ماء الصدق ويبدو منه لالاء الحقيقة ، ولن يتم ذلك حتى يتجنب غريب اللفظ ، ووحشيه ومستكرهه وبدويته ، وينزل عن ربوة ذي العنجهية وأصحاب اللوثة وأرباب العظمة ، بعد ان يرتقي عن مساقط العامة في هجر كلامها ، ومرذول تأليفها ...... »[٥٢] ، وقد عني الباحثون بهذه الوصية وعلقوا عليها بما يوضحها[٥٣] ، على اننا نكتفي بما قاله د . احسان عباس عنها فهو يرى ان ابا حيان يتحدث فيها (عن تجربته الذاتية ولكن قد يكون ايضاً متأثراً بما قاله ابن طباطبا في كيفية نظم الشعر ، فالكلامان في طبيعة المعاناة متشابهان .)[٥٤] ، فمع ايماننا بقول د . احسان عباس في ان تأثره بما قاله ابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ) في أوّل كتابه (عيار الشعر)[٥٥] ، انما هو حافز له للتعبير عن تجربته ، فربما كانت فكرة الكتابة عند ابي حيان عن تجربته غير موجودة في ذهنه حتى اطلاعه على ما قاله ابن طباطبا مما حفزه الى الكتابة ، على ان ابا حيان قد نقل وصية أدبية لنفطويه (ت ٣٢٣هـ) قالها لأحد الادباء[٥٦] ، تشبه كثيراً وصية ابي حيان للكتّاب آنفة الذكر ، فلماذا لا يكون أبو حيان متأثراً بنفطويه دون ابن طباطبا ، على ان الوصايا الادبية هي شائعة في الادب العربي ، ولم تقتصر على المذكورين فحسب .

وقد رأينا أبا حيان يصف الطبع بأنه العمود ، في نقده طريقة الصاحب ، وها هو يؤكد أهميته في هذه الوصية ، وكذلك عند تناوله البلاغة[٥٧] ، تحدث عن الطبع الجيد وما يتطلبه من صناعة ، فالبليغ عنده هو « الذي يبلغ القصد بأقرب طرق الافهام مع حسن الغرض . »[٥٨] ، فكان « أقرب الطرق في الافهام ان تكون الغاية مثالاً للعقل ، ثم يكون المعنى مسوقاً اليها ، واللفظ منسوقاً عليها .... »[٥٩] ، فالابداع عقلي تساق اليه المعاني التي تظهر بما يعبر عنها من لفظ ، لذا كان الأصل في البلاغة ونظامها واستعمالها عنده « أن يكون طالبها مطبوعاً بها ، مفطوراً عليها ، قد أعين بشهوة في النفس ، وأدب من الدرس ، فانه متى اختلَّ في احد الطرفين ، بدا عواره ..... »[٦٠] ومن هنا يرى ابو حيان ان للكاتب استعمال البديع على نحو متوافق مع المعنى ومنسجم مع الطبع ، فرأى « ان يكون السجع في الكلام كالملح في الطعام ، فانه متى ظفر منه بمقدار الرتبة ، وحسب الكفاية ، حلا منظره ...... ومتى زاد على المقدار ضارع كلام النسّاة والكهنة من العرب ، أو كلام المستعربين من العجم ..... »[٦١] ، ويؤكد على ان السجع ان حلا في مكان فربما لا يحلو في مكانٍ آخر بقوله : « وقد يسلس السجع في مكان دون مكان ، والاسترسال أدل على الطبع ..... »[٦٢] ، وعلى مقدار استعمال الفنون البلاغية في الكتابة تتعدد فنون الكتابة ومراتبها ، مما نقرؤه في قوله : « اعلم ان الفن الاول منه هو الكلام الذي يسنح به ، وليس يخلو هذا المطبوع من صناعة ؛ والفن الثاني ، هو الذي يطلب بالصناعة ليس يخلو هذا المصنوع أيضاً من طبع . والفن الثالث هو المسلسل الذي يبتدر في اثناء المذهبين ..... »[٦٣] ، فأبو حيان يؤكد ان الاساس هو الطبع في الكتابة ، فنبذ التكلف وعده مكروهاً ، لأن الذي يتبع المعاني تواتيه الالفاظ عفواً ، على ان من يكلف باللفظ فالمعاني لا تطيعه ، يقول : « والتكلف مكروه ، والمتكلف مُعَنًّى ، والناس بين عاشق للمعاني ، وتابع لها ، فالألفاظ تواتيه عفواً ، وكلف بالألفاظ والمعاني تعصيه ابداً ...... »[٦٤] . على ان من يجمع الطبع والصناعة في كتابته فهو القادر على صياغة اجمل النصوص واكثرها تأثيراً ، يقول أبو حيان : « ..... فأما من جمع بين هذه وهذه ، وكان قيماً بمنثورها ومنظومها ، عارفاً باختلاف مواقع تاليفها ، فانه الحاوي قصب الرهان ، والمعدود في أفاضل الزمان ، فاقصد ـ أيدك الله تعالى ـ ان تكون كالصائغ الذي يصيب التبر فيسبكه ثم يصوغه ، ثم يزينه ، ثم ينقشه ، ثم يسوقه ، ثم يعرضه ...... »[٦٥] ، فأبو حيان يشير الى أهمية الثقافة الادبية في ايجاد أديب ناجح ، على ان المهم في هذا النص هو ما يتعلق بالعناية بالاسلوب وصياغة النص الادبي التي تشبه صياغة صائغ الذهب وتزيينه ونقشه ، وهو يرى ، في نص اخر ، ان المعنى الصالح اذا ما اتى بتأليف فاسد فسوف يرد ولا يحدث أثراً ، على ان المعنى الفاسد من الممكن قبوله اذا عرض بلفظ صالح ، وما أظنه ، هنا ، الّا مؤكدا على الاسلوب الذي تعرض به الفكرة ، يقول : « ...... لأن الاحوال كلها ـ في اصلاحها وفسادها ـ موضوعة دون اللفظ المونق ، والتأليف المعجب ، والنظم المتلائم ، وما أكثر ما رد صالح معناه لفاسد لفظه ، وقبل فاسد معناه لصالح

لفظه .»(٦٦) .

ان الافكار التي أوردها ابو حيان في هذا المجال تمثل أهم جوانب نقد النثر في مصنفاته ورسائله ، ولا شك في انه قد جسدها ، على نحو عملي ، في طريقته في الكتابة .

ـ بين الشعر والنثر :

عني ابو حيان التوحيدي بقضية العلاقة بين الشعر والنثر والمفاضلة بينهما ، فهو قد سأل مسكويه عن ذلك(٦٧) ، ونقل كلاماً لأبي سليمان المنطقي موضوعه الموازنة بين الشعر والنثر في احدى المقابسات(٦٨) ، ويبدو من هذه المقابسة ان فلاسفة بغداد كانوا معنيين بهذه القضية التي يرى د . احسان عباس ان منشاها (فلسفي الطابع ، فقد عرف هؤلاء المفكرون(٦٩) ما حكم حوله الفكر الفلسفي من امر التفاوت بين الخطابة والشعر ......)(٧٠) .

وقد ظهرت براعة ابي حيان التوحيدي في معالجة هذه القضية عند سؤال الوزير ابن سعدان له في إحدى الليالي قائلا لابي حيان « أحب أن أسمع كلاماً في مراتب النظم والنثر ، والى أيّ حدٍ ينتهيان ، وعلى أي شكلٍ يتفقان ، وأيهما أجمع للفائدة ، وأرجع بالعائدة ، وأدخل في الصناعة وأولى بالبراعة ؟ . »(٧١) .

وقد حاول أبو حيان ، في إجابته ، الاعتذار وإظهار صعوبة تناول هذا الموضوع ، بيد انه انطلق في تناول جوانبه في سياق منهج علمي ، يقول : « ان الكلام على الامور المعتمد فيها على صور الامور وشكوكها التي تنقسم بين المعقول وبين ما يكون بالحس ممكن ، وفضاء هذا متسع والمجال فيه مختلف . فأما الكلام على الكلام فانه يدور على نفسه ، ويلتبس بعضه ببعضه ؛ ولهذا شقّ النحو ، وما أشبه النحو من المنطق ، وكذلك النثر والشعر .....»(٧٢) . ثم يأخذ أبو حيان ، بعد ذلك ، بعرض اقوال القائلين بتفضيل النثر على النظم(٧٣) ، وهم مجموعة فلاسفة وكتاب وغيرهم ، ثم اقوال مفضلي النظم على النثر(٧٤) ممن كانوا شعراء ، او كتاباً شعراء وغيرهم ، وهو يشفع كل ذلك باقوال لاعراب وأخبار ونوادر حتى ينتهي الى الافصاح عن رأيه في الموضوع ، وقبل ان نعرض له نشير الى ان بعض الباحثين(٧٥) قد رأى ان ابا حيان يميل الى الاستشهاد بآراء المفكرين والادباء الذين يقدمون النثر على الشعر ، على ان هذا الرأي يبدو ضعيفاً عند معرفتنا بما رآه ابو حيان في هذه القضية ، فالامر كله ، لديه ، عائد الى شروط ومقومات ان توافرت في النثر فله المزية ، وان تحققت في الشعر فله الفضل ، مما نجده في قوله : « وفي الجملة ، أحسن الكلام مارق لفظه ، ولطف معناه ، وتلألأ رونقه ، وقامت صورته بين نظم كأنه نثر ، ونثر كأنه نظم ، يطمع مشهوده بالسمع ، ويمتنع مقصوده على الطبع ، حتى اذا رامه مريغ حلق ، واذا حلق أسف ، اعني يبعد على المحاول بعنف ، ويقرب من المتناول بلطف . »(٧٦) . لقد ابعد ابو حيان الفارق الشكلي بين الجنسين الادبيين الشعر والنثر ، فلم يعطه أهمية تذكر ، فأعطى المزية للاسلوب وللبناء الفني ، فلم يكن رأيه مبنياً على أمر تقليدي ، بل على اساس فكري عميق ، فهو ينظر الى الاجناس الادبية على انها صور للكلام في السمع ، ولا فضل لصورة على اخرى ، يقول : « ..... والشعر كلام وان كان من قبيل النظم ، كما ان الخطبة كلام ، وان كان من قبيل النثر ، والانتثار والانتظام صورتان للكلام في السمع ، كما ان الحق والباطل صورتان للمعنى ، وكذلك المثل في السمع ، وليس الصواب مقصودا على النثر دون النظم ولا الحق مقبولًا بالنظم دون النثر .....»(٧٧) ، فالذي يحدد مزيّة النثر على النظم ، او النظم على النثر هو اتقان الصناعة وقوة الاسلوب ، والاثر الجمالي الذي يتركه النص الادبي في المتلقي ، شعراً كان أم نثراً .

نماذج اخرى من نقده :

لم يكتف ابو حيان التوحيدي بنقد الكتّاب ، وبيان رأيه في الكتابة وشروطها ، بل حفلت مصنفاته ولا سيما « البصائر والذخائر » بقدر طيب من نصوص رسائل ، وعبارات منتخبة من رسائل ، وخطب ، وأقوال لفلاسفة وحكماء وأدباء وصوفية . لا نستبعد ان يكون ابو حيان هو الوحيد الذي حفظ الكثير منها من الضياع ، لعنايته بالنثر بانواعه المتعددة . ولا شك في ان هذه النصوص التي اختارها ابو حيان تعبر عن ذوقه ، وميله الى الطريقة المثلى في النثر ، فكانت معاييره في اختيار هذه النصوص هي ذات المعايير التي وجدناه يؤكدها في الكتابة وفي نقده الكتاب ، فاختياره هذه النصوص الغزيرة مبني على أسس فنية وذوقية وفكرية استمدها من تجربته الفنية في الكتابة ، ومن بنائه الفكري والثقافي . ان هذا الاختيار يمثل ضرباً اخر من ضروب نقد النثر عنده ، على ان تفصيل ذلك يحتاج الى جهد خاص ، كما اننا لا نرى حاجة الى الاتيان بما يعزز قولنا من النصوص المختارة لأبي حيان ، فهي موجودة في «البصائر والذخائر» في مواضع كثيرة جداً .

وقد اعتاد أبو حيان ، وهو ينقل نصوصاً من رسائل ، عدم ذكر اسم الكاتب ، فيكتفي بذكر كلمة : « كاتب » ليرد فيها بالنص الذي يريد ذكره له عدداً من العبارات المستلة من رسائله ، نحو قوله : « وهذا الكاتب الذي رويت عنه هذه الفصول هو أبو القاسم الاسكافي كاتب خراسان ...... »(٧٨) .

ويبدي أبو حيان اعجابه ، أحياناً ، بما ينقله من أقوال وعبارات وخطب ، مثنياً عليها ، مبيناً عن مواضع الجمال فيها ، على الاكثر ، من ذلك قوله : « قيل لفيلسوف : ماذا غنمت من الحكمة ؟ فقال : ان صرت كالواقف على الشط ، انظر الى الاخرين يتكفأون بين أمواج البحر .

انا والله أجد بهذا الكلام ، وأرتاح اليه ، وأراه من الحكم اليتيمة ، والكلم المحتومة ، نسأل الله تعالى الا يجعل حظنا من الحكمة ، ونصيبنا من الموعظة والاعجاب بها ، دون المصير الى حقها ، والقيام بواجبها »(٧٩) .

ونقل عن الحسن البصري (ت ١١٠هـ) قولًا في الوعظ ، يبدو انه تأثر به ، فقال عنه وعن صاحبه : « ...... لو كان كلام الناس حجراً لكان كلام هذا الرجل ذهباً وفضة ، لله دره فقد أوتي عقلا وفقها ، وزهداً وبياناً . »(٨٠) .

وقد يكون نقده ذا طابع بلاغي اذ يبين الفن البلاغي الذي يضمه النص المفقود ، موضحاً المعنى المتصود منه ، من ذلك قوله : « مدح اعرابي رجلًا فقال : هو والله فصيح النسب فسيح الادب ، من أي أقطاره أتيته إنتنى اليك بكرم المقال وحسن الفعال .

فصيح النسب حلو جداً ، وهو استعارة ، الا انه ها هنا لاصق بالمعنى وذلك انه اشار الى صحة النسب ، وسلامة العرق ، وكرم المنبت . واما قوله : فسيح الادب ؛ فقد ، والله ، جمع بين غزارة الموصوف في أدب النفس والعلم ، وهذا نمط لا يتسع الكلام فيه على جميع ما يمر في الكتاب ، ولو أمكن ذلك لبلغ الكتاب عشرة الاف ورقة او اكثر . »(٨١) ، ففي اخر كلام ابي حيان تصريح بأنه تعمد عدم التعليق على كل ما أورده من نصوص في « البصائر والذخائر » لئلا يطول الكتاب . وقد يكون تعليقه لغوياً(٨٢) .

ولأبي حيان ولع بأقوال الصوفية وعباراتهم نجدها في الكثير من المواضع في كتبه ، ومن ذلك قوله : « للصوفية اشارات سليمة ، والفاظ صحيحة ، فيها حشو كثير ، وفوائد جمة . »(٨٣) .

وقد نقل كثيراً من أقوالهم(٨٤) ، أردف بعضها بتعليق يبين فيه موقفه النقدي مما ينقله ، نحو قوله : « وقيل لرابعة ، وكانت ناسكة مفوهة ، وشانها شهير ، وأمرها خطير . كيف حبك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : إني لأحبه ، ولكني شغلني حب الخالق عن المخلوق .

هذا الكلام عويص التأويل ، خرط القتاد دونه ، ولقط الرمال أسهل منه ، وهي موكولة فيه الى الله تعالى . وقد رويته كما رأيته . »(٨٥) .

وقد أتقن أبو حيان طرائق الصوفية ومصطلحاتهم التعبيرية ، بعد ان دخل في الطريق الصوفي لعوامل ودوافع متعلقة بتدينه وفقره ومزاجه(٨٦) ، فكتب كتباً في التصوف ، بقي منها كتاب « الاشارات الالهية »(٨٧) ، وقد ضمّ هذا الكتاب أفكاراً تتعلق بطبيعة اللغة الصوفية ، منها قوله : « ادرك الاشارة المدفونة في العبارة ..... »(٨٨) ، ويوضح مفهومه لهذه الاشارة بقوله : « اما الاشارة المدفونة في العبارة فهي التي تجافت العبارة عنها لانها تنزهت عما يتحكم في الاسماء والافعال والظروف . » (٨٩) .

ولا شك في ان قول ابي حيان تعبير دقيق عن فرادة الطريقة الصوفية وخصائصها وتميزها مما سواها من طرائق التعبير . فهذه اللغة تحتاج الى خبرة لاتقانها يكتسبها المريد الصوفي من صحبته الصوفية ودوام الاستماع الى أقوالهم وادراك مقوماتها ، مما يوضحه أبو حيان في قوله : « يا هذا ان كنت غريباً في هذه اللغة فاصحب أهلها ، واستدم سماعها ، واشغل زمانك باستقرائها واسترائها(٩٠) ، فانك بذلك تقف على هذه الاغراض البعيدة المرامي ، السحيقة المغاني ، لانها إشارات الهية وعبارات انسية ، الا ان العبارات الانسانية ليست مألوفة بالاستعمال الجاري . »(٩١) .

ولم يكن ابو حيان غافلًا عن ظواهر سيئة في رواية الاخبار الادبية والتاريخية ، منها ظاهرة الوضع ، فقد روى عن بعض الرواة رواية عن الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور(٩٢) ، وقف منها موقفاً متشككاً نجده في تعليقه عنها الذي قال فيه : « ولعل الحكاية موضوعة عليه ، فآفة الاخبار كثيرة ، والظنة الى اهلها سريعة ، وتخليص السقيم من الصحيح صعب ..... وانما الامر في الاخبار موقوف على السابق في النفس ، وعلى حسن الظن بالرواية ، وعلى مخرج الكلام في التأويل ، والكلام كله مصرف ومتعسف ، ومتى تدبرت هذا الباب في صروف الدهر ، وحوادث الليالي ، وجدته كما حكيته ورويته .... »(٩٣) . ان في هذا النص ما يدل على دقة فهم ابي حيان للمؤثرات التي تؤثر في رواية الخبر وصدقه ، وعلى انه لا يقبل الشيء على عواهنه ، بل بعد تحقيق وروية .

ان هذا البحث محاولة لا ستقصاء آراء أبي حيان التوحيدي في نقد النثر تبين عن جهد كبير بذله ابو حيان في هذا السبيل .

□ ——— الهوامش ——— □

(١) النثر الفني في القرن الرابع : ١/ ٣٢ .
(٢) الامتاع والمؤانسة : ٢ / ١٤٠ - ١٤١ .
(٣) الامتاع والمؤانسة : ٢ / ١٤١ .
(٤) م . ن : ٢/ ١٤٣ .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٥) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع : ٤٦٥/١ .

(٦) نسبة الى ابي الفضل محمد بن الحسين بن العميد الوزير البويهي والكاتب (ت ٣٦٠هـ) وهو من أشهر من كتبوا بطريقة السجع والبديع : الفن ومذاهبه في النثر العربي : ٢٠٩ ، ابن العميد : ٥٨ .

(٧) الامتاع والمؤانسة : ٦٦/١ .

(٨) ابو حيان التوحيدي : ١٣٨ .

(٩) النثر الفني عند ابي حيان التوحيدي : ٢٨٥ .

(١٠) البصائر والذخائر ٤/١ .

(١١) م . ن : ٤/١ .

(١٢) الامتاع والمؤانسة :٥/١ .

(١٣) أخلاق الوزيرين : ٤٢ ـ ٤٤ .

(١٤) معجم الادباء : ٧/١٥ .

(١٥) م . ن (ط مرجليوث) : ١٢٤/١ ، ١٤١ ٨٦/٣ ، ٥٨/٦ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ .

(١٦) شرح نهج البلاغة : ٢٩٧/١٣ .

(١٧) ابو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات : ٧٨ .

(١٨) ابو حيان التوحيدي ، سيرته وآثاره : ٢٥٢ .

(١٩) الهوامل والشوامل : ٤٣ .

(٢٠) م . ن : ٢٠٨ .

(٢١) الامتاع والمؤانسة : ٩٦/١ .

(٢٢) م . ن : ٦٨/١ .

(٢٣) م . ن : ٦٨/١ ـ ٦٩ .

(٢٤) الامتاع والمؤانسة : ٦٦/١ .

(٢٥) اخلاق الوزيرين : ١٢٤ .

(٢٦) م . ن : ١٣٩ .

(٢٧) الامتاع والمؤانسة : ٦٤/١ ـ ٦٥ .

(٢٨) م . ن : ٦٤/١ .

(٢٩) الامتاع والمؤانسة : ٦٧/١ .

(٣٠) ابي الصابي .

(٣١) يبدو ان هذا الكتاب لم يصل الينا كاملاً ، فقد نشر باسم : المنتزع من كتاب الناجي . في بغداد ١٩٧٧م .

(٣٢) الامتاع والمؤانسة : ٦٧/١ ـ ٦٨ .

(٣٣) الامتاع والمؤانسة : ٦٨/١ .

(٣٤) م . ن : ٦٨/١ .

(٣٥) م . ن : ٦٨/١ .

(٣٦) م . ن : ٦٨/١ ، وقد وصف ابو حيان ابا طالب الجراحي بقوله : « ولم يكن في عصره انطلق منه لساناً وقلماً » : اخلاق الوزيرين : ٣٢٢ .

(٣٧) الامتاع والمؤانسة : ٣٦/١ ـ ٣٧ .

(٣٨) الامتاع والمؤانسة : ٩٩/١ ـ ١٠٠ .

(٣٩) معجم الادباء : ١٣/١٥ ، ٢٦ ، ٢٨ .

(٤٠) ثلاث رسائل لابي حيان التوحيدي : ٢٩ ـ ٤٨ .

(٤١) مطالع البدور : ١١٧/٢ .

(٤٢) ابو حيان التوحيدي (الكيلاني) : ٥٩ .

(٤٣) البصائر والذخائر مج١ ق١ / ٢٤ ، ٢٦ ، مج٣ ق١ / ٥٠ مثلاً .

(٤٤) البصائر والذخائر مج٣ ق٢ / ٤٢٢ ـ ٤٢٣ .

(٤٥) ابو حيان التوحيدي (د . احسان عباس) : ١٣٥ ـ ١٣٦ ، الاديب والمفكر ابو حيان التوحيدي : ١٦ ، ابو حيان التوحيدي ورأيه في الاعجاز ... ٢٨٧/١ ، ابو حيان التوحيدي وجهوده .... ٣١١ . واخرون .

(٤٦) تاريخ النقد الادبي عند العرب : ٢٣٢ .

(٤٧) عيار الشعر : ٤ ـ ٨ .

(٤٨) البصائر والذخائر مج٣ق٣٤٨/١ .

(٤٩) م . ن : مج١ ق٢ / ٣٦١ ـ ٣٦٧ .

(٥٠) م . ن : مج١ ق٢ / ٣٦٣ .

(٥١) م . ن : مج١ ق٢ / ٣٦٣ .

(٥٢) البصائر والذخائر مج١ ق٢ / ٣٦٤ .

(٥٣) م . ن : مج١ ق٢ / ٣٦٥ .

(٥٤) م . ن : مج١ ق٢ / ٣٦٦ .

(٥٥) م . ن : مج١ ق٢ / ٣٦٥ ـ ٣٦٦ .

(٥٦) م . ن : مج١ ق٢ / ٣٦٦ .

(٥٧) البصائر والذخائر مج١ ق٢ / ٣٦٦ ـ ٣٦٧ .

(٥٨) اخلاق الوزيرين : ١٤ .

(٥٩) الهوامل والشوامل : ٣٠٨ .

(٦٠) المقابسات : ٢٣٩ .

(٦١) اي الفلاسفة الاسلاميون .

(٦٢) تاريخ النقد العربي : ٢٣٢ .

(٦٣) الامتاع والمؤانسة : ١٣٠/٢ .

(٦٤) م . ن : ١٣١/٢ .

(٦٥) م . ن : ١٣٢/٢ ـ ١٣٥ .

(٦٦) م . ن ١٣٥/٢ ـ ١٣٩ .

(٦٧) ابو حيان التوحيدي اديب الفلاسفة ... ٢٤٨ . ابو حيان التوحيدي ، رأيه : ٣٠٧ .

(٦٨) الامتاع والمؤانسة : ١٤٥/٢ .

(٦٩) اخلاق الوزيرين : ٨ .

(٧٠) البصائر والذخائر : مج٣ ق١ / ٢٤٣ .

(٧١) البصائر والذخائر : مج١ ق٢ / ٣٣٩ .

(٧٢) م . ن : مج١ ق١ / ٢٢٨ .

(٧٣) م . ن : مج٢ ق١ / ٩٤ .

(٧٤) م . ن : مج٣ ق١ / ٩٦ ـ ٩٧ . وانظر م . ن : مج١

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ق٢ / ١٧٠ ، مج١ ق٢ / ٣١٩ ، ٤٧٦ ، ٥٥٥ ، مج٣ ق١ / ٢٠ ، ٣٤٤ ـ ٣٤٥ نماذج اخرى .

(٧٥) البصائر والذخائر مج٢ ق١ / ١٧٦ وانظر م . ن : مج٢ ق١ / ١٣٨ .

(٧٦) م . ن : مج١ ق١ / ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ . الامتاع والمؤانسة : ١٤٧/١ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ٢٣/٣ . الصداقة والصديق : ٥٩ ، ٢٧٨ ، ٣٢٥ .

(٧٧) البصائر والذخائر مج١ ق١ / ١٧٧ . وانظر م . ن مج١ ق١ / ١٧٨ ـ ١٧٩ ، مج١ ق٢ / ٤٦٠ .

(٧٨) النثر الفني عند ابي حيان التوحيدي : ١٩٤ ـ ٢٠٨ .

(٧٩) نشر مرتين ؛ الاولى بتحقيق د . عبد الرحمن بدوي ١٩٥٠ ، والثانية بتحقيق د . وداد القاضي ١٩٧٣م .

(٨٠) الاشارات الالهية (ط القاضي) : ٦١ .

(٨١) م . ن : ٦١ .

(٨٢) اختيارها .

(٨٣) الاشارات الالهية : ٢١٤ ـ ٢١٥ وانظر م . ن : ١٧٢ ، ٢٤٧ ، ٢٧٤ ، ٣١٩ .

(٨٤) البصائر والذخائر مج١ ق٢ / ٣٠٩ .

(٨٥) م . ن مج١ ق٢ / ٣١٠ .

ـ المصادر والمراجع :

١ . ابن العميد / خليل مردم . مطبعة الاعتدال . دمشق ١٩٣١م .

٢ . ابو حيان التوحيدي: د . ابراهيم الكيلاني . دار المعارف بمصر ١٩٥٧م .

٣ .ابو حيان التوحيدي : د . احسان عباس . دار بيروت للطباعة والنشر . بيروت ١٩٥٦م .

٤ . ابو حيان التوحيدي ، أديب الفلاسفة وفيلسوف الادباء : د . زكريا ابراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . ط٢ / ١٩٧٤م .

٥ . ابو حيان التوحيدي ، رأيه في الاعجاز ، واثره في الادب والنقد : محمد عبد الغني الشيخ . الدار العربية للكتاب . ١٩٨٣م .

٦ . أبو حيان التوحيدي ، سيرته ـ آثاره : د . عبد الرزاق محيي الدين المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . ط٢ / ١٩٧٩م .

٧ . ابو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات : د . عبد الامير الاعسم . دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت ١٩٨٠م .

٨ . ابو حيان التوحيدي وجهوده الادبية والفنية : د . عبد الواحد حسن الشيخ . الهيئة المصرية العامة للكتاب . فرع الاسكندرية ١٩٨٠م .

٩ . اخلاق الوزيرين . ابو حيان التوحيدي . تحقيق : محمد تاويت الطنجي . المجمع العلمي العربي . دمشق ١٩٦٥م .

١٠ . الاشارات الالهية : ابو حيان التوحيدي . تحقيق : د . ع الرحمن بدوي مطبعة جامعة فؤاد الاول . القاهرة ١٩٥٠م . وطب اخرى (اعتمدت في هذا البحث) : تحقيق : د . وداد القاضي . الثقافة . بيروت ١٩٧٣م .

١١ . الامتاع والمؤانسة : ابو حيان التوحيدي . تحقيق : احمد ام واحمد الزين . لجنة التاليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٥٣

١٢ . البصائر والذخائر : ابو حيان التوحيدي . تحقيق : د . ابراه الكيلاني . مكتبة اطلس ومطبعة الانشاء . دمشق ١٩٦٤م .

١٣ . تاريخ النقد الادبي عند العرب ، نقد الشعر ... د . احسان عبا دار الشروق للنشر والتوزيع . عمان . الاردن ١٩٨٦م .

١٤ . ثلاث رسائل لابي حيان التوحيدي . تحقيق : د . ابراه الكيلاني المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية . ١٩٥١م .

١٥ . الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري . آدم متز نقله ا العربية : محمد عبد الهادي ابو ريدة . دار الكتاب العربي . بيروت ط٤ / ١٩٦٧م .

١٦ . رسائل ابي حيان التوحيدي . تحقيق : د . ابراهيم الكيلاني دار مجلة الثقافة . دمشق بلا تاريخ .

١٧ . شرح نهج البلاغة : عبد الحميد بن هبة الله بن ابي حديد تحقيق : الشيخ حسن تميم . دار مكتبة الحياة . بيروت ١٩٦٣م

١٨ . الصداقة والصديق : ابو حيان التوحيدي . تحقيق : د . ابراهي الكيلاني . دار الفكر . دمشق ١٩٦٤م .

١٩ . عيار الشعر : محمد بن احمد بن طباطبا العلوي . تحقيق د . طه الحاجري ود . محمد زغلول سلام . المكتبة التجارية الكبرى القاهرة ١٩٥٦م .

٢٠ . الفن ومذاهبه في النثر العربي . د . شوقي ضيف . دار المعار بمصر . ط٦ / ١٩٧١م .

٢١ . مطالع البدور في منازل السرور : علاء الدين بن عبد الله البهائ الغرولي . مطبعة ادارة الوطن . القاهرة / ط١ / ١٣٠٠هـ .

٢٢ . معجم الادباء (ارشاد الاريب الى معرفة الاديب) . ياقو الحموي . تحقيق : د . س . مرجليوث . مطبعة هندية بالموسكي القاهرة / ط٢ / ١٩٢٣م . وطبعة اخرى : مطبوعات دار المامون مكتبة مصطفى البابي الحلبي وشركاؤه . القاهرة ١٩٣٦م .

٢٣ . المقابسات : ابو حيان التوحيدي . تحقيق : محمد توفي حسين . مطبعة الارشاد . بغداد ١٩٧٠م .

٢٤ . المنتزع من كتاب التاجي لابي اسحاق الصابي . تحقيق : محمد حسين الزبيدي . وزارة الاعلام . بغداد ١٩٧٧م .

٢٥ . النثر الفني عند ابي حيان التوحيدي : (رسالة ماجستير) فائز طه عمر . جامعة بغداد / كلية الاداب ١٩٨٣م .

٢٦ . النثر الفني في القرن الرابع : د . زكي مبارك . القاهرة ١٩٣٤م

٢٧ . الهوامل والشوامل : ابو حيان التوحيدي وابو علي مسكويه تحقيق احمد امين ؛ واحمد صقر . لجنة التاليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥١م .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تخطيط المدن في المغرب العربي
دراسة في الاصالة والتأصيل

أ . د . خالص حسني الاشعب

د . اياد عاشور الطائي

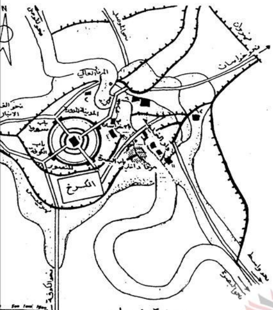

مدينة بغداد

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

المقدمة

تمثل منطقة المغرب العربي عمقاً مهماً في امتداد الحضارة العربية وخاصة منذ القرن الاول الهجري / السابع الميلادي بعد تحرير العرب المسلمين لها مما كان وراء التطور الشامل ضمن أطارها .

ان لدراسة تخطيط المدن في هذا الجزء المهم من الوطن العربي الذي يشغل نحو ٤٠٪ من مساحته ويعيش فيه قرابة ثلث سكانه أهمية بالغة حيث لم يدرسه الباحثون مقارنة مع ما تمت دراسته من المدن في المشرق العربي الاسلامي . ركزت الدراسات المتوفرة على الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية على الرغم من أن عدداً من تلك المدن حافظت على نسيجها الحضري وعناصرها التخطيطية الذاتية مثل تونس وفاس والمهدية وتلمسانة والقيروان ومراكش حيث ما زال كثير من آثارها شاخصاً وان بعضها نشات معاصرة او متقاربة ومتاثرة بمدن مهمة في الشرق العربي كالكوفة والبصرة . يمتاز المغرب العربي بتفرد وتميز شخصيته ضمن أطاره العربي التي جاءت نتاجاً لتفاعل عميق بين بيئة ملائمة

وأنسان نشيط ، عزز ذلك كله موقع مهم وأتصال سهل بينه وبين أوربا ، والبحر المتوسط شمالاً ، والمشرق العربي بثقله الحضاري شرقاً . وقد لاحظ الجغرافيون هذه الوحدة الفريدة منذ زمن بعيد فاطلقوا عليه اسماً واحداً كان يختلف من حين لاخر حتى جاء العرب فسموه باسم (جزيرة العرب) لوقوعه بين بحرين أحدهما من الماء والاخر من الرمال .

انعكس انتشار الاسلام في المغرب العربي خلال القرن الاول الهجري على المؤسسات والمبادىء التخطيطية ذات الاطر الاجتماعية والقانونية والاقتصادية والنشاط الحضري والعمراني الذي تسارع في تطوره أثناء تلك المدة . ورافق النشاط العمراني مشاكل تطلبت المعالجة ضمن أطار تشريعي لضبطها والبت فيها تمثل بالفقه والشريعة الاسلامية وأن هذه الخطوط التشريعية الاسلامية الموحدة الموجهة والاطار الحضاري الاجتماعي المتماثل تقريباً الذي أوجده الاسلام مشرقه او مغربه قد ساعدت في اعتماد الاسس ذاتها في تاسيس وتخطيط المدن الذي نتج عنه نمط حضري بخصائص عربية أسلامية مميزة انتشر على امتداد الارض العربية وتلك المتاثرة بحضارة العرب .

اما الخصوصية التي تميزت بها مدن المغرب العربي ضمن النمط الحضري العربي الموحد فكانت بسبب التاثيرات المحددة للمناخ المحلي والظروف الاقتصادية ومواد البناء المتاحة ، والتاثيرات والمداخل الاسلوبية الموضوعة مما حقق مراحل نضوج استمر الى وقتنا الحاضر .

هدف البحث

يهدف البحث الى استشراق الخصائص المميزة لمدن المغرب العربي على مستوى الهيكل الحضري حيث الاحتواء الهرمي والاتجاهية والمقياس الانساني أولًا والمنطقة المركزية للمدينة ثانياً والنسيج الحضري ثالثاً مع التاكيد على توزيع استعمالات الأرض ونظام الحركة والتنظيم الاسكاني والجوانب الاجتماعية ـ الاقتصادية والمشهد المديني وصولًا الى استنتاجات مما يساعد المعني على تحديد ما يدعو الى التاصيل في الممارسات التخطيطية المعاصرة .

مفهوم المدينة العربية الاسلامية :

تجسم المدينة العربية الاسلامية التعاليم والتقاليد والقيم الاسلامية في هيكل اجتماعي محدد وشكل حضري مكاني . فالهيكل الحضري (URBAN STRUCTURE) لاية مدينة هو انعكاس وترجمة للتطلعات الانسانية التي تتاثر بفعل عوامل اخرى كالاقتصاد والخيارات الفردية والاجراءات التخطيطية وظروف الموضع والموقع . لذلك تاثرت المدينة العربية الاسلامية في شرق الوطن العربي ومغربه بالشريعة والمبادىء والقيم الاخلاقية والروحية التي انبعثت مباشرة من الايمان بالاسلام وفلسفته أنعكس ذلك على المجتمع الاسلامي وحياته الحضرية ، وبالتالي على شكل المدينة ومورفولوجيتها . كما ان غالبية الموروثات المعمارية هي ابنية عامة لوظائف القائم منها من هذه المدة ذات مواقع مركزية .[1] وشوارع المدينة في هذه الحالة تكون اقرب الى الشعاعية مركزها الجامع او قصر الخليفة ومتجهة الى اسوار المدينة للاتصال بالخارج . انتشرت على امتداد هذه الشوارع الفعاليات التجارية والسكنية ويتميز نسيجها العمراني بانغلاق الكتلة البنائية المتماسكة تعبيراً عن قوة الترابط الاجتماعي وتعبر فضاءاتها عن وحدة التوجه ووحدة الفكر .[2] وأهمية المكان وقدسيته وضرورة حمايته وعزله عن البيئة المناخية القاسية أعتمد بنية كثيفة متولدة من التكرار اللامتناهي لخلية الاحتواء من الفضاءات الداخلية التي تتجه نحو الداخل وصولًا الى حالة التكامل والتماسك لعناصره . وأن اغلب ما يجلب انتباه الباحث للمدينة العربية الاسلامية هو بساطتها حيثما وجدت سواء في المشرق او المغرب العربي وكذلك ترابطها وكفاءتها الوظيفية (بالنسبة للوظائف التي انشئت من اجلها في الاساس) وتجانسها مع المحيط وجوها الاجتماعي . وتشتهر المدينة العربية الاسلامية باسواقها المصممة للمشاة والمظللة بواسطة تسقيفها مع فتحات في تلك السقوف للانارة والتهوية .

ويعد السور الذي يحيط بالمدينة لاغراض الحماية من الملامح العامة المشتركة أيضاً لمعظم المدن العربية الاسلامية على الرغم من ان معظم تلك الاسوار قد تم تهديمها ومن مميزاتها تكيفها للظروف الطبيعية والمناخية أذ أثرت هذه العوامل في تكوين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المدينة حتى امتلكت خصائص جمالية حضرية متميزة لا تمتلكها المدينة العربية الحديثة نتيجة لابتعادها عن معالجة تلك العوامل .

تخطيط المدن .

تميز تخطيط المدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي بالاصالة ، أذ كانت تنمو نواتها عادة حول المسجد الذي جاء بمثابة المركز الروحي للمدينة . وكان القصر يقام عادة بالقرب من المسجد وتنتشر من حول المسجد الأسواق ، وتمتد على الأطراف والبيوت والمساكن . وتخطيط المدينة بهذا المفهوم يختلف عن خطتها فخطة المدينة تعني الشكل الذي تبدو عليه من خلال انتظام شوارعها وميادينها وتجمعاتها السكنية وفق نظام معين يعطيها شكلاً حضارياً يختلف عن غيرها من المدن التي تنمو وفق خطة أخرى .[٣]

وكان للاسلام تاثير واضح على اسلوب تخطيط المدن وتركيبها في المغرب العربي فقد اصبح الجامع (المركز الديني) هو العنصر الاساس للمدينة ، فعلاوة على وظيفته الدينية يعد مدرسة ومكاناً للمجتمع السكاني ومركزاً قضائياً ، ويشغل الجزء المركزي في المدينة نواة التجمع لبعض الفعاليات التجارية حوله ان لمركزية الجامع وتعدد الوظائف التي تجري فيه أثراً كبيراً على خطوط الحركة من والى مركز المدينة وظهر هذا واضحاً في مدينة تونس وفاس .

ان تخطيط المدن المعاصر في المغرب العربي يسير بين ماض يحاول البقاء وأفكار حديثة تحاول ان تفرض نفسها على حياة المدينة ، وهذا ما نلاحظه في المدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي من تخطيط ملائم مع بيئتها العربية معتمد على افضل ما لديها من تراث فكري وعلمي عربي أسلامي .

التاثير المعماري ـ التخطيطي لمدن المشرق العربي على مدن المغرب العربي .

استفادت مدن المغرب العربي من الطرز المعمارية والاساليب الفنية والأسس التخطيطية لمدن المشرق العربي يمثل ذلك في المدن التي انشئت بعد الفتح الاسلامي او التي وسعت او طورت من المدن القديمة ، فما يخص المدن قبل الاسلام ، فان المظهر العام للمدن في المغرب العربي لا يختلف عن مظهر اخواتها مدن المشرق وفي ذلك يقول لويس ممفورد « لابد من ان المظهر العام للمدن القديمة في شمال افريقيا شبيه جداً بمظهر مدينة ذات اسوار في بلاد ما بين النهرين ، فقد كانت توجد ذات الشبكة من الطرقات الضيقة ، او بالاحرى الأزقة التي ربما لم يزد عرضها على ثماني اقدام (مترين و٤٠سم) ، والمنازل نفسها ذات الطابق الواحد او الطابقين او الثلاثة ، وذات الأسطح التي يمكن استخدامها ، وذات الافنية الداخلية ، وأخيراً المعبد المدرج السامق الذي كان

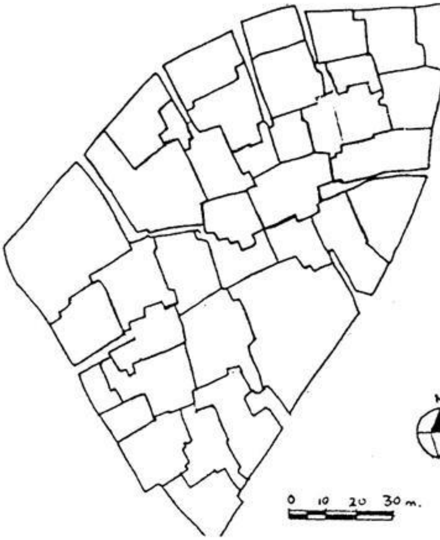

يشرف عليها جميعاً ، مثل ما تشرف مئذنة المسجد على المدينة الاسلامية ، وفيما وراء حرم المعبد كنسيج محوط بالاسوار ، كما تمتد سلسلة من مناطق الجوار التي كانت تتفاوت في تلاصقها ، وتوجد فيها هياكل ومعابد أصغر حجماً ليستخدمها أصحاب البيوت في العبادة .[٤] اما بالنسبة للمدن العربية الاسلامية ، فقد كان العرب المسلمون يتبعون قواعد معينة في تخطيط وبناء مدنهم فكانوا أذا اختطوا مدنهم بدأوا بالمسجد الجامع أولاً وجعلوه في مركز المدينة وجعلوا حوله فراغاً منه تشرع الطرق واليه تفضي الشوارع وكانوا يجعلون دار الامارة ملاصقاً ، للمسجد وتكون عادة في الضلع القبلية منه ، ويظهر في مدن الكوفة والبصرة والفسطاط ، وأتبعت الاسس ذاتها في تخطيط مدينة القيروان .[٥] وقد كان لتخطيط مدينة بغداد وتجربتها ، باعتبار تكويناتها المعمارية داخل السور مدينة ملكية نمت خارج اسوارها ارباض العامة ، أثر واضح على تخطيط المدن في المغرب العربي بشكل عام وتخطيط المدن الملكية بشكل خاص التي تطورت بدورها الى مدن للعامة نتيجة اختلاف ظروف قيامها بانحلال ملك وقيام آخر ، وتتابع حياة الدول الحاكمة التي ترغب في اتخاذ هذه المدينة او تلك حاضرة لها ، او تغرب عنها فتنشىء مدينة اخرى مجاورة لها او بعيدة عنها ، ومن تلك المدن التي تعكس ذلك المهدية وفاس ومراكش والرباط ، شكل (١) ومن المدن ذات التاثير الواضح في المغرب العربي هي مدينة (صبرة) ويظهر تاثير تخطيط مدينة بغداد الدائري عليها ، وهي من المدن المنبثقة من الدمينة الأم القيروان فكانت قريبة منها ومتصلة بها .[٦] وكانت تسمى ايضاً بالمنصورية ، وهي التي بناها اسماعيل بن عبد الله سنة

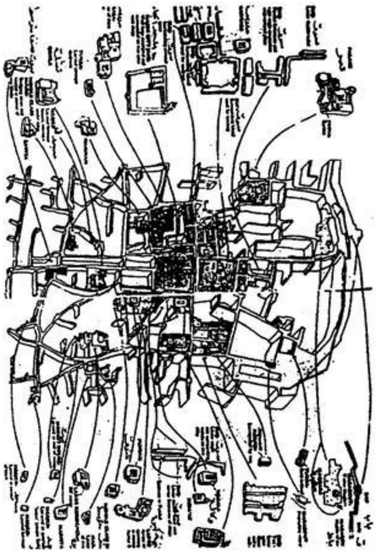

(٣٧٧هـ) وسكنها وبنى قصره فيها .[٧] وكانت فيما روى المقدسي « مدورة مثل الكاس لا يرى مثلها » ، وقال « دار السلطان وسطها على عمل مدينة السلام والماء يجري وسطها شديدة العمارة حسنة الاسواق بها جامع السلطان وعرض سورها أثنا عشر ذرعاً منفصلة عن العمارة » .[٨] اما بالنسبة للعمارة التي تعد من اهم معالم الحضارة الاسلامية بصفتها مظهرها المادي الملموس ، فبالنسبة لعمارة المساجد فان الفن المعماري الاسلامي في المشرق او المغرب العربي اعتمد على الهيكل الرئيس لمسجد الرسول (ﷺ) في المدينة المنورة ، وانتفع بعد ذلك بما يسر له من عناصر فنية في البلاد التي دخلت في دولة الاسلام والبلاد المتصلة بها ، وتطور من انشاء المساجد في كل اقليم في اتجاه محلي ذي طابع اقليمي ، ومن هنا فان الطرز المعمارية التي ابتكرتها شعوب الاسلام في بناء المساجد طرز اقليمية ، يتطور داخل حدودها ، وقد اقتبست هذه الطرز بعضها من بعض ، وهذا كله أوجد بين الطرز المختلفة قدراً معيناً من التشابه وجعل للمساجد أياً كان نوعها ـ هيئة خاصة متميزة تعرف بها كل مكان يحددها ثوابت دينية يقوم عليها الجامع . ويعتبر الطراز العربي المغربي اقدمها ، لانه نشأ عند بناء جامع عقبة في القيروان في القرن الاول الهجري .[٩]

وتتشابه المساجد في المغرب بشخصيته وتطوره داخل نطاق الخصائص المميزة لكل جزء من اجزاء المبنى ، فالمغرب العربي لم يتعرض منذ دخول الاسلام لاي تيار ثقافي خارجي ، الى مطلع العصر الحديث ، فبينما تعرضت بلاد المشرق العربي للتيارات البيزنطية والتركية والفارسية والمغولية والصليبية ، فكان لذلك اثره في تغير اشكال طرزه المعمارية ، ظل المغرب العربي ، بعيداً عن هذه التيارات ، مما أضفى على عمارة المغرب العربي وعناصره أصالة فريدة .[١٠] فبالنسبة للمآذن يقول فريد الشافعي « وأغلب ظننا ان جميع مآذن العالم الاسلامي كله في العصر المبكر ، كانت تتبع تكويناً معمارياً مشتركاً ومشابهاً لمئذنة القيروان او قريباً منها وينحصر الاختلاف في النسب المعمارية للقواعد وطبقاتها العليا وابدانها » .[١١] اما بالنسبة لبيت الصلاة فقد جرت العادة بان يمتد بيت الصلاة في المغرب العربي حتى يشغل نصف مساحة المسجد او اكثر ، فيبدو الصحن وكأنه فناء فسيح في مؤخرة المسجد وأن دار عليه السور ، والسبب في ذلك الى ان الامطار في هذا الجانب من البلاد العربية الاسلامية أغزر وأطول مدى مما عليه في المشرق فاتجهت العناية الى تغطية أكبر مساحة ممكنة من المسجد وهو ميزة من مميزاتها الواضحة .[١٢]

اما بالنسبة للمساكن ، فقد كان لطراز مسجد النبي ، أثره الذي لا ينكر على تصميم الدار في مدن الاسلام ، وبشكل خاص في المغرب العربي ، فقد اصبحت الدار بناء مربع الشكل يتوسطه فناء ، اشبه ما يكون بصحن الجامع ، وعلى هذا الفناء تفتح ابواب الحجرات فكان صحن الدار هو المتنفس لاهلها فهو يمدهم بالشمس والضوء والهواء ، وهم في داخل حرمهم بعيداً عن أعين الغرباء وربما غرس الصحن في الدار الكبيرة باشجار الفاكهة او الرياحين حتى يصبح جنة القاطنين فيها ، تماماً كما كان صحن المسجد وخاصة في المغرب العربي .[١٣]

ويمكن ملاحظة ذلك في اغلب مساكن المغرب العربي حتى وقتنا الحاضر . وهذا التشابه بين الدار السكنية والمسجد الذي هو دار العبادة ، هو الذي دعى « كونل » الى تسجيل عدم وجود فرق ملموس بين العمارة الدينية الاسلامية والعمارة المدنية .[١٤]

الخصائص المميزة للمدن العربية الاسلامية في المغرب العربي .

ـ التكوين الفضائي على وفق المستويات الآتية :ـ

أولاً : الهيكل الحضري Urban Structure

ثانياً : المنطقة المركزية Core

ثالثاً : النسيج الحضري Urban Fabric

أولاً : الهيكل الحضري

كان تشكيل المدينة العربية الاسلامية في مغرب الوطن العربي ومشرقه بسيطاً حيث يهيمن الجامع على أفق المدينة العربية الاسلامية حيث تحيط به المحلات السكنية والتجارية والحرفية المزدحمة وقد صممت الطرق الداخلية بصورة رئيسة للمشاة ومرور الدواب ، استند العديد من المدن العربية الاسلامية التي تأسست في المغرب العربي في بداية الفتوحات الاسلامية وأبان العصر

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

الاسلامي في ممارستها على قواعد تخطيطية ، ولذلك لا يمكن القول إن هذه المدن قد نمت دون خطة ودون قواعد وبمحض الصدفة تقريباً ، وبان شبكة شوارعها وأزقتها تكون متاهة غير منتظمة ، ولكن الرسم الهندسي المنظم في الاصل في زمن التاسيس غطت على معالمه بمرور القرون عمليات النمو . وهكذا اتخذت محاور المرور الكبيرة بعد ذلك مساراً غير منتظم وكثير المنحنيات ويعرض متباين والشكل (٢) يبين مخطط لمدينة تازا في المغرب والمحور المركزي للشوارع يربط اهم قطبين للمدينة (مسجد الجنة ومسجد الاندلس) . ويقع في منتصف هذين المسجدين المركز الاقتصادي للمدينة مع السوق . ومن ملاحظة الهيكل الحضري للمدن العربية الاسلامية في المغرب العربي يظهر ان المدن التي حافظت على فكرة اسوار المدينة (City Wals) والتي حددت شكلها قد حافظت على فكرة المركزية . كما تقوم اسوار المدينة بتحديد وحماية جسم المدينة وبمرور الزمن ينمو النظام الخطي للسوق وتنمو المحلات السكنية من المحور الرئيسي وينسلخ ليسقط الغلاف القديم ويتكون غلاف آخر جديد ، اي ان هوية وحدود الانسان ومدينته وكيانه وعالمه قد تكون ثانية .

١ ـ الاحتواء :

يعد الاحتواء السمة الاساسية للتكوين الفضائي لمراكز المدن العربية الاسلامية في المغرب العربي والفناء الداخلي للمسكن يمثل الخلية المجسدة لمفهوم الاحتواء والتوجه نحو الداخل . وينطبق هذا المبدأ ايضاً على المدينة فهي تمثل بحد ذاتها فضاءً استوائياً منغلقاً على نفسه وذلك بسورها المحيط ، ويمثل المسجد الجامع المركز الحيوي لهذا والمنطلق الاساس له ، تحيطه بيئة كثيفة من التتابعات الاحتوائية النسيجية المتولدة من التكرار العضوي اللانهائي لخلية الاحتواء وتخترق هذا النسيج العضوي شبكة من الأزقة ومسالك الحركة كما في مدينة فاس شكل (٣ب) بسبب حاجة الانسان وتطلعه الى ان يحتوي نفسه في فضاء الجامع او محور السوق . وبذلك فالمدينة تمثل فضاءً أحتوائياً منغلقاً على نفسه يمثل فيه المسجد الرئيس المركز الحيوي لهذا الاحتواء والمنطلق الاساس له . تحيطه بنية كثيفة من نسيج متجانس ذو تتابعات أحتوائية متسلسلة .

٢ ـ الهرمية (التدرج)

يعرض التكوين العمراني للمدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي تدرجاً في الفضاءات الحضرية يمتد من المجال العام الى اصغر وحدة للمدينة وهي الفناء الداخلي السكني ومجاله الكامل في الخصوصية . ويمثل الجامع في هذا التنظيم البؤرة المركزية لكل هذه المجالات ولما كانت الفضاءات الخارجية المفتوحة في المدينة العربية الاسلامية تقتصر على الشوارع والازقة فان هرمية

هذه الفضاءات أنما تمثل التدرج في مستويات الطرق الحضرية من حيث كثافة الاستخدام ومستوى الخصوصية الذي تقدمه للمباني المطلة عليها . هذا التنظيم نابع من تاثير واضح لتعاليم الدين والبيئة الاجتماعية التي كونها والتي تدعو الى فصل وخصوصية عالية للحياة العائلية وبالتالي كانت الفضاءات شبه الخاصة (الشوارع المسدودة النهاية) محاولة لخلق منطقة محمية خارج الوحدة السكنية نفسها تكون فيها الحرية العامة والمسؤولية محكومة . شكل (٤) .

٣ ـ الاتجاهية .

تعد الاتجاهية احدى العوامل الحسية والبصرية المهمة التي أثرت على المدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي . فالمظهر العام للمدينة يظهر ان كل عنصر من عناصرها يعطي اتجاهاً ذا معنىً معين . فالابنية عموماً تتجه نحو الداخل ـ الفناء الداخلي ، كما تاثرت الاتجاهية بدورها بالدين الاسلامي ، فالاتجاه الروحي للمسلمين نحو الكعبة ويحدده توجيه الجامع وكذلك توجيه وتحديد استقامة واتجاه الشوارع الرئيسة التي تتقاطع في المركز عند المسجد الجامع . وتتجلى هذه الخاصية ايضاً في المناطق التي تكون فيها الجوامع البؤرة البصرية (Visual Focus) للمنطقة وتلعب دور المحدد او المعرف للفضاءات والساحات العامة .(١٥) وكذلك في مدن المراقد المقدسة فالضريح يمثل الموجه الفضائي الرئيس للمدينة القديمة حيث تظهر خطوط ومسالك الحركة وكأنها تتجه كلها نحو نقطة واحدة تمثل مركز التكوين للمدينة ، وهو الضريح .

الوقت ورافق ذلك فكرة مركز المدينة الذي يضم مجمعاً للابنية والفضاءات العامة (المسجد الجامع والسوق الرئيس والفضاءات المفتوحة والمؤسسات الدينية والابنية الادارية الاخرى) مما جعله يمثل قلب المدينة والبؤرة المركزية لفعالياتها الحضرية وهو العنصر الاساس المنظم للهيكل الحضري للمدينة القديمة.[١٦] فالمسجد الجامع والفضاءات المحيطة يمثلان مركز التكوين الحضري والعنصر المهيمن على خط سماء المدينة وهيكلها الحضري ويتركز حوله الهيكل العمراني للمدينة حيث لا ينبغي ان تتجاوز أية بناية ارتفاعه.[١٧] ويستند ذلك التكوين الى مفهوم الترابط بين الجانب الديني والدنيوي في حياة الفرد اليومية ، وبالتالي الترابط والتفاعل المتين بين الفضاءات الدينية والتجارية بحيث تعبر عن المدى الكامل للفعاليات الحيوية للانسان.[١٨] ان ذلك التفاعل يتحول الى تعبير مادي محوره السوق الرئيس الذي يلعب دور الرابط والمكمل بين مجمع المسجد الجامع والمؤسسات الرسمية وشبكة الطرق الرئيسة (المكونات المنتظمة) من جهة النسيج الحضري للمناطق السكنية من جهة اخرى (المكونات غير المنتظمة) مما يضفي الشعور بالتجانس والوحدة في تنظيم مكونات المركز وأبنيته بالرغم من تعدد الوظائف والفعاليات فيه وتباين طبيعتها كما في مدينة تونس ، (شكل ٦) وتنسحب هيمنة المركز على التكوين الفضائي الحضري للمدينة على حجوم الفضاءات . فمنذ القرن العاشر الميلادي كان فضاء الصحن او المرقد اكبر من الفضاءات العامة المفتوحة في المدينة القديمة ، وبذلك فهو يترك أحساساً عميقاً ومؤثراً بالفضاء وشعوراً بالاستقرار بفعل التناقض مع الاحساس بالمقياس المالوف عند السير في الازقة الضيقة ضمن النسيج الحضري المحيط به.[١٩] ويتضح ذلك في ارتباط الفضاء الداخلي لجامع القرويين في مدينة تونس القديمة مع الفضاءات العامة الاخرى المحيطة به ، (شكل ٧) .

ويتركز في قلب مدينة تونس نسيج كثيف للفعاليات الدينية والتجارية والادارية مكوناً البؤرة المركزية لفعالياتها الحضرية ، ويمثل المسجد الجامع (الجامع الكبير) موقعاً مركزياً في قلب المدينة عند نقطة تقاطع الشوارع الرئيسة التي تربط بينه وبين البوابات الرئيسة في سور المدينة او تربطه مع الطرق الخارجية المؤدية الى الضواحي المحيطة بالمدينة .

كما ان لهذا الموقع تاثيرات على نمط استعمالات الارض ولانماط الكثافة (Density Patterus) في المنطقة المحيطة به ، وهو مشرف على حي الأسواق وهي عبارة عن شبكة ملتوية الخطوط من أنهج (مسالك) ذات سقوف مبنية معقودة او مكونة من الخشب وقد أنتصب على جانبي كل منها دكاكين للتجار او الحرفيين.[٢٠]

٤ ـ المقياس الانساني .

اعتمدت المدينة الاسلامية المقياس الانساني في تشكيلها وتوسيعها ، وهو مقياس ينبع من احتياجات الانسان المادية والحسية وقد قوى هذا المقياس تعاطف الانسان مع محيطه وعمق اتصاله بالماضي .

ويظهر المقياس الانساني في جميع مستويات التكوين الفضائي العامة والتفصيلية ففي المستوى العام ، يتحدد حجم المدينة وابعادها بدرجة كبيرة بامكانيات حركة المشاة وكذلك حجم المحلة السكنية بما يسمح بأواصر اجتماعية قوية وهذا ما نشاهده في المقياس الانساني للشكل الحضري في مدينة تونس القديمة (شكل ٥) . اما في المستوى التفصيلي فيظهر مثلًا في ابعاد الفضاءات العامة وفضاء الجامع او المراقد وأبعاد الازقة وأرتفاع المساكن والابنية المكونة للنسيج الحضري وفي مراكز المحلات السكنية التي يتحسس الانسان بتجانسها مع البيئة السكنية ويمكن ملاحظة ذلك في المقياس الانساني للتكوين الفضائي لقلب مدينة تونس القديمة . وبالنسبة لغالبية المدن العربية الاسلامية في المغرب العربي فان هذا المقياس الانساني هو الذي لم يسمح بظهور العناصر التي تقزم الانسان باستثناء البوابات والمنائر او بابراز القوة والضخامة سواء المظهر العام للمدينة او في واجهات الابنية . شكل(٣)أ .

ثانياً ـ المنطقة المركزية : ـ

نشأت ونمت المدن وازدهرت واحياناً اضمحلت وتلاشت بمرور

ثالثاً ـ النسيج الحضري :

يعد النسيج الحضري العضوي (المتراص) Compact احد اكثر الملامح بروزاً في الهيكل الحضري للمدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي(الشكل ٩) . ويقصد بالنسيج الحضري الفضاءات المغطاة والمكشوفة التي تمثل جزءاً معيناً من مساحة المدينة بطريقة لا يمكن او لا يحبذ نقله من اماكنه ويشمل بذلك الهياكل المعمارية التي تتضمن كل المباني المقامة في المدينة مثل المباني الحكومية ، والسكنية ، التي تشمل فضاءات الازقة والشوارع والساحات العامة بغض النظر عن مرتبتها وأهميتها .[٢١] وتكون مجاميع الابنية في النسيج الحضري واجهة مستمرة مغلقة للشارع ، وترتبط تلك المجاميع مع بعضها بازقة متعرجة وملتوية ، وتعد أحد المكونات الرئيسة في الهيكل الفضائي للمدينة ، وتمثل هذه الازقة الاستجابة العقلانية لنمط الحياة السكنية كما انها تمثل احد اساليب التجاوب مع متطلبات المناخ وتوفير الفضاء ، وبواسطة مقياسها الانساني ، تمثل عنصراً من عناصر المعيشة ووحدة الجيرة السكنية .[٢٢]

١ ـ مفهوم توزيع استعمالات الارض :

تمثل استعمالات الارض في اي مدينة نتاجاً للتطور الحضاري الذي مرت به خلال مراحل تطورها ، ويختلف مفهوم توزيع استعمالات الارض في المدينة العربية الاسلامية عن مفهومها في المدن الغربية الذي يتبنى فكرة الفصل بين الجانبيين الديني والروحي في الحياة الحضرية ، وسيطرة قوى السوق كعنصر فعال ومؤثر في تحديد الهيكل الحضري وتوزيع استعمالات الارض . اما الفكرة التي يستند اليها مفهوم توزيع استعمالات الارض في المدينة العربية الاسلامية فهي التكامل ما بين المكونات الدنيوية الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية ضمن أطار المعتقدات الدينية وهو ما يعبر عنه بنمط استعمال الارض المختلط حيث يتكون قلب المدينة من مجمع الأبنية الدينية والادارية كالمسجد الجامع والفضاءات المرتبطة به والسوق الرئيسي .[١] وكانت الاستعمالات التجارية لمدينة تونس من اهم الاستعمالات في المدينة واستمرت هذه الوظيفة تلعب دورها بالمراحل اللاحقة كاي مدينة عربية اسلامية أخرى . فالوظيفة التجارية نمت واصبحت نواة المدينة الاولى داخل السور متكونة من مجموعة من المحلات التجارية (الدكاكين) البسيطة والمرتبة بشكل صفوف في الاماكن المسقفة او نصف المسقفة لكي تتلائم مع الظروف المناخية السائدة التي تكون قريبة من المسجد الجامع (جامع الزيتونة) والتي تتدرج في اهميتها وتخصصها مع الابتعاد عن الجامع .

وعلى الرغم من التداخل في استعمالات الارض في المدن العربية الاسلامية الا ان ذلك لا يلغي وجود بعض التقسيمات الثانوية والفصل بين المجال العام والخاص الذي يعكس التوجه الاسلامي في الخصوصية للقطاعات السكنية .[٢] فالهيكل الحضري لمدينة تونس يتكون من سلسلة مترابطة ومتدرجة من الفضاءات الحضرية التي تمتد بشكل متدرج من المجال العام (النطاق العام) نزولًا حتى اصغر وحدة في المدينة وهي الفناءات الداخلية للوحدات السكنية .

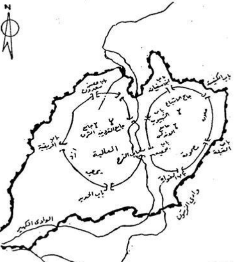

مدينتا فاس

٢ ـ مفهوم نظام الحركة .

تمثل انظمة الحركة سمة من السمات الاساسية للمدينة العربية الاسلامية التقليدية ذات الهيكل الخلوي . كما ان المدينة العربية الاسلامية التقليدية على النقيض من المدن الغربية المبنية تحت القانون الروماني ، كونت وطورت طرقها العامة بعد تخصيص أماكن الخلايا السكنية وخدمت الممرات بين التجمعات أساساً كحدود وحافات للخلايات السكنية المتجانسة .[٢٥] لذلك تبدو الاجزاء المختلفة من شبكة المشاة محاطة ومضمونة ضمن الوحدات المعمارية المتجاوية معها في التكوين . واحتلت هذه المسارات الأرض المتخلفة ، المتبقية من النمو المشترك للخلايا المحيطة . وهناك عددٌ محدودٌ من المسارات كان مخططاً له فعلياً او مجهزاً لغرض واضح مسبقاً ، فعلى العكس من تلك التي شكلت حدود الأملاك السكنية فان هذه المسارات كانت مستمرة ضمن المدينة تمثل محاور رئيسة ذات مسار طويل يربط المدينة مع بواباتها ومنها الى المدن الاخرى . وغالباً ما يظهر واحد او اكثر من هذه المحاور كمركز شريطي للصناعة والتجارة والبيع .(شكل ١٠) وتقود الشوارع الرئيسة للمدينة الى شوارع محلية اصغر ، تقود بدورها الى شوارع مسدودة النهاية ضيقة ، تقود هذه الشوارع الى الأبواب الخاصة للمساكن ، وهي تنقل الفرد بدورها عبر ممر او مدخل منكسر الى فناءات داخلية خاصة وغرف وبروزات معلقة امامية من الطوابق العليا . حتى الطرق الرئيسة كان بالامكان أغلاقها ليلًا عند نهاياتها ، وكذلك بالنسبة للشوارع التجارية وذلك لتوفير درجة عالية من الأمان والسيطرة للمجموعات المحلية حتى يجعل صورة المدينة تبدو ككتلة صلدة مبنية تظهر فيها الفناءات والمسارات كمناطق منحوتة في هذه

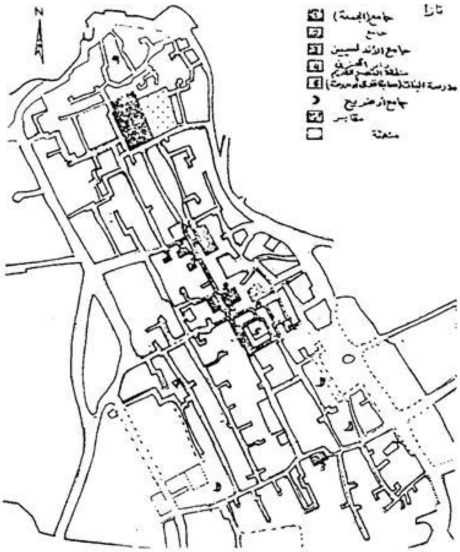

الكتلة .(شكل ١١) وتقدم هذه الصيغة حلولا ناجحة للظروف البيئية ولحالة التناقض بين ضجيج الشوارع المزدحمة ومتطلبات الهدوء الكامل للفناءات الداخلية للمساكن ، حيث صارت الفناءات مركزاً تدور حوله الفعاليات الخاصة . وتبعاً لذلك ولوجود علاقات الارتباط القوية التي وفرها هذا النظام لم تكن أنظمة الحركة للمدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي وسيلة انتقال فقط وانما مثلت هذه الشبكة نظاماً للاتصالات بكل معنى الكلمة يلعب السكان الدور الاساسي في تشكيله والسيطرة عليه ، وبدلًا من ان تعمل شبكة الحركة على تجزئة الكتل العمرانية الكبيرة التي يتكون منها النسيج الحضري ، كانت تربط كل عناصر النسيج . وتتكون شبكة الحركة في مدينة تونس من المستويات المتدرجة الآتية التي يستند اليها الهيكل الحضري :ـ

٢ ـ ١ : شبكة الطرق الرئيسة العامة :

وتتكون من المستويات الثانوية الآتية :ـ[٢٦]

ـ المستوى الأول : ويكون العمود الفقري لنظام الشوارع ويربط البوابات الرئيسة للمدينة مع بعضها ومع قلبها حيث تقع الفعاليات المركزية ، وترتبط خارجياً مع الطرق المؤدية الى المدن والقرى الأخرى .
وتحتوي المدينة على عدد قليل ومحدد (٢ او ٣) عادة من شوارع هذا المستوى المخطط فعلًا لهذا الغرض ، وأن أحدهايمثل المحور الرئيس للسوق في قلب المدينة وتمثل شوارع هذا المستوى المحاور الرئيسة للحركة وتتفرع منها محاور ثانوية عديدة .

ـ المستوى الثاني : وهي الطرق الرئيسة التي تربط المحلات السكنية المتجاورة مع بعضها او تخترقها وتربط بشكل مباشر بين شوارع المستوى الاول .

ـ المستوى الثالث : وهي الشوارع الثانوية التي تخدم المناطق الواقعة ضمن المحلة السكنية ، وهي المناطق التي لا تخدمها شوارع المستوى الثاني . وتستعمل عادة من قبل سكان المحلة أنفسهم او من له اتصال بهم . وفي نقاط عامة ومشتركة تظهر ضمن هذا المستوى فعاليات تجارية وخدمية لخدمة المحلة السكنية .

٢ ـ ٢ : نظام الأزقة :

تؤدي الى مجموعة محددة من المساكن وتمثل منطقة الانتقال بين الحيز شبه العام والحيز الخاص في المسكن . ولا يوجد نمط محدد لكيفية ارتباط هذه الأزقة مع شبكة الشوارع العامة ، أذ يمكن ان ترتبط مع أي من المستويات الثلاثة فيه . ويتراوح طول هذه الأزقة بين تسعة أمتار كحد ادنى ومئة وأربعين متراً كحد اعلى وبمعدل أربعين متراً ، بينما يتراوح عرضها بين مترين وأربعة . ومن أهم العوامل المؤثرة على سعة واتجاه الطريق وكذلك مستواه وأهميته ، هو مداخل المدينة وموقع الجامع الكبير والسوق حيث تلتقي الشوارع الرئيسة في قلب المدينة .

٢ ـ ٣ : تغطية الشوارع :

يظهر نظام تغطية الشوارع في المدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي نتيجة لجملة من المتطلبات وكما يلي :[٢٧]

حاجة الى فضاء اضافي ضمن الابنية السكنية (بشكل خاص) ، حيث يغطي الزقاق او الطريق بفضاء يمتد من احدى الكتلتين (الواقعتين على جانبي الزقاق) او من كليهما ويمكن ان يتكرر ذلك بشكل متعاقب وكونه غطاء وممراً مستمراً يضفي عليه الشعور بالانطلاق .

ـ متطلبات تغطية طرق المشاة لحمايتهم من التأثيرات المناخية . ويتجلى ذلك بشكل واضح في محاور الأسواق الرئيسة حيث تكون العقود والسقوف المائلة هي الطريق السائدة .

ـ الحاجة الى أسناد الجدران المتقابلة .

ان لاستعمال اساليب التغطية في الشوارع والأزقة مردودات

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

أيجابية من النواحي المناخية والبيئية ويحدث تلاعباً بالظل والضوء مما يحسن من خواصها البصرية .

٣ ـ التنظيم الاسكاني :

امتاز التنظيم الاسكاني في المدينة العربية الاسلامية في كافة انحاء العالم الاسلامي بشكل عام وفي مدن المغرب العربي بشكل خاص بتفرده في شكل وتكوين الوحدة السكنية المنفصلة وفي التكوين الناتج عن تجميع هذه الوحدات الذي شكل كيانات مميزة ذات علاقات وسمات عمرانية تقدم تعبيراً تلقائياً عن تاثيرات القيم الثقافية والعوامل الطبيعية على الهيكل العمراني للمدينة .

٣ ـ ١ : المجموعة السكنية :

من أهم السمات التي ميزت المدينة العربية الأسلامية عن تلك المخططة تحت نظام سلطة مركزية ، هي قدرة البيئة التقليدية على الانتقال بالفضاء الحضري الي صيغ تجميعية مشكلة كيانات كبيرة من كتلة مبنية تتكون من ملكيات فردية محددة لكنها متضامنة مع بعضها . يرتبط سكان هذه التجمعات المتضامنة مع بعضهم بروابط مختلفة وتترك تفاصيل تنظيم هذه التجميعات لهم . وتعد المناطق السكنية من المكونات الحضارية المميزة ، وتشغل مساحة كبيرة منها تقارب الثلثين ، كما نلاحظ في مدينة تونس ،[٢٨] وتكون من عدد من الأحياء .

وقد ظهرت فكرة القطاعات السكنية في مدن ما قبل الاسلام والمدن التي تأسست في عهد الفتوحات الاسلامية بما يعني أدخال القيم الاجتماعية القبلية في الحياة الحضرية . وفي عهد الاسلام نضجت وتطورت تلك الفكرة كظاهرة عمرانية سياسية واجتماعية حتى اصبحت المدينة مقسمة الى عدد من الأحياء .[٢٩]واهم ما تبينه هذه الميزة هو الفصل بين الفضاء العام والفضاء شبه العام ، فالفضاء شبه العام المتكون من هذا التشكيل هو داخل هذه التجمعات الكبيرة التي يمكن ان تدعى بالقطع الكبيرة ، وهي الاساس في الميزة العضوية للمدن العربية الاسلامية . ويتم الوصول للتجميعات السكنية المفيدة ضمن القطع الكبيرة بواسطة أزقة مسدودة النهاية تكون ضيقة وتتفرع عن الشوارع الرئيسة . هذه الازقة تكون تحت ملكية وأدامة وصيانة المستخدمين لها ، وهي غالباً ما تعد بمثابة الملك الخاص لهم . ويتكون الهيكل الحضري للمناطق السكنية من نسيج متضام (Compact Urban Fabric) يمثل الاستجابة العقلانية لنمط الحياة السكنية ولمتطلبات المجتمع العربي الاسلامي الدينية والاجتماعية الحضارية ، مما جعله أحد المعالم المميزة للمدن العربية الاسلامية(الشكل ١٢) . فالنسيج المتضام يوجد عبر ترابط مكوناته (الوحدة السكنية وشبكة الحركة) بيئة سكنية ذات طابع انساني تكون الأولوية في الأهمية لحركة السابلة .[٣٠]

٣ ـ ٢ : الحي السكني :

بدأ التركيب الاجتماعي لمدن ما قبل الاسلام على أسس اجتماعية قبلية . وفي مدن الاسلام الأولى استوطن العرب المسلمون على هذا الأساس كما في مدينة القيروان ، فكان اكتمال تطور الحي كظاهرة اجتماعية ، سياسية وعمرانية مستمراً في المرحلة الاسلامية تنقسم الى قطاعات تنظيمية سميت الحارات ، المحلات ، الأحياء ، القطاعات . وحافظت العديد من أحياء المدينة على تماسك جيد لتظهر كمجتمعات متجانسة متضامنة متجاورة وليحتفظ كل حي بميزة خاصة به .[٣١] بني تماسك بعض الاحياء او القطاعات على أسس اجتماعية دينية ، كما تكونت احياء اخرى تجمع قرويين من اصول واحدة في بعض المناطق الحضرية ، وكان هناك أسس اقتصادية لتجانس احياء معينة وبعضها سمي على اسم او حرفة ، واعطت السيطرة المشتركة للسكان على كل من هذه الأحياء ميزتها الخاصة ، ولا يوجد شاهد في المدينة العربية الاسلامية للفصل على اساس الطبقات الاقتصادية للمجتمع ، فالأحياء كانت مجتمعات تتكون من الاغنياء والفقراء .[٣٢] مع ذلك لم تكن الأحياء في المدينة منفصلة عن بعضها من الناحية العمرانية وأنما كانت لها شوارع وقطاعات متجاورة ضمن المدينة لا تنفصل عن بعضها ألا في أوقات الضرورة بواسطة بوابات ، كانت الى جانب كونها حدوداً محددة محسوسة للحي ونقاط فصل بين الفضاء الخارجي والداخلي (لسكان الحي) ، تمثل تحديداً لامتدادات المسؤولية المشتركة للسكان للصيانة والادامة والتغيير .(الشكل ١٣) كان كل حي يمثل من خلال تكوينه المتضام وحدة محصنة مكتفية بخدماتها الأساسية ومستقلة عند الضرورة ، لها جامع ، حمام عام ، سوق صغير ، وربما مشاغل صغيرة ، وهذه عناصر منفصلة عمرانياً عن سوق المدينة وخدماتها محددة بأحيائها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣ ـ ٣ : الوحدة السكنية :

يتم تشكيل النسيج العمراني للحي والمحلة السكنية من خلال تكرار خلايا منفردة ذات ابعاد ومساحات متباينة لا تشترك معاً في العديد من جدرانها الخارجية من خلال تلاصقها . تمثل كل من هذه الخلايا المسكن التقليدي . جاء شكل وتكوين المسكن التقليدي الأول نتاجاً لعوامل مؤثرة عديدة مثل الفلسفة والتقاليد الاسلامية ، مواد البناء المتوفرة ، حياة العائلة الاجتماعية ، التأثيرات الثقافية وتجارب المراحل التاريخية السابقة ، والمناخ ولكن الثقافة الأسلامية للمجتمع أوضحت آثارها ايضاً على هذه الخلية ، اذ يرفض الفكر الأسلامي مبدئياً البذخ و الشموخ في بناء المساكن التي عندها قد تصبح رمزاً للفخر والتكبر . لذلك امتاز المسكن التقليدي بأنه واطىء البنيان وصغير ويندر ظهور المساكن الواسعة في المدن العربية الاسلامية [٣٣] ولكن ذلك لا يعني عدم كفاءته التي كانت منخفضة في مختلف انواع المساكن .

وتتميز الوحدات المعمارية لمدينة تونس بعدم انتظام مساحتها نتيجة لعدم انتظام مواقعها وتداخلها مع بعضها وهو ما يرتبط عادة ونظام الأزقة العضوية Organic بما فيها غير السالكة التي انتجت بالضرورة هذا النمط من المساحات غير المنتظمة المتباينة المساحة(الشكل ١٤) .

وتعد بيوت (منازل) مدينة تونس بشكل خاص ومدن المغرب العربي بشكل عام ، نموذجاً من التصميم المعماري للبيت العربي الاسلامي ذي الصحن (الفناء) الذي من خصائصه ان جزء المعيشة فيه يتكون من صحن مفتوح للسماء وتطل عليه ايوانات الجلوس ، تتقدمها لوجيات [٣٤].

كما تتماثل بالمدخل المنكسر والانغلاقية العالية بوجه الخارج وتتشابه في مظهرها الخارجي العام من خلال تلاصق الأبنية مع بعضها وكتلتها الصماء(الشكل ١٥) ، وقد استمر استخدام هذا النموذج في مدينة تونس منذ الفتح الاسلامي وانشاء الخلفاء للمدن في المغرب العربي الى الوقت الحاضر مع بعض التحوير والتطوير لمسايرة التطور الحضاري .

ويوضح ريفالت Revault في دراسته عن المنازل والقصور في مدينة تونس حيث يؤكد على وحدة المنازل (تجانسها) ومساحتها حيث انها تمثل نموذجاً مثالياً للمنزل المؤلف من طابق واحد ويتألف عادة من فناء للدار تحيط به الغرف مع مدخل مصمم ليمنع النظر المباشر من الخارج الى ساحة المنزل . نرى ان ريفالت Revault يصنف نوع البيوت البرجوازية وبيوت الصنعة المتوسطة وبيوت الاقامة الكبيرة والقصور . فضلاً عن عرض نموذج شائع ومألوف يوضح ان جميع انواع المنازل ذات موقع معين وأنها تقولبت باستعمال مواد البناء المحلية والطرق المتبعة في البناء نفسها [٣٥] (الشكل ١٥) .

٤ ـ الجوانب الاجتماعية ـ الاقتصادية :

[illegible]
[illegible]
الاجتماعي والاسري حيث راعت الرؤية الاسلامية في تخطيط المدن جوانب التخطيط المختلفة ، سواء كانت عمرانية او اقتصادية او اجتماعية . وما يعمم عليها ما يذكره بعض الباحثين من ان الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لم تكن في تصاميم مخططين [illegible] في الحضارات القديمة وان الاهتمام بها [illegible] اكثر الملامح تميزاً في المجتمع الاسلامي هو فكرة الامة وهو المجتمع الذي يستند الى مبدأ الايمان اكثر من العشيرة او الأسرة كرابطة واحدة اجتماعية . ويرتبط ذلك مبدأ الوحدة . فالأسلام دين التوحيد الذي يهدف العديد من المبادىء فيه الى تقوية رابطة الأيمان وتحقيق مجتمع مترابط .[٣٦] ومن الشروط المرتبطة بالتخطيطين الاجتماعي والاقتصادي للمدينة الاسلامية شرط ابن الربيع على الحاكم ان « ينقل اليها من اهل العلم والصنائع بقدر الحاجة الى سكانها ، حتى يكتفوا بهم ويستغنوا عن الخروج الى غيرها » .[٣٧] وازدهرت المدن في المغرب العربي وارتقت احوالها الاقتصادية وزادت دخول سكانها ، فأصبحت مراكز استقطاب تغري أهل الريف بالهجرة اليها والقدوم الى أحيائها والأستقرار في ربوعها ، حيث يبحثون لانفسهم عن حرف جديدة تغير طبيعة حياتهم السابقة . حدثت هذه الظاهرة وهي الهجرة من الريف الى المدينة ، مع الفتوحات ونشوء المدن وازدهارها في المغرب العربي ، فمغريات المدن وكثرة العمران فيها واشتداد الطلب على الأيدي العاملة للتشييد والبناء وتحسن مستوى الحياة وأرتفاع الأجور أدت الى جذب الزراع وسكان الريف اليها ، وهذا ما حدث في مدن القيروان وتونس وفاس . أما الشكل الآخر من اشكال التنظيم الأجتماعي الذي تطور في المدن العربية الأسلامية ولا زال قائماً في معظمها فهو نظام (المحلات

السكنية) فالمحلة السكنية يسكنها سكان متجانسون في الدين ، والاصل القومي . وقد نجح هذا النظام في توفير الجو السكني والاقتصادي الكفؤ وحتى وقت قريب جداً حيث توافقت الجوانب الانسانية والعوامل العمرانية بصورة خدمت وبنجاح الهدف الوظيفي للمدينة وبشكل أنعكس على نشاطها الاقتصادي .[39] ان التجانس بين سكان القطاعات كان يستند بالدرجة الأولى على أساس ديني واسري وليس على اساس الثراء مما ساهم في اختلاط السكان بمستويات دخولهم المختلفة معطياً المجتمع الاسلامي بعداً انسانياً . وتتميز المجتمعات الأسلامية أيضاً بغياب الآلية الأدارية القوية ، حيث كان علماء الدين هم المسؤلون والقائمون على الأوقاف وهم مسؤولو مدارس القانون الأسلامية . لقد كان تنظيم الحياة الأجتماعية في المدن العربية الأسلامية يتم من خلال سلسلة متدرجة من الهياكل والمؤسسات ، وتشمل هذه الهياكل ، الجامع ، مدرسة الفقه الأسلامي ، نقابات التجار ، والأنغلاق (العائلية والقبلية والدينية) ، ان اكثر هذه الهياكل اهمية هو الجامع وهو المؤسسة الدينية والثقافية التي تستوعب الفعاليات الدينية والتعليمية والثقافية والمكان الذي تحتك فيه القطاعات المختلفة من المجتمع الحضري مع بعضها . وقد ساهمت مدارس الفقه الأسلامي في تكوين الروابط التي تطورت الى تكوين جماعات تشترك في انماط معينة للحياة . وكان لها دور عميق في الحياة الأجتماعية للمدينة وأن السوق . وهو مركز الفعاليات التجارية يؤدي دوراً مهماً في احتكاك افراد المجتمع على اختلاف شرائحهم . وفي ربط المدينة وتكاملها مع مجاوراتها ، بحيث ان ادارة التجارة في المدن العربية الاسلامية قد ساعدت في تنظيم الحياة الاقتصادية ،الاجتماعية للمدينة .[40]

٥ ـ المشهد المديني :

لأظهار تميز المدينة العربية الاسلامية في مشهدها المديني عن المدن في الحضارات الاخرى ، بالأمكان التركيز على مكون رئيسي يميز المشهد المديني ويوضح مدن الحضارات المختلفة ، ذلك هو مشهد المناطق السكنية . يتحدد الشارع في المدينة الأسلامية بجدران الأبنية المحيطة به التي تقع مباشرة عليه دون مسافة ارتداد ، هذا الشارع يتمتع بحالة من الوحدة العالية في الأرتفاعات وفي سيادة مواد بناء محلية متشابهة ، وفي العادة تبنى المساكن من الطابوق الظاهر او انها تطلى بالجير كما في اغلب المدن في المغرب العربي . يتميز الجدار الخارجي للمنزل التقليدي بانعدام اومحدودية النوافذ في الطابق الأرضي مع وجود فتحة واضحة للباب تمتاز بدرجة عالية من التاكيد على الزخارف والاقواس . في حين يقدم الطابق الأول مساهمة كبيرة في المشهد المديني للزقاق من خلال المشبكات الخشبية او الحديدية للفتحات او البروزات المعلقة ذات الواجهة الخشبية (الشناشيل) والتي تبرز على فضاء الطريق لتؤكد على الأستمرارية بين الداخل والخارج من خلال توليدها أحساساً بالأنسيابية بين النسق الفضائي الداخلي والنسق الفضائي الخارجي . هذا فضلاً عن وظائفها المناخية للمسكن والزقاق ودورها في ابراز المقياس الأنساني لعناصر [illegible] تجعل البروزات المعلقة الفضاءات المغطاة أمام فضاءات شبه خاصة . يساعدها في ذلك محدودية عرض الزقاق بالنسبة لأرتفاعه ، وهو ما يوفر الشعور بالاحتواء شبه الكامل [illegible] الساحة كعنصر حضري في التجمع السكني خدمة فعالة [illegible] مشترك مفتوح وأمتداد للفضاء الخاص الداخلي للفرد ليشاركه [illegible] الجيران ، ولهذا تتكون علاقة حميمة وترابط اجتماعي وثيق بين السكان المتجاورين . لقد بنيت المحلة السكنية العربية الأسلامية على مبدأ مد الفضاءات الداخلية الى خارج المسكن ، اي بأستمرار المحاولة لجعل الفضاءات داخلية (تدخيل الفضاءات) للفرد ، للأسرة ، للتجمع السكني الصغير ، للمحلة ، وللمدينة . وبالتالي بامكان الساكن ترسيخ سيطرته ومنطقة نفوذه .

الأستنتاجات :

١ ـ يتميز العرب بحضارتهم الأصيلة التي تمتد جذورها التاريخية في الجزيرة العربية قبل الأسلام . مقدمة نمطاً تخطيطياً أصيلاً ، تأصل في العصور الاسلامية المختلفة بعمقه وتنوعه وانتشاره في المشرق والمغرب العربي .

٢ ـ تعد القيروان اول انعكاس لتأثير تخطيط مدن المشرق العربي على المغرب العربي أذ مثلت اول مدينة عربية اسلامية تم تخطيطها في المغرب العربي مؤثرة على تخطيط المدن خلال القرون الأربعة الأولى من تاريخ الأسلام .

٣ ـ كان المنهج المتبع في تقسيم الخطط في المدن العربية الاسلامية الأولى في المغرب العربي ، هو الأساس نفسه الذي سار عليه اقطاع الخطط والمنازل في المدن العربية الاسلامية الناشئة في المشرق العربي ، هادفة لتجميع كل قبيلة في خطة خاصة بها ، وتركت حرية تقسيم القبيلة وفقاً لظروفها وأمكاناتها في الأنشاء والتعمير ، ومدى الحاجة الى ذلك ، كما روعيت النظرة المستقبلية لامتداد العمران ، مثل ما حدث في مدينة القيروان .

٤ ـ ان للمدينة العربية الاسلامية أسساً تخطيطية واحدة ، مما يدل على انتمائها الحضاري الموحد ، مع بعض الخصوصية لكل أقليم من اقاليمها كونها ناتجاً لتفاعل مقومات وأفكار الحضارة العربية الأسلامية مع الحضارات المحلية والظروف البيئية والمناخية

السائدة ، حيث تنتج الشخصية الحضارية المتمثلة بالمدينة العربية الاسلامية من تفاعل التشريع والسلوكيات مع الثقافات المحلية للبيئة ، وتتميز تبعاً لذلك مدينة عن أخرى مع اشتراك المدن المختلفة في العالم العربي الاسلامي بطابع ومشهد Urban Scene واحد .

٥ ـ تكاد خصائص المدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي تكون موحدة مقارنة مع الحال في المدن العربية الاسلامية المشرقية لأن الأولى أحتفظت بنسيجها الحضري القديم وخصائصها وشكلها الحضري ومورفولوجيتها ، داخل نطاق الخصائص المميزة لكل مدينة ، لعدم تعرض المغرب العربي لاي تيار ثقافي خارجي حتى مطلع العصر الحديث ، بينما تعرضت بلاد المشرق العربي للتأثيرات البيزنطية والتركية والفارسية والمغولية ، فكان لذلك أثره في تغير أشكال طرزه المعمارية ، مقارنة مع المغرب العربي ، مما اتاح لمدن المغرب العربي على الاحتفاظ بأصولها ، مما أضفى على تخطيط المدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي أصالتها .

٦ ـ تتكون المدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي من مجموعة من المحلات السكنية المتمايزة فيما بينها ، والمتالفة من مجاميع من الدور السكنية المتضامة ، حيث تشترك المناطق السكنية جميعها بسيادة روح التآلف والتجانس مع بعضها من جهة ، ومع باقي مكونات وأجزاء المدينة من جهة أخرى من خلال عضوية التغير الذي يستجيب للسلوك الانسيابي لافراد المجتمع العربي المسلم .

٧ ـ كان لتراتب الشوارع (التدرج الهرمي) في المدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي أثره الايجابي في ربط الوحدات السكنية مع بعضها ومع مراكز المدينة مما خلف نسيجها الحضري وأكسبها هويتها المتميزة .

٨ ـ يعد المسجد الجامع من اهم مكونات مخطط المدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي كما في المشرق العربي ، وشكل مظهراً مهماً من مظاهرها ، وهو أول ما ينشأ في المدينة ويقع في وسطها الذي هو مركزها عادة يمثل رمزاً من رموز الايمان الروحي للمسلمين فضلاً عن وظائفه الاخرى كالتعليمية والسياسية . وانجذبت نحوه الأسواق وأقيمت حوله المساكن ومنه اتجهت الشوارع التي ربطت أجزاء المدينة بعضها مع البعض الآخر لتعكس أيجابياً على النسيج الحضري للمدينة .

٩ ـ تتوزع الشوارع الرئيسة باتجاه المسجد الجامع في وسط المدينة من مداخلها ومخارجها وتليها الشوارع الفرعية التي تربط المحلات السكنية وهذا يعني ان هناك ارتباطاً وثيقاً بين استعمالات الأرض الحضرية بعضها مع بعض داخل المدينة مما ينعكس على مخطط المدينة العربية الاسلامية في المغرب العربي .

١٠ ـ تعد مساكن (منازل) مدن المغرب العربي بشكل عام ومدينة تونس بشكل خاص ، نموذجاً من التصميم للبيت العربي الاسلامي ذي الصحن (الفناء) بكل خصائصه التصميمية او الوظيفية الملائمة للمرحلة الحضارية التي ظهر فيها .

□ ـــــــ الهوامش ـــــــ □

١ ـ الاشعب ، د. خالص حسني ، « المدينة العربية » ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، قسم البحوث والدراسات الجغرافية ، بغداد ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢ م ، ص٢١ .

٢ ـ Ardalan, Nadar & Backtiar, « The sence of unity», University of chicago Press, U. S. A., 1973, PP. 89 – 93 .

٣ ـ عثمان ، محمد عبد الستار ، « المدينة الاسلامية » ، سلسلة عالم المعرفة ، دراسة رقم (١٢٨) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٨٥ م ، ص٩٥ .

٤ ـ ممفورد ، لويس ، « المدينة على مر العصور ـ وأصلها وتطورها ومستقبلها » ، الجزء الاول ، ترجمة ابراهيم نصحي ، أنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٤ م ، ص١٣٣ .

٥ ـ معروف ، د. ناجي ، « عروبة المدن الاسلامية » ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٦٤ م ، ص٣٠ .

٦ ـ البكري ، ابو عبد بن عبد العزيز بن محمد (٤٣٢ هـ ـ ٤٨٧ هـ) . « المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب » ، وهو جزء من كتاب ، « المسالك والممالك » ، نسخة مكتبة المثنى ، بغداد ، عن الطبعة الاوربية ، نشر رولان ، طبعة باريس ١٩٦٥ م ، ص٢١ .

٧ ـ ياقوت الحموي ، شهاب الدين بن عبد الله (ت ٦٢٦ / ١٢٢٩ م) ، « معجم البلدان » ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٥٧ م ، ص٣٩١ ـ ٣٩٢ .

٨ ـ عاشور ، د. سعيد عبد الفتاح وآخرون ، « دراسات في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية » ، طبعة ثانية ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، ص٢٢٨ .

٩ ـ مؤنس ، د. حسين ، « المساجد » ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، صفر / ربيع الاول ١٤٠١ هـ / كانون الثاني ١٩٨١ م ، ص٢١٢ .

١٠ ـ مؤنس ، د. حسين ، « المساجد » ، مصدر سابق ، ص٢١٧ .

١١ ـ الشافعي ، د. فريد ، « العمارة العربية في مصر الاسلامية » ،

منشورات الهيئة المصرية للكتاب والنشر والترجمة ، ج ١ ، القاهرة ، بلا تاريخ ، ص٦٤٧ .

١٢ ـ لومبير ، أيلي ، « تطور العمارة الاسلامية في اسبانيا والبرتغال وشمال افريقيا » ، تعريب جليان عطا الله ، بيروت ١٩٨٥ م ، ص٦٨ .

١٣ ـ المقدسي ، شمس الدين ابو عبد الله (ت ٣٩٠ هـ) ، « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » ، نسخة مكتبة المثنى ، مطبعة برل ، ليدن ، المانيا ، ١٩٠٦ م ، ص٢٦٦ .

١٤ ـ كونل ، « الفن الاسلامي » ، ترجمة : احمد موسى ، بيروت ١٩٦٦ م ، ص١١ ـ ١٢ .

١٥ ـ Ansari, J. shaheer, « Astrategy for planing an Arab Town », in, « The Arab City », The Arab Urban Development Institute, Riyadh, 1982, P. 273.

١٦ ـ Ibid, P. 278.

١٧ ـ Hakim, B., Selim, « Arab – Islamic cities, Building and planing Principles », KPI limited, london, England, 1986, P.70.

١٨ ـ Bianca, Stefano, « Traditional Muslim cities & western planning Ideology : Anoutline of sturctural conflicts », in « The Arab City », The Arab Urban Development Institute, Riyadh, 1982, P.42.

١٩ ـ Hakim, B., Selim, « Arabic – Islamic cities » op – Cit, P. 70

٢٠ ـ ج . دييوا ، « تونس » تعريب الصادق مازيغ ، الدار التونسية ١٩٦٩ م ، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١ .

٢١ ـ الاشعب ، د. خالص حسني ، « الحفاظ على النسيج الحضري الموروث في المدينة العربية الاسلامية » ، مجلة كلية الاداب ، المجلد ٣٣ ، العدد الاول ، ص٥٣ .

٢٢ ـ Wheathly, p, « Levels of space Awarenss in the traditional islamic city , in « Ekistics », No. 253, Dec 1967, P. 365.

٢٣ ـ Ansari, J. h & shaheer.M « Astrategy for planing an Arabic Town », op ' cit, pp.274 ' 277.

٢٤ ـ Bianca, Stefano, « Traditional Muslim cities & western planning Ideology : op – cit, p.40.

٢٥ ـ Janet Abu – Lughod, « Contem porary Relevance of Islamic Urban Principles », International Symposum on Islamic Architecture and Urbanism », in, « Ekistics », No. 280,Jan / Feb 1980, p. 8.

٢٦ ـ Hakim, B., Selim, « Arabic – Islamic cities » op – Cit, P. 64

٢٧ ـ Hakim, B., Selim, « Arabic – Islamic cities » op · Cit, P. 64

٢٨ ـ Hakim, B., Selim, « Arabic – Islamic cities » op – Cit, P. 115

٢٩ ـ Ismail, A. A, « Origin, Ideology & physical pattern of Arab Urbainzation », in, « Ekistics », No. 195, Feb 1972, P.116.

٣٠ ـ Warren, John, « characteristics of IslaMic Arab Architecture Building & Urban form »,

بحث في ندوة ، « التراث المعماري والعمارة العربية المعاصرة » ، بغداد ١٥ ـ ١٧ ايلول ، ١٩٨٠ م ص٨ ـ ٩ .

٣١ ـ Lapidus, Ira Marvin, « Muslim cities in the later middle ages », The M. I. T. press, Cambridge, massachnsetts, 1967, p.85.

٣٢ ـ Ismail, A. A, « Architecture Building & Urban form » op – cit, P.116.

٣٣ ـ De Planhol, Xavier, « The world of Islam », Ithaca, 1959, p.23.

٣٤ ـ فتحي ، المهندس ، « العمارة العربية الحضرية بالشرق الاوسط » ، محاضرة ألقاها في جامعة بيروت العربية ، ٢٩ نيسان ١٩٧١ م ، ص١٥ ـ ١٦ .

٣٥ ـ Hakim, B., Selim, « Arabic – Islamic cities » op – Cit, P. 96.

٣٦ ـ عثمان ، محمد عبد الستار ، « المدينة الاسلامية » ، مصدر سابق ، ص٩٦ .

٣٧ ـ Ansari, J. h & shaheer.M « Astrategy for planing an Arab Town », op – cit, pp.274 ' 277

٣٨ ـ القزويني ، (ابو زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ) ، « آثار البلاد وأخبار العباد » ، دار الصياد ، بيروت ١٩٦٠ م ، ص٩٤ .

٣٩ ـ الاشعب ، د. خالص حسني ، « أصالة المدينة العربية » ، مجلة آفاق عربية ، العدد ١ ، بغداد ، ايلول ١٩٧٧ م ، ص٣٤ ـ ٣٥ .

٤٠ ـ Hassan, R, « The Islam & Urbanization in the medieval middle East », in, « Ekistics », No. 195, 1972.PP.110 – 111.

المصادر والمراجع العربية :

١ ـ الأشعب ، د. خالص حسني ، « المدينة العربية » ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، قسم البحوث والدراسات الجغرافية ، بغداد ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢ م .

٢ ـ الأشعب ، د. خالص حسني ، « الحفاظ على النسيج الحضري الموروث في المدينة العربية الأسلامية » ، مجلة كلية الآداب ، المجلد ٣٣ ، العدد الأول .

٣ ـ الأشعب ، د. خالص حسني ، « أصالة المدينة العربية » ، مجلة آفاق عربية ، العدد ١ ، بغداد ، ايلول ١٩٧٧ م .

٤ ـ أويجن فيرت ، « المدينة الشرقية والقواعد الذاتية لتطوراتها الحديثة » ، « مقالات حول جغرافية المدينة الشرقية الاسلامية في (دراسات جغرافية المانية حول الشرق الأوسط) ، تحقيق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أويجن فيرت ، ترجمة فؤاد ابراهيم وآخرون ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٣ .

٥ - بروفنسال ، ليفي ، « كتاب الشرق الأسلامي والحضارة العربية الأسلامية » ، تطوان ، دار الطباعة المغربية ١٩٥١ م .

٦ - البكري ، ابو عبيد بن عبد العزيز بن محمد (٤٣٢ هـ - ٤٨٧ هـ) ، « المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب » ، وهو جزء من كتاب ، « المسالك والممالك » نسخة مكتبة المثنى ، بغداد ، عن الطبعة الاوربية ، نشر دولان ، طبعة باريس ١٩٦٥ م .

٧ - ج . ديبوا ، « تونس » ، تعريب الصادق مازيغ ، الدار التونسية ١٩٦٩ م .

٨ - الشافعي ، د. فريد ، « العمارة العربية في مصر الاسلامية » ، منشورات الهيئة المصرية للكتاب والنشر والترجمة ، ج ١ ، القاهرة ، بلا تاريخ .

٩ - عاشور ، د. سعيد عبد الفتاح وآخرون ، « دراسات في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية » ، [illegible] ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت ، [illegible] هـ / ١٩٨٦ م .

١٠ - عثمان ، محمد عبد الستار ، « المدينة الاسلامية » ، سلسلة عالم المعرفة ، دراسة رقم (١٢٨) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٨٥ م .

١١ - فتحي ، المهندس ، « العمارة العربية المعاصرة بالشرق الأوسط » ، محاضرة ألقاها في جامعة بيروت العربية ، ٢٩ نيسان [illegible] م .

١٢ - كوتل ، « الفن الاسلامي » ، ترجمة : احمد موسى ، بيروت ١٩٦٦ م .

١٣ - القزويني ، (ابو زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ) ، « آثار البلاد وأخبار العباد » ، دار الصياد ، بيروت ١٩٦٠ م .

١٤ - لومبير ، أيلي ، « تطور العمارة الاسلامية في اسبانيا والبرتغال وشمال افريقيا » ، تعريب جليان عطا الله ، بيروت ١٩٨٥ م .

١٥ - مصطفى ، شاكر ، « المدن في الاسلام حتى العصر العثماني » ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

١٦ - معروف ، د. ناجي ، « عروبة المدن الاسلامية » ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٦٤ م .

١٧ - المقدسي ، شمس الدين ابو عبد الله (ت ٣٩٠ هـ) ، « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » ، نسخة مكتبة المثنى ، مطبعة برل ، ليدن ، المانيا ، ١٩٠٦ م .

١٨ - ممفورد ، لويس ، « المدينة على مر العصور - وأصلها وتطورها ومستقبلها » ، الجزء الأول ، ترجمة ابراهيم نصحي ، أنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٤ م .

١٩ - مؤنس ، د. حسين ، « المساجد » ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، صفر / ربيع الأول ١٤٠١ هـ / كانون الثاني ١٩٨١ م .

٢٠ - ناجي ، د. عبد الجبار ، « مفهوم العرب للمدينة الاسلامية » ، مجلة المدينة العربية ، نشر منظمة المدن العربية ، العدد السادس عشر ، السنة الرابعة ، رجب ١٤٠٥ هـ / أبريل ١٩٨٥ م .

٢١ - ياقوت الحموي ، شهاب الدين بن عبد الله (ت ٦٢٦ / ١٢٢٩ م) ، « معجم البلدان » ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٥٧ م .

المصادر والمراجع الاجنبية .

1 – Akbar, Jamel, « Crisis in the Built Environment, The case of [illegible]

2 – [illegible] « [illegible] an Arab Town » in, « The Arab City », The Arab Urban Development Institute, Riyadh, 1982

3 – Ardalan, Nadar & Backtiar, « The sence of unity », University of chicago Press, U. S. A., 1973.

4 – Bianca, Stefano, « Traditional Muslim cities & western planning ideology :

Anoutline of sturctural conflicts », in « The Arab City », The Arab Urban Development Institute, Riyadh, 1982.

5 – De Planhol, Xavier, « The world of Islam », Ithaca. 1959.

6 – Hakim, B., Selim, « Arabic – Islamic cities, Building and planing Principles », KPI limited, london, England, 1986.

7 – Hassan, R. « The Islam & Urbanization in the medieval East », in, « Ekistics », No. 195, 1972.

8 – Ismail, A. A. « Origin, Ideology & physical pattern of Arab Urbainzation », in, « Ekistics », No. 195, Feb 1972.

9 – Kevin Lynch, « Atheory of Good city form », The Mitpress cambridge, Massachusetts, U. S. A., 1981.

10 – Janet Abu – Lughod, « Contem porary Relevance of Islamic Urban Principles », International Symposium on Islamic Architecture and Urbanism », in, « Ekistics », No. 280, Jan / Feb 1980.

11 – Warren, John, « characteristics of IslaMic Arab Architecture Building & Urban form »,

بحث في ندوة ، « التراث المعماري والعمارة العربية المعاصرة » ، بغداد ١٥ - ١٧ ايلول ، ١٩٨٠ م .

12 – Wheathiy, p., « Levels of space Awarenss in the traditional Islamic city », in « Ekistics », No. 253, Dec 1967.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تنشر اول مرة

رسائل المبارك بن احمد بن المبارك بن موهوب الملقب شرف الدين بن المستوفي اللخمي الاربلي الكاتب ،

حققها
الأستاذ هلال ناجي
على نسخة فريدة

اسمه ونسبه وكنيته ولقبه[1]

ابو البركات المبارك بن احمد بن المبارك بن موهوب بن غنيمة بن غالب اللخمي ، المنقب شرف الدين ، المعروف بابن المستوفي الاربلي وذكر ابن الشعار انه من ذرية النعمان بن المنذر بن ماء السماء من بيوت الحيرة وان جده قدم الى إربل من الموصل .

وقد وقع في بعض المصادر خلاف في سلسلة نسبه ففي التذكرة الفخرية اسقط اسم جده المبارك . وفي مخطوطة ابن الشعار حُرِّف اسم موهوب الى ميمون . وفي بغية الدعاة (ابي موهوب) والصواب : ابن موهوب وقد اثبتنا ما ذكره المنذري وابن خلكان لدقتهما .

مولده[2]

مولده في النصف من شوال سنة أربع وستين وخمسمائة بقلعة اربل .

شيوخه[3]

قرأ القرآن الكريم والأدب على أبي عبد الله محمد بن يوسف البحراني ، وأبي الحرم مكي بن ريّان الماكسيني ، وسمعَ بإربل من أبي ياسر عبد الوهاب بن هبة الله بن أبي حَبّة ، وأبي المظفر المبارك بن طاهر الخزاعي ، وأبي المعالي نصر الله بن سلامة الهيتي ، وأبي علي حنبل بن عبد الله بن فرج ، وأبي حفص عمر بن محمد بن طبرزد ، وأبي محمد عبد اللطيف ابن الشيخ أبي النجيب السُّهروردي ، وجماعة كبيرة من الواردين .

وكانت له اجازات من جماعة من بينهم أبي جعفر الصيدلاني .

تلامذته[4]

أجاز لابي نصر شمس الدين بن الشيرازي ، وسمع ... بن خلكان كثيراً واجاز المنذري .

اسرته[5]

كان من بيت فضيلة وتقدم : والده أبو الفتح احمد ، ولي الاستيفاء بإربل بعد والده الى أن مات ، وعمه أبو الحسن علي بن المبارك تأدب وسمع الحديث وكان فاضلاً يكتب العربية والعجمية ، وله نظم ونثر . وجدّه المبارك بن موهوب ولي الاستيفاء باربل مدة ، وله شعر .

قال ابن خلكان :[6] وكان عمه المذكور فاضلاً وهو الذي نقل « نصيحة الملوك » تصنيف أبي حامد الغزالي من اللغة الفارسية الى العربية . فان الغزالي لم يضعها إلّا بالفارسية ، وقد ذكر ذلك شرف الدين في تاريخه .

خلائقه[7]

كان رئيساً جليل القدر كثير التواضع واسع الكرم ، لم يصل الى إربل أحدٌ من الفضلاء إلّا وبادر الى زيارته وحمل اليه ما يليق بحاله ، وخصوصاً الادباء فقد كانت سوقهم لديهم نافقة ، وكان جمّ الفضائل .

وقال بهاء الدين المنشى الاربلي يصفه :[8] داره مجمع الآداب والفضائل وربعه بوفود العفاة عامرٌ أهل ، كان له ملك له حاصل صالح يخرجه على عُفاته ويصرفه في صِلاته متواضع للادباء ، حدبٌ على الغرباء ... حتى قال : وكان عنده في الديوان شراسة خلق ، ويلقى الناس في داره بوجه سهل طلق ، فقيل فيه مواليأ :

ما أحسنك في البيت
ما أوحشك خلف الكيس

وكان مُمَدَّحاً . وقال الاشرف الغساني عنه :[9] كان موصوفاً بالصلاح كثير الصوم والتعبد وفيه يقول ابن خلكان : ولقد كان ، رحمه الله ، من محاسن وقته (الوفيات / ٤ / ١٥٢) .

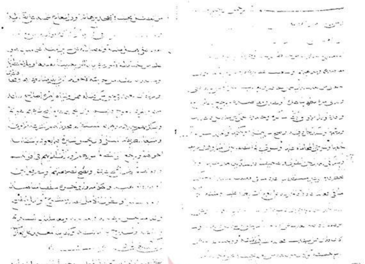

[الورقة الأولى من مخطوطة [illegible]]

وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

وظائفه وطرف من حياته(٨)

ذكر ابن خلكان ابن شرف الدين المبارك كان مستوفياً للديوان سنة ست وعشرين وتسعمائة حين خرج هو من إربل . والاستيفاء منزلة علّية ، وهو تلو الوزارة وذكر ابن الشعار : انه خدم الملك المعظم مظفر الدين كوكبدري وكتب له الانشاء اربعين سنة لم يتناول على ذلك اجراً ولا جراية . وان الملك المذكور اعتقله في السجن وقيده بقيد ثقيل وأخذ منه سبعة آلاف دينار .. ثم قبض الملك على وزيره ابراهيم بن علي الموالي الموصلي ، فوّض امر الوزارة الى المبارك ، وهكذا تولى الوزارة في سنة تسع وعشرين وستمائة لمظفر الدين كوكبدري وانه شُكرت سيرته فيها ولم يزل عليها حتى مات مظفر الدين ، فاخذ الامام المستنصر - الخليفة العباسي - إربل في منتصف شوال من السنة المذكورة وقعد شرف الدين في بيته ، وكان الناس يلازمون خدمته ، الى أن أخذ التتار مدينة إربل في شوال سنة اربع وثلاثين وستمائة ، وجرى عليها وعلى أهلها ما قد اشتهر . وكان شرف الدين في جملة من اعتصم بالقلعة وسلم منهم ، ولما رحل التتار عن القلعة انتقل الى الموصل فلقيه أمين الدين لؤلؤ بن عبد الله البدري أحد الامراء الاكابر بالاكرام والاحترام . قال صاحب التذكرة الفخرية : وبالموصل اجتمعت به وكنت يومئذ صغيرا .

وذكر المنشى الاربلي ان شرف الدين اعتكف في بيته زمن (باتكين) بالرغم من محاولة هذا استيزاره وان يكون نائبه في الاشغال الديوانية وانصرف الى علومه وآدابه الى أن أخذ التتار اربل وحين خرج منها انشد :

فـارقتكم مكـرهـاً لا كـارهـاً ويـدي
أعضُهـا نَـدَمـاً إذ لم أمُت كمـدا
والله لـو أنّ ايـامي تطـاوعني
على اختيـاري مـا فـارقتكم ابـدا

واقام في الموصل في حرمة وافرة ، وله راتب يصل اليه ، وكان عنده من الكتب النفيسة شيء كثير . ولم يزل على ذلك حتى توفي - رحمه الله - ونرى من اللازم ذكر محاولة اغتيال تعرض لها شرف الدين في حدود سنة ٦١٨ هـ إذ طعنه شخص بسكين فاتقاها ، وجرى اسعافه ومعالجته ، فكتب الى الملك مظفر الدين كوكبدري صاحب إربل يخبره بما جرى عليه بهذه الابيات :

يـاأيهـا الملـك الـذي سطـوتُـهُ
من فعلهـا يتعجّبُ المـريـخُ
آيـاتُ جـودك محكمٌ تنـزيلهـا
لا نـاسـخٌ فيهـا ولا منسـوخ
أشكـو إليـك ومـا بُليت بمثلهـا
شنعـاء ذكرُ حـديثهـا تـاريخ
هي ليلـةٌ فيهـا ولـدتُ وشـاهـدي
فيمـا ادّعيتُ القمط والتمـريـخ

فلّما هرب من حاول اغتياله امسكه شخص فقتله ، فقال ابن الظهير الاربلي :

لئن فـدى اللهُ اسماعيل من كَـرَم
بـالـذبـح واستعظمتـه الإنس والجـانُ
فقـد فـداك بـانسـانٍ ولا عجب
أن يُفتـدى بجميـع النـاس انسـانُ

وفاته(١١)

توفى شرف الدين بالموصل يوم الاحد لخمس خلون من المحرم سنة ٦٣٧ هـ . ودفن بالمقبرة السابلة خارج باب الجصاصة - رحمه الله -

العلوم التي اتقنها ومكانته عند المؤرخين .

كان جم الفضائل عارفاً بعدة فنون ، منها الحديث وعلومه واسماء رجاله وجميع ما يتعلق به ، كان إماماً فيه . وكان ماهراً في فنون الادب من النحو واللغة والعروض والقوافي وعلم البيان وأشعار العرب واخبارهم وأيامها ووقائعها وامثالها . وكان بارعاً في علم الديوان وحسابه وضبط قوانينه على الاوضاع المعتبرة عندهم .(١٢)

وقال عنه المنشى الاربلي : « اللغوي النحوي المحدث الكاتب المؤرخ الثقة فارس الآداب المجلي في ميدانها ... صاحب الرواية العالية ورب الفضائل المتوالية »(١٣)

وقال عنه المنذري :(١٤) كان فاضلاً كثير المحفوظ ، حسن الايراد جيّد الخط ، وله شعر جيّد ونثر جيد ، ووصفه ابن الشعار بقوله : « شمس اربل وبدرها ، وعالمها البارع وصدرها ، وفخر أماثلها ، وجمال أفاضلها .. »(١٥)

ابن المستوفي عند شعراء عصره

اجمعت المصادر التي أرخت لابن المستوفي على انه كان جواداً مفضالاً مألفاً للشعراء والادباء متفقداً لهم باراً بهم فكثر مادحوه . فممن مدحه الشاعر سعيد بن سعد الله بن عيسى بن محمد ، أبو الخير ، المعروف بسيدا :

ضمُـذ بنشيء من ذوابـة أحمـدِ
فهمُ الكـرامُ الطيّبـون الصّيـدُ

لـــو أمُّهم يـــومَ القيـــامـــةِ مُجْتـــدٍ
والنـــارُ تـــزفُـــزُ والأنـــامُ سجـــودُ
اعطـــوه بِـــرُ صـــلاتهم وصيـــامهم
كيـــلا يَـــراهُم ســـائـــلٌ مـــردودُ
يـــا آل مـــوهـــوبٍ بكم غَـــرِفَ النـــدى
أنتم مَـــوالٍ والأنـــــامُ عبيـــــدُ

وقال فيه ايضاً :
جـــوعٌ وأنتَ يـــا مـــأوى المُقـــاوى
لنـــــا ولكُـــلُّ عـــافٍ مُستجيـــر
ونصبـــح في الطَّـــوى خمصـــاً ونمسي
ولم نَقْـــدِرْ على خُبْـــزِ الشعيـــر
فَعِش مـــا عَقُبَ الصبـــحُ الـــديـــاجي
ومـــا بـــزَغَتْ بـــراحُ على تبيـــر

وقال يُهنئِّه بالشهر :
نُهَنِّي الشهـــر بـــالمـــولى السعيـــد
أبي البـــركـــات ذي الكـــرم التليـــد
فعفـــوتـــك[3] الطـــوافُ بكـــلِّ ســـاعٍ
ودارُك مـــاتني حـــجَّ العبيـــد
فـــلا بَـــرِحَتْ عِـــداتُـــك في نُحـــوسٍ
ولازالت نجـــومُـــك في سُعـــودٍ[4]

ومدحه سليمان بن بُليمان الصائغ ، ابو الربيع الاربلي ، أولها :[5]
هـــل عنـــد سُكّـــان اللُّـــوى والأجْـــرَعِ
علمٌ بمـــا تُطْـــوى عليـــه أضْلُعي

قال فيها :
خَفِّض وَدَعْ عنـــك التعلُّـــل بـــالمنى
واعـــدِل الى ربِّ الجنـــاب الممـــرع
نَجْلِ ابن مـــوهـــوبِ الـــوزيـــر ومـــاجـــدٍ
شـــادَ الفخـــار وذي المحـــلُّ الارفـــع
جُبلت على حُسْنِ الفِعـــالِ طبـــاعُـــه
فـــأتت خـــلائقـــهُ بغيـــر تَطَبُّـــعِ
فـــاذا أتيتَ حِماهُ فـــاسْجُـــد واقتـــربْ
فَهُنـــاك آمـــالُ البـــرايـــا تـــرتقي
فـــالى أبي البـــركـــات تختـــرقُ الفـــلا
هـــوجـــاءُ تطـــوي كـــلَّ قَفْـــرٍ بَلْقَـــعِ
تبغي [تحـــجّ بنـــا] لأروع مـــاجـــدٍ
وأعـــزَّ مُنْتَجـــعٍ واعـــذب مَشْـــرَعِ
مـــولى تفـــردّ بـــالمكـــارمِ والعُـــلا
وسمـــا بقـــوم كـــالنجـــوم الطُّلَّـــعِ
زُهْـــرُ [الـوجـوه] عـــريقـةٌ أنسـابُهُم
شـــادوا الفخـــار بِكُـــلِّ ليثٍ أروع

تُغْنيـــكَ سَطْوَةُ غَـــزْمِه يـــوم الـــوغى
عن كُـــلِّ مسنـــون السِّنـــان مُـــذَرَّعِ
شـــرفٌ لـــه بُـــرْجُ السعـــادة مَنْـــزِلٌ
تـــاهيـــك من مـــرأى لـــديـــه ومسمـــع
فيـــه أصـــونُ على الخطـــوب وأجتني
وَجْـــه الـــزمـــانِ وفيـــه يَضـــنُق مطمعي
وبـــذكـــره يسمـــو القـــريضُ فَمَـــدْحُـــهُ
أمسى يشـــوقُـــك لاظبـــاءُ الاجْـــرَعِ

وقال يمدح الصاحب شرف الدين أبا البركات في قصيدة أولها :
ألا قـــــل لمن يبغي الغنى متطلبـــــاً
وتعنق في نيـــل الأمـــاني ركـــائبـــه
متى شئت بـــرقـــاً للـــوزيـــر تـــدفقت
عليـــك غـــوادي جُـــوده وسحـــائبـــه

وله يمدحه في قصيدة أولها :
يـــا أيهـــا المـــولى الـــوزيـــر ومـــاجـــداً
في كفـــه البيضـــاء خمســـة أبحـــر

ومدحه بقصيدة أخرى منها :[8]
إذا جـــار الـــزمـــانُ عليـــك يـــومـــاً
وأعـــرض عنـــك كـــلُّ أخٍ حبيب
فلـــذ بحمى ابن مـــوهـــوب المـــرجّي
أبي البـــركـــات ذي الطـــول العميم

وقال في قصيدة أولها :[9]
يـــا أيهـــا المـــولى الـــوزيـــر ومـــاجـــداً
شـــاد العـــلاء بفضلـــه وبجـــوده

وله فيه مدحة أخرى منها :[10]
شـــرفُ المناصب أن يحُـــلَّ صـــدورهـــا
الشَّـــرفُ المبـــاركُ ذو النـــدى والجـــود

وقال الشاعر سليمان بن أبي طالب بن عيسى ، ابو الربيع البلدي ، المعروف بابن بُصيلة ، يمدحه بقصيدة أولها :[11]
أهـــلًا بمقـــدمـــك السعيـــد ومـــرحبـــا
يـــامن يـــرى طَلَبَ المعـــالي مَطْلبـــا

ومدحه صالح بن مكارم الإربلي بمقطعة اولها :[12]
يـــاابنَ من كفُّـــهُ أمَـــدُّ من البحـــ
ـــر وأعـــلى من السمـــاك ارتفـــاعـــا

وكان الشاعر طه بن ابراهيم الكردي الهذباني قد اعتقله السلطان مظفر الدين صاحب إربل ، وكان ابن المستوفي السبب في اطلاقه من الاعتقال فمدحه بمقطعة أولها :

مولايَ دعوةَ يائسٍ ذي عيلةٍ
اطفأتَ بالأطلاقِ نارَ عيالهِ [12]

فلمّا حُبس الصاحب شرف الدين ابو البركات المبارك بن موهوب أنشد طه المذكور هذين البيتين :[14]

أقولُ لصاحبي ياصاحِ قوِّضْ
خيامَك نرتحلْ نحوَ الشآمِ
فقد عُزل ابنُ موهوبٍ وولّى
وما بعدَ المباركِ من مُقامِ

ثم سافر الى الشام وكتب الى المبارك ، وهو في حبسه ، كتاباً صدَّره بأبيات نقتطف منها قوله :[15]

الاربُ للغرباتِ تطلبُ أوبتي
هيهاتَ فارقتِ الجسومُ البؤسا
كيف الرجوعُ الى مغاني بلدةٍ
فارقتُ ماجدَها بها محبوسا
كبرت عزائمُ أهلِها من بِرِّهِ
فوشوا به للظالمين رئيسا

وهذه المقطعة والنتفة التي سبقتها تؤكد ما ذكره ابن الشعار من انّ ابن المستوفي قد تعرض لمحنة الحبس .

وممن مدح المبارك بن احمد الشاعر عبد الله بن أسعد الواسطي بقصيدة مطلعها :[16]

أبا البركات الصاحب النَّدْب ذا النُّهى
رضيعَ اللُّهى نجلَ الكرامِ الأطايبِ

وممن مدح ابن المستوفي الشاعر عبد الله بن عمر الإربلي ، بقصيدة مطلعها :[17]

يانسمةً تضوَّعتْ بنَدٍّ
ومُزْنةً جادتْ بماءِ وَرْدِ

وله مقطعة طريفة في مدحه هذا نصّها :[18]

وغلامٍ ادنى يديه الى الكأ
سِ لتفتضَّها يداهُ جهارا
قلتُ ماذا الشعاعُ؟ قال سل الكأ
سَ فإنْ يُجِبْكَ فالخمّارا
فسألت الخمّار قال ابن موهو
بِ الوزيرِ المولى يداً ويسارا
جازَ يوماً بها فأومى اليها
فكساها إيماؤهُ أنوارا

ومن مدح الصاحب شرف الدين الشاعر عبد الله بن يوسف المراكشيّ بقصيدة اولها :[19]

لا وجْدَ أعظمُ منْ وَجْدٍ يخامرُهُ
ولا جوىً غيرُ ما تحوي ضمائره

ومدحه ايضاً عبد الرحمن بن عبد الله التميمي المعروف بابن الصيقل الموصلي بقصائد منها قصيدة أولها :[20]

قُلْ لمن لامَ في هواه وفنَّدْ
وغرامي به غرامٌ مُجَدَّدْ

وقصيدة اخرى أولها :[21]

حُبيّتِ من دِمَنٍ ومن عَرَصاتِ
بالأبرقين مُحيلة الآياتِ

وله من قصيدة يمدحه فيها :[22]

ما على الحابين لو وقفوا
ساعةً بالركب أو عطفوا
أسنا برقٍ يديرُ لنا
أم تَبَدَّى في الدُّجي الشُّرَفُ

ومطلع أُخرى مدحه فيها :[23]

لكَ الخير يا ابنَ السابقين الى العُلى
وخيرُ فتىً سارتْ اليه الركائبُ

وكان عبد الرحمن بن محمد الواسطي المعروف بابن سنينيرة قد اقام باربل فقصد زيارته صدرها ووزيرها المفضال الصاحب شرف الدين ابو البركات فلم يجده في منزله ، وحين جاء ابن سنينيرة الى منزله ، وأخبر بمجيء شرف الدين الى زيارته ، عزم على المسير الى خدمته ، فجاء الغيث متوالياً ، وكَثُرت الوحول في الطرق فحجبته من الذهاب الى حضرته ، فانشأ فصلًا يشتمل على نظم ونثر صَدَّره بالابيات التالية :[24]

يالحظةً سخت بها طيرُ المنى
وجَرَتْ لنا بسُعودها الأفلاكُ
سمحت بها كَفُّ الليالي فَلْتَةً
وطباعُها التجعيدُ والإمساكُ
فكأنّما فَهِمَتْ بها واستدركتْ
غَلَطاً فَرَدَّ فواتَها الإدراكُ
ولقد رَجَوْتُ بأن تُثَنّى فانثنت
وسبيلُها التوحيدُ لا الإشراكُ
فكأنَّها طيفٌ تعرّض مُعْرِضاً
نُصِبَتْ له بيدِ الكبرى أشْراكُ
ماشئتَ فاصنع يازمانُ فانمّا
أفتاكَ فينا ضَرْفُكَ الفتّاكُ

ثم أورد نثراً ، وعقبهُ بهذه الأبيات :(٢٥)

وكم غـــزْمـــةٍ أمضيتُهـــا للقـــائكُمْ
فـــأصبـــح فيهـــا للخطـــوب فلـــولُ
دنـــوت فحـــالَ الـوَخْـلُ بيني وبينكم
وكيف اختيـــالي والـــوحـــولُ تحـــولُ

ومن مادحيه عبد الرحمن بن منصور القنطري الاربلي ، ومطلع مدحة له فيه :(٢٦)

أمـــا وأيّـــام وَصْـلٍ بـــالحمى سَلَفَتْ
ومـــا مضى من ليـــالي الشِعْبِ والعَلَمِ

ولعبد الرحمن بن أبي الحسن بن علي البوازيجيّ يمدح الصاحب الوزير شرف الدين أبا البركات المستوفي قصيدة جاء فيها :(٢٧)

حـــاز كل الصفـات حسنـاً كمـا حـا
زَ المعـــالي طُـــرّاً أبـــو البـــركـــاتِ
قد هززناهُ للندى فانثنى غصناً (م)،
رطيبـــاً أغـــذب الجنى للجُناةِ
جـلّ في الجود عن شبيهٍ فقد أصبـ
ـبح فَـــرْداً في الجـــود والمكـــرمـــات
وتعـــالى عن المـــديـــح فقـــد جـــا
وزَ حَـــدَّ الثنـــا وحـــدَّ الصّفـــات

ولعبد العزيز بن عثمان الغرازي الاربلي نتفة في مدح ابن المستوفي ، أوردها ابن الشعار في كتابه(٢٨) وذكر ابن خلكان(٢٩) ان أبا البركات ابن المستوفي ذكر الشاعر الموصلي ابراهيم بن نصر بن عسكر في « تاريخ اربل » وأورد له مقاطيع عديدة ومكاتبات جرت بينهما .

الصبابة من شعر ابن المستوفي

[١]

قال مُفَضِّلا البياض على السمرة :

لا تخـــدعَنَّـــك سُمْـــرَةُ غَـــرّارَةُ
مـــا الحسنُ إلّا للبيـــاض وجنســـهِ
فـــالـــرمـــحُ يقتـــل بعضـــهُ من غيـــره
والسيفُ يقتـــلُ كُلُّـــه من نَفْسِـــه

التخريج : وفيات الاعيان ٤ /١٤٧ - ١٤٨

[٢]

ومن اشعاره التي يتغنى بها قوله :

يـــاليلـــةً حتى الصبـــاح سهـــرتُهـــا
قـــابلتُ فيهـــا بَـــدْرَهـــا بـــأخيـــه
سمـــح الـــزمـــانُ بهـــا فكـــانت ليلـــةً
عَـــذُبَ العتـــابُ بهـــا لمجتـــذبيـــه
أحييتُها وأمتُّهـــا عنْ حـــاســـدٍ
مـــا هَمُّـــهُ الّا الحـــديث يشيـــه
ومُعـــانقي حُلـــو الشمـــائـــل أهيفٌ
جُمِعَتْ مـــلاحـــةُ كُـــلّ شيء فيـــه
يختـــال معتـــدلًا فـــإنْ عبث الصبـــا
بقـــوامـــهِ مُتَعَـــرِّضـــاً يثنيـــه
نشـــوان تهجم بي عليـــه صبـــابتي
ويـــردُّني وَرَعي فـــاستحييـــه
عَلِقَتْ يـــدي بعـــذارِه وبخـــده
هـــذا أقبِّلُـــهُ وذا أجنيـــه
لـــو لم تخـــالط زفـــرتي انفـــاسَـــهُ
كـــانت تنمُّ بنـــا الى واشيـــه
حَســـد الصبـــاحُ الليـــلَ لمـــا ضَمَّنـــا
غَيْظـــاً نَغـــرّق بيننـــا داعيـــه

التخريج : وفيات الاعيان ٤ /١٤٨ - ١٤٩

[٣]

وكان يقول عملتُ في نومي بيتين وهما :

وَبِتْنـــا جميعـــاً وبـــات الغيـــورُ
يعضُّ يـــديـــه علينـــا حَنَقْ
نـــودُّ غـــرامـــاً لـــو أنّـــا نُبـــاعُ
سَـــواد الـــدجى بِسَـــواد الحَـــدَقْ

التخريج : وفيات الأعيان ٤ /١٤٩ - ١٥٠

[٤]

وقال :

تـــذكّـــرنيـــك الـــريـــحُ مَـــرَّتْ عليلـــةً
على الـــروض مطلولًا وقـــد وَضَحَ الفَجْـ
ومـــا بعـــدت دارٌ ولا شطَّ منـــزلٌ
اذا نحن أدْنَتْنـــا الأمـــانيُّ والـــذكـــ

التخريج : معجم البلدان ١ /١٨٧ ورواية الثاني في المعجم : وقد بعُدت وما اثبتناه أجود ولعله الصواب

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

[٥]

وقال في جواب كتاب :

وافى كتـابُـك يـا مـولاي مشتمـلا
على ريـاض معـانٍ نشْـرُهـا أرِجُ
فكـان أحسن من سحـر تُقلّبُـه
أجفـانُ ظبيٍ فـراضٍ حَشْـوُهـا غَنَـجُ
إذا بـدا قيَّـد الابصـار منظـرهُ
فمـا لانسـانِ عينٍ عنـه مُنْعـرجُ
نبتُ أشفي بـه داءٌ تَضَمَّنَـهُ
جـوانـحُ بـات فيهـا الهمُّ يَعْتلِجُ
يـامن تغيَّـرتِ الـدنيـا لبُعـدهم
فكُـلُّ رَحْبٍ فسيـحٍ ضَيِّقٌ حَـرجُ
استـودعُ اللّه عيشـاً مـرَّ لي بِكُمُ
يـرتـاحُ قلبي لـذكـراهُ ويبتهـجُ
مـاراقني بعـدكم شيء سُـررتُ بـه
فَكُـلُّ مستحسنٍ في نـاظـري سمِجُ

التخريج : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة : ابن الفوطي . وقف على تصحيحه والتعليق عليه مصطفى جواد المكتبة العربية بغداد - ١٣٥١ هـ - مطبعة الفرات - ص ١٣٥

[٦]

وقال :

أزوركم فتكاد الارضُ تُقبض بي
ضيقاً فأرجع من فوري فتتسعُ
خدعتموني بما ابديتموه من الحـ
سنى وأكثر اسباب الهوى الخدعُ
حتى اذا علقتْ كفّي بكم ثقةً
اسلمتموني فلا جَبْرٌ ولا جَزَعُ
يغرني جَلَدي الواهي فأتبعه
غياً وينصح لي شوقاً فامتنع
ليت الهوى كان لاقطعاً ولا صلةً
فلم يكن فيه لا يأسٌ ولا طَمَعُ

التخريج : التذكرة الفخرية ص ٧٧ - طبعة بيروت

[٧]

ومن شعره :

وعيشـك مـاطـرقي الكليـل بنـاظـرٍ
سـواكَ ولا سمعي بمُصْـغٍ لعـاذلِ
ولا حُلْتُ عمّـا قـد عهـدت وإنني
مشـوقٌ وإن خـابت لـديـك وسـائلي
ولكنني لمّـا سمحتْ بجفـوةٍ
وأسعفتْ عُـذّالي بطيب تـواصـلِ
صـرفتُ هواي عنـك كي لا يرى العـدى
خضـوعي وتسـآلي الى غيـر بـاذلِ
وأقصـرتُ عمّـا قـد عهـدت ، وزاجـرٌ
من النفس خيـرٌ من عتـاب العـواذل

التخريج : التذكرة الفخرية ص ٧٧ - طبعة بيروت .

[٨]

وقال شرف الدين :

أراكم فـأعـرضُ عنكم وبي
من الشـوق مـا بعضُـه قـاتـلُ
ومـابي مـلالٌ ولا جفـوةٌ
ولكنني عـاشقٌ عـاقـلُ

التخريج : التذكرة الفخرية ص ٧٨ - طبعة بيروت

[٩]

وقال شرف الدين :

١ - وفى لي دمعي يـوم بانـوا بوعـده
فـأجـريتُـه حتى غـرقتُ بمـدّه
٢ - ولـو لم يخـالطـه دمٌ غـالَ لـونَـه
لما مال حـادي العيس عن قَصْدِ وِرْدِه
٣ - أأحبـابنا هـل ذلك العيش راجعٌ
بمقتبـلٍ غضّ الصبـا مُستجـدّه
٤ - [زمـاننا قضينـاه انتهـابـاً وكلنا
يجـرُّ الى اللـذات فـاضـلَ بُـرْده]
٥ - وانّ على المـاء الـذي تـردونَـه
غـزالًا بجلـد المـاء رقـة جلـده
٦ - يغـار ضياء البـدر من نور وجهـه
ويخجـل غصنُ البـانِ من لين قـدّه

التخريج : التذكرة الفخرية ص ٧٩ - ٨٠ طبعة بيروت وفيها الابيات ماعدا الرابع والرابع استضفناه من سير الاعلام النبلاء ٢٢ / ٥١

* * *

ومن المحزن أن ما وصلنا من شعره قليل جداً بالرغم من جودة معانيه .

وقال صاحب التذكرة الفخرية في تعليل ذلك : « وديوان شعره لم يظهر لانّ بدر الدين صاحب الموصل استولى على كتبه ، وانّ ما في ايدي الناس من شعره قليل » .

واقول ان ابن الشعار اورد في كتابه « قلائد الجمان » باقة منتقاة من شعره الذي انشده ابن المستوفي لنفسه . الّا ان المصورة التي بين ايدينا بالغة السوء رديئة الخط صعبة القراءة تحتاج جهداً ضخماً لفك غوامضها . وقد اقتطعنا منها المقطعات التالية ممّا استطعنا قراءته :

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

[١٠]

وقال :

يـــــــامَنْ تجّنى ظـــــــالمــــــــاً
وقســـــــــا عليَّ فمـــــــا يلينْ
مــا كنتُ احسب ان مثلــكَ في مـلاحتـهِ يكـونْ
إنيّ اغــــــــــار عليــــــــك أنْ
تجني محــــــاسنــــــك العيـــــونْ

التخريج : مخطوطة قلائد الجمان ـ الجزء السادس

[١١]

وقال :

كـــل يـــوم لنـــا من الـدهـر خطبٌ
يتخطّى الـــــورى ويخطــــو الينـــا
ليت نُعمى ايامنا مثل بؤساها فيومٌ لنا ويومٌ علينا

التخريج : مخطوطة قلائد الجمان ـ ج ٦

[١٢]

يــــارب أنت الله حملـــك صـــافـــح
عن كــــلّ جــــانٍ غدره متعــذر
إنّي وإن كَبُـــــرت ذنـــــوبي مُطْمعي
في حُسْنِ عفـــوك أنّ عفـــوكَ أكبـــرُ

التخريج : المصدر السابق

[١٣]

وقال :

روحي فـــداك أغن مقتبـــل الصبـــا
عبثَ السقـــامُ بطــرفـــهِ وبخصـــره
قمـــرُ أعـار الـروض منـه محـاسنـاً
زادت عليـــه نضارة في (   )[*]
فَلِبـــانـــهِ الميّـــال عطفـــة قـــدّهُ
ولنَـــوْرِه المختـــال رقّـــة ثغـــرِه

التخريج : المصدر السابق .

[*] كلمة غير مقروءة

[١٤]

وله :

لا تتعــــرض لنـــا فـــإنّ لنـــا
لـــواحظـاً زانَ سحـرهـا المَـرَضُ
إذا أصـــابت بنظـــرةٍ أحَـــداً
فمـــا لـــه عن حيـــاتـــه غـــرض
كم من جـــريـــح بسهم مقلتهـــا
جـــراحـــه مـــا تـــزال تنتقضُ

التخريج : المصدر السابق

[١٥]

وقال :

أحبـــابنـــا مـــازال داعي النـــوى
يهيـــجُ لـــلأنفس اشـــواقهـــا
فمـــــا رأت عيني فبعـــــداً رأت
بعـــدكم من حسن راقهـــا

التخريج : المصدر السابق

[١٦]

وله :

رمـــاني الـــدهـــرُ بـــالنكبـــات حتى
يئستُ لمـــا أكـــابـــدُ من نجـــاتي
فمـــا زلتم بلطفكمْ إلى أنْ
سللتُمْ من يـــــدي أجلي حيـــاتي

التخريج : المصدر السابق

[١٧]

وقال :

يـــاجـــور هـــذا الـــدهـــر من ظـــالم
لا يعـــــرف الانصـــاف في الحـ
فمـــا اكتفى بـــالظلم حتى بـــدا
يُلـــزمنـــا الشكـــر على الظـ

التخريج : المصدر السابق

[١٨]

وقال :

وأهيف كـــــالبـــــدر لمّـــا استتمّ
خَمْســـاً وخمســـاً ألى أرْبَــ

أتـــاني على غفلـــة زائـــراً
وبـــات سميــــري في مضجعي
فيــاليــل بــالله لا تــرتحـل
ويـــافجـــر بـــالله لا تطلـــع

التخريج : المصدر السابق

[١٩]

وله :

حيّــا الحيــا وطنــاً بــاربل دارســا
أختّ عليــه حـــوادثُ الأيـــام
أقــوت مـــرابعـــهُ وأوحش أُنســـهُ
دخلت مـــــراتعـــه من الآرام
غني نشتـــات بـــأهلــه فتعـرقــوا
أيـــادي سبـــا في غيـــر دار مقـــام
إن يمس ... بـه يبـدي لبنى
... دارس الأعـــلام
فلكم قضيت بـــه لبـــانـــات الصّبـــا
مـــع فتيـــة شمّ الانـــوف كـــرام

التخريج : سير اعلام النبلاء ...

[٢٠]

وقال ابن المستوفي من قصيدة :

واني ليـــدعـــوني السلـــو فـــأنثني
أبيـــاً ويـــدعوني الهـــوى فـــأجيبُ
وارتـــابُ اشفـــاقـــاً عليـــك ولم يكن
(   )[*] والشفيق مـــــريبُ
بنفسي حبيبٌ لا يمـــــــلّ قطيعتي
على انّـــه مـــا كـــان فهـــو حبيب
أتتْ نُـــوَبُ الايـــام بيني وبينَـــه
وحـــالت عـــوادٍ دونَـــهُ وخطـــوبُ
واني لا رجـــــود على بُعـــد داره
وان بعيـــــداً بِلُتُّـــــه لقـــــريبُ

(*) في الموضع كلمة غير مقروءة

التخريج : مخطوطة قلائد الجمان الجزء السادس

مُصنّفاته

فمن مصنفاته التي ذكرتها المصادر :

١ ـ « النظام في شرح المتنبي وأبي تمام » ذكر صاحب كشف الظنون انه في عشر مجلدات ، وقد وصلنا من الكتاب جزآن كبيران من نسختين مختلفتين أما الجزء الثالث فمفقود . ويعكف على تحقيق الكتاب صديقنا الدكتور خلف رشيد النعمان . وقد نشر منه الى المدة بين سنتي ١٩٨٩ ـ ١٩٩٧ سبعة اجزاء . صدرت كلها عن دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد .

٢ ـ كتاب « تاريخ إربل » وهو في اربعة مجلدات . نقل منه ابن خلكان في مواضع عدة من كتابه الوفيات »[١] نشر منه د . سامي الصقار قطعة وصلتنا في جزءين ـ بغداد دار الشؤون الثقافية . وقد سمّى « مؤلفه » نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل » (الكشف ١٩٢٣) .

٣ ـ « إثبات المحصّل في نسبة أبيات المفصل » . في مجلدين تكلم فيه على الابيات التي استشهد بها الزمخشري في المفصل .[٢]

٤ ـ كتاب « سر الصَنْعة »[٣] وهو مفقود فيما اعلم .

٥ ـ كتاب « ابو قماش » جمع فيه أدباً كثيراً ونوادر وغيرها[٤]

٦ ـ ديوان شعر . ذكره ابن خلكان وقال : أجاد فيه .[٥] وذكره صاحب الكشف[٦]

٧ ـ كتاب « الامثال والاضداد » ذكره في كتاب النظام الورقة ٢ / ١١٤

هذه هي مصنفاته التي ذكرها محقق النظام في مقدمته .[٧]

وفاتته المصنفات التالية :

٨ ـ كتاب في صناعة البديع ذكره ابن الشعار

٩ ـ كتاب نبّه فيه على مواضع من كتاب « الانيس والجليس » تصنيف المعافى بن زكريا الجريري النهرواني . ذكره ابن الشعار

١٠ ـ كتاب حاجة الكاتب والشاعر من ضرورة الشعر وشيء من علم العروض والقوافي ذكره ابن الشعار .

١١ ـ الممتع المؤنس : ذكر فيه مشهوري الشعراء الى زمانه ابتدأ ببشار بن برد الى استاذه أبي عبد الله البحراني . ذكره ابن الشعار .

١٢ ـ كتاب « جامع الاوراق » ذكره ابن الشعار ، يتضمن اشعاراً وحكايات واخباراً وامثالاً وفوائد .

١٣ ـ كتاب « قناعة الناظر وكناية المحاضر » فيه من مليح الاشعار ومختارها وهو مرّتب ابواباً . ذكره ابن الشعار

١٤ ـ « كتاب الخيل » صنّفه على كتاب أبي محمد الحسن بن احمد بن محمد الغندجاني الاعرابي المعروف بالاسود . ذكره ابن الشعار

١٥ ـ كتاب « موجبات الصبوة وغمائم السلوة » يتضمن نُبذاً من أمور العشق وأسبابه .. واشعار في الصبابة وما يجري مجراها على ترتيب كتاب « الزهرة » لابي بكر محمد بن داود بن خلف الاصفهاني . ذكره ابن الشعار

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٦ ـ كتاب « تاريخ معرفة الدول » ذكره ابن الشعار
١٧ ـ كتاب مشارق الانوار ومطالع العذار . ذكره ابن الشعار ، وسماه المنشىء الاربلي مطالع الانوار في وصف العذار فهذه الكتب العشرة لم يذكرها الدكتور خلف رشيد النعمان عند ذكره مصنفات المبارك بن احمد في مقدمة النظام . واضيف ان ابن الشعار اورد بعض التفاصيل عن بعض مصنفات ابن المستوفي نجد في ذكرها فائدة لانها تضيف جديداً الى مضامين بعض مصنفاته . فقد ذكر ان كتاب « الامثال والاضداد » في سرقات الشعراء يتضمن ضروب السرقات المحمودة والمذمومة واسمائها وهو مبوب ابواباً في فنون الشعر .

وقال عن كتاب « اثبات المحصل في نسبة ابيات المفصّل » ذكر فيه قائل الابيات المستشهد بها وبيان معانيها وتفسير غريبها ثم تكلم على نحوها وشرح قصصها وامثالها ونبّه على اسماء قائليها والقابهم واورد فيه جُملًا من كلام النحويين وقال عن كتاب « سر الصنعة » وهو مجلد لطيف صنفه للوزير ولي الدين أبي الثناء محمود بن محمد الحراني وزير الملك المعظم مظفر الدين باربل ثم ان ما ذكرناه من مصنّفات ابن المستوفي لم ترد حصْراً . فابن الشعار يقول بعد ذكرها مانصه : « الى غير ذلك من المؤلفات والرسائل والاشعار »

وهذا يعني وجود مصنفات اخرى لم يذكرها .

من رثاه

توفي ابن المستوفي كما قلنا في الخامس من محرم سنة ٦٣٧ هجرية ولم نظفر بغير مرثية واحدة رثاه بها ابو العز يوسف بن النفيس الإربلي المعروف بشيطان الشام ، وفيها يقول :

أبـا البـركـات لـو دَرَت المنـايـا
بـأنـك فـرد عصـرك لم تُصِبْكـا
كفى الاسـلامَ رُزْءاً فَقْـدُ شَخْصٍ
عليـه بـأعين الثقلين يُبكى

ومن المحزن انّ من مُدح بعشرات القصائد وقصده الشعراء من كل مكان لم يرثه غير شاعر واحد ، وتلك طبائع البشر وأحوال الدنيا .

وصف مخطوطة الكتاب

والمخطوطة التي اعتمدناها فريدةً في الدنيا كتبت سنة ١٠٨٨ هجرية بخط نسخ عادٍ ذُكر في آخرها ما نصه « قال كاتب الأم هذا آخر ما وجدت من رسائله وشعره ـ رحمه الله تعالى ـ ونقلته من خطه . وبجانبه كتب بخط مختلف ما نصه « وكان الفراغ من زبره سلخ صفر الخير سنة ١٠٨٨ » .

وهي مخطوطة في المكتبة الحبيبية (كتب خانة حبيب جنج في عليگرة) بالهند . ورقم المخطوط فيها ١٢٦ نمرة ٢٨ . عدّة أوراقه اربع وعشرون ورقة عدا ورقة العنوان . معدل سطور الورقة ١٧ سطراً . مقاس الورقة الواحدة ١٥ × ٢٠ سم . وعلى المخطوطة ختم المكتبة وفيه تاريخ ١٣١٢ هـ وفوقه ضمنَ الختم شطر بيت المتنبي : « وخير جليس في الزمان كتابُ » .

اهمية هذه الرسائل من الناحية الادبية والتاريخية وخصائها وما تقدمه من جديد :

المخطوطة التي ننشرها اليوم جديدة بكل محتواها ، فلم تصلنا قبلها أيّة رسالة من رسائل ابن المستوفي . ولانّ اغلبها يحمل تواريخاً فانه يصحّ القول بانها كتب في أواخر القرن السادس واوائل القرن السابع الهجريين . فهي نموذج جيد للنثر في العراق في المدة المذكورة . فيها معلومات تاريخية ذات اهمية في ايضاح كثير من العلاقات والمكاتبات التي كانت بين مملكة إربل والخليفة العباسي الناصر لدين الله ، وما كتبه الى الاطراف حين خلع الناصر لدين الله وليَّ عهده الامير محمد . كذلك تكشف هذه الرسائل لوناً مما كان يكتبه على لسان نواب مظفر الدين كوكبدري جواباً على رسالة صاحب اربل .

وثمة رسالة كتبها ابن المستوفي على لسان الامير عثمان بن احمد الحريري الى الملك المعظم عيسى بن محمد بن ايوب ملك دمشق ، وتكشف رسالة اخرى وجهها الى الملك الايوبي المذكور صلته به .

ورسائل ابن المستوفي لم تُعرف من قبل ، وهي تنهج نهج التصنيع وما يُطوى عليه من سجع وبديع . وهي ممّا لم يقف عليه العلامة شوقي ضيف في كتابه الموسوعي « الفن ومذاهبه في النثر العربي » .

وتصلح انموذجاً لدراسة فن النثر في العراق في العصر الذي كتبت فيه ، وهو حقل مازال بكراً .

ان هذه الرسائل الديوانية تضيف مادة ادبية وتاريخية جديدة في ميدانها وتقدم مصدراً بكراً ثَرّاً لدارسي الادب والتاريخ في الزمن الذي كتبت فيه .

* * * *

ثم إني احمد الله على ما أنعم وكرّم ، وهدى وتمم ، فبغير عونه ومَنِّه ما كنت لاصنع شيئاً وبعد :

فالحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين ، وعلى آله المنتجبين ، وصحبه الاكرمين ، صلاة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وسلاماً خالدين باقيين الى يوم الدين .

وكتبه طالب عفوربّه ، الراجي
هلال بن ناجي
في بغداد مدينة السلام في غرة ذي الحجة عام ١٤١٨ هجرية

[النص]

هذه رسائل السيد الجليل شرف الدين المبارك مستوفي اربل رحمه الله تعالى أمين
والحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم وبه الثقة

[١]

ومن رسائله ـ رحمه الله تعالى ـ منشور لرأس الجالوت في سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

إنّا بِمُقْتَضى ما يجب علينا من حياطةِ الرعايا ، وحراسة البرايا ، وإنْ اختلفت مقاصدهم ومذاهبهمْ ، وتَشَعَّبَتْ عقائدهم وضرائبهم ، لما الهمنا اللهُ تعالى من العدل الذي شمل الحاضرَ والغائبَ نَصْرُه ، وعُني بالقاصي والداني أمرُه ، يظهر شاهده ، وتصدق مقاصده ، ويرجعِ بالنجاح وافده ، ويملأ الآفاق دُعاءً شاكرُه وحامدُه ، نحملُ كلَّ مِلَّةٍ على قاعدتها ورسمِها ونسلكُ بكلّ فرقةٍ واضحَ شريعتها وحكمها ، ونعتمدُ المراعاة لحقّها ونتوخّى المحاماة عنها ، ونسوّي في النَّصَفة بين المشروف والشريف ، ونشر العدل[1] بين القويّ والضعيف . فلا تمتدّ يدٌ بغير حَقّها ، ولا تخطر قدمٌ الى غير مُسْتَحقّها ، عدلًا منّا في أقضيتنا شاملًا ، وحُكماً منّا في أفعالنا عادلًا فالحمد لله على نِعَمِهِ السابغة علينا ، ومِنَنهِ الكاملة لدينا ، حمداً نستمدُّ به جزيلَ آلائه ، ونستدرُّ بهِ حميدَ نعمائه ؛ وعلى توفيقنا لافاضةِ العدلِ على الانام ، ونشر الحق بين الخاص والعام .

ولمّا كان فلان ممّن شهدت مخائِلُه بشرفِ نفسِه . ووجب تقديمه على أبناء جنسه ، وكان موضعهُ من العلم بحيث لا يخفى مكانهُ ، وَمَنْزِلُه (١ آ) من الفضل بحيث لا يُجحد برهانه . ودلّ شعاع شمسه على ضيائه ، وأنبأ عنوانُ كتابهِ على ما في أثنائِه . رأينا أن نُوَلّيه رأس الجالوتية ، تقديماً على أهل مِلّتِه ، وتفضيلًا على سائرِ أُمَّتِهِ ، عِلْماً منّا بما هو عليه من الحياطة لأمور رعايانا التي يعنينا تفقّدها وملاحظتها ، وما يأخذ به نفسه من الحراسة لاحوالها التي يلزمنا تعهّدها ومحافظتها . وأمَرْناهُ أنْ يعتمدَ في حقِّ مَنْ قبله ممّن وُليناه أمره إصلاحَ القاعد منهم ، وتقويمَ المُعْوَجّ فيهم . وأن يحملهم على منهج شرعهم القويم ، ويسلك بهم جددَ مذهبهم المستقيم ، مُجَدِّداً لهم الشرعة الاولى ، ومُتَتَبِّعاً الطريقةَ المثلى ، وأنْ يُحْسِنَ السيرةَ فيما يعود باستقامة أحوالهم ، ويرجع الى انتظام أُمورهم ، وتألُّف آرائهم في أقوالهم وأفْعالهم ، لتخلصَ له طاعتهم ، وتصحَّ نصيحتهم ، ويتصرفوا ، بين أوامره ونواهيه ، وأحكامه وزواجره . مُتَلَقِّياً منّا هذا الإنعامَ الشامل ، والطول الكامل ، بصدرٍ منشرحٍ ، وأمَلٍ مُنْفسح . واثقاً منّا بِحُسْنِ الرعاية له ، والعنايةِ به ، ومعاملته بما نستديمُ به طاعتَه ، ونستدرجُ به أمانتَه وكفايتَه . مُعْتمداً على العلامة (كذا) إن شاء الله تعالى .

[٢]

وله :

لولا ثقتُهُ أدامَ اللهُ سعادةَ المجلس ، وحرسَ إنعامَه ، وبلّغه مرامَه (اب) ووفَّر من اقباله حظّه واقسامه ، واعادَ على الخادم حُسْنَ نظره الذي مازال يتفيّأ بظلاله ، ويعتصم بحباله ، ويستمدّها في عهاده ، فيستنجد ماضي انجاده ، وحرس عليه سليمَ وُدِّه الذي لا تغيّرهُ الايام ، وكريمَ عهده الذي لا تنقضهُ الاوهام . انه جواد كريمٍ بصفاء وداده ، وخلوص اعتقاده ، وسكونه الى جميل رأيه الثاقب ، واستنامته الى حميد نظره الصائب ، الذي استمسك بعصمته ، واخذ بذمّته ، واستأثر بلطيف منزلته ، وانفرد بشريف مكاتبته ، وتميّز على أضرابه وأشكاله ، وتاه به على أترابه وأمثاله ، لم يخلد الى تأخّر مكاتباته ، ولا أقام على اغباب خدَماته ، وإنْ كان انّما يفعل ذلك اجلالًا لا اخلالًا ، وادلالًا لا ملالًا . لعلمه انه يلزم نفسه الكريمة الاهتمامَ بجوابها ، والخروج الى الخادم بانجاز طلابها . لكنّهُ يكتفي بما يراعيه من التطلع الى اخباره ، ويقنع بما يعانيه من التشوّف الى احواله . قرنهما اللهُ بالسعادةِ ونَيْلِ الارادة ، ويرى تكليفه ـ أدام اللهُ سعادتَه ـ قراءةَ خدمته ، واجابة مكاتبته ، مخالفاً للغرض الذي اعتمده ، ومبايناً للمذهب الذي قصده . ومع هذا فالخادم غيرُ مسامحهِ على أن يهمله هذا الاهمال ويملّه هذا الملال ، وإنْ كان ذلك غير مؤثر فيما أكّده من وُدّه الصريح (٢ آ) ووطّدهُ منعهده الصحيح ، ولا مُغَيّر ما أوجبه حُسْنُ صحبته ، وألزمه لطف خدمته ، لكنّه يتوسّل الى الله تعالى أن يَمُنَّ عليه باعادة ما كان تَعَوّدَهُ من كَرَمِه ، وأَلِفَهُ من حميدِ شِيمِهِ ، سؤالَ من ملّتَ الانكسارُ قَلْبَه ، واطار الاهمالُ لُبَّه ، وموعودُ بالاجابةِ مَنْ هذهِ حالهُ ، مقرونٌ بالقبول من كان سواله (كذا) ، والسلام .

[٣]

وله :

يُقَبِّلُ الارضَ بين يدي الجنابِ المولوي ، أدامَ اللهُ سلطانَه ، ونَصَرَ أعوانَه ، وظاهر لديه إنعامَه وامتنانَه ، ووالى له افضالَهُ واحسانَه ، وجعلَ النصرَ معقوداً بالويتهِ ، والظَفَرَ معصوباً برايته ، والعدلَ ظاهراً في دولته ، والدينَ منصوراً بدوامِ نصرته ، ولازال ظِلُّه الشامل مقصداً للاّجين ، وطَوْلُه الكاملُ موردَ الراجين ، منصورة مواكب أوليائه ، مقهورة غوالب أعدائه ،

ويَصِفُ ما هو شِعارُه ، من رفع الادعية الخالص من الشوائب مسموعُها ، ونشر الاثنية الذي يملك الاسماعَ مرفوعُها ، مُتَضَرِّعاً الى الله تعالى في دوام دولتِه ، ونصر ألوية زُمرتهِ ، وسائلهُ ـ جلّت قُدْرَتُه ـ أن يُسبغَ على أقلِّ المماليك نعمتَه التي تَسَرْبَلَ ثوبَها الضافي ، ويديم له موهِبَتَهُ التي ورد شربَها الصافي . فيالها من نعمةٍ تفيّأ بظلِّها ، وعِصْمَةٍ استمسك بحبلها (٢ ب) فَخَفِيَ عن الاقدار مكانهُ ، وصحَّ له من الزمانِ أمانهُ ، فما تروعهُ الليالي برائع . ولا تدفعُهُ عن أقصى مطالبه بدافع ، عضدَ اللهُ سلطان مولانا ببقاءٍ مَنُوطٍ بالاقتدار في هذه العاجلة ، ومآبٍ مقرونٍ بحُسْنِ المُنْقَلَب في تلك الآجلة .

وأقلّ المماليك يسألُ الإنعامَ ـ شرّفَهُ بتقدماته ، وتأهيل لمشرفاته ، ليرفعَ كرمُه الغامرُ قَدْرَهُ بين أضرابهِ ، ويُشيد طَوْلُه الهامرُ ذكرَهُ على أمثاله وأترابه . وللآراء العالية عُلُوُّها إن شاء اللهُ تعالى .

[٤]

وله :

المودة ـ أدامَ اللهُ أيامَ المجلس السامي وحرسَ إنعامَهْ ، واجزلَ من عوارفهِ اقسامَهْ ، ووسق له من عقد إقباله نِظامهْ ، وضمن له من نيلِ سعادتهِ مرامَهْ ، وكمل له كبْتَ عدوّه وارغامَهْ ، وأوضح له من العُلى منهاجَهْ ، وفَتَحَ له من الثناء رِتاجَهْ ، وأمَدَّ سعادَتَهُ ببقاءٍ يُشارك الليالي في دوامها ، وعلاءٍ يساكنُ النجومَ مصافها . ولازالَ عالياً جَدُّهُ ، دارياً زَنْدُه ، ماضياً حَدُّه ، سامياً مَجْدُه ، منصوراً وَلِيُّه ، مقهوراً ضِدُّهُ ، بمحمّدٍ وآله ـ إذا تاكّدت اسبابُها[٢] المتينة ، ووضحت طرائقُها المبينهْ ، وتَبَتَّتْ قواعِدُها الركينه ، وصحّت عقودُ صفاتها المكينة ، لا يَضُرُّها إغباب المكاتبات ، ولا يفدح فيها (٣ آ) تأخُّر المراسلات ، ولا تزداد على الايّام الّا جِدَّةً ودواماً ، وثباتاً وإحكاماً ، سيّما مودّة المجلس السامي اسماهُ الله ، المقرونة بالانعام ، الوافر الاقسام ، فانّها محروسةٌ بكرمه الشامل ، وطَوْله الكامل ، أنْ يُغَيّرها مُغَيِّرٌ ، أو يكدّرها مُكدّر . والخادم يسأل الله الكريم أنْ يحرسَ عليه صافيها ، ويُديم له وافيها ، وأن ينهضه لأداءِ مفترضاتها التي أثْقَلَتْ كاهِلَهُ باعبائها . واستفرغت جُهْدَ شكره بنشر آلائها ، إنَّهُ سميعٌ مجيب .

[٥]

وله كتابٌ الى الديوان العزيز الناصر لدين الله[٣] في ذي القعدة سنة اربع وتسعين وخمسمائة .

المستظلُّ بجناب الديوان العزيز النبويّ ، الطاهر الزكي ، المقدس الرضيّ ، المعظم الامامي ، الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، ادام اللهُ جدّه مرهفة صوارِمُه ، وأمضى حَدُّه نافذة عزائمهُ ، وأجَدُّ سعْدَه واضحة معالِمُه ، ونصر جُنده موصولة بالتاييد خوافيه وقوادِمُه ، ووطّد قواعِدَ دولَتِه ، وخلّد وطائد مملكته ، وعقد بالظفر المحمود عَذَبات رايته ، وأزهفَ بالنصر المسعود شفرات أسِنَّته ، وبشّر آفاق البلاد بقبول دعوته ، وألزم قلوب العباد محبوبَ طاعَتِه ، وقلّد أعناقَ أوليائه حُلِيَّ عبوديّته ، وقهرَ (٣ ب) المعتقدين بِضلالهم دينَ مخالفَتِه ومشاقّته . ولازالت مواسمِ عدلِه قائمه ، وعواطفُ فضلهِ راحمه ، وعزمات اقتداره لاعدائه محاربه ولاوليائه مسالمه ، جارياً على أفضل ما عوّده اللهُ تعالى من عزٍ يملكُ به الرقابَ سلماً وحرباً ، ونصرٍ يملأ القلوبَ رغباً ورهباً ، وطاعةٍ يوجبُ بها مزيد النِعمِ لشاكري نعمته ، ويبعث بها عتيدَ النِقَمِ لجاحدي منَّته . متقسّمِ الاوقات بين النوال والنكال ، والانعام والانتقام ، مُصَرِّفاً أعِنَّةَ الاقدار طوع أمره الممتثل ، وثانياً أزِمّةَ الاقتدار وفق حكمهِ . المتقبل بمحمدٍ وآله الطاهرين . نازلٌ بالمحلّ الموطّأ الأكناف ، وحالٌ بالمكان اللدن الاعطاف ، ومعتصم بذمّةٍ لا يخفر عهدُها ، وممسكٌ بعصمة لا يحلّ عقدها ، وآخذٌ من طوارق الزمان بأمان ، وراقٍ من هضبات العُلى أبعد مكان . والمشتمل بانعامه الضافية أهدابه الهامية سحابه . والمستكنّ بافضاله السامية هضابه . تائهٌ على أضرابه وأشكاله ، ومفتخرٌ على أترابه وأمثاله . وكيف لا يكون ذلك واذا نُسبت اليه النعمة ازداد شَرَفاً وفخراً ، واذا وصلَ المنة به تناهى نَباهةً وذكراً . إذْ لاغضاضة على المتوشّح بفضل أهدابها ، ولا وضيعة على المترشح ليشم سحابها ، ـ لا اعدم اللهُ كافة العبيد ما خوّلها من طَوْلها ، (٤ آ) ولا سَلَبها[٤] ما ألبسها من ملابس فضلها ، ولا أضحاها عن ظلّه السابغ ؛ ولا خلأها عن وِرْدِ منهله السائغ ، ولا فصلها عمّا وطأ لها من أكنافه الرحيبة ، ولا نقلها عمّا سَرّحها فيه من رياضه الخصيبة . دعاء يسأل اللهَ أصْغَرُ العبيد أن يقرنه بالإجابةْ ، ويشفعه بقبول الخضوع والإنابة بمنِّه وكرمه . وبعد : فانّ أصغر العبيد لما يعتقده من طاعة الديوان العزيز النبوي ـ ثبّت اللهُ قواعدَه ـ المفترضُ اتّباعها ، ويستشعر من موالاته الواجب استماعُها ، ويعتدّ به من الانتماء الى عبوديّته ، ويُعتمد عليه من الاستذراء بظلِّ مشايعته ، يجري في اعلامه بدقيق الامور وجليلها ، واطلاعه على كثير الاحوال وقليلها ، على عادته التي ألِفَها وطريقته التي عوّدها . وذلك ان شيخه بن مقلد بن مهارش » وصلَ الى ولاية أصغر العبيد ، مستجيراً به مستمسكاً بسببه ، فبادر الى اغتنام الامكان في الموهبة عنده ، وسارعَ الى انتهاز الفرصة في توخيه المنّة اليه ، فقلّده من الاقطاع ما يصرفه في مصالحه ومنفعته ، واطلق له من العداد (كذا) ما كان يؤخذ منه ومن جماعته . وتوفّر أصغرُ العبيد على مراعاته ، والعناية به ، فكان كفاء ذلك وثوابه ، أنْ استحوذَ على ما كان فُوضَ اليه من الاقطاع ، وجمع ما (٤ ب) حَصَلَ له من العرب وما نَهَبَهُ من الضياع ، وانفصل هارباً . وأغْضى أصغرُ العبيد من ذلك على القذى ، وأشفق ان يحلَّ به وبيل الأذى ، وأضْرَبَ ، عن ذكره جانباً ، ونبذه ظهرياً . فلّما كان سابعَ هذا الشهر المبارك ذي القعدة جعلَ اللهُ بلوغَ

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الآمال خاتمتهُ ، وحُسْنَ المآلِ نهايَتَهْ . وصلَ الى ناحيةٍ من ولاية أصغر العبيد ، ومعه جماعةٌ من أهلِ الفساد ، وعصبةٌ مابرحت معصوبة بالشقاق والعناء ، وفئة مازالت خالية أعناقها من رِبق الطاعة ، عاطلة أجيادها من قلائد التباعه . فاستأصلَ بالنهاب أموالَها ، وجاسَ بالفسادِ خلالها . ونهبَ ما كان بها من ثاغية وراغية . ودابة وماشية . وتعدّى هو وجماعته ـ خذلهم الله ـ الى فعل ما يطول شرحه ، ثم لحق متدسماً بتكريت ـ حماها الله ـ ، فاستصرخ شخص ممّن حاق به نُكره ، وأحاط به شرّه ، بزعيمها فأحْضَره وتقدم اليه باعادة ما أخذه من المذكور وارتجاعه ، فادّعى انّ معه إذناً من الديوان العزيزي النبويّ ـ قدّسه الله ـ بالاغارة على ولاية أصغر العبيد ، والانتهاب لما فيها ، والتطاول الى أهلها ، والاحتواء على مستغلّها . فاقصر عنه زعيم تكريت وخلّى بينه وبين الشخص الذي استغاثه عليه ، واستصرخه له . وبلغ أصغر (٥ آ) العبيد ذلك فظلّ مُتَحَيِّراً تلعبُ به أفكاره ، وتتصدّع من قلبه أعشاره ، متعجباً من إقدام المذكور على اعتداء ما اعتاد ، واخلاده الى افتراء ما افتراه ، ـ ووجد أصغر العبيد ايضاح عُذره فيما جناه ، بتوقيع الديوان العزيز النبوي ـ مجده الله ـ أعظم من جُرمه فيما فعلَه من نهبِ ماحواه .

ولم يُخامِر سرَّ أصغر العبيد رَيْبٌ في كذب دعواه ، ولا خالجه شكٌّ في بطلان ما أتاه . لكنُّه يسأل العواطف الرحيمة الايعاز الى المذكور باسترجاع ما احتوى عليه ، مما ألمّ امتداد يده اليه . ومقابلته على ما اعتاد على الديوان العزيز النبوي ـ صانَهُ اللهُ عن تخرّص الأفاكيق ، وحَماهُ عن فرية المفترين ، بمحمّدٍ وآله الطاهرين ـ

[٦]

وله :

وصل كتابُ المجلس السامي أدام الله سعادته أريجاً عطرها ، وحرس سلامته بهيجاً نشرها ، وعمر رباع كرمه بحبائه خصيبة ، وأمال أغصان نِعَمِهِ لديه رطيبة ، ونشر من ثنائه ، ما يدّل على طيب انبائه ، وسيّر من شكره ، ما يُنبىء عن حسن ذكره . واجرى في ميدان الحمد طِرْفَ افعاله واقواله ، وسرّح في مرابع المجد طَرفَ رَجائه وآماله . وفتح له من الاقبال باباً مُقفلاً ، ووسم له من بلوغ الآمال هَمْلا مغفلا ، حتى يتانّق في رياضه (٥ ب) الأريضة ، ويستوطن ذرى مساكنه الطويلة العريضة ، بمحمدٍ وآله . فما روضةٌ بالحَزْن يمجُ الندى عرارُها ، ويلاعبُ الصب نُوّارُها ، وتضاحك النسيمَ أزهارُها ، وتفتق عن المسك الذكيّ أصائلُها واسحارُها . صقلت السحبُ متونَها ، وفتّحت السماءُ عيونَها ، وعانق أقاحُها آذريونَها ، ورجّعت أنواعُ الاطيار في نواحيها لحونَها ، فكانّ على كلّ غصنٍ « مخارقاً » ، أو في كلّ حزن فارى مسكه فاتقا ، يهدي الى كلّ محبٍ ريّا حبيبه ، ويأتي كلّ مشتاقٍ بحسن نشائقه وطيبه ، بأحْسَنَ من فصوله الموشيّة حواشيها ، وارقَّ من الفاظه المرضيّة معانيها . كانّ هاروت على سحره ، والبحتري في أثنائها ينشد شعره ، ملكت الاسماعَ دقّة وصفاءً ، وملأت الاعينَ رقّةً وسناء . فللّه يدٌ وشّت تلك البرود اليمنية ، وأنامل نَمّقت تلك الديباجة الكسروية . فلقد زُويت لها مشارقُ الفضاحة ومغاربُها ، وذُلّلت لها ذُرى البلاغة وغاربُها ، وطُويت لها مسالك البراعة ومذاهبُها ، فاستضاءَ كواكبها اللامحه ، وراضَ مصاعبها الجامحة ، وخرق مساربها اللائحة :

فكـــأنّ « قسّـــاً » في عكـــاظ يخطبُ
« وابن المقفــع » في اليتيمــة يُسْهبُ
(٦ آ) وكــأنّ « ليلى الاخيلية » تنـدبُ
و«كثيـــر عـــزّة « يـــوم بَيْن » ينسبُ

ووقف من مودعه الكريم ، على معان أرقّ من النسيم ، دالّة على فرط أشواق ، منبئة عن حُسن وفاق ، ومبرهنة عن شديد وجد ، مُخْبِرٍ عن وكيد ودّ ومُحكم عقد . جمع الله تعالى بخدمته الكريمة شملاً مازال متفرقاً ، وضمّ بمشاهدته حَبْلاً ما برح مُمَزّقاً بمنّه وطَوْله ، ووصله الانعام المودع في اثنائه ، والأيادي الدالة على كريم أخلاقه ووفائه . وما يزال أدام اللهُ سعادتَه يقصد خادمه بِمِنَنٍ توهي جَلَدَ شكره ، وتنقض قوى ظهره لا يستطيع مقابلتَها بيدٍ ولا لسان ، ولا يقدر على احصائها ببنانٍ ولا بيان . فجزى اللهُ المجلسَ السامي أحسنَ ما جزى منعماً عن إنعامه ، وكافا مكرماً عن اكرامه ، بمحمدٍ وآله الطاهرين .

[٧]

وكتب الى بغداد في ثامن عشرين رجب سنة خمس وتسعين وخمسمائة الى المولى الكبير ناصر الدين .

كتب المملوك أدامَ اللهُ سعادات المولى متظاهرة الامداد ، وحرس نِعَمه متضاعفة الاعداد ، واسبغ عليه مِنَنَهُ هامية العهاد ، وأمضى عزيمته وارية الزناد ، وجعل آمالَ الراغبين (٦ ب) به منوطة ، ويده الكريمة في احراز محامدهم مبسوطة ، ممدوداً بقاؤه في نِعَمٍ لا يحصى عددها ، وقِسَمٍ لا ينقضي أمدها ، وسلامة لا يعترض نَكَدُها ، ورفعةٍ لا ينقرض أبدها ، معمورة الدنيا بعزّه القاهر ، وفضله الغامر ، ماعمّز أهلَها فيها ، مُمَكّناً من نواصي أعاديه في أقاصي البلاد وأدانيها ، منصورةً عزائمُهُ الماضية ، محروسة مكانَتُهُ السامية ، مُلَبّاةً دعوتُه الزاكية ، ممضاة مراسمه العالية ، مظفراً في سائر مقاصده ، مؤيداً في جميع مصادره وموارده ، فلا يسرى في عالٍ ولا خفضٍ ، ولا يعمل في ابرام ولا نقض ، الّا والتوفيقُ قائده ، والتأييد رائده ، والعزّ مظافره ،[٦] والتمكين مؤازره ، وعادة الله الحميدة عنده في ادراك مطالبه ، وبلوغ مآربه ، مواكبة راياته ، مسايرة نهضاته ، وبلّغه ـ تعالى جَدّه ـ أقصى آماله ، كما بلّغ به المؤملين رغباتهم من طَوْله وافضاله ، ووفّق المملوك لتأدية حقوق انعامه الكامل ، وانهضه لشكر متواتر إحسانه الشامل .. وهذا دعاءٌ بلغ به المملوك غايةَ

المطالبْ ، وركب في استعماله (   )[٧] المصاعبْ . وكيف يقوم بشكر مِنَنٍ يبينُ في أيسرها خَلَلُ حمده ، ويُضعفُ وصفُ أصغرِها مبلغَ جُهده .

متى لا متى أقضيــــــه واجبَ حقّــــهِ
أيــــاديــه آلافٌ وشكــريَ واحــدُ(٧ آ)

ونِعَمُ الله عنده متواترة ، وآلاؤه لديه متظاهرة ـ يحمد[٨] تعالى عليها ويساله المزيدَ منها ـ . ومن أكبرها نعمةً وأعظمها منّةً ، ما يتناقله الشاكرون من وَصْفِ طَوْلِهِ ، ويحمده[٩] الحامدون من عدِّ فَضْله ، ويشيعُه الموالون المخاصون ممّا أفاءَ الله على جنابه المحروس من النِعَم التي سكنت الى أخواتها ، والايادي التي اتُصِلَتْ بصواحباتها ، وعلى انّ الدنيا تضيق في جنب قَدْره ، وتُحتقر بالإضافة الى مستحقه ، لانّه ينهض من الدهر في نوائبه ، ويأسو من عواديه وحوادثه ، ويُظْفِر ذوي الرغبات بطلباتهم ، ويُسْعف أولي الفاقات بحاجاتهم ، ويُنْمى الى فرعٍ في ذروة المجد نابت ، ويأوي الى ركنٍ في عقوة الكرم ثابت . ومن كان في المكارم غريباً فانّه نشأ في وطنها الرحيب ، ورتع في مزارها الخصيب ، ومناط هِمّتهِ مقرونٌ بالشرف الاعلى ، وأساس فِطْرته مَبْنيٌ على البرّ والتقوى ، فافعالُه بالسَّداد موصولةٌ ، وأقوالهُ الى سُبُلِ الرشاد معدوله ، فمُجاريهِ في مضماره مُطمِعُ نفسَه بالأمل الكاذبْ ، ومحدّثها بالظنّ الخائبْ ، ومحاولُ مَدْحَهُ مُتَكَلِّفُ إحصاءِ القَطْرِ عَدًا ، والاحاطة بالبحر حدًا . فهو واضحُ القدر اذا عجز عن ادراك صفاته ، مقبولُ القولِ إذا (٧ ب) إدّعى القُصورَ عن بلوغِ غاياته . لكنّه يتبع رائد الكلام الى حيث ينتهي به ، ويسلك جدد المقال الى حيث يقصد من غايته . وهل يُخْبرُ عن ضوء النهار الباهر ، أو يُوصف نور القمر الزاهر ؟ فالتقصير في هذا الباب معدودٌ من البلاغة ، والعَيُّ فيه منسوبٌ الى الفصاحة . جعل الله المولى ـ أدام اللهُ ظلالهِ ـ فوق ما يقول مادحه واكثرَ ما يصفُ المُثْني عليه ، وأوْصَلَ المُتَحَرِّمَ به من حُسْنِ رعاية سَنِيهِ ، الى تعجيل طِلْبتَهِ ، ونجاح رغبته ، بمحمدٍ وعترته .

وبعد : فعارضُ هذه الخدمة على الجناب المولوي العالي يعلم ما بين المملوك ووالده من الصحبة الوكيدة ، والالفة الشديدة ، وما يجمعهما من المودة المحكمة ، ويَضُمُّهما من المحبّة المبرمة ، وما يَمُتّان به من الولاء الصائق في عبوديته ، ويدينان به من الاختصاصُ الكامل بخدمته . وان كان المُولي ـ أدام الله سعادته ـ شفاعة أريحيته الى قضاء حاجته ، أقوى من شفاعة مستعطفه ، وأبلغ من قول المتوسل اليه به ، لانّ راجيه يعتمده واثقاً بنيل أمله ، وينقلب عنه فائزاً بالحصول على غرضه ، إذ الآمالُ فيمن سواه خواطر ظنون ، وهيِ في مجلسه العالي اعلاه الله تعالى حقائق يقين وقد وصلَ وهو مفتقرٌ الى لطيف مُراعاته ، محتاج الى شريف (٨ آ) ملاحظاتهِ . وإن كان المملوك يعلم انّ المولى تبعثه المروّة التامّة ، والمنّة العامة ، على تحصيل المحامد ، وضمِّ شتيت المكارم ، ولكن له حرمة سابقة لا يُخفر ذمامُها ، وخدمة قديمة لا يُنقض عقدها ونظامُها ، تبسط لسانَه فيما يبتغيه ، وتُمكّنُهُ من القول فيما يحاوله ويأتيه ، وكرم المولى شافعٌ للراغبين ، وجودُهُ وصلة الطالبين ـ لا اخلاهُ الله تعالى ـ من حوزةٍ يحميها ، ورعيّةٍ يذودُ عنها ويُراعيها ، وجَبّارٍ يطأ من نَخْوَتهِ ، وعاتٍ يفلُ من شوكته ، وراجٍ يسدّ من فَقْره ، وملهوفٍ يكشف من ضُرّه مكنوفاً بالتمكين والتأييد ، معضوداً بالعزّ والتسديد ، انه جواد كريم . والمذكور انّما غرضه إسبال جاهِه العريض عليه ، وبعث نظره الكريم اليه ، فيما يتعلق به من أمر التجارة الداعية الى ذلك . وقد شاع في « إربل » على لسان الخلق أجمعين ان المواقف المقدسة النبوية الطاهرة ، الزكيّة المعظمة الامامية الناصرة ، لدين الله ـ أعلى الله كلمتَها ، وأنفد حُجّتَها « (وردَّ الله الذين كفروا عن حوزتها بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً)[١٠] » أنْعَمَتْ في حَقّه بما يقصرُ عنه وصفُ كلُ واصف من أقوال مختلفة الاجناس يطول (٨ ب) تعدادها ، ويتضاعف عدادها ، اختلف في كميتها كثرة ، فلذلك أضرب عن تفصيلها بتّة . لكنّه يسألُ الإنعامَ الكريم تعريَفهُ بذلك ليشارك في النعمة ، ويتوفّر على الدعاء لتلك الايام الزاهرة ، والمواقف المقدسة الطاهرة ، أسْبَغَ الله ظلالَها على كافة عبيدها وأرِقّائها ، المنتمين الى شريف خدمتها وولائها ، بمحمدٍ وآله .

[٨]

وكتب في شهر ربيع الاول سنة ست وتسعين وخمسمائة جوابَ كتاب كتبه الأجل نفيس الدين أبو الفتح نصر بن عيسى بن جزري مستوفي الاصل بالموصل .

إنعامُ المجلس ـ حرس الله ظله موفوراً ، وعمر قلبه مسروراً وأيّد جدّه منصوراً ، واعلا بذكره منشوراً ، وأشاد باسمه مشهوراً ، وكبتَ عدوّه مقهوراً ، وجَبَرَ بفضله كلَّ كسيرٍ ، واطلق بَطْولهِ كلَّ معتقل فيِ ربقة الهمِّ أسير ، وقصد بغيته كلُّ ظمآن ، ووَجه بقوته الى كلّ لهفان ، وقَرَنَ سعده بالبقاء الذي تشاركهُ النجومُ في الارتقاء ، ووصلَ جدّه بالعلاءِ الذي يُضاهي الافلاكَ في الاعتلاء ، واوضح برأيه الثاقب مُظلم المذاهب ، ونفي بنظره الصائب مؤلمَ المصائب ، وضمن بلطفه الكريم نيلَ كلِّ راغب ، وكفل بمنحه الجسيم دركَ كلِّ طالب ، (٩ آ) واحلّهُ الله تعالى من سلامته الواقية بالمحلّ الحريز ، وعامله من كفايته الباقية بالنصر العزيز بمحمدٍ وعترته ـ غياثٌ[١١] للبادي والحاضر حاضرٌ ، وربيعٌ للأكمة والناظر ناضرٌ ، وكَنَفٌ للأبعد والاقربِ ساترٌ ، وسحابٌ على المجدب والمُخْصب ماطرٌ ، فهو تُتَفَيّا ظِلالُه ، ويدنو منالُه ، ويَعْذُبُ زلالُه ، وتُشرقُ أسحارُه وآصالُه . واللاجىء الى عَقْوته ساكنٌ في أوقى حرم ، والآخذُ بعصمته ممسكٌ باقوى الذمم ، والمتعاطي وصف معاليه ، وعدد أياديه ، ممن نفسُهُ تُخدع بالاباطيل ، وراضٍ لها زخرف الاقاويل ، فلا يحصل من هذه الاماني على طائل ، ولا يلتزم من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذه الاسباب الّا بخبط باطل ، لأنها تردُّ الفَطِنَ عن فهمها غَبيّاً ، وتعيدُ الجوادَ عن إدراك غاياتها عَييّاً ، الّا انّه ربّما ( )[١٢] له عن فواضلها فوصفها ، واستُفْلي منها فضائلها فعرّفها ، وإذا نطق فانّما ينطق عن لسانها ، واذا قال فانّما يقول عن احسانها فغاية البليغ معها الرجوع عن وصفها الى الدعاء لها ، ونهاية الفصيح فيها العود من عَدّها الى الثناء عليها . فجعلَ اللهُ جنابَ المجلس ملجأً يأوي اليه الوافدون ، وحمىً يحوم عليه الواردون ، وأبقاهُ (٩ ب) لدُرِّ الكرم الذي هوَ نظامُه ، ولروض المجد الذي هو غمامُه ، ولِنَهْج الجودِ فهو عامرُ سُبُلِه ، ولكسب الحمد فهو مقتنيه من قوله وعمله .

ووقف الخادمُ من الكتاب الكريم على فضلٍ بَهَرَتْ آياتهُ ، وطَوْلٍ هَمَتْ غماماتهُ ، وبديعٍ تُشرقُ أنجمُ الأدبِ في نواحيه ، وتأخذُ مباديه برقاب تواليه . فمُماثِلُهُ مُهدي الثمدَ الى البحر الزاخر ، وهادي الضياء الى القمر الزاهر . غير انّ داعي الخادم الى القيام بالخدمة الى الخدمة الشريفة مجابٌ ، وباعثه على النهوض بحقها اللازم متاكد الاسبابِ ، وَوَجَدَهُ متضمناً من المواعظ ما يَعيَا عنه « البصري »[٥] وجامعاً من الأذكار ما يعجز عنه « المصري » فكان مسلاة عن ضروب الحزن ، ومدعاة الى الصبر على خطوب الزمن ، ومُهْدِياً الى ما يكسب الثوابَ الجزيل ، ودالّاً على ما يوجب الذكرَ الجميل . فابقى اللهُ المجلس السامي وزراً للمتحرّم به ، وغوثاً للآخذ بسببه ، ووقاهُ اختلاف النائبات النائيات ، وكفاهُ حلولَ الحادثات الحادثات ، وأمَدَّهُ بعُمرٍ يرفل في أثوابه الضافيةِ ، وعزٍّ يَردُ في مشارعه الصافيةِ ، إنّه جوادٌ كريم .

[٩]

وله من كتاب في سنة اربع وتسعين وخمسمائة ، اتفق فيه الوزن اتفاقاً (١٠ آ) حرسَ الله فلاناً فانّه بدرُ المتأمِّل ، وغيثُ المؤمّل .

يبدو ويشرقُ من ضياء جَبينهِ
نورٌ يُضيء الليلَ وهو بهيمُ
يُعطي فيحيا من عطاء يمينه
مَيْتُ [من][١٣] الآمال وهو رميمُ

[١٠]

وكتبَ وصدّرها بابياتٍ أولها :

ذُبت من الشوق فلو انّني
عثرتُ بالوسنانِ لم يَدْرِ

وصلني كتابُ مولاي حرس الله تعالى مدته ، ووقى مهجته ، يذكر فيه انّي باعدته وقد أدناني ، وبعتُه وقد اشتراني ، ونَفَرْتُ منه وقد آنسني ، ومَلَلْتُهُ وقد أجرى[١٤] رسني ، فاهلاً بهذا التجنّي الحلو جَناه ، والذنب الذي اقترفه مولاي وَجَناه ، ومرحباً بهذا العتب الكريه ، الذي يوجد انبساطَ النفس فيه . وقد عَلِمَ مولاي اني انفقتُ عليه بضاعةَ مالها العمر ، وطاعنتُ دونه خيلاً من فوارسها الدهر ،[١٥] وأغْضَيْتُ منه على القذى ، وصَبرتُ فيه على الأذى ، الى أن قلت : إنّ تمرَ غرسي قد أينعَ ، ونورَ شمسي قد تشعشعَ ، وبشرت نفسي( )[١٦] قطافها ، وخلاصها من ظلمة أسدافها ، فَعَرَضَ لي من الغيب عارضٌ لم يجرِ على بال ، ولا توهمت يقع على كلِّ حالٍ ، فحجز بيني وبين مولاي بمنيع حجابه ، وضربَ دونه ستراً لا أطمع ابداً في انجيابه ، وهوّن ما ألقاهُ من ذلك انه عن رضاه الذي اوثره ، وباختياره الذي أجمله (١٠ ب) ولام أكثره . ولقد اندرج مولاي في كتابه ، درجَ البَزّاز لَيِّن اثوابه ، وتوصّل بلُطف عتابه ، الى عظيم لومه وأسبابه . فمن اين لمولاي هذه القرية المغربية ، وكيف اتصف بهذه الاخلاق الساسانية ؟ وإن كان ضميرُ الخادم يشهد بتصديقها ، ويقول بتحقيقها ، لكنّ المولى ـ ايّده الله تعالى ـ لسوء ظَنّه يتخيل منّي خِلافه ، ويبعد أن أقارب إنصافه ، وَهَبْهُ ـ أصْلَحه الله ـ فَعَلَ ما فعل ، وأتى ما أتى ، فهل يمكن أن يترك جانباً ، أوينسى مغاضباً ؟ وحاش لله تعالى وهو الساعد الأشدّ ، والظلّ الممتد ، والباع الأطول ، والمدعو في النفير الاول . ولكن لمّا رجع الخادم الى قلبه المحروس وقَلَّبه ، وصَعّد فيه بَصَرَهُ وصَوّبه ، ولم ير له فيه موضعاً ، ولا وَجَدَ عنده به مُستمتعاً عاد ظنُّه الصادق كاذباً ، ورجع أملهُ الظافرُ خائباً ، وصَبَر على وخز الاسنّة هَمّاً وحزناً ، وأطبق على شوك القتاد جنباً وجَفْناً . وأنشد :

عسى الكربُ الذي أمسَيْتُ فيه
يكون وراءهُ فرجٌ قريبُ

ووقف خادمهُ على أبياته فوجدَها أرَقَّ من الهوى والهواء ، وأعذبَ من سُلافة الصهباء ، وأحْسَنَ ديباجة من أديم السماء ، وأحلى لطافةً من صفحة الماء ، سيّما وقد صدرت عن صَدْرٍ حزين ، وتقلبت في قلب (١١ آ) مسكين ، فلا يماثلها « البحتريّ » « بديباجته » ولا يشاركها ، « العذريّ » برقّته . وعلم الله تعالى أنّ بُعْدَ آلدار لا يُغَيِّر الخادم عن صدق غرامه ، ولا يشفي ما بقلبه من أوامه ، لكن يزيده وجداً على وَجْده ، ويكسبه شوقاً على بعده . فامْتَعَ الله تعالى مولاي بعيشه الرغيد ، وخلِّه الجديد . ورزق خادمهُ بقاءه على مودّته ، ودوامَه على محبّته . وإن كان هذا دعاء لو سَكَتُّ كُفيته .

[١١]

وكتب صدر الابيات التي ساله إيرادها من شعره الملك المعظم شرف الدين ، عيسى بن أبي بكرِ محمد بن ايوب[١٧] صاحب دمشق في شوال سنة إحدى وستمائة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نَسَبٌ كَســاهُ اللهُ من شمسِ الضُحى
نــوراً ، ومن فَلَقِ الصبـــاحِ عَمــودا
عــريـــان لا يكبــو دليـــلٌ من عمىً
فيــــه ولايبغي عليـــــه شُـهـــودا

ونصر أعوانه وأنار طالع سعده ، وشيَّدَ مباني مجده ، وشحذ بالنصر ظبا شفراته ، وعقد بالظَفر عَذَبات راياته ، وجمع له متفرق العَلاء ، ووصل بفضائله منقطع الثناء . ولازالت الآمالُ مصروفةً اليه ، والاطماعُ موقوفةً عليه ، وأيام ذوي الفضائل باعلائه ضاحكة المباسمِ ، ومحافل اولي الادب ببقائه واضحة المعالمِ ، فقد جمع الله تعالى له ولاوائله من الفضائل ما يفوت (١١ ب) الواصفين ، ومَلَّكَهُ وإياهم من المناقب ما يُعْيي المعادين ، فيما رفع من أقدارهم ، وشَهَرَ من آثارهم ، وأسْبَغَ على الأمة من فواضلهم ، واعلا على الملوك من منازلهم ، فهم للمتأمل بدور ، وللمؤمِّل بحور ، وللناظر مليكة حُسنٍ ـ وللسحائب سحائب مزنٍ .

اذا اجتمعـوا في الدار ضاقتْ رباعُها
وإن ركبــوا في الارض ثارَ عَجاجُهــا
مِليــون أن يسقي البــلادَ غيــاثُهــا
بـــأوْجُهِهِمْ حتى تسيــلَ فُجــاجهـا[١٨]

فادامَ الله تعالى عليه نِعْمَةً ، وأجزل له من عوارف قِسَمِه ، وجعل معائض صِلاته أكفَّ أوليائه ، وحصائد ظباته رقاب أعدائه ، ونصر الويته ، وأسنى موهبته ، وانفذ كَلِمتَه .

الشعـــرُ لُبُّ المـــرءِ يَعْـــرِضُـــه
والقـولُ مثــلُ مــواقــعِ النبــلِ
منهـــا المُقَصِّــــرُ عن رَميَّتِـــه
ونــوافــرٌ يــذهبن بــالحصــلِ[١٩]

والمنتمي اليه أحد رجلين : إمّا غبيٌ كثير الرضا عن نفسه ، غير مُتَّهِم مخيلة عارض حِسّه ، يُخَيَّل اليه لرداءة فكره ، انّ الانسان يلزمه الافتتان بابنه وبشعره ، فهو يُزهى ببنات أفكاره ، ويُظهر منها ما هو أولى بكتمانه لاحتقاره . أو عاقل يعلم انّ مانزل عن لسانه لا يقدر على ردّة ، وما اعترف به بين الملأ من كلامه لا سبيل له الى جحده ، فلا يزال لسانه وراء قلبه ، ولايبرح تحريره يعمل في (١٢ آ) وفور لُبِّه ، فلا تنفصل عنه اللفظة الّا وقد هَذَّب أطرافها ولا تُنقل عنه الكلمة الّا وقد وطّا اكنافها . فذاك الذي اذا رمى أصاب شاكلة الرمي فاقصدْ ، واذا جرى في حلبة أحْرَزَ قَصَبَ السَبْقِ وادعاً ولم يجهدْ . ولا يشكُّ العبدُ الأصغر انّه أحد الرجلين الاول ، ولا يذهب عنه ان ما ينسب اليه يجب أن ينبذه وراء سهمه دون غلوته . ويعلم ان هذه الصناعة لا تطاوع الّا مع الرياضة ، ولا توالي الّا على المعاناة ، فكيف اذا انضاف اليه طول هجرانه لها ، وفرط إضرابه عنها ؟ ولولا اتّباع الامر المتمثل ، والانقياد الى الحكم المتقبّل ، الذي ورد به الامير الكبير فخر الدين شمس الاسلام أبو عمرو عثمان بن احمد بن محمود بن ابتكين الحريري ـ أدام الله تعالى مجده ـ وأشاز به من فرائض كرمه ونوافله . وتعريف العبد الاصغر إيثار مولانا ـ خلّد الله تعالى سلطانه ـ أرباب الادب على أصحاب الرتب ، وأُنسه بضبع المنتمي اليه ، ومحاماته عن المتمسك به ، لم يتسرّع العَبْدُ الى نشر مكنونهِ ، ولم يتعرض الى هَتْكِ مصونه ، ولما أقْدَمَ على عرض ما يجب اخفاؤه عنه ، وقدَّمَ ما لايجب أن يُسْلفه بين يديه . وانّما مال الى اقتحام هذه اللُجّة (١٢ ب) وقال ، بركوب هذه الحجة ، خُفوفاً الى اتّباع دواعيه ، واخذاً بالعزيمة فيما تَرِدُ به اوامرهُ ونواهيه . والكرمُ الكافي الكامل ، يَسْتُرُ هنات المتغابي المتغافل ، مستمر في مسامحته بما يظهر من زلله ، والتجاوز عنه فيما يبدو من خَلَلِه . فانّ المتيقّظ مازال بادي الهفوة . والمتحفظ ما برح مقترفاً الصبوة . لازالت الاقدارُ معتقدة وجوب طاعته ، والايام تمادي امله الى بلوغ بُغْيته ، بمنه ولطفه ورحمته .

وكتب في آخر الجزء :

أطال العبدُ الاصغر ، وأملَّ وأضْجرَ ، ولو أنّه ـ عافه الله تعالى ـ أمكنه قصْداً بخدمه لبادر الى التمييز ، ولو أعير جناحَيْ طائرٍ لم يلبث أن يطيرَ . ولناب تقدمه عن قلمه . ولم يؤثر مقامه على مُقْدَمِه . غير انّه يرجو من الله تعالى أن يكون عند عرضِ عقلِه على مسامحه لا مُناقشه . وأنْ يكون سببه ان شاء الله تعالى لساتره لا كاشفه . وللآراء العالية في تأمّله مزية الرفعة والعلاء إن شاء الله تعالى .

[١٢]

وكتب في ذي القعدة سنة احدى وستمائة جواب كتاب أنْفَذه المولى مالك الرقّ أبو سعيد كوكبدري بن علي بن بكتكين[٢٠] صاحب إربل ـ أدام الله ظِلَّه الى نُوّابه باربل ووقّع في أوّله بخطّه الكريم . (١٣ آ)

« (يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمتُ عليكم) »[٢١] « (إشكروا لي ولا تكفرون) »[٢٢] يُوصيهم على حفظ ما عُهِد اليهم ، والتمسك بما ألقى مقاليدهُ عليهم ، وطلبوا منه أن يكْتُب جوابه فكتب :

« (من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نَحْبَه ، ومنهم من ينتظر وما بَدلوا تبديلا) »[٢٣] (يخافونَ يوماً تتقلّبُ فيه القلوبُ والابصارُ ليجزيَهُمُ اللهُ أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يُرْزُقُ من يَشاءُ بغير حساب) »[٢٤]

ما قلّدهُ المولى المالك الملك المعظم مظفر الدنيا والدين ناصر الاسلام والمسلمين أدام الله سلطانه ، ونصر أعوانه ، وظاهرَ بُرهانَه ، وشيدَ قواعده وبُنيانه ، ووطّد دعائمَ ملكه وأركانه بمحمدٍ وآله ، أعناقَ المماليك من الانعام الذي هو أبقى من أطواق الحمام ، والاكرام الذي هو اثبت على الايام من الايام ، والنِعَم التي قرن أوائلها بأواخرها ، وشفع مواردها

بمصادرها ، وما أخذه الله تعالى على كلِّ مؤمن يعتقد أنّ المرء مُجازى بعمله ، ومسؤول عن ماضي ما اجترمه ومستقبله ، من الوفاء بالعهد الذي لا بُدّ أن يسأله عنه ، وأداء الامانة التي تعرض عليه في أعماله يوم لا ملجأ له منه ، يوجب أيسرُها المحاماة على الحُرَمْ ، ويقتضي أصغرُها الرعاية للذممْ . كيف ولا يتقلّب أحدٌ (١٣ ب) منهم الّا في ظلال نعمته ، ولا يُعرف له غير مالك رِقّه من قامَ بتربيته . على انّ مالك الرقّ ـ عَزّ نصرُه ـ لم يُوَجِّه نِعَمَهُ عليهم الى من يكفرها ، ولا أسلمَ ذمته الى من يحفزها ، ولا حَمَّلَ أعباء مواثيقه من لا ينهض بها ، ولا ألقى أثقالَ عهوده على من لا يتمسك بسببها ، وإن كان الانسانُ لا يوثق به في تزكية أعماله ، ولا يقبل قوله في الرضا عن نفسه في جميع أحواله . غير انّ أصْلاً غَرَسَهُ بيده لا يُثمر الّا الطيبْ ، ومَعِيناً استنبطَهُ بفراسته لا يجري الّا العذبْ وحاش لله تعالى أن يصرف أحْسَنَ ظَنِّ مولانا في المماليك الى اسْوَئِه ، والّا يكون على يقين من أطيب وفائهم وأهنئه . وقد علم ـ ادام الله تعالى سلطانه ـ ان احداً منهم لو حدثته نفسُه ـ والعياذ بالله تعالى ـ بغير الوفاء لانتزعها من صدره ، ولو اطلع من قلبه على ما [لا](٢٥) ترضيه لازالَهُ عن مُسْتَقَرّه على انّ اقلّ المماليك لا يزالون يرفعون الى الله تعالى ايديهم باخلاص نِياتهم ، ويُطلقون ألسنتهم بصفاء طويّاتهم ، متوسّلين اليه جَلّت قدرتُه أن يُديم عليهم من نعمةِ مولاهم ماخوّلهم ، وأن لا يسلبهم ظِلَّ كرمه الذي شملهم ، وأن يصرف عنهم شرَّ النفس الامّارة بالسوء وساوسُها ، وأن يُخلّص ضمائرهم من غوائل ما تحدّثُ به افكارُها وهواجسُها (١٤ آ) وأن لا يعتاضوا ما يبقى آجلهُ بما يفنى عاجلُه ، وأن لا يستبدلوا ما تقضي بالنعيم غايته ، بما تقضي الى الوبال في الدنيا والآخرة عاقبتهُ ، وأن يختم بحسن القيام في الخدمة المولوية أعمالَهم ، ويبلغهم في أيامهم أمانيهم وآمالهم . على ان ما عهده مالك الرق عن بَصَرِه اليهم ، واعتمد في حفظه عليهم ، لايزال نصبَ أبصارهم ، ونجيَّ أفكارهم ، فهم ابداً مهتمون بملاحظته ، متابرون على محافظته ، متفقون في جميع أحوالهم وسائر أوقاتهم مع الأمير « جبريل بن يكتم » ـ أدام الله رفعته ـ على ما يشهد مُناصحتهم ، ويقضى بحسن مبايعتهم ، غير انّهم يرجون من الله أن يكونوا ممّن أوفى بما عاهدَ اللهَ عليه ، واعدّ رعي أمانته من زاكي عمله الذي يُقَدِّمُهُ بين يديه . والّا يُعقبهم على حفظ ما أسند اليهم الندامة ، والّا ترضيهم من الغنيمة المحصّلة لهم زيادة انعامه بالسلامة ، والّا يؤمنهم عاقبة مَكْرِهِ فيما يستدرجهم به من فعلهم ، والّا يحمل عليهم اصراً . كما حَمَله على الذين من قبلهم « (رَبَّنا لاتُزِغْ قُلوبَنا بَعْدَ أن هَدَيْتَنا ، وَهَبْ لنا من لَدُنْكَ رَحْمَةً إنَّكَ أنتَ الوَهّابُ) »(٢٦)

[١٣]

وكتب في شوال سنة احدى وستمائة على لسان الأمير الكبير فخر الدين أبي عمرو عثمان بن أحمد الحريري الى الملك (١٤ ب) المعظم شرف الدنيا والدين عيسى بن محمد بن ايوب ـ ادامَ الله تعالى سلطانَه ـ في معنى ما تقدمَ وكُتبت بغير خَطّه .

ادام الله تعالى سعادات الجناب العالي المولى الملك المعظم المؤيد المظفر المنصور شرف الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين نصر أمير المؤمنين ، وحقق إرادتَه وأعزّ سلطانه ، ونصر أعوانه ، وأنار بُرهانه ، وشيّد قواعدَ مُلكِه ، ووطّد دعائمه وبنيانه ، وملّكه أقاصي البلاد شرقاً ، وغرباً ، ومكّنه من نواصي العباد سلماً وحرباً ، فلا تطأ سنابكُ خَيْلِهِ بلداً الّا وَرَسْمُهُ فيه نافذٌ ممتثل ، ولا يبلغ أمرهُ أحَداً الّا وحكمهُ عليه مطاع مُتَقَبّل . ونشرَ في الآفاق دعوتَه ، واسبغ على الخَلْق نِعْمَتَه ، ولازالت مقرونة بالفتح عزائمه ، كفيلة بالفتح أسنته وصوارمه ، وَوَقَّمَ(٢٧) شانيه ، وخذل أعاديه ، بمحمدٍ وآله .

أقلّ المماليك لمّا فارقَ ذلك الجناب الخصبة ، رياضُه ، وفصل عن ذلك المورد العذبة حياضُه ، كان كالذي فارقَ شهيَّ حياته زمن شبيبته ، أو فَقَدَ نشيدته(٢٨) عقيب الظَفر ببُغْيتِه ، ووصل الى اربل المحروسة مكنوناً من الله تعالى بالسلامة ، محفوفاً بالكرامة ، وكلُّ ذلك ببركة ظلّ الجناب العالي الذي شمله ، ويُمْن الكرم الذي تقبّله . وعرَّفَ فلاناً ما تقدم به الامرُ المطاع ، وبرز به الحكم الواجبة (١٥ آ) الاتّباع ، من انفاذ مايعظم اظهاره لاصِغارُه ، ويكثر اشتهاره لا احتقاره . فاستقال أقل المماليك من هذا العِثار أن يُمنى به ، وتوسّل اليه ان يعفيه من تجشم هذا الخطر وارتكابه ، فالزمَهُ أقلُّ المماليك بما افترضت عليه طاعتهُ ، وكلَّفَهُ ماوجبت عليه إجابتُهُ . وقد سَيّر ابياتاً في جزء افتتحها بوصف معالي الجناب العالي اعلاه الله تعالى ـ وإن كانت الفصحاء يُعقدهم العجزُ عن مُعارضته والبلغاء يَقفهم العيُّ دون غايته ، ومن الذي يُحصي الرملَ عدّا ، أو يحصر البحرَ حدّاً ! ولكن فكرةُ أخوك لا بطل ، فإنْ مَنّ عليه باصغاء السمع الشريف اليه مَلَكَ عنانَ الفخر تائهاً على أمثاله ، وأحرز قصبَ السَّبْقِ زاهياً على أشكاله ، وادخَر ذلك شَرَفاً عند مجتمع الخصوم ، وفضيلةً يخلّد ذكرُها الى يوم الوقت المعلوم ، وجَبَر كسرَه بما يسدّ من خَلَلِه ، وضوعف برّه بما يقضي له فيه من زَلَلِه ، وقلّد أقلَّ المماليك المنّة التي يدلّ بها على قُرنائه ، واسعَفَهُ بالبغية التي لا ينالها سواهُ من نظرائه ، بعد تصريف أقلّ المماليك بخدماته ، وأوامره وتقدماته . وللآراء مزيد السموّ والعلاء إن شاء الله تعالى .

[١٤]

وكتب ولم ينفذها :

ـ مازال فلانٌ ـ أدامَ الله تعالى ضافي ظلّه ووارفه ، وأجزلَ لديه (١٥ ب) عوافي طَوْله وعوارفه ، وأشرق في قلل السعادة مطلع شمسِه ، وجعلَ ما يستقبله من غده خيراً مما استدبره من امسه ، ووقى بهجتَه ، وحمى حوزتَه ، بمحمد وآله ـ ، يرى خادمَه بناظر لا يغمض الّا على حمايته ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولا يستيقظ الّا لحياطته . وقلب [لا][٢٩] يضمر الّا مصلحته ، ولا يعقد الّا راحته . فهو يسأل إنعامه أنّ يجريه على ما عوّدَهُ من إحسانه ، ويُفضي به الى ما أَلِفَهُ من امتنانه ، ويشفع عنده اليد الاولى بثانيتها ، ويُتبع اليه النعمة السابقة بتاليتها . فلا تبرح أياديه ـ إن شاء الله تعالى ـ تترى فرادى وتوأما ، وفواضله تتراكب ظهرانا ولواما (كذا) ، إذْ خادمهُ مازال يعدّ نفسه من أتباعه ، ويحسبها من جملة أشياعه . وما ترك خادمه تكليف خاطره لما جرى عليه ما علمه النصرة له والذّب عنه ، الّا خوفاً من أن يُنسب مولاه الى التعصب له ، والاشفاق عليه ، فيحمل باللجاج على المركب الوعر ، ويورد بالخلاف على المورد الأمرّ .

فامّا الآن إذْ قد أمِنَ ذلك ، فليجعله ـ أدام الله تعالى مجده ـ على بال ، وليعرض عنه إذا عرض لولايةْ ، وليدافع عنه اذا دفع الى تكلف كفايةْ ، فخادمه ممّن لا يمتّ الّا بسببه ، ولا يعتضد في أحواله الّا بهِ ، لانّه الساعدُ الاسدّ ، والعضد الاشدّ . لاأعدمَهُ الله تعالى رأفَةَ شفقته . ولا سَلَبَهُ عاطفة رحمته (١٦ آ) بمنّه ولطفه .

[١٥]

وكتب :

مازال تَطَوُّلُ فلانٍ ـ أدامَ الله تعالى سعيدَ جدوده ، وحرس جديد سعوده ، وأمدّه من انعامه عليه بمزيده ، واذلَ عزُّ عدوُه وحسوده ، وقَرَنَ عزائمه بالمضاء ، وأوامرَهُ بنفاذ الرضاء ، ووصل مطالبَه بالنجاح ، وسخّر له مقاصِدَهُتسخيرَ الرياح ، مكنوناً جانبه المحروس ، محفوظاً مَرْعيّاً ظِلُّهُ المانوس ، ملحوظاً مُغرماً بمَجدٍ تُعلى مبانيه ، مولعاً بِطُولٍ يُتابِعُه ويُواليه ، بمحمدٍ وآله ـ يكرّ على خادمه مُعاده ، وتهمي عليه عِهادُه ، وتتواتر إليه أعداده ، وتتوالى لديه امداده ، ولا يبرح فضله تضفو عليه ظلاله ، وانعامه يسمو اليه قريباً ماخذه ومنالُه ، متوفّرة له أقسامه ، كاملة عِنده انصباؤه وسهامه ، وكُلّما أخذ في شكره سالفةً ، قَرَنها باخُرى آنفه ، أو شرع في نشر فضيلة سالفهْ ، يشيعُها بمثلها طارفه ، حتى لقد اثقل ببرّه كتد[٣٠] شكره ، واضعف برفده كاملَ حمده ، وهيهات أن يقوم الضعيفُ الجَلَد ، القاصرُ اللسان واليد ، ببثّ مكارم تُكاثر النجومَ عدّا ، وحصر محامدِ تفوتُ البحارَ حدّا ، لكنّ خادمه يعتمد في تصديق دعواه على ضمير الكريم ، وَيَكِلُ قبولَ قوله الى شهادة باطنه السليم . وان دهراً اصبح المجلس (١٦ ب) السامي من حسناته ، واعتذر بفضائله من سابق سيئاته ، لَدَهْرٌ عَطَفَ على الكرَمِ فَنَعَشَهُ ، ومالَ الى الفضل فآنسَ مُوحِشَه ، وكفاهُ علمهُ المحيطُ بخالص ودادِهِ الذي يشتمل عليه ، وصفاء اعتقاده الذي يرجع في تصديقه اليه ، أن يُنَمّق ذلك بالمقال وإن ذُلِّلَتْ له سُبُله ، ويزوّقه بلطفِ الاختيال ولو اتّسعَ توصّله ، لانُّ ما اسْلَفَهُ من سابق نِعَمهِ ، وسالفِ كَرَمِه ، لايزال نصبَ عينه ، ونجيّ فكره . فهو وإن عجز عن تادية طَوْلهِ وفَضْلهِ ، وضعف عن اقلال برّه وحَمْلهِ ، يعتقد ذلك بقلبه ، ويعتده عليه ويدينُ به . فادام الله سعادتَه في نعمةٍ متضاعفة ، وقُدْرةٍ مُساعفة ، وجَدٍّ قاعد ، وسَعْدٍ زائد ، وعمرِ الدنيا ببقائه ، وأسبغ عليه ضافي آلائه ، وأعانَ خادمَه على تادية فواضله الزاكية ، وشُكر عوائده الرائحة الغادية .

[١٦]

وكتب في سنة احدى وستمائة وقد ورد الى الاطراف خَلْعُ وليّ العهد « (وما كانَ لرسولٍ أن يَاتي بآيةٍ الّا بإذْنِ اللهِ لكلِّ أجَلٍ كتابٌ يمحو الله ما يشاءُ ويُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أمُّ الكتاب) » .[٣١]

انّ الله تقدّست اسماؤه ، وجلّت كبرياؤه ، وتظاهرت نعماؤه ، وتضاعفت آلاؤه ، لمّا جعلَ مِلّةَ هذا الدين أقومَ (١٧ آ) المِلَلْ ، ونحلته أشْرَفَ النِحَلْ ، جعل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أكرمَ الرُسُلْ . فاجتباهُ من أطهر أرومة ، واصطفاه من أفخر جرثومة ، مُنْتَقِلًا من الاصلاب الطاهرة الى الارحام الزاكية ، حتى اذا تكاملَ قَمَرُ وجوده ، وأشرقت مطالعُ سعوده ، ابتعثه ـ صلى الله عليه وسلم ـ والناسُ في دياجِ من الضلالة ، مظلمة ، ومهاوٍ من الفِتن مقحمه ، وأيّده بالحُجج الواضحة ، وأمَدّه بالبراهين اللائحة ، وأعلا كلمته ، وأنارَ محجّته ، ونَشَرَ في الافاق دعوتَه ، وأظهرَ على الدين كُلّه منهاجَه وشريعَتَه ، فلم يزل يُجاهد في الله حَقَّ جهاده ، ويختار ما فيه الخيرة لعباده ، الى [ان][٣٢] رست قواعد الايمان ، ودُحِضَت مكائد الشيطان ، ورَفَلَ الدينُ في سابغ ذُيوله ، وظهر الحقُّ مُشرقاً بعد أُفوله ، فحين اكملَ الله سبحانَه وتعالى به لهذه الامة دينَها ، وأوضح بهدايته حُجَجَها وبراهينَها ، أتاه صلى الله عليه وسلم اليقين ، فاطمانت به نفسُه وامتزج بوحشته انسُه ، علماً بما له عند الله من الوسيلة السابقة المرضيّة ، والدَرَجة العليّة ، والمقام المحمود الذي وَعَدَهُ به ، والمنزلَ الكريم الذي أعَدّه له . فصلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، وعترته الذين شادوا قواعدَ هذا الدين ، وخصّ بافضلِ (١٧ ب) صلواته ، واكمل تحياته ، محل النبوّة والرسالة ، ومقرّ العظمة والجلالة ، ومهبط الملكية (كذا) ومصعدها ، ومصدر الرحمة وموردها ، وملقى القول الثقيل محمله ، ومنتهى الذكر الجليل مفصّله ومُجمله . وآثر باطيبه نَشرًا ، وأذكاه عطرا ، المواقفَ المقدسة ، النبويةَ الطاهرة الزكية المعظمة الامامية الناصرة لدينِ الله ـ أدام الله تعالى جلالَها ، وحرسَ ظلالها ، وأنفذ في الآفاق كلمتَها ، وأمضى في الاقطار عزمتَّها ، وحَلىَّ عاطلَ الاعناق بمفترض طاعتها ، ونوّر مُظلَم القلوب بخالص عبوديتها ، وعمر بآياتها نادي رباع علائها ، وقهرَ بسطوتها عادي أطماعِ أعدائها ، وجعل النصر معقوداً براياتها ، والظفر منوطاً بِعَذَباتها ، والملوكَ خاضعة لامرها الممتثل ، واقفةً عند رسمها المتقبل ، ولا أعدم الله المسلمين كافة حُسن رعايتها ، ولا سلبتهم[٣٣] ما حولهم من ميامن شفقتها وعزائم حياطتها وحمايتها ، وإن كانت الاجابة فيها سابقة أدعية المخلصين في عبوديتها ، متقدمة وسائل

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

المنتسبين الى طاعتها ، منتظمة أملَ الآملين ، جامعة رجاء الراجين ، بما منحها الله تعالى من بسط العدل ونشره ، وقمع الجور وقهره ، وسلوك السنن القويم ، واتّبـاع الصراط المستقيم . مُتَقَيِّلة (١٨ آ) افعالَ الأئمة الراشدين ، والخلفاء المهتدين ، في كلّ ما حلّوه وعقوده ، وممتثلة أمرهم في جميع ما قصدوه واعتمدوه ـ صلّى الله عليها وعليهم اجمعين ـ .

فمذ اختار الله تعالى لِنَبِيّه ـ صلى الله عليه وسلّم ـ ما عنده ، وَوَفرَّ له من كرامتهِ رِفْدَه ، لم يُخْلِ دينَه المتين بين حام يحمي سِرْبَه ويصفي شربه وراعٍ يرأبُ شِعبَهُ ويؤمّن شَعْبَهُ . الى أن اصطفى الله تعالى منْ ذُرِّيَتهِ الاولين سبباً ، واختار من عترته الأدنين نَسَبا ، الأئمةَ المعصومين ، والخلفاء المرضيين من ولد العباس ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ فلم يزالوا قائمين بأمر الله ، واعينَ عزَّ الله ، منتقمين لله ، عاملين لما يجمع على التقوى كلمة المسلمين ، باذلين أنفسهم فيما يقوّي معاقد هذا الدين ، حتى استقرّ بهم الحقُّ في قراره ، وأظهرَ بهم العدلُ دارسَ مناره . وافضتْ الإمامةُ منهم الى سائسها ، ووكلت الامة الى حارسها ، فَنِطيت علائِقُها بمن لا ينكل عن الاضطلاع بأثقالها وأعبائها ، ولا يقع عَناه في رعاية حقوقها دون عنائها ، فأعاد الدين كما بدأ لا غريباً ، وتعهدَ ذاوي عوده فاهتزَّ رطيباً ، فهو لا يزال (   )[٣٤] يمنع من أطرافه متحدّياً ما يدفع عن أكنافه . موكلاً برعيته عيناً مُحيطاً بهم ناظرها ، وعزيمةً مُتْعِبَةً في كلاءتهم أفكارها وسرائرها ، سواء عليه في الاعتناء (١٨ ب) به قريبها وبعيدها ، وسيّان عنده في الانتصار له بسَيِّدها ومَسُودها ، فلا يحكم مريرة الّا فيما يُفضي الى نظام أمورها ، ولا ينقض عقداً الّا فيما يقضي بصلاح جمهورها ، مُسْتَشِفاً في ملاحظتها رأيَهُ الصائب ، وَمُتَبَيِّناً في محافظتها أواخِر العواقب . فهو صلوات الله عليه وسلامه يرى في يومه ما في غده ، ويعلم مغيبَ الامر من مَشْهده ، وتُكشف له عن خبايا الواقعات حجبها[٣٥] وستورها ، وتُريه أعجاز الكـائنات هـواديها وصدورَها ، خاصّة اختصّه الله بها من بين سائر عباده ، وفضيلةٌ جعلها له عَلَماً على الفوز في يَوْمَي حياته ومعاده ، فلا يبذل جهده الّا في المحافظة والمناصحة ، ولا يعملُ فكره الّا فيما يؤدي الى الصفقة الرابحة ، ومن اكبر دلالة ، على ماوضعت به شرائف أفعاله ، وأوضح بيّنةٍ على ما شهدت به كرائم أقواله ، انّه لم يقرّ ولده الأمير الأجل السيد أبا نصر محمد بن أمير المؤمنين ـ صلوات الله وسلامه [عليه] على مافوضه اليه من ولاية عهده ولم يمزه[٣٦] على ما رشحّه له من النهوض بأعباء الخلافة من بعده ، وإن كان نبعة من منابت تلك الأعراق الطاهرة ، ولمعة من أنوار هاتيك الاقمار الزاهرة ، ودفعة[٣٧] من أمواج تلك البحور الزاخرة ، وبضعة من سلالة تلك الطينة الفاخرة ، وبدعة من دلائل الآيات السائرة ، ولكنّه

صلوات الله عليه لمّا لم يَرَهُ (١٩ آ) مُسْتَقِلًا بأعباء ما حَمَّلَهُ ، ولم يجده مُغْنياً عناءَة فيما أهَّلَهُ له ، وعرف من تصوره انّ ما خصّه به ليس من طوقه . وما أسْنَدَهُ اليه لا ينهض بأوقه .[٣٨] وتيقّن انّ مُؤْنَهُ تضعف عن القيامِ به ، وانّ قدرته تعجز عن التمسك بسببه . ولم تشهد له مخائل يومه بمناجح غدِهِ ، ولم يظهر من سهاده كفاية مَدَدِهِ ، لم يُغْضِ له على ما عرفه منه . ولم يسامحه به فيتجاوز عنه ، ونيّتهُ في ذلك نِيَّةُ شهد[٣٩] الله بصفائها ، وطوِيّة اطلّعَ على وفائها ، إذْ قد علم ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ انّه لا يُدَبِّر الأمور الّا المتلفّح المتيقظ ، ولا يسدُّ الثغورَ الّا المُتَحَرِّز المتحفظ ، الذي افترّت عن معالجة النوائب أنيابُه ونواجذُه ، ودلّت على معاناة الحوادث متارِكُهُ ومآخذه ، وَحْياً من الله تعالى أن لا يختار لعباده الأصلح ، وخوفاً منه أن لا يخصهم بالمتجر الأربح ، واتّباعاً لخُلُق النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ في انّه لم يعهد لأحَدٍ بعده عهدا ، ولم يعقد على مُعَيَّنٍ لهذا الشأن عقدا . وأمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ أولى من اقتفى آثاره ، واعلنْ شعارَهُ ، واتّبع سُنّته ، وركب مَحَجّته . وسعى على حَذْو منهجه . وانقاد لقويم حججه . وعلم انّ الله تعالى يقول « (يا أيُّها الذين آمنُوا لا تخونوا الله والرسولَ وتَخُونوا أماناتِكم وأنتم تعلمون . واعلمُوا إنّما أموالُكم وأولادُكم فِتْنَةٌ (١٩ ب) وأنَّ الله عِنْدَهُ أجْرٌ عَظِيمٌ) » .[٤٠]

ولم يحتج الأميرُ الاجلّ السيد أبو نصر محمد بن أمير المؤمنين مع شريف منزلته ، وعظيم مكانته . وتوقّد فطنته ، وتوقّح المعيته الى أن يُلقي بالحجّة المحكمة ولم يَرَ أن يُشافِه بالمناقضة المبرمة إنمّا (   )[٤١] ماعُهِدَ اليه خالعاً ، وبذلَ النزولَ عنه طائعاً ، فنزعَ عنه مُختاراً ما تَقَمَّص من لباسها ، ونكث ما أحكم له من امراسها ، لانَّ مثله ـ أدامَ الله ظِلّه ـ لا تُقرع له فيما يُرضي الله العصا ، ولا تقعقع له فيما يقرب منه الحصا ، ولا يُنَبّه من سِنَةٍ استغرقه تَهْويمُها ، ولا يُرشد الى سُنَّةٍ خَفي عنه قَويمُها ، بل يتوكل للحقّ على نفسه فلا تعصيه ، ويطالبها فيه بجميل عادته فلا تلويه ، ويعلم انّ المواقف المقدسة النبوية ـ ادام الله سلطانَها ـ ممّن لا يؤثِرُ دنياهُ على أُخراه ، ولا يلفته عما يرضي الله سبحانه وتعالى هواه ، ولا يميل من الدنيا الى (   )[٤٢] ولا يغمض على الجبلّة التي يُخاف غداً من الاطلاع عليها . فالحمد لله على ما أسبغ على الكافة من جزيل فوائدها وإحسانها ، وأفاض عليهم من شريف عوارفها وامتنانها ، وله المنّة فيما مَنَحهم من ألطاف مواهبها الشاملة ، ووطأ لهم من أكناف أحكامها العادلة ، وأجرى على يديها من انتظام الامور الدنيويّة ، وتكامل لديها من دواعي السعادة الأخرويّة ، (٢٠ آ) حتى أشرك في نعمتها البعيدَ والأدنى ، وتساوى في تناولها القريب والأقصى ، ورتع (   )[٤٣] في مراتعها الخصيبة الرطيبة ، وتفيأوا ظلال مرابعها الحصينة الرحيبة ، وامتدحوا زناد عزائمها الورِيّة ووردوا منشارع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رغائبها الرويه ، فهم آخذون من حالها المحصدة[٤٤] بأوثق أمان ، وساكنون من ظلالها الوارفة أعزّ مكان ، متمسكون منها بعصمة لا تعذر ، متوثقون بذمّةٍ لا تُخفر ، وأيامهم بدولتها ممرعة رياضُها ، آمالهم بنعمتها مترعة حياضُها ، وعيشتهم راضية بفضلها المتتابع . فلا زالت أوامرُها نافذة المراسم في أقطار الارض ، قائمة المواسم في زَمَنَيْ البسط والقبض ، بادية المعالم في الإبرام والنقض ، ماضية العزائم في الإعلاء والخفض ، مذلّلةً لِبابِها رقابُ الخلائق ، ونواصيها ، مستولية يدها على أداني الآفاق وأقاصيها ، منقادة له أزمة طائعها وعاصيها ، ومُنزلاً من ظاهر أعدائها عن مَعاقلها وصَياصِيها ، متصرفة الاقدار على اختيارها ، جارية الاقضية طوع إيثارها ، موفية بها الحياة على أنفس مُدَدِها ، وبالغة بما أرخى مَدَدها ، وأنهضَ الله تعالى العبد الأصغر الى القيام بمفترض متابعتها ، وأقامه الى النهوض بواجب (٢٠ ب) مشايعتها ، وَرَزَقَهُ شكراً يستمدّ به المزيد من امدادها ، ويقتضي به وفورَ القسم من أعدادها ، ولا أعْدَمَهُ من نظرها الصادق ما يؤذنه باصطفائه واختصاصه ، ولاحَرَمَهُ من رأيها الثاقب ما يشهدُ له عندها بصفاء ولائه وإخلاصه ، وأدام عليه مديدَ ظلِّها الوارف ، وشفع له تالد إنعامها بالطارف ، وحشره الله تعالى يوم الفَزَعِ الاكبر تحت لوائها ، معدوداً من جملة من تشفع فيه من عبيدها وأوليائها ، بمحمدٍ وعترته وأصفيائها .

[١٧]

وكتب في سنة ستٍ وثمانين الى صديق له

طالت الفترةُ بين كتبي وكتب سيدي فلان ـ أيّد الله عُلُوَّه ، وحرسَ سُمُوَّه ، وحقّق مرجوه ، وقَرَنَ بكلّ صالحةٍ رواحه وغُدُوَّه ، وكَبَتَ ضده وخذل عَدُوَّه ، وجعل الايامَ كفيلة بطول بقائه ، والليالي ضامنة لاتمام نعمائه ، وأهَلَّ عليه الاشهر مؤذنةً بنيل مرامه ، وكرَّ عليه السنين مُبَشِّرةً باحصاد حبل سعادته وإبرامه ـ حتى ظننتُ أنَّ المودةَ قد انتقض مريرُها ، ونُسي أوّلها وأخيرها ، وأن لا سبيل بعدها الى وصال ، ولا طريق الى مُخاطبة ولا إرسال . وهذه حال إن لم يتداركها ـ أدام الله تعالى مجده ـ أوجبت نسيانَ الوِداد ، وآذنت بقطع الوصل المعتاد ، وحاش لله (٢١ آ) تعالى أن يسلك بي سيّدي هذا المركب الوعر ، وأن يُجَرِّعَني كدرَ هذا المشرب الأمَرّ . وإيّاه اسأل ان يُرجِعهُ الى كرم خلائقه ، وأن يَقِفَه على المنهج الواضح من طرائقه ، بمنّه وكرمه إن شاء الله تعالى .

[١٨]

وله :

اختصر زلتي لتحرز فضلَ الـ ـ شكر مني ولا يفوتك اجري

لا تكلني الى التوسل بالعُذْ ـ رِ لعليّ الّا اقوم بعـذري

كرّم الله المولى ـ أدامَ الله ظلالهُ ، وحرسَ جلالَهُ ، ووفّر من السعادة قسمه وأنفذ في مضائق الامور عزمه ، ونضر رياض الحمد بوجوده ، وحلّى جيدَ الثناء بأفضاله وجُوده ، ومنحَهُ الغِضابَ ، ونشز عفوَه عن المذنبين ، وألحق صفحه بالمُقصِّرين ، حتى يكون الجاني عليه أوثق بكرمه من المحسن ـ وحاش لله ـ من المعتذر اليه . وأذلَّ له الدهر فَمَلَّكَ قيادَه ، وكَبَتَ أعداؤه وأرْغَمَ حُسّاده ، بمحمدٍ وآله ـ المُبينُ عن لطيف أخلاقه ، الدالُّ على شريف أعراقه ، الباعثُ الى رمم المعاذير أرواحاً ، المطلع في ظلم الذنوب صباحا ، الموكّل بسِتْر الزلّات ، المستعمل في غفر الخطيّات ، المألوف من الاغضاء عن الجرائم ، المعروف أبداً باحراز المكارم ، متجاوز عن انتماءٍ (٢١ ب) إليه اذا غفل عن خدماته ، مُسامحٌ من تعلّق به اذا أخلّ ببعض مفترضاته ، سيّما وقد علم ـ أدام الله ظِلّه ـ صِدْقَ ولائه ، وتحقّق سلامة وُدّه وصحّة وفائه ، وتقدّم له سابقُ خدمة لايزال وكيداً عقده ، ووجب له سالف حرمة لا يبرح جديداً عهدُه ، وهمى عليه سحاب افضاله وجوده ، وأطاب له في خدمته زمان وجوده ، واسترقّه إنعامهُ الجزيل فلا يقدر على اعتاقه ، وأسَرَهُ منه الجميل فلا يستطيع سبيلًا الى اطلاقه . وتلك حال المملوك الذي أوثقه طمعه في الثقة به ، وغرّه عفْوُه الى أنْ استوطأ لَيِّنَ مركبه ، فَغَفَلَ عمّا يجب له عليه ، وسَماحُها يدعوه الحقُ اللازم له اليه . فانْ اعتذر فَعَنْ ذَنْبٍ أحاطَ به جُرمه ، وإنْ أضر فَعَنْ ثِقَةٍ بما يوجبه له حِلْمُه ، فهو متردد بين اعتذاره وإصراره حيران بين حالتي اعترافه وإنكاره ، وإن كان عذره لا يقوم بجنايته وإصراره لا يؤثر أثراً في ولاية خدمته ، وإحسانُ المولى ـ حرس الله ظلَّه ـ شاملٌ ، وطَوْلُهُ كاملٌ . وعفوه ساتر ، وصفحه غافرٌ :

إن كـانَ ذنبي قـد أحـــاط بحـرمتي
فـــأحِط بجـرمي عفـوك المـأمـولا

فلكم رجــــوتُــكَ لَلتي لا يُـــرتجى
في مثلهــــا أحـــدٌ قبلكَ السّـــولا

فأدامَ الله تعالى ظِلالَه ، وبَلَغهُ آماله ، وجدّد في كلّ ساعة إقبالَه ، وختم بالباقيات الصالحات أعماله ، ووفق المملوك أن يكون أهلًا لموضع (٢٢ آ) مُسامحته ، مستحقاً لمكان مُجاورته ، جارياً على عوده من تَطَوُّلِه ، واقفاً عند ما أَلِفَهُ من تَفَضُّله ، عنه وكرمه إن شاء الله تعالى .

[١٩]

لا يعتذر ـ أدام الله تعالى أيام المجلس السامي وحرسَ إنعامه ، وبَلَّغهُ مرامه ، ووفّر له من إقباله أقسامهُ ، وأجزل لديه مواهبه ، وأمطاه كاهلَ السّعْدِ وغارِبَهُ ، وأطلع في سماء مجده غائب الجدّ وغاربه ، وحَسَّنَ اليه العفو عن المذنبين ، وحبّبَ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اليه التجاوز عن المقصرّين ، وبَغَّضَ اليه الانتقامَ من المسيء المجرم ، والانتصاف من المعتدي المتظلم ، وبلغ به من الحلم غاية تصغر عندها الذنوب ، والهمه من (   )[45] تجاوزاً تخفى معه العيوب ، حتى يأخذ الخادم من هذه الخلال الجميلة بحظّهِ الوافر ، ويضرب في هذه الخصال الجليلة بسهمه الغامز وأسبغ على مجلسه السامي ظِلّه ، وتابع له طَوْله وفضله ، وكبتَ عدوَّه وأذلّه ، بمحمدٍ وآله وعترته ـ عن انقطاع خدماته ، وإغباب مراسلاته ، بشيء غير الاعتراف بتقصيره والانصراف عن تقديم الواجب عليه[46] بل تأخيره ، وليس في ذلك ما يقوم به عذرٌ ، ويتضح معه أمرٌ ، ولكن الاعتراف يمحو الاقتراف ، والاعتذار يُذهب الإصرار . وإنّما حمَلَ الخادمَ على ذلك ثقتُهُ بمروّته ، واعتماده على كريم مودّته . والّا فقد عَلِمَ (٢٢ ب) انّه عاملُ وَدِّه بما لايليقُ به ، وظلم عهده اذا لم يُعْنَ بحفظ موجبه ، ولم يراع جانب حرمته ، ولم يُحام على ما يجب عليه من خدمته ، فهو قد نصب غرضه لسهام العتاب ، وانتظر أن يدخل عليه الملام من كلّ باب ، وإن كان كما قال :

جليـــدٌ على ريب الزمـان وصرفـه
وليس على عتْب الأخــلاء بـالجلْـدِ

فإنْ أغْضى المجلسُ السامي عن زلّته ، وتجاوز عن هفوته ، وألبَسه من عنوة بُرْداً ضافياً ، وأورده من صفحه وِرْداً تعلى عادته[47] في المسامحة ، وعلى سجيّته في المساهلة ، وإنْ عاملَهُ بما الخادم أهْلُه ، وقابله على ما أوجبه فعله ، نسب الخادمُ ذلك الى سوء حظّه ، وعَدَّهُ من عثرات جدّه ، لأنه حرم حُلْماً تزول الجبال ولايزول ، ومُنِعَ أناةً يحول صبغُ الليالي ولا تحولُ . ورأي المجلس السامي في معاملة الخادم بما يراهُ من كرمه أعلا إن شاء الله تعالى .

[٢٠]

وله :

بلغه عن فلانٍ ـ حرس الله تعالى عليه من ظله وارفه ، وضاعف له من افضاله عوارفه ، وسنى له من إقباله مضاعفه ، ووالى عليه من إنعامه مُترادفه ، وصانَ سَمْعَهُ الكريم عن سماعِ قول الخصم دون خَصْمِه ، وحمى تأييده في الإنصات بين المتظلمين بتنامي حكمه ، وأوضحَ له الحقَّ من جهة المتحرص عليه ، وأبانَ الصدق من قبل (٢٣ آ) من تنطق حُجّته من جانبيه . وأيّد طَوْله ، وأسبغَ عليه فضله ـ ،

عَتْبٌ أقلقهُ ، ولَوْمٌ أحرقَهُ ، وإنعامٌ في حَقّه أزادَ به نفعه ، ونصحٌ متقبل خرق الى قلبه وسمعه ، فشكر همّته الكريمة على اهداء نصائحه الدالة على مكارمه ، وأثنى على تفضله الموجّه اليه على لسان مُعَنِّفه ولائمه ، الّا انّه انكر لسوء حَظّه حالتين : احداهما : انه لم يُشرِّف المملوكَ باستدعائه الى خدمته ، والأخرى : عَتْبُهُ عليه قبل تحقق جريمته . والأمر الذي يوضحه المملوك عنده انّه لم يلابس محاسبه الثواب وفهم فلان اختياراً (كذا) ، ولا سعى في عملها الّا اضطراراً . ومع ذلك فكيف يظّن المولى انه يتجاوز في خدمة محيي الدين الحقّ ، ويتعدى الى ما ينافي الصدقَ ، اتباعاً لما يوجبه عليه كرم نبته[48] المشهود له بالفضل ، وشرفَ محلّه الطاهر الأصل ، ولانتمائه الى جناب جلال الدين . وإن لم يظّن بالمملوك ذلك ، ولا يحمل منه على سبيل الواضح المسالك . الله تعالى عاهده على صدق نيّته . والمطّلع في هذه الحال على صفاء سريرته ، وقد كفى المملوك بليّتَهُ بمحاسبة من سبق وإن كان المتولي لها غيره ، والحاكم عليها سواه ، وهو فيها كالواو وعمرو ، والشمعة مع تألق الفجر !! والذي اعتمده المملوك في هذه المحاسبة ، فمن رَسْم المولى أن يحضر بين يديه في جملتهم ، ويجتمع بخدمته في خدمتهم ، ويقفه على مواضع أسقطها يوجب الحساب التوقف فيها ، وَجِهاتٍ أجراها لهم يوجد (٢٣ ب) على المتصرف مثلها من مطاويها . ولا شكّ انّ المولى يعلم أن المملوك لا يشتهى التَغَرُّض بأحد ، ولا يحبّ التعرض لمخلوق ، وانّه يودّ أنّ ينقضي عمره كفافاً لا عليه ولا لَهُ ، وأن تذهب حياته ولا يشوب بشائبة غمّ ساعةً أعْمالَهُ . والمملوك يشقُّ عليه أن تنقل اليه عن مملوكهُ حالة لا يتمكن من الاحتجاج عنها ، ولا يتسلّط عن الخروج منها ، خوفاً أن يميل به الظنّ الى الإثم ، ويأخذ به سوءُ حظّ مملوكه طُرقَ اللوم على ما ليس له به علم ، وحاشا كرمهُ أن يتسرَّعَ الى لائمةٍ قبل وجوبها أنْ يعجل بِمَعْتبةٍ وإن شَهِدَ مكروهها بِنَفْعِ محبوبها ، إن شاء الله تعالى .

[٢١]

وله :

المُتشفّع ـ أدامَ اللهُ مجد المجلس اليه ، غير محتاج الى سبب يعتمد عليه ، لكونه ذا مروءة تدعو سائله الى بلوغ أمله ، وتوجب له عليه وإن لم يعمل أجْزَ عمله ، وحاملها مِمَّن له فكرةٌ في نظم القريض صادقة ، ورَوِيَّةٌ مُحَدِّثَةٌ بجودة سَبْكِهِ ناطقة .

وقد تَوسّل الى كرمه ببعض خدمه ، في الاتصال الى الجناب والمثول بين يديه لإيراد أبياتٍ وَسَمها بآسمهِ ، مستمطراً سحائب كَرَمِهْ ، مُسْتَدِرّاً أخلافَ نِعَمِهْ ، التي مازالت كالمطر مُسَوِّيَةً بين الربا والوهاد ، شاملة جميع من أمَّها من القُصّاد . وأنجح ما يكون القصدُ يوماً وقد أعْمَلَ رجاءه معتمداً على تشفيع الخادم في ما قصد له ، وانجاح طلبته من الباب الذي (٢٤ آ) أمَّلَهُ . والمجلس أولى من ردّه وقد عرّفه منزلة خادمه منه ، وصدقه فيما يورده من تطوّله عنه .

واذا أمـــرؤ اســـدى اليـك صنيعـةً
[فلقـــاؤه يكفيــك والتسليمُ][49]

والسلام .

قال كاتب الام : هذا آخر ما وجدتُ من رسائله وشعره ـ رحمه الله تعالى ـ ونقلتهُ من خطه . (٢٤ ب)

انتهى النص

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هوامش النصّ

(١) في المخطوط : في العدل

(٢) الضمير : يعود على المودة التي افتتح بها رسالته .

(٣) الناصر لدين الله العباسي : (٥٥٣ - ٦٢٢ هـ)

هو احمد بن الحسين المستضيء بأمر الله . أطول الخلفاء العباسيين مدة . أجاز له جماعة من المحدثين منهم : ابو الحسين عبد الحق اليوسفي وابو الحسن علي بن عساكر البطايحي ، وشهدة الابري . واجاز هو لجماعة منهم ابن النجار وابن الدامغاني وابن الاخضر وابن سكينة من مصنفاته كتاب (روح العارفين) . ملأ القلوب هيبةً ، فأحيا بهيبته الخلافة ، وكانت قد ماتت بموت المعتصم ، ثم ماتت بموته . وقد دانت السلاطين له ودخل في طاعته من كان من المخالفين . وفي عهده استطاع صلاح الدين الايوبي دحر الفرنج واسترداد بيت المقدس . اثنى عليه ابن دحية ، في حين ذمّه ابن الاثير ، ومدحه ابن النجار . واختلف المؤرخون في أمر سيرته . امتدت خلافته سبعة واربعين عاماً ومات سنة ٦٢٢ هـ . وولي الخلافة بعده الظاهر محمد بن الناصر لدين الله .

تنظر ترجمته في : النبراس لابن دحية ص ١٦٤ وتاريخ الخميس ٢ /٣٦٦ - ٣٦٩ . وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٤٨ - ٤٥٨ ومعجم الانساب والاسرات الحاكمة لزامباور ص ٤ والاعلام ١ /١٠٦

(٤) في المخطوط : أسلبها

(٥) في المخطوط بنكره

(٦) هكذا في الاصل ولعلها : مظاهره

(٧) في الموضع كلمة غير مفهومة .

(٨) في الاصل : يحمده

(٩) في الاصل : يحمله

(١٠) باستثناء عبارة (عن حوزتها) الباقي هو نص الآية الكريمة ٢٥ م سورة الاحزاب رقم ٣٣

(١١) (غياثٌ) خبرٌ . لعبارة (إنعامُ المجلس) الواردة في اول الرسالة ، وما بينهما جُمَلٌ دعائية طويلة .

• البصري : هو الحسن البصري .

(١٢) في الموضع كلمة غير مقروءة .

(١٣) ما بين عضادتين زيادة يستقيم بها الوزن .

(١٤) في الاصل : اجرني

(١٥) من قول المتنبي : وطاعنتُ خيلًا من فوارسها الدهرُ

(١٦) في الموضع كلمة غير مفهومة .

(١٧) عيسى بن أبي بكر محمد بن أيوب :

الملك المعظم ، عالم فقيه ، مجاهد ، نحوي لغوي ولد في القاهرة سنة ٥٧٦ هـ ونشأ بالشام . من مصنّفاته : شرحه للجامع الكبير في فقه الحنفية وهو من تاليف محمد بن الحسن الشيباني ، وكتاب السهم المصيب في الرد على الخطيب ، دافع فيه عن أبي حنيفة النعمان . وكان يقصد التاج الكندي الى داره لياخذ عنه كتاب سيبويه وشرحه للسيرافي والحجة في القراءات لابي علي والحماسة . وسمع المسند على حنبل بدمشق ، وسيرة ابن هشام علي ابن المحلّي بمصر . وكان شاعراً وقد وصف بالجود والحياء والتواضع والوفاء . وهبه العزيز بن الناصر (دمشق) سنة ٥٩٢ هـ ، واستقلّ بها عند وفاة والده سنة ٦١٥ هـ واحتاط على ما خلفه وحين تولى أمر دمشق أبطل المكوس وردّ المظالم . كسر الفرنج غير مرة . وكان قليل التكلف حليماً . وكان محسناً الى الرعية ، ويحضر مجالس الوعظ وتوفي سنة ٦٢٤ هـ تنظر ترجمته في : مرآة الزمان ٨ / ٦٤٤ ومفرج الكروب ٤ /٢٠٨ والسلوك ١ / ٢٢٤ وكنز الدرر ٧ /٢٨٧ والجواهر المضية ١ /٢ /٤٠٢ وأمراء دمشق ص ٦٢ وذيل الروضتين ص ١٥٢ وشفاء القلوب في مناقب بني ايوب ص ٢٧٦ - ص ٢٩٠ .

(١٨) لم اظفر بهما

(١٩) لم اظفر بهما

(٢٠) ابو سعيد كوكبوري بن علي بن بكتكين :

«كوكبري » لفظ تركي معناه : الذئب الازرق .

كان البطل المجاهد عماد الدين زنكي قد اقطع « اربل » الى أبيه علي بن بكتكين - وكان قائداً عسكرياً في دولة الاتابكة ونائبهم في الموصل - سنة ٥٦٣ هـ فادركته المنية في السنة نفسها . وكان ابو سعيد مظفر الدين صغيراً عند وفاة ابيه وهو واخوه يوسف في رعاية خادم ابيهما مجاهد الدين قايمانه الزينّي ، الذي اختلف مع مظفر الدين فاقصاه ونصب اخاه يوسف مكانه . ورحل مظفر الدين الى الموصل ودخل في خدمة مالكها غازي بن مودود فاقطعه مدينة (حرّان) . وفي سنة ٥٧٨ هـ اتصل بالبطل صلاح الدين الايوبي وتقدم عنده ، وتزوج فيما بعد اخته الصغرى ربيعة خاتون . وزاده صلاح الدين مدينة شميساط . وشهد مع صلاح الدين معارك ضارية اظهر فيها بطولة نادرة ولا سيّما في معركة (حطين) إذ كان قائد ميسرة جيش صلاح الدين . وحين توفي يوسف بن علي صاحب اربل آنذاك وهو أحد القادمين لنجدة صلاح الدين ، انعم صلاح الدين على مظفر الدين كوكبري باربل واعمالها ، واستنزله عن بلاده التي كان بها وهي : حران وسميساط . وقد سار سيرة حسنة واصبحت اربل في عهده منيعة وزاهية ، وكان له اهتمام بدور العلم ومواطن العبادة وماتزال مئذنة الجامع الكبير قائمة في اربل حتى يومنا هذا تشهد بمآثره . وشيدَ مدارس ورُبطا وداراً للحديث وداراً للضيافة وسوقاً للمدينة (قيسرية) . قال عنه ابن خلكان : « لم يكن شيء أحبّ اليه من الصدقة وكان بني اربع خانقاهات واحد للزمني والعميان ، وآخر للنساء الارامل ، وثالث للصغار الايتام ورابع للملاقيط . واجرى على أهل كلّ دار مايحتاجونه كلّ يوم ، وكان يتفقد البيمارستان » .

واصبحت اربل في زمنه مقصد الادباء والشعراء والعلماء . وكان يبعث كلّ سنة جماعة من امنائه ومعهم مبالغ طائلة الى السواحل الشامية لفكّ اسرى المسلمين من ايديْ الفرنج . كما كان يرسل آخرين الى مكة لتوزيع الصدقات . وهو أول من اجرى الماء الى جبل عرفات ، وله صنّف ابن دحية كتاباً في سيرة الرسول الاعظم عنوانه « التنوير في مولد البشير النذير » وكانت له بنتان فقط زوجهما في الموصل بولدي نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل . ولم يخلف ولداً ذكراً . وأوصى باربل للخليفة المستنصر بالله العباسي . وكانت وفاته سنة ٦٣٠ هـ

تنظر ترجمته في : كنز الدرر ٧ /٢٥٤ والتاريخ الباهر ص ١٣٥ ووفيات الاعيان ٤ /١١٤ و ٣ /٤٤٩ ومفرج الكروب ١ /١٥٤ و ٥ /٦١ وشذرات الذهب ٥ /١٣٨ والبرق الشامي ٥ /٢٣ والفتح القسي في الفتح القدسي ص ٤٣٨ والروضتين ٢ /١٦٤ ومرآة الزمان ٨ /٦٨ . وينظر كتاب « مظفر الدين كوكبري أمير اربل » تاليف عبد القادر احمد طليمات - مصر ١٩٦٣ .

(٢١) الآية الكريمة رقم ١٢٢ سورة البقرة رقم ٢ . وتتمتها (وإني فضلتكم على العالمين)

(٢٢) بعض الاية الكريمة رقم ١٥٢ سورة البقرة . وروايتها بتمامها : « (فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرونِ) »

(٢٣) الاية الكريمة رقم ٢٢ سورة الاحزاب رقم ٣٣

(٢٤) الايتان ٣٧ و ٣٨ سورة النور رقم ٢٤

(٢٥) مابين عضادتين زيادة يقتضيها السياق .

(٢٦) الاية رقم ٨ سورة آل عمران رقم ٣

(٢٧) وَقَمَ الرجلَ وقْماً وَوَقَّمَهُ : أذَلَّهُ وقهره . وقيل : ردّه أقبح الرد . لسان العرب مادة (وقم)

(٢٨) نشيدته : أي ضالَّتَهُ . تقول : نشدت الضالة اذا ناديت وسألت عنها

(٢٩) مابين عضادتين زيادة يقتضيها السياق .

(٣٠) الكتد : مجتمع الكتفين من الانسان والفرس ، وقيل هو الكاهل . لسان العرب مادة (كتد) :

(٣١) بعض الاية الكريمة رقم ٣٨ والآية رقم ٣٩ سورة الرعد رقم ١٣

(٣٢) ما بين عضادتين زيادة يقتضيها السياق .

(٣٣) في الاصل : سلمتهم

(٣٤) في الموضع كلمة غير مفهومة .

(٣٥) في الاصل : حجبه

(٣٦) لعلها : لم يُقِرّه

(٣٧) لعلها : دفقة

(٣٨) الأوْقُ : الثِقْلُ . ألقى عليه أوقَهُ : أي ثِقلَهُ . اللسان مادة (أوق) .

(٣٩) الاصل : لو شهد

(٤٠) الايتان الكريمتان ٢٧ و ٢٨ سورة الانفال رقم ٨

(٤١) في الاصل المخطوط بياض بمقدار كلمة .

(٤٢) في الاصل بياض بمقدار كلمتيَن .

(٤٣) في الاصل بياض بمقدار كلمة .

(٤٤) لعلها : المحصنة

(٤٥) في الاصل كلمة مطموسة

(٤٦) في الاصل : الـ

(٤٧) في الاصل : عادت

(٤٨) لعلها : منبتة

(٤٩) عجز البيت استضفناه

المصادر والمراجع

الاعلام ـ قاموس تراجم ـ خير الدين الزركلي الطبعة الثانية ـ القاهرة

أمراء دمشق في الاسلام ـ صلاح الدين الصفدي ـ حققه صلاح الدين المنجد ـ دمشق ١٩٥٥ انسان العيون في مشاهد سادس القرون ـ ابن أبي عذيبة ـ مخطوط اصله في دار صدام للمخطوطات ومنه منسوخة في خزانتي .

البداية والنهاية : ابو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير ت ٧٧٤ هـ ـ مصر ١٩٣٢

البرق الشامي : عماد الدين الاصبهاني ـ الجزء الخامس ـ حققه فالح صالح حسين ـ الاردن ١٩٨٧

بغية الوعاة : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ت ٩١١ هـ ـ حققه محمد ابو الفضل ابراهيم ـ القاهرة ١٩٦٤

تاريخ اربل : المبارك ابن المستوفي الاربلي (ت ٦٣٧ هـ) حققه سامي الصفار ـ بغداد ١٩٨٠

تاريخ الادب العربي : بروكلمان ـ نقله الى العربية رمضان عبد التواب ـ القاهرة ـ مصر ١٩٧٥

التاريخ الباهر : ابن الاثير الجزيري (ت ٦٣٠ هـ) ـ تحقيق عبد القادر احمد طليمات ـ القاهرة ١٩٦٣

تاريخ الخلفاء : السيوطي (ت ٩١١ هـ) حققه محمد محيي الدين عبد الحميد ط٣ ـ القاهرة ١٩٦٤

تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس : حسين بن محمد الديار بكري ـ مؤسسة شعبان ـ بيروت

التذكرة الفخرية : علي بن عيسى المنتشيء الاربلي ـ حققه نوري القيسي ورفيقه ـ ط٢ ـ عالم الكتب بيروت

التكملة لوفيات النقلة : زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري ت ٦٥٦ هـ ـ حققه بشار عواد معروف ـ ط ٢ ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٨١

الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية : عبد القادر بن أبي الوفاء القرشي (ت ٧٧٥ هـ) ـ الهند حيدر أباد الدكن ١٣٣٢ هـ .

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ـ المنسوب لعبد الرزاق ابن الفُوطي ت ٧٢٣هـ ـ حققه مصطفى جواد . بغداد ـ مطبعة الفرات ١٣٥١ هـ .

ذيل الروضتين المسمى (تراجم رجال القرنينَ السادس والسابع) : عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة (ت ٦٦٥ هـ) ـ القاهرة ١٩٤٧ .

السلوك لمعرفة دول الملوك ـ احمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥ هـ) ـ القاهرة ١٩٣٤

سير أعلام النبلاء : شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي ت ٧٤٨ هـ ـ الطبعة الرابعة ـ مؤسسة الرسالة (١ ـ ٢٥) جزءاً حققه محققون عدة . واشرف على تحقيق الكتاب وتخريج احاديثه شعيب الارناؤط .

شذرات الذهب : عبد الحق بن العماد الحنبلي ت ١٠٨٩ هـ ـ القاهرة ١٣٥١ هـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ألفه احمد بن ابراهيم الحنبلي ت ٨٧٦ هـ . حققه ناظم رشيد . بغداد ـ وزارة الثقافة ١٩٧٨

العسجد المسبوك : الملك الاشرف الغساني ت ٨٠٣ هـ حققه شاكر محمود عبد المنعم ـ بيروت ـ ١٩٧٥

الفتح القسي في الفتح القدسي : العماد الاصبهاني ـ حققه محمد صبيح ـ القاهرة ١٩٦٥

قلائد الجمان : ابن الشعّار الموصلي

مصورة مخطوطة المكتبة السليمانية بالاستانة ـ الجزء السادس . والجزء الثالث (المطبوع) ـ بتحقيق نوري القيسي ومحمد نايف الدليمي ـ الموصل

كتاب الروضتين في اخبار الدولتين : عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي ت ٦٦٥ هـ ـ القاهرة ١٢٨٧ هـ

كشف الظنون ـ حاجي خليفة ـ ت ١٠٦٨ هـ ـ ط٢ ـ طهران ١٩٦٧

كنز الدرر وجامع الغرر ـ عبد الله بن أيبك الدواداري ت ٧٣٦ هـ ـ حققه سعيد عبد الفتاح عاشور ـ القاهرة ١٩٧٢

لسان العرب . ابن منظور ت ٧١١هـ ـ دار صادر بيروت ١٩٦٨

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ـ عبد الله بن أسعد اليافعي ت ٧٦٨ هـ ـ حيدر آباد الدكن ١٣٣٧ هـ

مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ـ يوسف بن قز اوغلي الشهير بسبط ابن الجوزي ت ٦٥٤ هـ الجزء الثامن ـ الهند ١٩٥١

معجم الانساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي : زامباور ترجمة زكي محمد حسن وحسن احمد محمود ـ القاهرة ١٩٥١

معجم البلدان : ياقوت الحموي ت ٦٢٦ هـ ـ حققه وستنفلد ـ لايبزك .

المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي ـ القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٣٦٤ هـ

معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة . دمشق ١٩٦١ .

مفرج الكروب في أخبار بني ايوب : ابن واصل الحموي ت ٦٩٧ هـ ـ الجزء الرابع ـ حققه حسنين محمد ربيع ـ دار الكتب ـ القاهرة ١٩٧٢

النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس : عمر بن الحسن بن دحية الكلبي (ت ٦٣٣ هـ) حققه عباس العزاوي ـ بغداد ١٩٤٦

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ يوسف بن تغري بردي الاتابكي ت ٨٧٤ هـ (الجزء السادس ص ٣١٨) ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية . النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام : المبارك بن احمد بن المستوفي الاربلي ت (٦٣٧) هـ حققه خلف رشيد النعمان ـ صدرت منه سبعة أجزاء عن دار الشؤون الثقافية بين عامي ١٩٨٩ ـ ١٩٩٧ ـ بغداد

هدية العارفين باسماء المؤلفين وآثار المصنفين : اسماعيل باشا البغدادي ـ ط ٣ ـ طهران ١٣٨٧ هـ .

وفيات الاعيان ـ ابن خلكان ـ حققه احسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ١٩٧٢

□ ـــ الهوامش ـــ □

(١) وفيات الاعيان ٤ /١٤٧ والتذكرة الفخرية ٧٥ والبغية ٢ /٢٧٢ والتكملة للمنذري ٣ /٥٢٢ والعسجد المسبوك ٤٩٥ وهدية العارفين ٢ /٣ والبداية والنهاية ١٣ /١٣٩ ومخطوطة ابن الشعار (قلائد الجمان) ج ٦ / ٣٥ ـ ٣٧ وسير أعلام النبلاء ٣ /٤٩ ـ ٥٠ الاعلام ٦ /١٤٩ وتاريخ الادب العربي بروكلمان ـ الترجمة العربية ٥ /١٧٦ ـ ومعجم المؤلفين ٨ /١٧٠ ـ ١٧١

(٢) وفيات الاعيان ٤ /١٥١ والمنذري ٣ /٥٢٢ والعسجد المسبوك ٤٩٥ وسير اعلام النبلاء ٢٣ /٥٠

(٣) التكملة لوفيات النَقَلة : عبد العظيم المنذري ٣ /٥٢٢ وسير اعلام النبلاء ٢٣ /٥٠

(٤) بغية الوعاة ٢ /٢٧٢ وسير اعلام النبلاء ٢٣ /٥٠

(٥) ٣ /٥٢٢

(٦) وفيات الاعيان ٤ /١٥١

(٧) وفيات الاعيان ٤ /١٤٧ والبغية ٢ /٢٧٢ ومعجم البلدان (مادة اربل)

(٨) التذكرة الفخرية ٧٥ ـ ٧٦ (طبعة بيروت) .

(٩) العسجد المسبوك ص ٤٩٥

(١٠) التذكرة الفخرية ص ٧٦ والوفيات ٤ /١٤٩ ـ ١٥٠ و ٧ /٢٢٦ ومخطوطة قلائد الجمان لابن الشعار ـ الجزء السادس

(١١) وفيات الاعيان ٤ /١٥١ والمنذري ٣ /٥٢٢ والعسجد المسبوك ٤٩٥

(١٢) وفيات الاعيان ٤ /١٤١٠

(١٣) التذكرة الفخرية ص ٧٥

(١٤) التكملة ٣ /٥٢٢

(١٥) مخطوطة قلائد الجمان ـ الجزء السادس

---

(١) المَقاوي : جمع مُقوى ، الذي لا زاد معه

(٢) براح : من اسماء الشمس

(٣) العقوة : الساحة وماحول الدار والمحلة .

(٤) في قلائد الجمان ٣ /٣١ ـ ٣٢

(٥) قلائد الجمان ٣ /٥٣ ـ ٥٤

(٦) ينظر النص في قلائد الجمان ٣ /٥٤ ـ ٥٥

(٧) ينظر النص في قلائد الجمان ٣ /٥٥

(٨) ينظر النص في قلائد الجمان ٣ /٥٦

(٩) ينظر النص في قلائد الجمان ٣ /٥٦

(١٠) ينظر النص في قلائد الجمان ٣ /٥٩

(١١) ينظر النص في قلائد الجمان ٣ /٦١ ـ ٦٢

(١٢) ينظر النص في قلائد الجمان ٣ /١٠٤

(١٣) ينظر النص في قلائد الجمان ٣ /١٣٩

(١٤) قلائد الجمان ٣ /١٤١

(١٥) النص في قلائد الجمان ٣ /١٤١ ـ ١٤٢

(١٦) ينظر النص في قلائد الجمان ٣ /١٧٨ ـ ١٨٨

(١٧) قلائد الجمان ٣ /١٩٤ ـ ١٩٥

(١٨) قلائد الجمان ٣ /١٩٥

(١٩) قلائد الجمان ٣ /١٩٩

(٢٠) قلائد الجمان ٣ /٢٨٠

(٢١) قلائد الجمان ٣ /٢٨١

(٢٢) قلائد الجمان ٣ /٢٨٣

(٢٣) ينظر النص في قلائد الجمان ٣ /٢٨٣ ـ ٢٨٤

(٢٤) قلائد الجمان ٣ /٢٩٣

(٢٥) قلائد الجمان ٣ /٢٩٤

(٢٦) قلائد الجمان ٣ /٣٠٧

(٢٧) قلائد الجمان ٣ /٣١١ ـ ٣١٢

(٢٨) قلائد الجمان ٣ /٣٧١

(٢٩) وفيات الاعيان ١ /٣٨

---

(١) وفيات الاعيان ٤ /١٤٧

(٢) وفيات الاعيان ٤ /١٤٧ والكشف ١٧٧٦

(٣) وفيات الاعيان ٤ /١٤٧

(٤) وفيات الاعيان ٤ /١٤٧

(٥) وفيات الاعيان ٤ /١٤٧

(٦) كشف الظنون العمود ٧٦٨

(٧) النظام ١ /١٣٩

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

اخبار التراث العربي

د . ضياء محمد عباس

دار صدام للمخطوطات

ـ يعد ميثم محمد علي رسالة علمية للحصول على درجة الدكتوراه في قسم اللغة العربية / جامعة بغداد ، عنوانها « الظواهر اللغوية والنحوية في كتب الغريبين » .

ولقد وقف الباحث في هذه الدراسة على ثلاثة كتب الفت في الغريبين وصلت الينا وهي (١) كتاب الغريبين لابي عبيد الهروي (ت ٤٠١ هـ) ، (٢) كتاب المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث لابي موسى المديني (ت ٥٨١ هـ) (٣) كتاب مجمع البحرين لفخر الدين الطريحي (ت ١٠٨٥ هـ) . والكتاب الاخير لم يطبع منه الا جزء واحد تضمن (الهمزة والباء والتاء والثاء والجيم) بتحقيق د . محمود الطناحي في مصر عام ١٩٧٠ . ومن الغريب ان د . الطناحي لم يعتمد على نسخة المتحف العراقي (دار صدام حالياً) عند تحقيقه الكتاب الذي عرف به الاستاذ اسامة النقشبندي في « المخطوطات اللغوية في مكتبة المتحف العراقي » ص ١٠١ ، الذي صدر عام ١٩٦٨ .

وقد وفق الله الباحث بالنسخة المذكورة بعد الاطلاع على فهارس الدار .

ـ انهى الباحثان « قاسم محمد عباس » و« حسين محمد عجيل » « دراسة وتحقيق مجموعة رسائل ابن عربي (ت ٦٣٨ هـ) المكتوبة بخطه سنة ٦٣٥ هـ والمحفوظة نسختها في دار صدام للمخطوطات وتتضمن الرسائل التالية : (١) عين الاعيان (٢) خروج الشخوص من بروج الخصوص (٣) انخراق الجنود الى الجلود وانفلاق الشهود الى السجود (٤) بحر الشكر في نهر الفكر (٥) شرح مبدأ الطوفان (٦) المقدار في نزول الجبار (٧) نشيد البياض في روضة الرياض (٨) خاتمة نزول الجبار (٩) رسالة في الرد على اليهود (١٠) كشف سر الوعد وبيان علامة الكشف .

ـ ويعمل الباحث « رضا اتلاع » مغربي من المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، على دراسة المجموعة نفسها .

ـ انجز د . خلف رشيد نعمان تحقيق الجزء الاول من « التوضيح في شرح شعر ابي الطيب المتنبي » لابي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢ هـ) .

ويكشف الكتاب براعة المتنبي من جانب وتحليل ابي العلاء من جانب آخر ، وسيكون هذا الجهد العلمي موضع دراسات نقدية ثرة في اللغة والنحو والتصريف . وكان المحقق قد اصدر كتاب « النظام في شرح شعر المتنبي وابي تمام » لابي البركات المبارك بن احمد الاربلي المعروف بابن المستوفي (ت ٦٣٧ هـ) في بغداد عام ١٩٨٩ بجزءين .

ـ انتهى الاستاذ بهجة يوسف حمد من تحقيق « شرح تنبيه ابي اسحاق الشيرازي » للامام ابن كثير (في مجلدين) وهو بانتظار طبعه في دار البشير بعمان . وقد طبعت له دار عمان كتاب « معرفة السنن والاثار » للامام البيهقي والمسمى « بالسنن الاوسط » تمييزاً له عن نظيريه « السنن الكبير والصغير » اللذين طبعا بتحقيقه ايضاً ويقع في ثماني مجلدات .

ـ يعمل الباحث « مجيد خلف منشد » على دراسة وتحقيق « السيوف المشرقة مختصر الصواعق المحرقة » لمحمود شكري الالوسي (ت ١٣٤٢ هـ) عن النسخة الوحيدة المكتوبة بخط مؤلفها سنة ١٣٠٣ هـ والمحفوظة في الخزانة الالوسية في دار صدام للمخطوطات ، وصورت له الدار ومن مقتنيات نفس الخزانة مخطوطة « الصارم الحديد في عنق صاحب سلاسل الحديد » لابي الفوز محمد امين السويدي (ت ١٢٤٦ هـ) كتب بعض صفحات الجزء الاول منها محمود شكري الالوسي سنة ١٣٠٠ هـ .

ـ انجز الباحث « نزار عثمان كريم » تحقيق « مطالب السؤول في مناقب آل الرسول » لابي سالم كمال الدين محمد بن طلحة القرشي العدوي النصيبي ، وهي احد ثلاثة كتب مهمة ونادرة الفها علماء الشافعية في ذكر مناقب ال البيت .

ـ يعمل د . عبد السميع محمد الانيس مدرس الحديث وعلومه في جامعة صدام للعلوم الاسلامية على تحقيق « الكفاية في اصول الرواية » للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) ، علماً بان اصل الكتاب مطبوع .

ـ وانجز الباحث زين احمد النقشبندي مجموعة من الدراسات التراثية منها « الواقعات الحسامية » عن نسخة فريدة ، و« الرسالة العراقية » لعبد الله الكردي البيتوشي (ت ١٢١١ هـ) ، وهي منظومة كتبها المؤلف في الحنين الى العراق عندما كان مقيماً في الاحساء وارسلها الى عبيد الله بن صبغة الله الحيدري في بغداد والتي سبق ان نشرها محمد الخال ، وفي دار صدام نسخ منها . كما يعمل على دراسة ترجمة احد اعلام العراق المعاصرين المرحوم « عبد الكريم الدجيلي » .

ـ وشرع الباحث « قصي غريب » « سوري » على تحقيق « الاعلام بفضائل الشام » للشيخ احمد المنيني العثماني

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

المحتوى

□ من المحرر ٢

□ الافتتاحية ٣

□ ملف العدد

المقاومة العربية للتحدي السلجوقي ـ أ . د . عبد القادر سلمان ...... ٤ ـ ١٨

حصار المغول للعاصمة بغداد ـ . عبد الجبار محمود السامرائي .... ١٩ ـ ٣٦

شعر الجهاد في مواجهة حروب التتار .. د . فؤاد ابو الهيجاء .... ٣٧ ـ ٦٠

□ البحوث والدراسات

ما قيل في كلمة اشياء ـ د . هاشم طه شلاش .... ٦١ ـ ٦٩

الغزل القبلي في ابعاده الموضوعية في عصر ما قبل الاسلام ـ
د . احمد اسماعيل النعيمي .... ٧٠ ـ ٧٨

جهود ابي حيان التوحيدي في نقد النثر ـ د . فائز طه عمر .... ٧٩ ـ ٨٨

تخطيط المدن في المغرب العربي ـ د . خالص الاشعب و د . اياد عاشور الطائي .... ٨٩ ـ ١٠٢

□ النصوص المحققة

رسائل المبارك بن احمد بن المبارك بن موهوب الملقب شرف الدين بن المستوفي ـ هلال ناجي .... ١٠٣ ـ ١٢٦

□ اخبار التراث العربي

اخبار التراث العربي ـ د . ظمياء محمد عباس ١٢٧

المحتوى ١٢٨